

قصص القرآن

تأليف

محمد أبو الفضل إبراهيم

محمد أحمد جاد المولى

السيد شحانة

على محمد الجاوى

الطبعة التاسعة

فيها زيادة قصص مع الضبط والتنقيح

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

امتاز قصص القرآن الكريم بسمو غاياته ، وشريف مقاصده ، وعلو مراميه ؛ اشتمل على فصول في الأخلاق مما يهذب النفوس ، ويجهل الطباع ، وينشر الحكمة والآداب ؛ وعلى طرق في التربية والتأديب شتى ، تساق أحيانا مساق الحوار ، وطورا مسلك الحكمة والاعتبار ، وتارة مذهب التخويف والإنذار ، كما حوى كثيرا من تاريخ الرسل مع أقوامهم ، والشعوب وحكامهم ، وشرح أخبار قوم هُذُوا فمكّن الله لهم في الأرض ، وأقوام ضلوا فساءت حالهم ، وخربت ديارهم ، ووقع عليهم العذاب والنكال ؛ يضرب بسيرهم المثل ، ويدعو الناس إلى العظة والتدبر . كل هذا قصه الله في قول بين ، وأسلوب حكيم ، ولفظ رائع ، وافتنان عجيب ؛ ليبدل الناس على الخلق الكريم ، ويدعوهم إلى الإيمان الصحيح ؛ ويرشدّهم إلى العلم النافع ، بأحسن بيان ، وأقوم سبيل ؛ وليكون مثلهم الأعلى فيما يسلكون من طرق التعليم ، ونبراسهم فيما يصطنعون من وسائل الإرشاد .

ولكنه - على كريم مقاصده ، وتنوع مذاهبه ، وافتنان طرقه - وجد من أبناء هذا العصر من يهجره إلى غيره ، ويتركه إلى سواه ، مما وضعه الناس من قصص فيها الحق والباطل ، وفيها الصحيح والزائف . . . هذا على الرغم من أن القرآن الكريم يعمر المدارس والمساجد ، والمنازل والمجالس ، ولا يجد منهم من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ولعل هذا لم يصدر منهم عن سوء نية ، أو قصد الغشوف عن الاستفادة من كتاب الله العظيم ؛ ولكن قد يقع كثيرا أن يخفى عليهم في القصة معنى ، أو يغفل

عليهم لفظ ، أوعوزهم التأويل فلا يجدوا ضالتهم - فيما بين أيديهم من كتب التفسير - سهلة المنال ، ميسورة الجنى ؛ لأن بعض المفسرين جعلوا همهم بيان المذاهب النحوية ، والنسكات البلاغية في محكم الآيات ، وبعضهم غنى بالأحكام واستنباطها ، وآخرين وقفوا جهدهم على الشئون الكونية ، والمناحي الفلسفية والتدليل عليها ، إلى غير ذلك من وجوه البحث والشرح للقرآن .

نعم ، إن هناك بعضا من المفسرين نهجوا في تأويل القصة تأويلا صالحا ، وسلكوا مسلكا مقبولا ، ولكن هذا لا يخرج عن تنف متفرقة ، وآراء مبثرة ، لا تستد حاجة قارئ لا صبر له على تشعب الآراء ، ولا جلد عنده على مراجعة كتب القدماء .

ولما رأيناه من إقبال الناس على قراءة القصص . ولما شاهدنا من انصرافهم عن قصص القرآن - على ما فيه من شريف المقاصد والأغراض - وضعنا هذا الكتاب قصصا شتى في ضوء القرآن وهديه ، وعلى طريقته الحكيمة ؛ من الاقتصار على بسط موضع العبرة . إلا أن يكون موضع يحتاج إلى بيان ، أو إشارة يعوز فيها القارئ التوضيح ، وجلوناه في ثوب أدبي ، وأسلوب سائخ ، ولم نخرج فيما كتبناه عن آراء انتخلناها من كتب التفسير المشهورة ، وأخبار رويناهما عن ثقات المؤرخين .

وغرضنا من هذا أن نجيب إلى الناشئين والناشئات أسلوب الموعظة القصصية في القرآن ، وأن نحملهم على الاستفادة من هديه وقويم نهجه .

والله نسأل أن يرزقه من قبول الناس ، وانتفاعهم به ما قصدنا به ؛ وما أملنا منه إلا ابتغاء وجه الله .

المؤلفون

ذو القعدة سنة ١٣٨٥ هـ (فبراير سنة ١٩٦٥ م)

فہرست

کتاب قصص القرآن

صفحة	صفحة
يوسف عزيز مصر ١٠٣ ...	آدم ١
اللقاء ١١٢	نبا ابني آدم ٨
شعيب ١١٨	نوح ١٣
موسى ١٢٣	هود ٢٠
ولادة موسى وتربيته ١٢٣ ...	صالح ٢٥
خروج موسى من مصر ١٢٥ ...	إبراهيم ٣٢
موسى ينزل أرض مدين ١٢٦ ...	إبراهيم وآية البعث ٣٢ ...
موسى يصاهر الشيخ ثم يعود	إبراهيم يتلطف في دعوة أبيه ٣٤ ...
إلى وطنه ١٢٧	إبراهيم يحطم الأصنام ٣٦ ...
موسى الرسول ١٣٠	إبراهيم يلقى في النار ٤٣ ...
معجزات موسى ١٣٤	إبراهيم ونمرود ٤٥
عناد فرعون ١٤٠	إبراهيم يهدي قومه عن طريق
خروج بني إسرائيل من مصر ١٤٣ ...	الحوار ٤٧
مواعدة موسى ١٤٧	إبراهيم في مصر ٤٩
التيه ١٥٢	إسماعيل ٥٢
البقرة ١٥٤	نبي زمر ٥٤
موسى والخضر ١٥٦	إسماعيل الذبيح ٥٦ ...
قارون ١٦٢	إسماعيل وجرهم ٥٩
طالوت ١٦٧	بناء الكعبة ٦١
بين طالوت وداود ١٧٧ ...	لوط ٦٤
داود ١٨٢	يعقوب ٧١
فتنة داود ١٨٢	يوسف ٧٨
أصحاب السبت ١٨٧	يوسف بين إخوته وأبيه ٧٨ ...
سليمان ١٩٠	يوسف في الحب ٨٣ ...
سليمان وبلقيس ١٩٠	يوسف وامرأة العزيز ٨٦ ...
حكمة سليمان ١٩٤	يوسف السجين ٩٥
سليمان على عرش أبيه ١٩٦ ...	خروج يوسف من السجن ٩٨ ...

صفحة		صفحة	
٣٠٩	بدر	١٩٩	قضاء الله في بني اسرائيل
٣٢٥	العتب في القدام	٢٠٦	عزير
٣٢٨	أحد	٢٠٩	صراع بين الحق والباطل
٢٣٦	بنو النضير	٢١٤	أصحاب الجنة
٣٤٠	الأحزاب	٢١٨	أيوب
٣٤٧	قصة الإفك	٢٢٦	يونس
٣٥٣	المنافقون	٢٣١	زكريا ويحيى
٢٥٨	نبأ الفاسق	٢٣٦	مريم
٣٦٠	الفتح	٢٤٣	عيسى
٣٦٠	الرؤيا	٢٤٣	عيسى الوليد
٣٧١	الصلح	٢٤٩	نبوة عيسى
٣٨١	نقض العهد	٢٥٣	المائدة
٣٨٩	نهر مابين	٢٥٧	النهاية
٣٩٧	يوم حنين	٢٦٢	ذو القرنين
٣٩٧	المسلمون بين الهزيمة والنصر	٢٦٥	أصحاب الكهف
٤٠٢	الثلاثة الذين خلفوا	٢٧٣	أصحاب الأخدود
٤١٠	مسجد الضرار	٢٧٨	سبل العرم
٤١٥	المباهلة	٢٨١	أصحاب الفيل
٤١٩	المجادلة	٢٨٧	بلال
٤٢٣	التحریم	٢٩٣	الإسراء
٤٢٨	زينب بنت جحش	٢٩٧	الهجرة

المراجع

- (١) القرآن الكريم .
- (٢) التفاسير الآتية :
الطبري — الكشف — الفخر الرازي — أبو السعود
البيضاوي — الألوسي — تفسير المنار .
- (٣) سيرة ابن هشام .
- (٤) السيرة الحلبية .
- (٥) المثل الكامل .
- (٦) حياة محمد .
- (٧) نور اليقين .
- (٨) قصص الأنبياء .
- (٩) البداية والنهاية ، لابن كثير .
- (١٠) تاريخ الأمم والملوك ، لابن جرير الطبري .
- (١١) مروج الذهب للمسعودي .
- (١٢) نهاية الأرب في فنون الأدب .
- (١٣) تفصيل آيات القرآن الكريم .
- (١٤) معجم ما استعجم ، للبكري .
- (١٥) مرصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع .
- (١٦) لسان العرب ، لابن منظور .
- (١٧) الفائق للزحشرى .
- (١٨) القاموس المحيط ، للفيروز أبادي .
- (١٩) معجم البلدان ، لياقوت .
- (٢٠) السكامل لابن الأثير .

آدم (*)

خلق الله الأرضَ في يومين ، وجعل فيها رواسيَ من فوقها ، وبارك فيها ،
وقدر فيها أقواتها ^(١) في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي
دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا : أتينا طائعين .

ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، ثم
خلق ملائكته الذين يسبحون بحمده ، ويقعدون اسمه ، ويخلصون في عبادته .

ثم شاءت إرادته ، واقتضت حكمته ، أن يخلق آدم وذريته ، ليسكنوا
الأرض ويعمروها ، فأنبأ ملائكته أنه سينشئ خلقاً آخر ، يسعون في
الأرض ، ويمشون في مناكبها ، وينتشر نسلهم في أرجائها ، فيأكلون من
نبتها ، ويستخرجون الخيرات من باطنها ، ويخلف بعضهم بعضاً فيها .

والملائكةُ خالقٌ أصطفاهم الله لعبادته ، وأسبغ عليهم نعمته ، وحبّاهم بفضله ،
ووفّقهم إلى رضاه ، وهداهم إلى طاعته ، فأدّهم أن يخلق الله خلقاً غيرهم ، وخافوا
أن يكون ذلك لتقصير وقع منهم ، أو لمخالفة كانت من أحدهم ، فأسرعوا إلى
تبرئة أنفسهم ، وقالوا : كيف تخلق غيرنا ، ونحن دائبون على التسبيح بحمدك ،
وتقديس اسمك ! على أن هؤلاء الذين تستخلفهم ^(٢) في الأرض لابد أن يختلفوا
على ما فيها من منافع ، ويتجاوزوا ما بها من خيرات ، فيفسدوا فيها ، ويسفكوا

(٥) البقرة ٢٩ - ٣٨ ، الأعراف ١٠ - ٢٣ ، طه ١١٤ - ١٢٥ ، الإسراء ٦٠ - ٦٤

الحجر ٢٧ - ٤٣ ، ص ٧١ - ٨٥ ، فصلت ٩ - ١٢ ، الرعد ٢

(١) أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم . (٢) استخلفه : جعله خليفة .

الدماء غزيرة ، ويُزهقوا الأرواح طاهرة بريئة ، ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ؟ قالوا ذلك رغبة فيما يزيل شهتهم ، وينزع الوسوس من صدورهم ، وامتد رجاؤهم إلى الله أن يستخلفهم في الأرض لأنهم أسبق إلى رعاية نعمته ، وأولى بمعرفة حقه : ولم يكن سؤالهم ذلك إنكاراً لفعله ، ولا شكاً في حكمته ، ولا تنقشاً لخليفته أو ذريته ، لأنهم أولاًؤه المقربون ، وعبادُه المكرَّمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون .

أجابهم الله بما اطمأنت له قلوبهم ، وثابت به صدورهم ، فقال : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ وأعرف من حكمة استخلافه ما لا تدركون ، فسأخاقي ما أشاء ، وأستخلف من أريد ، وسترون بعد ما خفي عليكم واستتر عنكم ، ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ، فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ .

سوى الله آدم من طين من صصال من حمأ مسنون^(١) ، ثم نفخ فيه من روحه ؛ فسرَّت فيه نَسَمَةُ الحياة ، وصار بشراً سوياً .

ثم أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم ، فاستجابوا لربهم خاضعين ، وأقبلوا على آدم معظمين . وعفروا جباههم له ساجدين ، إلا إبليس فقد خالف أمر ربه ، وانحاز إلى معصيته ، وأبى واستكبر ، وكان من الكافرين .

سأل الله إبليس عن سبب امتناعه ، واستنبأه حكمة تخلفه ؛ فقال : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ ؟

فزعم أنه خير من آدم عنصراً ، وأزكى منه جوهرًا ، وظن أن لا أحد يُباريه في علو قدره ، ولا يستشرف إلى سمو مكانته ، وقال : أنا خير منه ،

(١) الحاء : الطين الأسود . المسنون : المصور .

خلقتني من نار وخلقته من طين .

جهر بالعصيان ، وصرح عن المخالفة والبهتان ، واستكبر عن أمر ربه ، واستنكف أن يسجد لمن خلقه بيده ، فصار من الكافرين .

فجازه الله على عصيانه ، وعاقبه على مخالفته ، وناداه قائلاً له : ﴿ فَأُخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ^(١) وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

سأل إبليس ربه أن يُنْظَرَهُ ^(٢) إلى يوم الدين ، وأن يمد له في الحياة حتى يوم يبعثون ، فأجاب الله سؤاله ، وقال له : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ .

ولما استجيب سؤاله ، وتحققت رغبته ، لم يشكر الله فضله ؛ بل قابل نعمته بالكفران ، وفضله بالجحود والنكران ، وقال : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، مُتَّصِداً لغوايتهم . جاهداً في إضلالهم ، ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ .

طرد الله إبليس من رحمته ، وتمد له في أمه ، وقال له : امض لسبيلك الذي اخترته ، وسر في طريق الشر الذي أردته ، ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجِلِكَ ^(٣) وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾

(١) الرجيم : الملعون ، المبعد ، المطرود . (٢) أنظره : أمهله .

(٣) استغفره : استخفه . أجلب ، من الجلبة وهي الصياح ، الخيل : الخيالة . والرجل اسم جمع للراجل . وهو كلام ورد مورد التثنية ، فقد مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أغار على قروم فصوص بهم صوتاً يستغفرون من أما كنهم ويقلقهم عن مراكمهم ، وأجلب عليهم بمجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم .

وعدّهم المواعيد الكاذبة ، ومنّهم الأمانى البعيدة ، فلن أخلى بينك وبين
 من صحت عقيدته ، وقويت عزيمته من عبادى المخلصين . وإن أجعل لك عليهم
 سلطانا . فقلوبهم عنك منصرفة . وآذانهم لقولك غير مصغية .

أما ما اعتزمته من إغواء الناس وفتنتهم ، فحسابك عليه عسير . وجزاؤك على
 اقترافه عظيم . ولأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين .

سجدوا لآدم . فاعترفوا بفضله ، وأقروا بأنه خير منهم مقاما . وأقرب منهم
 إلى الله مكانا ؛ ولعلهم قد ظنوا أنهم ربما كانوا أغزر منه علما ، وأكثر منه دراية
 وفهما ؛ لذلك آتاه الله من علمه ، وأفاض عليه من نوره ، وعلّمه أسماء الكائنات
 كلها ، ثم عرض هذه الكائنات على الملائكة ؛ فقال : ﴿ أنبئوني بأسماء هؤلاء إن
 كنتم صادقين ﴾ ، ليظهر عجزهم ، ويستبين قصور علمهم ، ويعرفوا أن حكمة الله
 قد اقتضت أن يكون آدم أولى بذلك وأجدر ، وأن خلافته أحق ألا تنسك .

بُهِتُوا لما وُجِّهوا به ، وسُقِطَ في أيديهم حينما حاولوا البحث في طوايا
 نفوسهم ، وأرادوا الرجوع إلى سابق علمهم ، فلم يجدوا إلى الجواب سبيلا ،
 فأقرّوا بعجزهم ، واعترفوا بقصور علمهم ، و ﴿ قالوا 'سبحانك' (١) لا علم لنا
 إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ .

ولما كان آدم قد اغترف من فيض ربه ؛ واقتبس من نور علمه ، أمره الله
 أن ينبّئهم بما عجزوا عن معرفته ، ويخبرهم بما قصرت مداركهم عن علمه ، بيانا
 لفضله ، وإظهارا لحكمة استخلافه ، فأخبرهم خليفة الله بما عجزوا عنه ، فناداهم
 ربهم : ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون

وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿١﴾ .

حينئذ تبينوا فضله ، وأدركوا سر خلقه ، وظهرت لهم حكمة استخلافه .
أذاق الله إبليس بأسه ، وسلبه نعمته ، وأقبل على آدم فأسكنه وزوجه جنة ،
وأوحى إليه أن اذكر نعمتي عليك ، فإنى خلقتك بيديع فطرتى ، وسويتك
بشراً على مشيئتي ، ونفخت فيك من رُوحى ، وأسجدت لك ملائكتى ،
وأفضتُ عليك قبساً من على ، وهذا إبليس قد أياسته من رحمتى ، ولعنته
حين خرج عن طاعتي ، وهاهى ذى دار الخلد جعلتها لك منزلاً ومقاماً ، فإن
أطعتَ كافأتُك بالإحسان ، وخلدتك فى الجنان ، وإن تركتَ عهدى أخرجتُك
من دارى ، وعدتُك بنارى . ثم لا تنس أن إبليس هذا عدوك ولزوجك ،
فلا يخرجكما من الجنة فتشقى .

أباح لهما أن يأكلا من الجنة رغداً حيث شاءا ، وأطلق لهما العنان فى اجتناء
ما يريدان من ثمارها ، ونهاهما أن يقربا شجرة من بين أشجارها الكثيرة .

وليزيل كل إبهام فى شأنها ، وشك فى معرفتها ، أشار إليها ، تعييناً لها ،
ولإزالة لكل ريب قد يتسرب إلى نفسيهما ، وتوعدهما بالدخول فى زمرة الظالمين
إن قَرَّبَا منها ، أو تناولا شيئاً من ثمارها ، ووعدهما أن يمُدَّ لهما فى أسباب
النعيم إن اجتنبا الشجرة التى نهاهما عنها ، فلا يمسهما فى الجنة جوعٌ ولا عُرى ،
ولا ينالهما ظمأٌ ولا نصب ، فقال : ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، فَكُلَا مِنْهَا
رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .
﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ (١) .

(١) لا تصحى : لا يؤذيك حر الشمس .

سكن آدمُ الجنة ، وصار يتمتع بما فيها من كل ما تشتهى الأنفس . وتلك
الآعين ، ولعله كان يتنقل بين أشجارها ، ويشفى في ظلالها ، ويتنطف من
أزهارها ، ويتفكه بثمارها ، ويرتوى من عذب مياهها ، وشاركته هذه الملائكة
زوجُه ، وعاشا كذلك مدة يرششان من مناهل السعادة .

حز ذلك في نفس إبليس ، وعزّ عليه أن ينعم آدم وزوجُه ، وهو مطرود
من رحمة الله ، مبعد عن جنته ؛ فصحت نيته على أن يقوِّض عرش سعادته ،
ويسلبه نعمته ، أليس هو الذى أنزله من عليائه ، وأبعده عن نعمة الله ورضائه ،
واستبان بسببه جحوده ونكرانه ؟ فليقدم على النار لنفسه ، وليحاول أن
يتنقّص ذلك الذى أمر بالسجود له والاعتراف بفضله ، فدلف إلى الجنة
وحدثه في سر وخفاء ، وأوهمه بأنه صادق الود ، مخلص في النصيح ، ثم جدّ في
استمالته إليه ، فلم يترك سبيلا لذلك إلا ولجه ، أوباباً لإطرقه ، وأظهر له ولزوجُه
عطفه عليهما ، وإشفاقه من زوال نعمتهما ، فقال : ﴿ مَا نَهَاكَ رَبُّكَ عَنْ هَذِهِ
الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ .

ولما شام منهما مجافاة لرأيه ؛ وبعداً عن مشورته ؛ ورأى أن آذانهما صممت
عن سماع صوته والإصاخة إلى نصيحته ؛ أقسم لهما أنه من الناصحين ؛ لا يقصد إلى
ضررهما ؛ ولا يريد النكاية بهما ؛ ليؤكد صحة قصده ؛ وصواب رأيه ؛ ولا شك
أنه أكثر وألح ، وتمادى في إغوائه وألحاف ؛ وحاول إغراءهما بطيب ريح تلك
الشجرة ، وبديع طعمها ، وحسن لونها ؛ فاغترأ بقوله ؛ وافتننا بزُخرف لفظه ؛
ومعسول وعده ، وتابعا رأيه ، وزلا ياغوائه .

فلما خرجا عن أمر ربهما سلبيهما نعمته ؛ وحرّمهما جنته ؛ وناداهما ربهما :

﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الْجَعَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ .

أنا يا إلى الله ، ونندما على فعلتهما : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ . قال اهبطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ : ولكم في الأرض مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين ﴾ .

تاب الله عليهما : وغفر لهما زلتهما : فألج ذلك صدرهما : وقَرَّت به عينهما : وانبتق الأمل في نفسيهما بالبقاء في الجنة : والتمتع بتعيمهما : وقد علم الله ما جال بخاطرهما : ووقف على ما تطلعت إليه نفسيهما : فأمرهما بالهبوط منها : وأنبأهما أن العداوة بينهما وبين إبليس ستظل قائمة : ليحذرا فتنته : ولا يُسَخِّيا إلى إغوائه : فقال : ﴿ آهبطا منها جميعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ : فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى . فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ .

فجعل له مآرباً في الحياة : وأملا يسعى إليه : وأخبره أنه قد انتهى طورُ النعيم الخالص والراحة التامة : وأنه بعد خروجه من الجنة وحرمانه نعيمها قد دخل في طور له فيه طريقان : هُدًى وضلال : إيمان وكفر : فلاح وخُسران : فمن اتبع هُدًى الله الذي شرعه : وسلك الصراط المستقيم الذي حدَّده : فلا خوف عليه من وسوسة الشيطان وإغوائه : ومن أَعْرَضَ عن ذكر الله ، وجاد عن سبيله ، فسيكون عيشه ضنكا : وسيكون من الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا : وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

نبأ ابني آدم (*)

بدأ نظام الحياة يستكمل حينما تهبات حواء لتستقبل أولادها ، أول زهر تفتح في رياض الإنسانية ، وأول نفحة من نفحات البشرية ، وبهم تأنس وتسعد مع زوجها آدم . وقد كانا شديدي الحب والشغف ؛ أن يريا فلذات أكبادهما على ظهر البسيطة ، فتمتلى جوانب الأرض بفسلهما ، يمشون في مناكبها ، ويأكلون من رزق الله . ولقد كان آدم حفيًا بأبنائه ، وحواء مستبشرةً بقدومهم ، رغم ما قاست من أهوال وآلام ؛ هي لزام على الأم دائماً في مثل هذه الحال ، إلا أنها لا تلبث حتى تنتشى برُحاء العطف والحنان ، فإذا هي قريرة العين ، باردة الفؤاد .

وضعت حواء توأمين : قابيل وأخته وهابيل وأخته ، وشب الإخوة في رعاية الأبوين ، حتى ملأتهم نضارة الحياة ، وقوة الشباب ؛ فنزعت^(١) البنتان إلى منازع النساء ، وانبعث الولدان يضربان في الأرض كسبا للرزق ، وابتغاء للخير ؛ فكان قابيل من زراع الأرض ، وكان أخوه من رعاة الأغنام .

لأن الأخوين مهادُ الحياة ، وسهل عيشها ، وانتشر رواق السلام والأمان على هذه الأسرة السعيدة الطاهرة . وعلى امتداد الزمن ، وتتابع فسحة الأجل ، قويت في كلا الفتيين غريزة الرجولة ، ومال كل منهما إلى أن تكون له زوجة يسكن إليها ويطمئن بصحبتهما ، وتعلقت نفسه بذلك الأمل الحلو المعسول ، وراحت تتفقده وتلمس كل سبيل حتى تصل إليه ، وإرادة الله جلت حكمته قضت منذ الأزل أن يمتحن بنو آدم على ظهر البسيطة ، فيكثر المال والبنون ، وتأخذ الأرض

(*) سورة المائدة ٣١ - ٣٥ (١) نزع : مال .

بهجتها وتزيّن ، كما جرى القدر ألا يكون الناس أمة واحدة ؛ بل لا بد من التكاثر ، والتباين في الرأي والمنزاع ، والنوع والخلقة ، والسعادة والشقاء ؛ فأوحى الله تعالى إلى أبي البشرية أن يزوّج كل قى من فتيته بتوأم^(١) أخيه .

بهذا أفضى آدم إلى أبنائه ، راجياً أن يكون قوله الفصل ؛ ولولا جموح النفس البشرية ، وانسياقها إلى مهاوى البوار والخسران لكان للأب ما تمنى .

والغريزة الإنسانية قوامها الحرص والطمع ؛ فمن كبح جماح شهوته ، وكسر حدة سطوته ، وجعل لعقله سلطاناً على هواه ، فأولئك هم الذين أكرمهم الله في الدنيا والآخرة . وأما من ترخّص لشهواته ، وانفلت من عقله زمام هواه ، فهو من الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سبيلهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

ذلك محك الطبيعة الإنسانية ، وممتحن النفس البشرية في هذه الأرض .

بعد أن أسرّ آدم بمكنون صدره إلى ابنه إثار قابيل ، ولم ينزل على إرادة أبيه ، لأن نصيبه أقلّ جمالا من نصيب أخيه ، فنفس^(٢) عليه ، ولم يرض بالقسمة ، وودّ لو تكون توأمته من نصيبه دون أخيه .

وقد كان الجمال الخلقى - وما زال - ريحاً هوجاء تتقاذف النفس البشرية ، وقد توردها موارد الخلف والهلاك .

كان الجمال سبباً للشقاق والمؤجدة والحفيظة بين الأخوين ؛ فجمع أحدهما عن طاعة أبيه ، ونقض ما كان قد أبرم ، وفصم ما كان قد أحكم .

(١) التوأم : المولود مع غيره في بطن ، ذكر أو أنثى . ويقال أيضاً : هذا توأم .

هذه ، وهذه توأمته . (٢) نفس عليه : حسده .

هبت على الأب رياح عاصفة ، مادارت يوماً في خلده ولا حسبانته ، وتوزعت نفسه بين رغبة ابنيه ، والإبقاء على السلام بينهما والأمان ، إلى أن هداه الله إلى مخرج يستدبه مهبّ الريح ، فطلب إليهما أن يقرب كلاهما قرباناً إلى الله ، فأيهما تقبّل قربانه كان أحقّ بما اشتى وأراد . فقدم هايلُ جملاً من أنعامه ، وقدم قايل قحاً من زراعته ؛ وكلّ منهما يترقرق في صدره فيض الأمل ، راجياً أن يظفرَ بقصب السبق ، وأن يحوز أعواد الرهان .

وكان هايل موفور الحظ موفق الخطوات ، فتقبّل قربانه ولم يُتقبّل قربان أخيه ؛ لأنه لم ينزل على حكم أبيه ، ولم يخلص النية في قربانه .

بعد ذلك سقط في يد قايل ؛ إذ انطفأ أمله ، وراح ضخية الأثرة والحقد ، وانبعثت شروره ، وامتدت نوازيه ، فتوعد أخاه ، وقال : لأقتلك حتى لا أصاحبك شقيّاً وأنت سعيد ، ولا أؤاخيك مبسوط الأمل وأنا مضطهدُ العاطفة ، كاسف البال . فقال هايل لأخيه - والحسرة تقطع فؤاده : كان أولى لك يا أخى ثم أولى ، أن تتعرفَ موضع الداء فتحسمه ، وأن تتحرى مسالك السلامة فتنبعث إليها ؛ لأن الله لا يتقبل إلا من المتقين .

وكان هايل رجلاً رزقه الله بسطةً في العقل والجسم ، من الذين ممّّلوا الأمانة فصانوها ؛ ووهبوا الحكمة فأجلّوها ، يؤثر رضا الله ، ويتعشق طاعة الأبوين ، ويرضى بقسمة ربه ، ويرى أن الحياة متاع زائل ، وعرض حائل ؛ وكان شديد الإشفاق على أخيه ؛ دائم النصيح له ؛ والرّعوى^(١) عليه ؛ وكان كذلك يرى في نفسه قوةً من قوة الله ؛ فما يضيره تهديدُ قايل ؛ وهو غرّ مفتون ذو أثره

(١) الرعوى : رعاية الحفظ للعهد .

وذو عصيان ! ترك المقادير تجري في أعنتها ؛ وما تعلقت مشيئته بسوء لأخيه ؛
ولا اختلجت نفسه بأذى ؛ لأن الله الذي خلق الظاهرة طبعه عليها يوم طبع ؛ فهو
يخاف الله رب العالمين .

اتجه بعد ذلك هايل بالنصح إلى أخيه ؛ عل كذاته يكون فيها الشفاء فتزع
داء الحقد من قلب أخيه . فقال : يا أخى ؛ إنك لجائر ، مائل عن طريق الصواب ،
أثم في عزمك ، بعيد عن جادة الحق في رأيك ؛ فأولى لك ثم أولى أن تستغفر الله ،
وأن ترجع عن غيك . أما إذ عقدت عزمك ؛ وكنت في تدبيرك ماضياً لا محالة ؛
فإني لأترك الأمر إلى الله ؛ مخافة أن يلحقني إثم ؛ أو يتعلق بنفسى أثر لعصيان ،
فتحمل وحدك الإثم فتكون من أصحاب النار ؛ وذلك جزاء الظالمين .

لم تكن آصرة الأخوة شفيعةً أمام ذلك الحقد المتقد في صدر قابيل ؛
ولم يكن مبعثُ الحنو والرحمة والعطف ليهدي من ثورة ذلك البركان الشائر ؛
ولم تكن مخافة الله ، ولا رعاية حقوق الأبوين رادعة لتلك النفس التي كانت أول
من أجرم على ظهر البسيطة من الناس .

في ساعة من ساعات الفلك الدائر ؛ ولنزوة حقيرة من نزوات النفس الجامحة
وقعت الواقعة ؛ فراح هايل قتيلاً بيد أخيه ؛ فريسة الحق والجهالة والغرام .

ذوى عود الأخ النصير ؛ وانطفأ مصباحه ؛ وغاب عن الأفق الذي كان
يطالع أباه فيه ؛ فاستوحش آدم ؛ وراح يتفقد ابنه هايل ؛ حله يقف له على أثر ،
أويّل أوام^(١) شوقه بنجر . فسأل قابيل عن أخيه ؛ فردّ ردّاً ملؤه الحفة
والطيش ؛ وقال : ما كنتُ عليه وكيلاً ؛ أو راعياً وحفيظاً . ولكن آدم

عرفَ بِمَدِّ أَنْ ابْتَهَ قَدْ قُتِلَ ؛ فَسَكَتَ عَلَى هَمٍّ وَتَبْرِيحٍ ؛ وَكَبَّتْ فِي نَفْسِهِ تِلْكَ الشَّعْلَةَ
الَّتِي هَاجَتْ حُزْنَاً عَلَى فَقْدِهِ وَإِشْفَاقاً عَلَى أَخِيهِ .

أَقُولُ لِلنَّفْسِ : أَسَاءَ وَتَعَزَّيْةً لِأَحَدِي يَدِي أَصَابَتْني وَلَمْ تَرُدْ

وَإِنَّمَا كَانَ هَابِيلُ أَوَّلُ مَنْ قُتِلَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ « وَمَا عَرَفَ قَابِيلُ كَيْفَ
يُؤَارِي جُثَّةَ أَخِيهِ ؛ فَحَمَلَهُ فِي جَرَابٍ عَلَى ظَهْرِهِ ؛ وَظَلَّ مُضْطَرَباً حَائِراً قَلْبُ النَّفْسِ
مُلْتَمِعَ الْفُؤَادِ ؛ كَيْفَ لَا ، وَقَدْ غَدَّتْ نَفْسُهُ مِيدَاناً تَخْتَصِمُ فِيهِ الْحَفِيزَةُ وَالْعَاطِفَةُ ؛
فَبَاتَ مَعَذِباً نَابِيَ الْمُضْجِعِ ، مُوسِّدَ الْهَمِّ وَالْحُزَنِ وَالْعَارِ !

أَرْوَحُ (١) الْمَيِّتَ ، وَنَاءَ قَابِيلَ بِحَمَلِهِ ؛ وَلَمْ يَدْرِ كَيْفَ السَّبِيلِ !

هَذَا لَا بُدَّ أَنْ تَهْبِطَ رَحْمَةُ اللَّهِ رِعَايَةً لِحَقِّ تِلْكَ الْجُثَّةِ الطَّاهِرَةِ ؛ وَسَنَأُ لِدُسْتُورِ
الْخَلِيقَةِ ؛ وَإِبْقَاءِ عَلَى كِرَامَةِ آدَمَ وَوَلَدِيهِ ؛ وَهَذَا كَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ دَرَسٌ قَاسٍ
يَتَلَقَّاهُ ذَلِكَ الْغُرُّ الْمَسْأُفُونَ ، وَمَا هُوَ بِأَهْلٍ لَوْحِي اللَّهِ ، وَلَا لِإِلْهَامِ اللَّهِ ؛ بَلْ لَا بُدَّ
أَنْ يَكُونَ تَلْمِيذاً لِلْغُرَابِ ! يَتَضَاعَلُ فَهْمُهُ أَمَامَ حُسْنِكِ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ الْأَسْوَدِ
الضَّعِيفِ ، وَتَفْنَى شَخْصِيَّتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ الدَّرْسِ الْمُؤَلِّمِ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ ذَلِيلًا ، صَغِيرَ النَّفْسِ ،
مَعَذِبَ الْفُؤَادِ .

بَعَثَ اللَّهُ غُرَّابَيْنِ فَاقْتَتَلَا ؛ فَقَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ ، ثُمَّ حَفَرَ لَهُ بِمَنْقَارِهِ ، وَوَارَى
جُثَّتَهُ تَحْتَ التُّرَابِ . هَذَا اسْتَشْعَرُ النَّدَمِ وَالْحُسْرَةِ ، فَقَالَ : ﴿ يَا وَيْلَتَا أَعْجَزْتَ أَنْ
أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَارَى سَوْأَةَ أَخِي ﴾ .

(*) نفج

ظل قومُ نوح يعبدون الأصنام دهرًا طويلا ، واتخذوها آلهة يرجون منها الخير ، ويستدفعون بها الشر ، ويردون كل شيء في الحياة إليها . ودعواها بمختلف الأسماء ، تارة ودًّا وسواع ويغوث ، وتارة يعوق ونسرا ^(١) ، على حسب ما يُملى عليهم الجهل ، ويزنُّ لهم الهوى . فأرسل الله إليهم نوحاً عليه السلام ، وكان رجلاً فتيق ^(٢) اللسان ، واضح البيان ، رزين الحصة ^(٣) ، بعيد الأناة ^(٤) ، رزقه الله صبراً على الجدل ، وقدرة على تصريف الحجج ، وبصراً بمسالك الإقناع ، دعاهم إلى الله فأعرضوا ، فأنذرهم بالعقاب فعموا وطمثوا ، ورغبهم في الثواب فوضعوا أصابعهم في آذانهم واستكبروا ، ولكنه ناضلهم وجادلهم ، ثم صابرهم وطاولهم ، فمهلهم حبل أناته ، وأفرغ عليهم معسول كلماته ؛ ولم يضعف في ملهائهم رجاءه ، ولم يدع اليأس يسلك سبيلا إلى قلبه ؛ بل أخذ يفتن في الدعوة ، ويجاهد في إبلاغ الرسالة ؛ فدعاهم ليلا ونهاراً ، وسراً وإعلانا ، ووجه نظرهم إلى سر الوجود ، وإبداع الكائنات : ليلٌ داج ، وسماء ذات أبراج ، وقر يسبح ، وشمس تسطع ، وأرض فجّر خلالها الأنهار ، وأنبت فيها الزروع والثمار ؛ كل هذا يتحدث بلسان فصيح ، وينطق ببرهان صحيح ، عن إله واحد ، وقدرة فذة عجيبة .

(٥) آل عمران ٣٣ ، النساء ١٦٣ ، الأنعام ٨٤ ، الأعراف ٥٩ - ٦٢ ، يونس ٧١ - ٨٣ ، هود ٢٥ - ٤٩ ، الأنبياء ٧٦ ، ٧٧ ، الفرقان ٣٧ ، الشعراء ١٠٥ - ١٢٢ ، العنكبوت ١٤ ، ١٥ ، الصافات ٧٥ - ٨٢ ؛ نوح ١ - ٢٨ ، القمر ٩ - ١٦ . المؤمنون ٢٣ - ٣١ ، المؤمنون ٥ ، ٦ .

(١) ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر : أسماء أصنام ، وقد انتقلت عن قوم نوح إلى العرب . (٢) فتيق اللسان : فصيح اللسان (٣) الحصة : العقل والرأى (٤) الأناة : الحلم .

وهكذا ظل يناضل ويساجل ، ويقيم الحجج ، ويبسط البراهين ، حتى آمنت به شُرْذمة ^(١) قليلون ، استجابوا لدعوته ، وصدقوا برسالاته . أما الذين طبع الله على قلوبهم فلم يؤمنوا ، وسبقت لهم الشقوة فلم يهتدوا - وكانوا من عرّانين ^(٢) القوم وذى الشرف الصاعد فيهم - فقد تماثلوا عليه ، وتظاهروا على الاستهزاء به وتسفيه رأيه .

قَالُوا : مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، وَوَاحِدٌ مِّنَّا ، وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ رَسُولًا لَبَعَثَهُ مَلَكًا ، وَلَسَكُنَّا أَصْحَابًا لِقَوْلِهِ ، وَأَجْبَنَاهُ لِدَعْوَتِهِ ؛ ثُمَّ مَا هُوَ إِلَّا رَاذِلٌ مِّنْ طَغَامٍ ^(٣) النَّاسِ وَحِثَالَتِهِمْ ، وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ الْخَسِيسَةِ وَالْحَرْفِ الدَّنِثَةِ ، الَّذِينَ انْقَادُوا إِلَيْكَ بِأَدْيِ الرَّأْيِ ^(٤) مِنْ غَيْرِ أَنْ يُمَحَّصُوا آرَاءَهُمْ ، أَوْ يُنْتَضِجُوا أَفْكَارُهُمْ ! لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَيْهِ هَؤُلَاءُ ! لَوْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُولُ لَكُنَّا - وَنَحْنُ أَوْلُو الْفِطْنَةِ وَالزَّكَاةِ ، وَأَصْحَابُ الْأُذْهَانِ الصَّافِيَةِ ، وَالْأَحْلَامِ الرَّاجِحَةِ - أَسْبَقَ إِلَى الْإِيمَانِ بِكَ . وَالْاِقْتِدَاءُ بِهَذَاكَ .

ثم لجّوا في الجدل ، وأمعنوا في المراوغة ، وقالوا : وما نرى لك يانوح وإصْغَبَكَ علينا من فضل ، لا في العقل والحِجَا ، ولا في بُعد النظر ، ولا في رعاية المصالح ، ولا معرفة المعاد وخاتمة المطاف ، بل نظنّكم كاذبين !

فأجابهم نوح - وسفاهة قولهم لم تصدّع صفاة ^(٥) حبله ، ولم تثر قطاة رأيه وعقله ^(٦) : أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنِّي كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي ، وَحِجَّةٌ شَاهِدَةٌ بِصَدَقِ دَعْوَايَ ، آتَانِي رَحْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ، فَعَمِي عَلَيْكُمْ الْقَصْدُ ، وَاشْتَبَهَ الْأَمْرُ ، وَحَاوَلْتُمْ سِتْرَ

(١) الشُرْذمة : الجماعة (٢) عرّانين : جمع عرّنين ؛ وهو السيد الشريف .

(٣) الطغام : أوغاد الناس (٤) بادی الرأي : من غير تعمق في الفكر .

(٥) لم تصدّع صفاة حبله : لم تخرجه عن حبله . وأصل الصفاة : الصخرة المساء .

(٦) لم تثر قطاة رأيه وعقله : لم تغير مألوف رأيه وعقله .

الشمس بأكفّكم . أو طمس النجوم بأيديكم ، فهل أستطيع لكم إلزاماً ، أو أملاك
لحملكم على الإيمان سلطانا !

قالوا : يا نوح ، إن أردت لنا هداية وتوفيقاً ، وأردت منا نصراً وإعزازاً ،
فاعمد إلى هؤلاء الأوزاع ^(١) الذين آمنوا بك ، فأقِصهم عن حظيرتك ، وانسِهم
عن حماك ، فإننا لا نستطيع أن نجري في عنانهم ، أو نسير على أسلوبهم ،
أو نُقَرّن في الاعتقاد بهم . وكيف نستجيب لدينٍ يستوى فيه الشريف
والمشروف . والملك والسوقة !

قال لهم : إنها دعوة عامة شاملة لكم جميعاً . يستوى فيها نبيهم وخاملهم ،
مشهوركم ومغمورك . الأغنياء منكم والفقراء ، والمرءوسون والرؤساء . وهبوني
أجبتكم إلى مطالبكم وحققت بطردهم مرغوبكم . فمن الذي اعتمد عليه في نشر
الدعوة وتأيد الرسالة ؟ وكيف أطرّد قوماً نصرّوني وقد لقيت منكم الخذلان ،
ووصلت كلماتي إلى قرارة نفوسهم . وما صادفت منكم إلا الجحود والسكران !
وهم ما برحوا قوّاما على الدين ، داعين إلى الله . ثم كيف يكون حالى معهم
بين يدي الله إذا خاصموني وحأجوني : وشكوا إلى الله أنى قابلت خيرهم
بالكنود ^(٢) ، وإحسانهم بالجحود ! ألا إنكم قوم تجهلون !

ولما اشتد بينهم وبينه الجدل ، وانفجرت مسافة الخلف ، سثموا منه ،
وضاقت صدورهم به ، وقالوا : ﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما
تعبدنا إن كنت من الصادقين ﴾ .

فهزى بهم نوح ، وقال : إنكم تسرفون في الجهل ، وتسمعنون في الحق ، ومن
أنا حتى آتيتكم بالعذاب ، أو أضدّه عشمكم ! وهل أنا إلا بشر مثلكم يوحى إليّ

(١) الأوزاع : الأخطا من الناس . (٢) الكنود : كفران النعمة .

فَأَمَّا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَأَبْلَغُكُمْ مَا أَمَرْتُ بِهِ ، وَأَبَشِّرُكُمْ بِالثَّوَابِ مَرَّةً ، وَأُنْذِرُكُمْ بِالْعَذَابِ أُخْرَى ! أَلَا إِنَّ مَرَدَّ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ هَذَاكُمْ ، وَإِنْ شَاءَ اسْتَعْجِلْ فَيَأْذَاكُمْ ، وَإِنْ شَاءَ أَمَلَى لَكُمْ لِيَزِيدَ فِي عِقَابِكُمْ ، وَيُمِيعَنَ فِي النِّكَايَةِ بِكُمْ .

وَالْأَنْبِيَاءُ - لَكِي يُؤَدُّوا رِسَالَتَهُمْ عَلَى وَجْهِهَا الْكَامِلَ - رَزَقَهُمُ اللَّهُ صَبْرًا عَلَى الْإِيذَاءِ ، وَجَلَدًا عَلَى الْخِصَامِ ؛ كَمَا وَشَّعَ فِي رُقْعَةٍ أَحْلَامَهُمْ ، وَمَادَّ^(١) لَهُمْ فِي حِبَالِ رَجَائِهِمْ ، لِكَيْلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرِّسْلِ ، وَلَا لِمَنْ كَفَرَ عَذْرًا بَعْدَ الْإِنْبِيَاءِ . وَنُوحٌ كَانَ مِنْ أَوَّلِي الْعِزْمِ مِنَ الرِّسْلِ ، مَكَثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ، صَابِرًا عَلَى أَذَاهُمْ ، صَامِدًا لَاسْتِهْزَائِهِمْ ، يَرْصُدُ فِيهِمْ بَرْقَ الْأَمَلِ ، وَيُشِيمُ مِنْهُمْ بَارِقَ الْإِيمَانِ^(٢) ، وَلَكِنْهُمْ مَا زَادَادُوا عَلَى الْآيَامِ إِلَّا عُتُوًّا ، وَمَا بَلَغَتْ دَعْوَتُهُ مِنْهُمْ إِلَّا نَفُورًا ، فَعَادَ حَبْلَ الرِّجَاءِ بِأَلْيَا ، وَوَجَّهَ الْأَمَلَ أَسْوَدَ حَالِكَا ؛ فَفَزَعَ إِلَى اللَّهِ شَاكِيًا مُلْتَجِيًا ، مُسْتَعِينًا مُسْتَهْدِيًا ، فِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَجَزَتْ حِيلَتُهُ فِيهِمْ ، وَيَكَادُ الْأَمَلُ يَنْقَطِعُ فِي إِيْمَانِهِمْ ؛ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : ﴿ إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئُسْ^(٣) بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وَلَمَّا رَأَى نُوحٌ أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَقَّقَتْ كَلِمَتَهُ ، وَقَضَى وَحْيُهُ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ أَحَدٌ بَعْدُ ، وَأَنَّهُ قَدْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَوَضَعَتْ عَلَيْهِمُ الْأَقْفَالَ ، فَلَمْ يَعُودُوا يَخْضَعُونَ لِبَرْهَانٍ ، أَوْ يُذِيعُونَ إِلَى إِيْمَانٍ ، نَفِدَ صَبْرُهُ ، وَقَالَ : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا^(٤) . إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنِي يَظْلُمُونَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ .

فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ : أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا

(١) ماد : مد . (٢) يتطلع إلى إيمانهم : والبارق في الأصل : سحاب ذو برق .

(٣) لَا تَحْزَنْ وَلَا تَسْتَعْجِلْ (٤) دياراً : أحداً .

ولا تخاطبني في الذين ظلموا إني ولهم مغر قيون ﴿ . فاتخذ مكاناً قاصياً عن
المدينة ، وأعد الألواح والمسامير ، وأخذ يعمل ، ولكنه لم ينبج من سُخرية
القوم واستهزائهم .

وقال بعضهم : إنك يا نوح كنت تزعم قبل اليوم أنك نبي ورسول ، فكيف
أصبحت اليوم نجاراً ، أزهدت في النبوة ، أم رغبت في النجارة !

وقال غيرهم : ما بال سفينتك تصنعها بعيدة عن البحار والأنهار ! أعددت
الثيران لجرها ، أم كلفت الهواء حملها ! ولكنه أعرض عن استهزائهم ؛ ومرّ كريماً
على لغوهم ؛ وقال : ﴿ إن تسخروا منّا فإننا نسخر منكم كما تسخرون .
فسوف تعلمون من يأتية عذاب يُخزّيه ويحِلُّ عليه عذاب مُقيم ﴾ .

وانصرف إلى السفينة يُقيم الواحها ؛ ويصل أجزاءها ؛ حتى استوت سفينة مَكِينَةً
ذات ألواحٍ ودُسر^(١) ؛ وانتظر نوح ما يكون من أمر الله ؛ فأوحى إليه : إذا جاء
أمرنا ، وظهرت آياتنا ، فاعمد إلى سفينتك ؛ وخذ من آمن من قومك وأهلك ؛
وأحمل معك من كل زوجين اثنين حتى يبلغ أمر الله .

وتفتّحت أبواب السماء بالماء ؛ وتفجرت عُيُون الأرض ؛ وبلغ السيل
الزُبّي^(٢) ؛ ثم جاوز القيعان والرّبي ؛ فهرع نوح إلى السفينة ؛ وحمل ما أمر الله
بحمله من الإنسان والحيوان والنبات ؛ وسارت باسم الله مجراها ومرساها ؛ مرة هي
في ريح رُخاء ؛ وآونة في زعزع تكباء ؛ والأمواج تفتّح بين طياتها للكافرين
قبوراً ؛ والزبد يُخيط لهم أكفاناً ؛ يغالبون الموت والموت يغلبهم ؛ ويصارعون
الموج ولكن الموج يصرعهم ؛ حتى طوتهم الأمواه طى السر في الفؤاد .

(١) دسر : مسامير . (٢) الزبي : جمع زبية ، وهي الراية لا يعملوها الماء .

وأشرف نوح فوق ظهر السفينة ، فرأى ابنه كنعان — وكانت شقرة الله قد غلبت عليه فاعتزل أباه ، ورغب عن دينه — يخوض اللجج : ويدافع الموج . ويحاول أن يعتصم بجبل يُنْجِيهِ ، أو ربوة تُنْقِذُهُ ، ولكن الحمام كان منه يدنو . والغرق يقترب ، فرقت له كبده ، ولانت أعطاف رحمته . وهاج موضع الإشفاق والحب فيه ؛ فناداه لعل نداءه يصل إلى مكان الإيمان من قلبه فيؤمن ، أو يلنس ناحية الشعور فيه فيذعن : إلى أين يا بني ؟ إنك تفر من قضاء الله وقدره إلى قضاء الله وقدره ، هلم إلى السفينة مؤمناً ، فليثتم شملك بأهلك ، وتنجو بيدك ، ﴿ يا بني أركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾ .

ولكن هذه الكلمات لم تصل إلى قرارة وجدانه ، ولم تتجاوز شغاف قلبه ، وحسب أنه قادر على أن يتحذر المكروه ، ويُفْلِتَ من يد القدر ، فقال : إليك عنى ، فإني ﴿ سأوى إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ .

قال نوح - وقد أشجاه الهم ، وغلبه الوجد^(١) : يا بني ، إنه ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ . ثم فصل بينهما الموج ، وحجز السيل ، ولم يعد يرى ابنه ؛ فلذة كبده وحشاشة قلبه ؛ فاعتلج صدره همًا ، واتجه إلى الله ملجأ الملهوف وغوث المكروب ، وقال : ﴿ ربَّ إِنَّ ابني من أهلي ﴾ ، وقد وعدت - ووعدك الحق - أنك تنجيني ومن آمن من أهلي ، وأنت أحكم الحاكمين .

فأوحى الله إليه : يانوح إنه ليس من أهلك ، ولا من خاصة عشيرتك ؛ فقد سبقت له الشؤاوة ، وحتت عليه كلمة الكفر ، فلا تعد من أهلك إلا من آمن بك ، وصدق برسالتك ، واستجاب لدعوتك ؛ هذا الذي تعده حقًا من أهلك ، وهو الذي وعدتك بنجاته ، وإنقاذ حياته ، ﴿ وكان حقًا علينا نعيم المؤمنين ﴾ .

أما من سجّد برسالتك ؛ وكذب بكلمات ربك ؛ فإنه خارج عن أهلك ؛ منبوذ من شفاعتك ؛ وإن كان بينك وبينه رحمٌ مائة ؛ أو نسب جامع ؛ وهو لا بدّ وارِدُ حوض المنية ؛ مشرفٌ على الغاية المحتومة ؛ وإن اعتصم بجبل ؛ أو أوى إلى ركن^(١) شديد . فأياك بعدها أن تسألني عن شيء لا تعلمه ، أو تجادلني في أمر لا تدركه : ﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ .

وحينئذ أدرك نوح أن العطف أذهله عن الحق ؛ والإشفاق ستر عنه الصواب ؛ وكان أولى به أن يبدّسط كَفِّه شُكراً لله على ما خصه وقومه المؤمنين من النجاة ، وعلى ما أوقعه على الكافرين من الغرق والهلاك . فالتجأ إلى الله مستغفراً من ذنبه ؛ مستعيذاً من سخطه ؛ وقال : ﴿ ربّ إني أعوذُ بك أن أسألك ما ليس لي به علمٌ ؛ وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾ ؛ وحال المَوْج بينه وبين أبته فكان من المغرقين .

ولما بلغ الشوْط غايته ؛ وطويت صحيفة القوم الظالمين ؛ كَفَّت السماء ؛ وابتلعت الأرضُ الماء ؛ ورسّت السفينة على جبل الجودي^(٢) ؛ وقيل : بُعِدا للقوم الظالمين !

وقيل لنوح : اهبط بسلام إلى الأرض ؛ أنت ومن آمن معك من قومك ؛ تحفّظكم البركة ، وتكلّوكم العناية ؛ عناية الله .

(١) ركن الرجل : قومه وعدده ومادته .

(٢) قيل إنه جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح .

هود (*)

أقامت عاد^(١) بالأحقاف ما بين اليمن وعمان ؛ ردحاً من الزمن في بلاهنية من العيش ؛ ورغد من الحياة ؛ جباهم الله نعماً وافرة ؛ وخيرات جليلة ؛ ففجروا العيون ، وزرعوا الأرض ، وأنشئوا البساتين ، وشادوا القصور ، ومنحجهم فوق ذلك بسطةً في أجسامهم ، وقوة في أبدانهم ، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين ؛ ولكنهم لم يفكروا في مبدأ هذا الخلق ، ولم يحاولوا التعرف إلى مصدر هذه النعم ؛ وغاية ما وصلت إليه عقولهم ، وارتاحت إليه طباعهم ، أن اتخذوا أصناماً لهم آلهة يعنون^(٢) لها بجباههم ، ويعفّرون في ثراها مخدودهم ، ويتوجهون إليها بالشكر كلما وقعوا على خير ، ويفزعون إليها بالاستنصار كلما أصابهم ضير .

ثم إنهم بعد ذلك عثوا^(٣) في الأرض ، فأذلّ القويّ منهم الضعيف ، وبطش الكبيرُ بالصغير ، فأراد الله - هدايةً للأقوياء ، وتمكيناً للضعفاء ، وتهذيباً للنفوس - أن يرسل إليهم رسولا من أنفسهم ، يتحدثهم بلغتهم ، ويخاطبهم بأسلوبهم ويرشدهم إلى خالقهم ؛ ويبين لهم سفاهة عبادتهم ، رحمة منه وكرماً .

وكان هود رجل من أوسطهم^(٤) نسباً ، وأكرمهم خلقاً ، وأرححهم حلياً ، وأرحبهم صدراً ؛ فاختره الله ليكون أمين رسالته ؛ وصاحب دعوته ، لعله يهدي

(٥) الأعراف ٦٥ - ٧٢ ، هود ٥٠ - ٦٠ ، والشعراء ١٢٣ - ١٤٠ .

(١) عاد : أبو قبيلة اشتهرت باسمه ، وموضع بلادهم اليوم رمال ليس بها أنيس .

(٢) يعنون : من عنا يعنو : إذا خضع وذل (٣) عثوا في الأرض : أفسدوا فيها .

(٤) يقال : فلان وسيط في قومه ، إذا كان أرفعهم بجداً .

هذه العقول الضالة ، ويقوم من هذه النفوس المعوجة . فصدع بالامر ، واضطلع بالرسالة ، وادرع^(١) بما يتدرع به صاحب كل دعوة : عزم 'يقلقل الأَجبال ، وحلم يهزم الجهال : وخرج عليهم 'منكرا أصنامهم ، ومسفها عبادتهم .

قال : يا قوم ، ما هذه الأحجار التي تشيخونها ثم تعبدونها وتاجثون اليها ! ما خَطَرها وما غناؤها^(٢) ، وما ضررها وما نفعها ! إنها لا تجاب لكم نفعاً ، ولا تدفع عنكم شرّاً ، إن هذا إلا ازدراء لعقولكم ، وامتهان لكرامتكم ؛ ولكن هناك إلهاً واحداً حقيقة بأن تعبدوه . ورباً جديراً بأن تتوجهوا إليه ، هو الذى خلقكم ورزقكم ، وهو الذى أحياكم وهو الذى يميتكم ، مكّن لكم فى الأرض ، وأنبث الزرع ، وبسط لكم فى الأجسام ، وبارك لكم فى الأنعام ؛ فآمنوا به ، واحذروا أن تعموا عن الحق ، أو تكابروا فى الله ، فيصيبكم ما أصاب قوم نوح ، وما عهدهم منكم يبعيد

قال ذلك هود ، وهو يرجو أن تصل كلمته إلى أعناق نفوسهم فيؤمنوا ، أو تنفذ إلى عقولهم فيفكروا ويهتدوا . ولكنه رأى وجوهاً ساهمة وعيونا حائرة ؛ أن سمعوا كلاماً لم يكونوا قبل قد سمعوه وألقى إليهم قول لم يألوه . قالوا : ما هذا الذى تهدي به وتخوض فيه ! وكيف تريدنا أن نعبد الله وحده من غير شركاء ! إننا نعبد هذه الأصنام لتقرّبنا إليه ، وتشفع لنا عنده .

قال : يا قوم : إنما الله واحد لا شريك له ، وعبادته وحده هى جوهر العبادة ومصاصها ، ومُنْخُها ولاباؤها ، وهو قريب غير بعيد ، أقرب إليكم من حبل الوريد^(٣) ، أما هذه الأصنام التى تعبدونها زُلْفى إليه وشفاعة عنده

(١) ادرع بالدرع : لبسها (٢) الغناء : النفع (٣) الوريد : عرق تحت اللسان .

فهى تبعدكم عنه من حيث ظننتم أنكم إليه تقربون ، وتدلُّ على جهلكم فى الوقت الذى تظنون أنكم تعلمون وتفهمون .

فأعرضوا وقالوا : ما أنت إلا سفيه طائش الحلم ، تسفه عبادتنا . وتب علينا ما وجدنا عليه آباءنا : ما أنت من بيننا ! وما ميزتك عن واحد منا ! أنت تأكل كما نأكل وتشرب كما نشرب ، وتجرى فى حياتك على أسلوب كالذى نجرى عليه ، فلم اختصاصك الله بالرسالة ، وآثرك بالدعوة ! مانظن إلا أنك من الكاذبين .

قال هود : يا قوم ! ليس بى سفاهةٌ عقل ، وحماقة رأى ، ولقد عشتُ فيكم دهرًا طويلا فما أنكرتم على شيئاً ، وما جزبتم على حُماق ولا طيشا ؛ وما الغريب فى أن يختص الله واحداً من قومه برسالته ويحمّله دعوته ! إنما الغريب أن يترك الناس سُدًى من غير رسول ، وفوضى لا وازع لهم ولا رادع ؛ على أنى لست ببائس من إيمانكم ، ولا ضائق الصدر بسفهاكم ، ففكروا بعقولكم ، وانفذوا إلى الحقائق ببصائرهم ترؤا أن الله واحد فى كل شيء : فى هذا النظام العجيب ، والخالق الغريب والفلك الدائر والنجم الثاقب :

وفى كل شيء له آيةٌ تدلُّ على أنه الواحدُ

فآمنوا به واستغفروه يرسل السماء عليكم مدرارا (١) ، ويمدّدكم بأموال فوق أموالكم ، ويزيدكم قوة إلى قوتكم ولا تنولوا مجرمين .

وآعلموا أنكم بعد موتكم سوف تبعثون : من عمل صالحا فانفسه ؛ ومن أساء فعليها ، فتدبروا لأنفسكم ، وخذوا الأهبة لآخرتكم ، وقد أبلغتكم ما أرسالت به إليكم ، وإنى لكم به نذير مبين .

(١) دوت السماء بالمطر : إذا كثرت مطرها .

قالوا : لاشك أن واحداً من آلهتنا قد مسك بسوء فخولطت (١) في عقلك ،
ودخل عليك في تفكيرك ؛ فأصبحت تهذى بكلمات لا حقيقة لها إلا في خلدك ،
ولا ظل لها إلا في تفكيرك ، وإلا فما الاستغفار الذي يرسل الله بعده السماء ، ويمد
بالمال ، ويزيد في القوة ! وما يومُ البعث الذي تزعم أننا نعود فيه بعد أن نصبح
عظاماً نخرة (٢) ، وجثثاً بالية ! هيهات هيهات لما تعد وتزعم ! وما هي إلا
حياتُنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر .

ثم ما العذاب تعدنا وتوقع أن نلقاه ! إنما لن نذعن لما تقول ، ولن نرجع
عن عبادة آلهتنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

فلما تبين له العناد في أحاديثهم ، والإصرار في ثنايا أقوالهم ، قال لهم :
إني أشهد الله أنني قد بلغت وما قصرت ؛ وجاهدت وما أنجمنت ؛ وسوف أظل
على هذا البلاغ وذاك الجهاد ، ولا أبالي بجمعكم ، ولا أخاف بطشكم ، فكيدوني
كيداً . أو أجمعوا بي بطشاً ، إني توكلت على الله ربي وربكم ؛ ما من دابة إلا هو
أخذ بناصيتها (٣) ؛ إن ربي على صراط مستقيم .

وظل هو يدعو والقوم مُعْرِضُونَ . وفيما هم على هذه الحال شاموا (٤) سحاباً
أسود يعترض السماء ، فاستشرف القوم إليه ، وخفوا إلى رؤيته سراعاً ، وقالوا :
هذا سحاب عارض (٥) سيُمطرنا ، ثم تمشوا لاستقباله ، وأعدوا حقولهم لنزوله .
ولكن هوذا قال لهم : ليس هذا سحاب رحمة ، وإنما هو ريح نِقمة ، هو
ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم .

(١) خواط فلان في عقله : إذا اختل عقله . (٢) النخرة من العظام : البالية .

(٣) الناصية : خصلة الشعر في مقدم الرأس ، والمراد في قبضته . (٤) شاموا

السحاب : نظروا إليه أين يطر ؟ (٥) العارض : السحاب الممطر يعترض في الأفق .

وما راعهم إلا أن رأوا رِحالهم ودوابهم التي في الصحراء ، تحملها الرياح على
أجنحتها القوية ، وتقذف بها إلى مكان بعيد ! فداخلهم الفزعُ وأدركهم الهلع ،
وهرعوا سراعاً إلى بيوتهم يُغلقونها عليهم ظناً أنهم بذلك ينجون : ولكن البلاء
كان عاماً ، والخطب شاملاً ؛ إذ حملت الرياح رمالَ الصحراء ، وظلّت سبع إيال
وثمانية أيام متتاليات ، أصبح القوم بعدها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وعفا
ظلمهم ، ودرس رسمهم ، وامحى من التاريخ أمرهم ، ﴿ وما كان ربك ليهلك
القرى بظلم وأهلها مصباحون ﴾ .

أما هود فقد آوى إليه صَحبُه ، ومن آمن به ، وظلوا بمكانهم ، تَزِم^(١) حولهم
الرياح ، وتَسْفِي الرمال ، وهم آمنون مطمئنون ، حتى هدأت الرياح ، وصفا الحال .
ثم انتقل إلى حضرموت ؛ وقضى بعدها البقية الباقية من عمره .

صالح (*)

هلكت عاد بذنوبها ، فأورث الله ثمود أرضهم وديارهم ، فخلّفوهم فيها ، وعَمَرُوها
أكثر مما عَمَرُوها ، وفجّروا العيون ، وغرسوا الحدايق والبساتين ، وشادوا
القصور ، ونجّسوا من الجبال بيوتاً ، ليأمنوا غوائل الدهر ، ونوائب الحدّثان .
وكانوا في سَعة من العيش ورغد ، ونعمة وترف ؛ ولكنهم لم يشكروا الله ، ولم
يحمّدوا له فضله ؛ بل زادوا عُشْواً في الأرض وفساداً ، وبعداً عن الحق
واستكباراً ، وعبدوا الأوثان من دون الله ، وأشركوا به ، وأعرضوا عن آياته ،
وظنّوا أنّهم في هذا النعيم خالدون ، وفي تلك السّعة متروكون .

بعث الله إليهم صالحاً من أشرفهم نسباً ، وأوسعهم حِلماً ، وأصفاهم عقلاً ؛
فدعاهم إلى عبادة الله وحضّهم على توحّيده ، فهو الذي خلقهم من تراب ،
وعمّر بهم الأرض ، واستخلفهم فيها ، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، ثمّ نهاهم
أن يعبدوا الأصنام من دونه ؛ فهي لا تملك لهم ضرّاً ولا نفعاً ، ولا تُغني عنهم
من الله شيئاً .

ذكّرهم بأواصر القُرْبى التي تربطه بهم ، ووُشّجَ النسب التي تصل بينه
وبينهم ؛ فهم قومُه وأبناء عشيرته ؛ وهو يحبُّ نفعَهم ، ويسعى في خيرهم ، لا يضمّر
لهم سوءاً ، ولا يريد بهم شراً ، وأمرهم أن يستغفروا الله ، ويتوبوا إليه عما
اقتربوا من ذنب ، واجترحوا من إثم ؛ فهو لمن دعاه قريب ، ولمن سأله مجيب ،
ولمن أناب إليه سميع .

(*) هود ٦١-٦٨ ، الأعراف ٧٣-٧٩ ، الشعراء ١٤١-١٥٩ ، النمل ٤٥-٥٣ ،

القمر ٢٣-٣١ ، الشمس ٩١-١٥٠ .

صمت منهم الآذان ، وُغُلِّفَت القلوب ، وعميت الأبصار : فأنكروا عليه نبوته ، وهزئوا بدعوته ، وزعموا له أنها نايبةٌ عن الحق ، بعيدة عن الصدق ، ثم لأموه فيها ، وأنبوه على صدورهما منه ، وهو الراجحُ عقلا ، الصائبُ رأياً ، وقالوا : يا صالح ، عهدناك ثاقبَ الفكر ، مصيبَ الرأي ، وقد كانت تلوح عليك مخايلُ الخير ، وأماراتُ الرشد ، وكنا ندخركَ لمُلهاتِ الدهر ، تضيءُ ظلماتها بنور عقلك ، وتحلُ معضلاتها بصائب رأيك ، وكنا نرجو أن تكون عُدَّتنا حين يحزب الأمر ، ويشتد الخطب ، فنطقت هجراً ، وأتيت نُكراً . ما هذا الذي تدعونا إليه ! أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا ، وقد درجنا عليه ، ونشأنا مُستمسكين به ! إننا لنرى شكَّ مما تدعونا إليه مُريب : لا نطمئن إلى قولك ، ولا نثق بصدق دعوتك ، ولن نترك ما وجدنا عليه آباءنا ونميل مع هواك وزُيغِكَ .

حذرهم مخالفتَه ، وأعلن فيهم رسالته ، وذكرهم بما أسبغ الله عليهم من نعمة ، وخوَّفهم بأسه وبطشه ، وأبان لهم أنه لا يقصد من وراء دعوته إلى نفع ، ولا يطمح في مغنم ، أو يتطلع إلى رياسة ، وهو لم يسألهم أجراً على الهداية ، ولا يطلب جزاء على النصيحة : وإنما أُجره على الله رب العالمين ، درءاً لـكل شبهة قد تُساور نفوسهم ، ودفعاً لـكل شكٍ قد يحول في خواطرهم .

آمن به بعضُ المُستضعفين من قومه ؛ أما الملأ الذين استكبروا فأصرُّوا على عنادهم ، وتمادَوْا في طغيانهم ، واستمسكوا بعبادة أوثانهم ، وقالوا له : إنك قد انحولطت في عقلك ، وضاع صوابك ، وما نظنُّ إلا أن أحداً ساط عليك شيطانه ، أو أعمل فيك سحره ، فأصبحت تهرف بما لا تعرف ، وتنطق بما لا تفقه ؛

فلستَ إلا بشراً مثلاً ؛ وما أنت بأشرفنا نسباً ، أو أفضلنا حسباً ، أو أوسعنا
غنى وجاهاً ، وفينا مَنْ هو أحقُّ منك بالنبوة ؛ وأجدر بالرسالة ، فما حملك على
انتهاج هذه الطريق ، وسلوك تلك السبيل ، إلا رغبةُك في تعظيم نفسك ، وتطلُّعُك
إلى الرياسة على قومك !

حاولوا صده عن دينه ، وصرفه عن دعوته ، وزعموا له أنهم إن اتبعوه
حادوا عن الصراط المستقيم ، وخالفوا الطريق القويم ؛ فأعرض عن بهتانهم .
ولم يستمعْ إلى غوايتهم ، وقال : يا قوم ، إن كنتُ على بَيِّنَةٍ من ربِّي ، وآتاني
منه رحمة ، ثم اتَّبعتُ طريقكم ، وسرتُ في سبيلكم ، وعصيتُ ربِّي ، فمن يمنعني من
عذابه ، أو يعصمني من عقابه ! إن أنتم إلا مفترون .

فلما وجدوا منه استمساكاً برأيه ، واعتصاماً بحقه ، خاف المستكبرون من
قومه أن يكثُرَ تابعوه ، ويعظم ناصروه ، وعزَّ عليهم أن يكون المرشد للقوم ،
والموئلَ عند اشتداد الخطب ، والكوكب المنير إذا ادلهم الأمر . فينصرف الناسُ
عنهم ، ويفزعون إليه في كل شأن ، ويحارقون بابه كلما حزبهم أمر ^(١) . ولا شك
أنه سيهديهم إلى ما يقربهم إلى الله . ويصدهم عما يُنْهِيهم عنه ، يخافوا زوال دولتهم
وذهاب سلطانهم ، وأرادوا أن يظهروا للناس عجزه ، فطلبوا منه أن يأتيهم بآيةٍ
يتبَيَّنون بها صدق دعوته ، ومعجزة ظاهرة تصدِّق رسالته . فقال لهم : هذه ناقة
لها شَرْبٌ ^(٢) ولكم شَرْبٌ يوم معلوم ، فذروها تأكل في أرض الله .

لم ير الناس قبلاً ناقة تستأثر يوماً بمائهم . ولم يعهدوا غيرها يكفُّ يوماً
عن شربهم ؛ ولا شك أن صالحاً قد عهد فيهم إصراراً على الكفر ،

(١) حزبه الأمر : أهمه . (٢) الشرب : الماء ، والنصيب منه .

واستمسكا بالباطل ؛ وعلم أن المنكر 'يفزعه ظهور حجة خصمه ، ويخيفه وضوح برهانه ؛ بل يحرك كامن غيظه ومستور حقه قيام شاهده ، وقوة آيته ؛ لذلك خاف إقدامهم على قتلها ، وحذرهم الفتك بها ، فقال لهم : لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب .

مكثت الناقة بينهم زمناً تأكل في أرض الله . ترد الماء يوماً ، وتصد عنه يوماً ؛ ولا شك أن قيامها قد استمال إليه كثيراً من قومه ، إذ استبانوا بها صدق رسالته ، وأيقنوا بصحة نبوته ، فأفزع ذلك المستكبرين من قومه ، وخافوا على دولتهم أن تبيد ، وعلى سلطانهم أن يزول ، فقالوا للمستضعفين من قومهم - وهم الذين أشرق نور الإيمان في قلوبهم ، فعمرت به صدورهم ، وانصاعت إليه أفئدتهم : أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ! فقالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون . فلم تلب قناة القوم ، أو يخففوا من غلاوتهم ، بل أعلنوا كفرهم ، وصارحوهم بالكذب ، وقالوا : إنا بالذي آمنتم به كافرون .

لعل هذه الناقة كانت ضخمة الجسم ، متميزة الشكل . فأرعبت أنعامهم ؛ وأخافت إبلهم ؛ فكرهوا لذلك مقامها بينهم ؛ وقد تكون حالت بينهم وبين الماء حين اشتداد الحاجة إليه ؛ إذ كان لها شرب ولهم شرب يوم معلوم .

وقد تكون نوازي^(١) الشر قد دفعتهم إلى إخفاء آيته ، وطمس معالم حجته ؛ لأنهم رأوها تجذب القلوب نحوه ، وتستميل النفوس إليه . فخافوا أن يكثر المؤمنون به ، وينتشر أنصاره وتابعوه .

قد يكون هذا أو ذاك ، أو كل أولئك قد حملهم على عقورها ، ودفعهم إلى قتلها ، رغماً من تحذيرهم بالعذاب وتوعدهم بالهلاك إن مسوها بسوء .

(١) النازية : حدة الرجل وسورته إلى الشر .

ما أظن إلا أن القوم حسبوا هذه الناقة خطراً جسيماً : وشراً مستطيئاً ،
ففكروا طويلاً ، وأمعنوا كثيراً ، ولا إخالهم إلا هابوا قتلها ، وأشفقوا على
أنفسهم من إهلاكها . وكلموا همّوا بها قتلوا راجعين . وأدبروا خائبين .

وبقى القوم يندفونهم الشر ، وتمنعهم الرهبة ، لا يجروا أحدهم على إيذاها . ولا
يتقدم واحد إلى ميتها . فاستعانوا ^(١) بالنساء يبدلن ما يملكن من دَلٍّ ، ويغرين
بما فيهن من جمال : والمرأة إذا أمرت كان الرجال طوعاً أمراً ، وإذا تمسّنت
تسابقوا إلى تحقيق أمنيته ، فهاهى ذى صدوق بنت المحيا : ذات الحسب والمال ،
تعرض نفسها على مصدع بن مخرج : إن هو عقر الناقة : آية صالح البيئنة ، وحبّته
البالغة : وتلك هى عنيزة العجوز الكافرة تجذب قنّار بن سالف إليها ، وتعرض
عليه إحدى بناتها ، ولا تطلب إليه بدلاً ، ولا تسأله عطية أو مالا ، إلا عقر الناقة
التي تستميل القلوب ، وتشعل جذوة الإيمان ، وهى مع ذلك تقض مضجعهم ؛
وتستأثر بشربهم ؛ وتنفر منها أنعامهم .

فصادف هذا الإغواء هوى فى نفسهما ، ورغبة فى فؤادهما ، وزادهما بأساً
وقوة ، وأفاض عليهما إقداماً وجراً : فسعيا بين القوم يلتمسان من يؤازرهما ،
ويبحثان عن يعاضدتهما ؛ فاستجاب لهما سبعة آخرون ، وانطلقوا إلى الناقة
يرصدونها ، وخرجوا يرقبونها : فلما صدرت من وريدها ، ورجعت عن مائها ،
كمن لها مصدع ، فرماها بسهم انتظم عظم ساقها ، وابتدرها قنّار بن سالف
بالسيف ، فكشف عن عرقوبها ، فخرت على الأرض ، ثم طعنوا فى لبثها فنحروها !
وأزاحا عن كاهلها كهما ثقيلاً ، وحملّا عظيمًا ، ورجعا إلى القوم يزفّان

(١) راجع الالوسى فى روح المعاني ، وقصص الأنبياء للشيخ النجار ص ٢٨٣

إليهم البشرى ، واستقبلهما الناس كما يُستقبل القائد الظافر ، أو الملك الفاتح ، وهلكوا لمقدمهما ، ونسجوا لهما أكاليل المدح ، وأضفوا عليهما جميل الشاء .

عقروا الناقة ، وعتوا ^(١) عن أمر ربّهم ، وكشفوا عن ذات أنفسهم ، واستخفّوا بوعيده ، وقالوا : يا صالح ، اتينا بما تعدّنا إن كنت من المرسلين .

فقال لهم صالح : قد حذّرُكم إن أصبتموها بأذى ، أو مسستموها بسوء ؛ ولكنكم قد اجترحتُم الذنب ، واقترفتُم الإثم ، فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام يأتكم بعدها العذاب ، ويحلّ عليكم في نهايتها العقاب ؛ ذلك وعدٌ غيرُ مكذوب .

ولعله قد ضرب لهم ذلك الميعاد ، ترغيباً لهم في الإنابة إلى الله ، وحثّاً لهم على الإصاخة إلى دعوته ، ولكنّ الشكوك مازالت متأصلةً في نفوسهم ، والأوهام متسلطة على أفئدتهم ؛ فلم تُغنهم النذر ، ولم يشوبوا إلى رشدهم ؛ بل ظنوا وعيده كذبا وميئنا ، وتحذيره زورا وبهتانا ؛ فتمادوا في استخفافهم ، وسألوه أن يعجل بعذابهم ، ويأتيهم بما وعدهم ، فقال : يا قوم ، لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون !

ولكنهم تتمادوا في الضلال ، واستسلموا لنوازي الشر ، فقالوا : اطيرنا ^(٢) بك وبمن معك ؛ واجتمع نفر من قومه ، وتقاسموا على أن يتسللوا إليه في جُنح الظلام ، ويباغتوه وأهله والناس نيام ، فيوقعوا بهم من غير أن يراهم أحد ؛ فأجمعوا أمرهم بينهم على أن يكون ذلك سراً مكتوماً ، لا يذيعونه ولا يتناقلونه .

بيّتوا له الشر ، وأضرموا له ولأهله القتل ، ظننا منهم أن ذلك يعصمهم من

(١) عتا : استكبر ، وجاوز الحد . (٢) تطير من الشيء وبالشئ : تشاءم به .

العذاب ، ويُنجيهم مما سيحلُّ بهم من عقاب ، ولكن الله لم يُمهِّلهم ، بل أحبط مكرهم ، وردَّ إليهم كيدهم ، ونجَّاهم مما أرادوا به ، وأنقذه والذين آمنوا معه من العذاب ، وأنزل بالكافرين عقابه ، تصديقاً لوعده ، ومظاهرة لنبيه ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين .

ولم يَمْنَعْهم ما شادوا من قصور شاهقة ، وما جمعوا من أموال وافرة ، وغرسوا من جنَّات واسعة ، ونحتوا من بيوت آمنة .

ورأى صالح ما حلَّ بهم ؛ إذ أصبحت جِثَّتُهُمْ هامدة ، وديارهم خاوية ؛ فتولى عنهم والآسى يملأ نفسه ، والحسرة تتمتع زباط قلبه ، ﴿ وقال : يا قوم ، ائلقوا ببلغيكم رسالة ربِّي وأنصَحْتُ لَكُمْ وَالْكِينُ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

إبراهيم

إبراهيم وآية البعث (*)

كان أهلُ بابلَ يُشعَمون برغد العيش ويتفيسئون ظلال النعمة . ولكنهم كانوا يُخبطون في دياجير الظلام ، ويتردّون في مهاوى الضلالة ؛ فقد نحتوا الأصنام بأيديهم ، وصنعوها على أعينهم ، ثم جعلوها أرباباً . ونصبوها آلهة ، وعكفوا على عبادتها من دون الله الذي خلّقهم ، وأسبغ عليهم نعمته ظاهرة وباطنة .

وكان نمرود بن كنعان بن كوش قابضاً على زمام الملك في بابل ، وحاكماً بأمره . مستبداً برأيه ، ولما رأى ما يتقلب فيه من نعم ، وما يتمتع به من سطوة الملك ، وما يحيط به من قوة السلطان ؛ ثم ما أطبق على القوم من جهل ، وما ران على قلوبهم من حكمه ، أقام نفسه إلهاً ؛ ودعا الناس إلى عبادته ؛ ولما إذا لا يلزمهم الخضوع له ؛ ويطلب منهم عبادته وتعظيمه ، وقد وجد الجهل فاشياً ، والعقائد فاسدة ، والقوم في ضلال مبين ! ألم يعبدوا الحجارة الصماء ، والتماثيل الجوفاء ، وهى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تملك لهم نفعاً ولا ضراً ! أما هو فينطق ويفكر ، ويدرك ويشعر ، ويُفيضُ عليهم الخير ، ويدفع عنهم الشر ، ويستطيع أن يصير فقيرهم غنياً ، ويجعل عزيزهم ذليلاً ؛ وهو ذو قوة فيهم ، وصاحبُ سلطان عليهم .

في وسط هذه البيئة الفاسدة ، وفي بلدة فدام آرام من هذه المملكة ولد إبراهيم لأبيه آزر ، ثم آتاه الله الرشد ، وهداه إلى الحق ؛ فعرف بصائب رأيه ، وثاقب فكره ، ووحى ربه أن الله واحد ، وأنه المهيمن على الكون ، المسيطرُ

على العالم : وأدرك أن هذه الأصنام التي يعبدونها ، وتلك التماثيل التي ينحتونها ، لا تُغنى عنهم من الله شيئاً ، لذلك أزمع الدعوة إلى توحيد الله ، وعزم على تخلص قومه من وهدة الشرك ؛ وحمأة الرذيلة ، وأعد الأداة ليثنيهم عن ضلالهم ، واتخذ الأهبة لردهم عن غيبيهم .

وقد كان إبراهيمُ مفعماً القلب بالإيمان بربه ، ممتلئاً بالثقة واليقين بقدرته خالقه ، مؤمناً بما أوحى إليه ، من بعث الناس بعد موتهم ، وحسابهم في حياة أخرى على أعمالهم ؛ ولكنه أراد أن يزداد بصيرة وإيماناً ؛ وثقة و يقيناً ، وتطلع إلى أن يلبس الآية البينة على البعث ، ويرى الحجّة الواضحة على النشور ؛ فسأل ربه أن يُريّه كيف يحيي الموتى بعد موتهم ، ويبعثهم بعد فناء أجسامهم ؟ فقال الله له : « أولم تؤمن ! قال : بلى ، قد أوحيت إلىّ ، وآمنتُ وصدقْتُ ، ولكنني تأقت نفسي للعِيان (١) ، وامتدت عيني إلى المشاهدة ؛ ليطمئن قلبي ، ويزداد يقيني .

ولما كان إبراهيمُ يقصدُ إلى أن تلمئن نفسه ، ويستقر فؤاده ، أجاب الله سُؤله ، وأمره أن يأخذ أربعة من الطير ، ويضعها إليه ، ليتعرف أجزاءها ، ويتأمل خلقها ، ثم يجعلها أجزاء ، ويفرقها أشلاء ، ويجعل على كل جبارٍ منهنّ مجزءاً ، ثم يدعوهم إليه ، فيأتينّه سعيّاً بإذن الله .

فلما فعل صار كلُّ جزء ينضمُّ إلى مثله ، وعادت الأشلاء كل في مكانه ، وسرعان ما سرّت فيها الحياة ، ورجعت إليها الرُّوح ، وسعت إليه بقدرته الله ، وسارت إليه بإرادته ، وهو يرى آياته البينة ، وقدرته الباهرة التي لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض .

(١) عاين الشيء عياناً : رآه بعيينه .

هذه الطيور قد أزهق رُوحها ، ومزق أجسادها بيده ، ثم تناثرت أشلاؤها ،
وتفرقت أعضاؤها على عينه ، ولما دعاها أقبلت عليه ، واجتمعت إليه ، ثم
تماسكت أجزاؤها ، واتصل ما تفرق منها ، وعادت إليها الحياة ! وما من أحديرى
ذلك ثم يُساوره شك ، أو يتخالجه ريب في مُقدرة الله على بعث الموتى من
مراقدهم ، وتُخرجهم من قبورهم ؛ سبحانه ! إذا أراد شيئاً فلا مرد له ، وهو
العزير الحكيم .

إبراهيم يتألف في دعوة أبيه (*)

كان آزرُ يعبد الأصنام ، بل كان ممن ينحتها ويديعها ، وهو أقربُ الناس إليه
وألصقُهم به ، وأولاهم بالهداية ، وأجدرُهم بإخلاص النصيحة ؛ فمن البر به أن
يهديه سواء السبيل ، ثم هو أيضاً من المستوين خلقها والناحتين لها ، والداعين إلى
عبادتها ؛ إنه لذلك داعيةٌ إثم ، ومبعثُ فتنة ، فهدايته مُقربى إلى الله ، واستئصالُ
لبذور الشر ، واجتثاثُ لجذور الضلال .

لم يبدأ الدعوة مع أبيه بتسفيه معبوداته ، أو تحقير آلهته ، لئلا ينفر منه ، أو
يُصمَّ آذانه عنه ، أو يرميه بالعقوق والجحود ؛ بل رتب الكلام معه على أحسن
اتساق ، وخاطبه بالقول اللين ، والأدب الجميل ، وابتدأ حديثه معه بذكر نبوته ،
ليستثير عطفه ويمسَّ شغاف قلبه ؛ ثم سأل عما يدعوه إلى ركونه إلى الأصنام ،
ومُكوفه على عبادتها ، مع أنها لا تسمع دعاءه وثنائه ، ولا تبصر خضوعه
وخشوعه ، ولا تُستدفعُ في بلاء فدفعه ، أو تُستمنح شيئاً فتمنحه .

وخاف أن ينصرف عنه استصغاراً لشأنه ، وامتهاناً لرأيه ، فقال : يا أبت ،

(٥) الزخرف ٢٦ - ٢٨ ، الأنعام ٧٤ ، التوبة ١١٤ ، مريم ٤١ - ٤٨ ، الأنبياء ٢٥ .

إنه قد جاءني من العلم ما ليس لك ، وأوتيتُ حظاً من المعرفة لم تُؤْتَهُ ، فلا تستنكف أن تتابعني ، ولا تتخلف عن مسيرتي ؛ وإن كنتُ لا أبلغُ شأوك ، أو أشاركُ سننك ؛ ثم توسل إليه أن يتبع خطواته ، ويسيرَ على هديّه ، فذلك هو الصراط المستقيم ، والطريق القويم .

ثم أراد أن يُزهدّه في أوثانهِ ، وَيُنْأى به عن عبادة أصنامهِ ، فأبان له أنه بالعكوف عليها ، والانقياد لها يعبدُ الشيطان ، ويلتجئُ إلى ساحته ، وهو الذي عصى الرحمن ، وتوعد الناس بالإغواء ؛ فهو عدوٌّ لا يُرشد إلى خير ، ولا يبغى إلا الهلاك والشر ؛ ثم خوفه سوء العاقبة وشرّ المصير ، ولكنه لم يصرح بأن العذاب لاحق له ؛ والعقاب مُحِيق به ، برّاً به ، وتأديباً معه ، واستعطافاً له .

فلما عرض هذا الرشدَ عليه ، وأهدى هذه النصيحة إليه ، أبى آزرُ متابعة رأيهِ ، وأصرَّ على عناده وكفرهِ ، وأقبل عليه بفظاظة الكفر ، وغلظة العناد ، وتجاهلَ بُسُوته ، وأنكرَ حدّ به عليه وشفقته به ؛ وتجاهلَ له ، وقال - محترقاً لشأنهِ ، مُتَعَجِّباً من جرأته ، منكراً عليه نصيحته : أراغبُ أنت عن آلهتي يا إبراهيم ! إن لم تننّه عن زيغك ، وترجع عن غيِّك ، وتثبُّ إلى رشدك لأرجمنك بالحجارة ، ولأرمينك بهُجر القول ؛ فاحذر سورة غضبي ، وتجنّب إثارة سُخْطِي ، واهجرني مليّاً ، فليس لك في داري مكان ، ولن تجدني في أثارة من عطف ، أو بقية من إحسان .

قابل إبراهيم تهديد آزر بصدرٍ رحب ، وتلقّى وعيدَه بنفس مطمئنة ، ثم لجأ به بما يُنبئ عن برّه به ، وإخلاصه النصيح له ، وقال : ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾^(١) وأعترأ لكم وما تدعون من دون الله وأدعوربي

عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا .

وودّعه وانصرف ، وهو كاسف البال ، محزون الفؤاد ؛ لأن دعوته لم تجد
آذانا مُصغيةً عند أبيه ، واعتزله لئلا يكون مُظاهراً له على الكفر ، ومشايحاً
في الشرك .

إبراهيم يحطم الأصنام (*)

خاب رجاء إبراهيم حين أنكر عليه أبوه دعوته ، وحزّ في نفسه أن يدعوه
إلى الخير فلا يستجيب دعاءه ، وأن يهديه إلى الخير فيبرأ منه وينأى عنه ؛ ولكن
هذه الغلظة التي بدت من أبيه ، وذلك الجفاء الذي ظهر منه لم يقعيده عن متابعة
دعوته إلى الحق ، ولم يثنيه عن التّكبير على قومه إشراكهم بالله ، وعبادتهم الأصنام
من دونه ، بل أزمع أن يحوّل هذه العقائد الفاسدة ، واو ناله في ذلك أذى كثير ،
ولحقه شر مستطير .

كان إبراهيم ذكيّ الفؤاد ، صائب الرأى ، ثاقب الفكر ؛ فرأى أن الحجّة
القولية ، والبرهان اللفظي ، وإن وضحا وضوح الصبح ؛ لا ينبتان نباتاً حسناً في
هذه الأرض الجرّز (١) ، فأراد أن يشرك أبصار القوم مع بصائرهم ؛ وحواسهم مع
أفئدتهم في تفهّم عقيدته ، والوقوف على حقيقة دعوته ؛ علّهم يشوبون إلى
رشدهم ، ويرجعون عن غيئهم .

انظر إليه يستدرّجهم إلى مُجادلته ، ويسوّغ لهم إلى مجال محاورته ، فيسألهم :
ماذا تعبدون ؟

(*) الأنبياء ٥٢ - ٦٨ ، الشعراء ٦٩ - ١٠٢ ، والعنكبوت ١٦ و ١٧ و ٣٤

(١) الجرّز : الأرض التي لا تنبت .

أفاضوا الحديث في شأن أصنامهم ، وأطنبوا في جوابهم ، معتزّين بعبادتها ، معتدين بالخضوع لها ، وقالوا : نعبُد أصناماً فنَقَلُّ لها عاكفين .

قد كان إبراهيم مُلهمًا في سؤاله ، موثقًا في استفساره ؛ فهو كالطبيب حاول أن يتحسس الداء ، ليصف الدواء ، أو كالقاضي أراد أن يحملهم على الإقرار بارتكاب الجرم ، والاعتراف باقتراف الذنب ، وهو في ذلك يُضَيِّق دائرة الجدل ، ويجمع أشتات الخلاف في مسألة واحدة ؛ فإذا أُوْهن أساسها ، وقوض أركانها ، وأوضح بطلانها فقد ألزمهم الحجة ، وحينئذ لا يجدون مَحِيصاً من اتّباعه ، ولا مَنَاصاً من طاعته .

كثر عليهم يَنْقُذ زائف آرائهم ، ويبين فاسدَ اعتقادهم ، فقال : هل يسمعونكم إذ تتوجهون إليهم بالعبادة ، ويُبصرونكم حين تقدّمون لهم الطاعة ؟ وهل ينفعونكم أو يضرون !

ما أقبح التقليد ، وما أعظم كَيْدُ الشيطان الذي استدّ رَجْهم إلى أن حاكوا آباءهم في الكفر ، وجارَوْهم في الشرك ، وزيّن لهم عبادة التماثيل ، فغفّروا لها جباةهم ! وما أشدّ جهلهم حين اعتقدوا أنهم على حق ! بل جدّوا في نصرة مذهبهم ، وجادلوا أهلَ الحقّ عن باطلهم ، وما أوْهَى ما نطقوا به ! وما أضعف ما أجابوا به ! فقد قالوا : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ .

أقرُّوا أنها لا تسمعُ داعياً ، ولا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ، واعترفوا بأنهم ما عبدوها إلا اقتداءً بأسلافهم واتباعاً لآبائهم ؛ فجعلوا ما دَرَج عليه قومهم ، وما اهتدى إليه قدمائهم دليلاً على استمساكهم بالحق ، ورأوا قدّمها برهاناً على استحقاقها للإجلال والتعظيم ؛ فكانوا بذلك عن النظر الصحيح نائمين ، وعن التفكير السليم بعيدين .

قال إبراهيم : ﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ، قالوا : أَتَنْتَقِصُ آلِهَتَنَا ، وَتَسُبُّ أَصْنَامَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ !

قال إبراهيم : إني أقولُ لكم ذلك جاذباً لاهزلاً ، فقد جئتُكم بالدين القويم ، وأرسلت إليكم بالهدى والحق المبين : فإن ربكم الخالق بالعبادة هو فاطرُ السموات والأرض ، ومدبرُ شؤونهما ، والقائم على أمورهما . أمّا هذه الأصنام فلا تملكُ لنفسها نفعا ولا ضرا ؛ وهي حجارة صماء ، وخشبٌ مُسْنَدَةٌ (١) . فعليكم أن تجتنبوا عبادتها ، وتأنأوا بأنفسكم عن الخضوع لها ، واحذروا فتنةَ الشيطان وإغوائه ، وفكروا بعقولكم ، وانظروا بأبصاركم ، لعلمكم تهتدون .

على أنى قد سبقتكم إلى البعد عن عبادتها ، وبأدرتُ قبلكم إلى النأي عنها ، فلو كانت تضرُّ لضرَّتني ، أو تملك شيئاً لَنالت مِنِّي .

ثم أظهر لهم بديعُ صنْعِ الله ، وباهر قدرته ، ليتبينوا أثرَ حكمته ، ويلبسوا الفرق الواضح والبون الشاسع بين ما يدعونهم إليه ، وما يعبدون من أصنام لا تغني عنهم شيئاً ، فقال :

ألا تنظرون إلى ما تعبدون من دون الله أتم وآباؤكم الأقدمون ! ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطَاعُ مِنِّي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ .

ولما لم تنفعهم الحججة ، ولم تغنهم النذر ، وصددوا عن سبيله ، وأعرضوا

(١) كل شيء أسندت إليه شيئاً فهو مسند .

عن دعوته ، ورأى إبراهيم أن آذانهم صماء ، وقلوبهم 'غُلْف' (١) ، وأنهم لا زالوا متعلقين بأوهامهم ، متمسكين بعبادة أصنامهم بسيت الشر لها ، وأقسم ليكيدنها حتى يروا أنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تدفع الأذى عن نفسها ، فتدراؤه عنهم ، ولا تلحق بهم ضرراً إذا تركوا عبادتها ، أو تُكسبهم خيراً إذا عكفوا عليها ، وأخلصوا لها .

وقد كان من عادة أولئك القوم أن يُقيموا عيداً لهم في كل عام ، يقضون أيامه خارج المدينة ، يُهرعون إليه ، بعد أن يَضَعُوا طعاماً كثيراً في بيت العبادة ، حتى إذا مارجعوا من عيدهم أكلوه فَرِحِينَ ، وأقبلوا عليه مغتبطين ، وقد باركته الآلهة ؛ وأنضفت عليه الخير .

ولما همَّشوا بالذهاب إلى عيدهم طلبوا إليه أن يرافقهم ، وسألوه أن يشاركهم في الخروج إلى ظاهر مدينتهم : فأبى أن يصحبهم ، وامتنع عن الانتظام في سلكهم . وقد عقد العزم على أن يهدم صرح آلهتهم ، ويقوض عرش معبوداتهم ؛ وادعى العلة ، وتظاهر بالسقم ، ولم تكن به علة ولا مرض ؛ ولكنه كان سقيم النفس ، كاسف البال ، يتقطع فؤاده حزناً على إشراك قومه ؛ ويتميز غيظاً ، لأنهم لم يلبثوا ندائه ، ولم يصيخوا إلى دعوته .

ولما كانوا يخشون الداء ، ويهابون الوباء تولَّوا عنه ولم يستمسكوا بدعوته ؛ بل أظهروا الرضا عن تخلفه ، والاعتناع بحجته ، وخرجوا إلى عيدهم مسرورين .
ها هي ذى المدينة قد خلعت من أهلها وسكانها ، وها هو ذا بيت العبادة قد أقفر حتى كهنته وسدنته ، فقد خرجوا جميعاً إلى ظاهر المدينة ، ولم يتخلف عن اللاحق بهم إلا إبراهيم .

(١) جمع أغلف ، أى كأنما غشى القلب غلافاً فهو لا يعى .

ولما خلا الجوّ من العيون التي تترصّده ، واختفت الأبصار التي كانت تترقبه ، داف (١) إلى أصنامهم ، ودخل إلى بيت عبادتهم ، فوجد باحةً قد اكتظت بالتسابل ، وانتشرت في أرجائها الأصنام ، ورأى الطعام متراكماً تحت أقدامها ؛ فخاطبها متهمكاً بها ، محتقراً لشأنها : ألا تأكلون ! ولم يجد منهم إصغاء ، ولم يسمع منهم جواباً ؛ فقال : مالكم لا تنطقون ! وأنسى للحجارة أن تنطق ، وللخشب المستندة أن تعقل !

لا إخاله الآن إلا مُزدرياً لقومه ، محتقراً تلك الأصنام التي نصبوها آلهة ، فصار يلمطمها بيده ، ويركلها برجله (٢) ؛ وأخيراً تملكته سيرة الغضب لدينه ، واستولت عليه شرة الغيظ لربه ، فتناول فأساً ، وهوى عليها ، يسكسرها ويحطّم حجارتها ؛ وما زال بها حتى جعلها جذاً (٣) ، وصيّرها حطاماً ، إلا كبيرهم فإنه أبقى عليه ، ليرجعوا إليه ، ويسألوه عن انتهك حرمة بيتهم ، وكسر أصنامهم ؛ حتى إذا استبانوا أنها لا تنطق ولا تعقل ، ولا تدفع عن نفسها من أرادها بسوء ، ثابوا إلى رشدهم ، ورجعوا عن مكابرتهم .

تركها حجارة مبعثرة ، وخشباً متناثرة ؛ وانصرف عنها ، وهو مطمئن البال ، قير العين ؛ لاستئصاله جذور الشر ، وطمئئنه معالم الشرك ، وأقام يرقب ما يبدو منهم ، وينتظر أثر فعلته في نفوسهم ، وأخذ العدة لما قد يرمونه به ، أو يجادلونه فيه . ورجعوا من عيدهم ، ورأوا ما حلّ بمعبوداتهم ، فبهتوا لهول ما رأوا ، وسقط (٤) في أيديهم عندما وجدوا الآلهة متهشمة ، والنصب مكسرة ! وتساءلوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظالمين !

(١) داف : مشى وقارب الخطر (٢) الركل : الضرب برجل واحدة (٣) جذ : الشئ : كسره ، والجذاذ - بضم الجيم وكسر ها : ما كسر منه (٤) سقط في أيديهم : ندموا .

قال قائلهم : سمعنا قتي يقال له إبراهيم : يذكر آلهتنا ويعيب علينا عبادتها ،
ويزدريها ويحتقرها ، فهو المجترئ عليها ، والمخطم لها .

عرفوا إذن مَنْ تطاول على آلهتهم ، واعتدى على معبوداتهم ، فاعتزموا أن
يوقعوا به من العقاب بمقدار ما ارتكب من وِزر ، وما اجترم من ذنب ، وثارَت
ثائرةُ القوم ، وناَدوا بأن يأتوا به على أعين الناس ، ليشهدوا عليه بمقالته ، ويروا
ما يحلُّ به من القصاص .

ولا شك أن اجتماع القوم في صعيد واحد كان أمنية إبراهيم التي طالما جاشت
بها نفسه : ليقيم لهم الحجة جميعاً على بطلان ما يعتقدون ، ويريهم البرهان على فساد
ما هم عليه عاكفون .

تقاطرت الوفود ، وتكاثرت الجموع ؛ كل يرغب في القصاص من إبراهيم ،
ويودُّ أن يرى عقابه ، ويشاهد عذابه ؛ ففي ذلك إرضاءٌ لنفوسهم المتعطشة إلى النار
منه ، وإشباع لرغبتهم المتوثبة للفتك به ، ثم جاءوا به وسط هذا الجمع الزاخر ،
وابتدءوا محاكمته أمام هذه الجماعات التي تحرق عليه الأرم^(١) حنقاً وغيظاً ،
وقالوا له : أنت فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم !

ها هي ذى الفرصة قد سنحت لبلوغ مأربه ، وللوصول إلى مقصده ؛ فسار بهم في
الجدال ناحية أخرى ، وجرَّهم بأسلوبه الحكيم إلى طريق لم يقصدوه ؛ ليلزمهم
الحجة ، فيرجعوا إلى صوابهم ، ويشوبوا إلى رشدهم ، فقال : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ
كَبِيرُهُمْ ۖ هَٰذَا فَاسًا ۖ وَهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْصَبُونَ ۖ ﴾ .

(١) حرق نابه بحرقه : محرقه حتى تسمع له صوت . والأرم : الأضراس ، ويقال :
فلان يحرق عليك الأرم : إذا كان مغيضاً .

يا لها من حجة دامغة قد صفعهم بها صفة نبهتهم من غفلتهم ، وأيقظتهم من غفوتهم ! فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وقالوا : إنكم أنتم الظالمون ، فتركتموها لاحافظ لها ، ولا رقيب عندها .

ثم أدركتهم الحيرة ، وعقدا الحصر^(١) ألسنتهم ، فأطرقوا برءوسهم مفكرين واستجمعوا شارد عقولهم جامدين ، ثم قالوا : لقد علمت يا إبراهيم أنها لا ترد سؤالا ، ولا تُحيرُ جواباً^(٢) ؛ فكيف تأمرنا بسؤالها ، وتطلب إلينا الاستشهاد بها ! أقرؤا بعجزها عن الإصغاء إليهم ، واعترفوا بقصورها عن العلم بما يجري حولها ، أو الشعور بما يقع عليها ، وجردوها من القدرة على أن تصدّ المعتدين ، أو ترد كيدَ العادين .

فأخذ يُسكتهم على جهلهم ، ويتأفف من ثبأتهم على الباطل بعد وضوح الحق ، وهو متغيّظ من غفلتهم وهكابرتهم بعد انبلاج الصبح ، ثم حضهم على الروية فيما ينطقون ، والتفكر فيما يدعون ، فقال : ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

كانت على أعينهم غشاوة فلا يبصرون ، وفي آذانهم وقْر^(٣) فلا يسمعون ، وقلوبهم غُلفٌ فلا يعقلون ؛ فلما غلبوا على أمرهم ، وخافوا افتضاح حالهم ، ولم تبق لهم حجة أو شبهة ، عدلوا عن الجدل والمناظرة ؛ وعمدوا إلى القوة يسترون بها هزيمتهم ، ويخفون باطلهم ، وقالوا : ﴿ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ !

(١) الحصر : المي . (٢) يقال : كلمه فأحار جواباً : أى ما رد جواباً .

(٣) الوقر : الخلل في الأذن ، والصمم .

إبراهيم يلقى في النار (*)

أرادوا أن يعاقبوه بالإحراق ، ولا ذنب له إلا أن قال : ربى الله ؛ ولا جرم ارتكبه إلا نقمته على أصنامهم ، وإنكاره عبادة أوثانهم ، ولكن إعلان التوحيد والجهر بدعوة الناس إليه ، يُقَضِّضُ مضاجع الطغاة ويكدر صفو عيشهم ؛ لأنه يخلص الناس من رِبَّةٍ استعبادهم ، وتنكشف به خبايا أراجيفهم ، فيحذر الناس الوقوع في شراكهم ، وينفضُّون من حولهم ، ويهشُّون لدفع الحيف عنهم ؛ وفي ذلك ذهابُ سلطانهم ، والحق من طغيانهم .

جاش خاطر إحراقه في نفوسهم ، ولكن كيف يحرقونه ؟ لا بد أن يُصلَّوه نارا حامية ، تعادلُ لظى الحقد المتأجج في صدورهم . إن شرارة تكفى لإحراق مدينة بأسرها ، ولكنهم أبوا إلا أن تكون نارا هائلة ، وشرعوا يجمعون حطباً من هنا وهناك ، وجعلوا ذلك قرباناً لآلهتهم ، وبراً بمعبوداتهم ، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت نذرت : إن عوفيت لتجمعن حطباً لحريق إبراهيم !

مكثوا مدة يجمعون الحطب ، حتى تراكت أعواده ، وضاق المكان بأكوامه ، ثم ابتنوا حظيرة واسعة ، وأشعلوا النار فيها ، فاضطربت وتأججت واندلع لسانها ، وعلا لهيبها ، وسطع ضوءها ، واحتر جمرها ، ثم قيَّدوه ورَمَوْا به فيها ، وهم له كارهون ، ولعذابه مغتبطون !

أُلْقِيَ في النار المستعيرة ، وقلبه بالإيمان مُفَعَّم ، وثقته بالله شديدة ، وصلته به وثيقة ، وأمله في النجاة وطيد ؛ لذلك لم تزغِعه النكبات ، ولم تزلزله الحوادث ، ولم ترُعْه النار ؛ بل أقبل عليها بصدر رحب ، ونفس مطمئنة :

(*) الانبياء ٦٨ - ٧٣ ، الصافات ٩٧ - ٩٩ ، العنكبوت ٦ ، ١٧ ، ٢٤ .

إنه الآن فى جوف النار ، يخفيه دخانها ، ويحتويه لهيبها ، ويغلب على صوته زفيرها وشهيقها : فماذا فعلت النار بإبراهيم ؟

إنها أحرقت منه الوثاق (١) : فصار حراً طليقاً ، وأذهب الله عنها حدتها ، وصعد منها حرارتها ، وحفظه من لظاها ، وأنقذه من سعيرها ، وجعلها عليه برّداً وسلاماً !

ولما خبا ضوءها ، وانتشع دخانها ، وسكن أوارها ، وجدوه معافى سليماً ، ورأوه حراً طليقاً ؛ فعجبوا لحاله ، وشهدوا لنجاته ، وانصرفوا عنه ناقمين ، وتواروا عن أعين الناس خجّلين .

وهكذا تمّت الآية الكبرى ، والمعجزة العظمى ، غالبوه بالجدل فغلبوا على أمرهم ، وفزعوا إلى القوّة فردّ الله كيدهم فى نحورهم ، ولجئوا إلى النار : فنزع الله منها طبعها ، ودفع عنه أذى حرّها ، وأرادوا به كيداً فجعلهم الله من الأخسرين .

بُهرّ الناس بتلك الآية الكبرى ، حتى أوشكوا أن يُسلموا زمامهم له ، ويُلقُوا قيادهم إليه ، وكادوا يجمعون أمرهم على اتباعه ، ولكن بعضهم آثر ما يتقلب فيه من نعيم الحياة وسودُدِها ، وخاف غيرهم أن ينالهم أذى الكافرين والملحدين ؛ لذلك لم يؤمن بإبراهيم إلا نفر قليل ، كتموا إيمانهم عن القوم ، خوفاً من الطغاة ، وحذراً من الموت .

(١) الوثاق : الحبل أو الشيء الذى يوثق به - وتكسر واوه -

إبراهيم ونمرود (*)

أما الملك نمرود فقد انتهى إليه شعاع من ذلك النور الذي بهر به قومه ،
واقترحت عليه قهره موجة من هذا التيار الجارف ، وتراعى إليه خبر إبراهيم
ومعجزته الخالده ؛ فتاغى طغيانه ، وزاد بهتاناً ؛ أليس من آلهتهم وإبراهيم يكيل
القدح فيها ، ويعيب على القوم عبادتها !

فدعا إبراهيم إليه ، فلما مثل بين يديه صوب إليه نظره ، وقال : ماهذه الفتنة
التي أيقظتها ، وتلك النار التي أشعلتها ! وما هذا الإله الذي تدعو إليه ؟ هل تعرف
رباً غيرى ، وإلهاً يستحق العبادة دونى ! من الذى يعلو مقامه على ، ويرتفع
قدره فوق قدرى ! ألا ترانى أصرفُ الأمور وأدبرها ، وأنقضها وأبرمها ؟ فأمرى
نافذ ، وحكمى قاطع . عيون الناس متطلعة إلى وآمالهم متعلقة بى : فهل تجدى
مخالفاً ، أو ترى على خارجاً ! فلماذا خرجت على إجماعهم ، وانتقضت على
معبوداتهم ! ما ربك الذى تدعو إليه ، ومن إلهك الذى تحبثُ الناس على عبادته !

فأجابه إبراهيم فى ثبات جنان ، وطلاقة لسان ، وقال : ربى الذى يحيى
ويميت ، فهو وحده الذى يمنح الحياة ويسلبها ، وينشئ الخلق ويفنيه ، ويبعد
العوالم الحية ويميتها ؛ فالقمه الحجر ، وأخفه بالحجة . ولكن نمرود أخذته العزة
بالإثم ؛ فكبر وجادل بالباطل ، وقال : أنا أحيى من أساء بالعفو عنه ، فينعم
بالحياة بعد أن تمثّل له شبح الموت ، ويتنسم ريح الحياة بعد أن تقطعت

نفسه حسرات على الحرمان من متاعها ، وأوصدت في وجهه أبواب الأمل فيها ؛
وأنا كذلك أميت من أشاء بأمرى ، وأقضى عليه بحكمى ، وسرعان ما تزهق
روحه ، ويحرم حياته ؛ فلم يأت ربك بدعا ولم يفعل عجبا .

وارب تُسرود في حوارهِ ، ومارى في جداله ؛ إذ نأى عما ذكره إبراهيم
من إنشاء الحياة وخلقتها ، ومنحها وسلبها ، ولجأ إلى المراءوغة ، ولكن أين يحول
هذا الغر الجاهل ! وكيف يستطيع الثبات أمام عزم النبوة الباهر !

أجابه إبراهيم بقوله : إن الله سخر الشمس ، وجعل لها نظاما لا تحيد عنه ، فهو
يأتى بها من المشرق ، فإن كنت كما تدعى قديرا ، وكما زعمت إلهاً ، فغدير هذا
النظام الذى جرت به سنة الله ، واقتضته إرادته ، وأت بها من المغرب .

فبِت الذى كفر ؛ إذ بان ضلاله ، وظهر كذبه ووضح بهتانهِ ، وبدأت
جهالته ؛ فقد قرعته الحجّة البالغة ، وصدمته الآية البينة ، وخاف أن يثُلَّ عرشه ،
وتدكّ قوائمه ملكه ، فصار إبراهيم أبغض الناس إليه ، وأشدّهم عداوة له ؛
ولكن ماذا يصنع به ، وقد أتى بعقيدة جديدة دّعمها بمعجزه باهرة !

مأظنه إلا أوجس خيفة منه ، وخاف أن يكتسح إبراهيم ملكه ، ويقوض
عرشه ، إن أعلن له العداء ، أو كشف له عن البغضاء ؛ لذلك أبقى عليه ، وهوى تر بص
به الدوائر ، وينتظر أن تحين له الفرصة للانتقام منه ؛ ثم بثّ عُيونَه ليحذّروا
الناس اتباعه ، ويبعدوهم عن حظيرته ؛ فكان إبراهيم يرى من التضيق عليه ،
والإضرار به ما يراه المصلحون فى كل أمة ؛ فضاقت نفسه بالمقام بينهم ،
وارتأى الهجرة عنهم ، وفرّ بدينه من تلك الأرض الجرداء التى لم يزدهر بها
نبتة ، ولم يُشمر فيها غرسه ؛ وهاجر إلى أرض قد تنمو فيها دعوته ؛

ويخصِبُ فيها بذره ؛ وترك وطنه وقومه بعد أن حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب ؛
إذ لم يؤمنوا بعد إذ جاءهم الهدى ، وكفروا بعد أن قامت البينة ، وسار حتى حط
رحاله بفلسطين .

إبراهيم يهدي قومه عن طريق الحوار (*)

ألقى إبراهيم عصاه في حَران ، فأرَا بدينه ، تاركا وطنه وقومه ، عَلَيْهِ يجد في
غيرهما آذانا مُصْغِيَةً ، وعقولا ناضجة ، ونفوسا طاهرة ، ونزل بين ظَهْرَانِي أَهْل
هذه البلاد ؛ وَسَرَّعَان مَاتِبَيْن ضالَّاهُمْ ، وَعَرَفَ زَيْغَهُمْ ؛ إذ وجدهم يُعْبِدُونَ
الكواكبَ من دون الله ، فأراد أن يَنْبَهَهُمْ على خطئهم ، ويرشدهم إلى فساد
اعتقادهم ؛ فاختار لذلك سبيلَ العقل ، وطريقَ الحجَّة ، حتى إذا ما استبانوا الحق ،
وتبَيَّنوا الرشد سلكوا سبيله ، وَأَصْغَوْا إلى نِدَائِهِ ، وَاتَّبَعُوا دَعْوَتَهُ .

سَجَنَ عَلَيْهِ الليل ، وستره الظلام ، فرأى كوكباً مما يعبدون ، وهو بين جماعة منهم
يتحدثون ويسمرون ، فجاءهم في زعمهم ، وحكى قولهم ، فقال : هذا ربى !

طريق في الحوار حَكِيم ، ومنهج في الكلام قويم ؛ انظر إليه يحاكمهم
في اعتقادهم ، ولا يُعلن مخالفتهم ، أو يسفّه أحلامهم ، ويحقّر معبوداتهم ؛
فذلك أدعى إلى إنصاتهم لقوله ، وتفهمهم لحجته ، ثم لم يلبث أن كرّر على قولهم
يَنْقُضُهُ ، ورجع إلى مذهبهم يزَيِّفُهُ ، ولكن من طريق خفى ، يَنْبِئُ عن سداد
رأيه ، ونفاذ بصيرته ! فلما أفكَل هذا الكوكب وغاب هذا النجم تحت الأفق ،
تفَقَّده فلم يجدّه ، وبحث عنه فلم يره ، فقال : لا أحبُّ الآلهة المتغيّرين من حال

إلى حال ، المتنقلين من مكان إلى مكان ؛ ثم عرض آلهتهم ، وتنقص معبوداتهم ، وأعلن بغضه لها ، وتبرأه من حبها .

ولما رأى القمر بازغا ، وهو أسطعُ نوراً من ذلك الكوكب ، وأكبر منه حجماً ، وأكثر نفعا ، قال : هذا ربى ، استدرأجا لهم واستهواة لقلوبهم .

فلما أفكّل هذا أيضاً واحتجب ، واختفى نوره واستتر ، قال : ﴿ إِنِّ لَمْ يَهْدِنِ رَبِّى لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ ، بياناً لهم أن الله مصدر الهداية ، ومأنح التوفيق عند الشكّ والحيثرة .

جاوز التعريض إلى ما هو أفصح منه ، لئلا أُنس منهم سكوتاً على بغضه لآلهتهم وإغضاء عن ذمّه معبوداتهم ، وأبان أنه غير مطمئن النفس ، مُبْتَلِـبُ الفِكر ، لم يهتد بعد إلى طريق الحق ، ولمّا يقف على سبيل الرشـد ، وطلب من الله أن ينقذه من ذلك الضلال البعيد ، وينير له هذا الليل البهيم ؛ فهذا الذى يعبدونه مخلوق مسير ، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

ثم رأى الشمس بازغة يتألق نورها ، وينبعث منها شعاعها ، وقد كست الدنيا جمالا ، وملأت الأرض حياةً وبهاءً ، وأرجاء الكون نوراً وضياءً ، فقال : هذا ربى ، هذا أكبر من كل الكواكب ، وأكثر نفعا ، وأجل شأناً . فلما أفكّلت كغيرها ، وغابت عن عبادها رماهم بالشرك ، ووسمهم بالكفر ، وقال : إني برىء مما تشركون ، فهذه الكواكب التى تنتقل من مكان إلى مكان ، وتتحول من حال إلى حال ، لا بد لها من خالق يدبرها ويحركها ، وإليه يطالعها ويسيرها ، فهى لا تستأهل عبادة ولا تستحق إكباراً ولا تعظيماً .

وبعد أن أعلن انصرافه عن آلهتهم ، وبراءته من معبوداتهم ، أفاض فى الحديث عن ينصه بخضوعه ، ويتوجه إليه بعبادته ، فقال : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهَى لِذِى

فَطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا ^(١) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

حَاجَّةُ قَوْمِهِ فِي ذَلِكَ الَّذِي فَجَّاهُمْ بِهِ ، وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ ، عَسَاهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى عَقِيدَتِهِمْ ، أَوْ يَرْتَدَّ عَنْ ادِّعَائِهِ إِشْرَاكَهُمْ ، فَقَالَ : أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَأُرْشِدُنِي إِلَى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ !

يَخَوْفُوهُ بِطُشِّ آلِهَتِهِمْ ، وَحَذَرُوهُ أَنْ تَصِيْبَهُ بِسُوءٍ ، أَوْ تُتْلِحَقَ بِهِ أَذَى إِذَا نَكَلَ عَنْ عِبَادَتِهَا ، وَتَجَافَى عَنْ الْخُضُوعِ لَهَا ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَمِعْ إِلَى نَصَحَتِهِمْ ، وَلَمْ يُسْتَجِبْ إِلَى دَعَائِهِمْ ، وَتَعَجَّبَ أَنْ يَخَوْفُوهُ شَيْئًا مَأْمُونِ الْجَانِبِ ، لَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَهُمْ لَا يَخَافُونَ إِشْرَاكَهُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْهِمْ مُسْلَطَانًا ، وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْذَرُوا اللَّهَ وَيَخَافُوا عِقَابَهُ ؛ فَقَدْ ارْتَكَبُوا إِثْمًا كَبِيرًا ، وَاقْتَرَفُوا ذَنْبًا عَظِيمًا ، فَيُخْزَوْنَ - إِنْ اِسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ - جَهَنَّمَ ، وَبُئْسَ الْمَصِيرُ .

إِبْرَاهِيمُ فِي مِصْرَ

عَمَّ الْقَحْطُ ، وَشَمِلَ الْجَدْبُ وَالْغَلَاءُ ، وَضَاقَتْ سُبُلُ الْعَيْشِ فِي الشَّامِ ، فَرَحَلَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى مِصْرَ ، تَصَحَّبَهُ زَوْجُهُ سَارَةَ ، وَهَبَطَ أَرْضَهَا حِينَ كَانَ الْقَابِضُ عَلَى زِمَامِهَا وَالْمُسَيِّطِرُ عَلَى أُمُورِهَا ، أَحَدَ مَلُوكِ الْعَرَبِ الْعِمَالِيقِ ، الَّذِينَ اسْتَبَدُّوا بِالْمَلِكِ آوِنَةً مِنَ الدَّهْرِ .

وَكَانَتْ سَارَةُ ذَاتَ جَمَالٍ بَاهِرٍ ، فَوَشَّى بِهَا أَحَدُ بَطَانَةِ السُّوءِ إِلَى الْمَلِكِ ، وَأَغْرَاهُ بِجَمَالِهَا ، وَزَيَّنَ لَهُ حُسْنَهَا ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ الْاِسْتِحْوَاذَ عَلَيْهَا ، فَصَادَفَتْ هَذِهِ الْمَقَالَةَ

(١) فطر : خلق . حنيفا : مخلصا .

رغبةً في نفسه ، وهو في فؤاده ، فدعا إبراهيم إليه وسأله عما يريد لهما من سبب ، وما يصل بينهما من قرابة ؛ فقطن إبراهيم إلى ما ربه ، وعرف مقصده . وخاف إن أخبره أنها زوجته يئس الشر له ، وعمل على الإيقاع به ، لتخلصه من دونه ، ويستأثر بها من بعده .

فقال له : هي أختي - والأخت كما تكون في النسب تكون في الدين واللغة والإنسانية .

فهم الملك أنها ليست بذات بعزل ، فأمر أن يذهبوا بها إلى قصره ويسوقوها إلى مخدعه ؛ ورجع إبراهيم إلى زوجته ، فأخبرها بقصته ، وطلب إليها أن تكون مصدقة لقوله ، مؤكدة خبره ، ثم أسلمها لعين الله تحرسها ، وعناية الله ترعاها وتحفظها .

أدخلت إلى قصره ، وزينت بفاخر الثياب وشمين الحلى ، ولكنهن لم تعبأ بهذا الزخرف البراق ، ولا بذلك البذخ الخلاب ، ولم تكن بما أحيطت به من نعمة ، وما رأت من سعة السلطان وبسطة العيش ، ولم ينسها كل ذلك الوفاء لزوجها والاستمسك بدينها ، وجلست مكتئبة حزينة ؛ بل انتبذت مكاناً قصياً .

ولما أقبل الملك عليها ، ورأى ما بها من لوعة وأسى ، حاول أن يخفف من حزنها ، ويؤنس وحشتها ، ويزيل اكتئابها ، كجتملت : وانتكس^(١) يحس اضطراباً في نفسه ، ووجيباً^(٢) في قلبه ، وأراد أن يعيد الكرة ، فعاد إليه اضطرابه . وعاوده انتكاسه ؛ فأوجس خيفة منها ، وأوى إلى فراشه .

(١) انتكس : انقلب على رأسه ، والمراد رجوع خائباً .

(٢) اوجيب : الاضطراب .

وغط في نومه ، ورأى رؤيا استبان بها وَجْهَ الحق ، وتبين منها سبيلَ الرشد ، وعرف أنَّ لها بعلا ، وأنَّ عليه أن يخلّص سبيلها ، ويتركها وشأنها ، وألا يمسها بسوء ، أو يقربها بإثم .

فلما أفاق من نومه رأى أن لامناصَ من إطلاق سراحها ، فوهبها هاجر خادماً لها ، وأسلمها إلى زوجها .

فهل ترى حُنةً أشد ، وفتنةً أعظم من ذلك ! رجل غريب يَهْد إلى بلد يسعى فيه لطلب الرزق ، فتنسب منه زوجة ، ويفرق بينه وبين أهله ولكن الذي نجّى إبراهيم من حر النار وسعيرها ، حفظه من وصمة العار ، ونجّاه من الظلم والعدوان .

أقام بمصر ما شاء الله أن يقيم ، وكان رادع النفس ، دَمِث الخلق ، لين العريكة ، طويل الأناة ، دءوباً على العمل ؛ لذلك كثُرَ ماله ونمتْ أنعامه ، وارتفع ذكره ؛ ولكن القوم حسدوه على مكانته ، ونَقَموا عليه سعة نعمته ، وسوّلت لهم نفوسهم أن تمتد أيديهم إليه بالأذى ، وأحس منهم إبراهيم جفوة ، فأزمع^(١) الرحيل عنهم ، وجعل وجهته فلسطين ، تلك الأرض المقدسة التي اتخذها قبل موطناً ، وأقام فيها زمناً ، فانطلق حتى ألقي بها عصا التسيار .

(١) أزمع الأمر : ثبت عليه عزمه .

اسماعيل (*)

هاجر إبراهيم إلى فلسطين ، ومعه زوجته سارة ، وخادمها هاجر ، واستاقوا معهم أنعامهم ، واحتملوا ما يملكون من مال جزيل ، وخير جليل ، وأقام وسط أهله وعشيرته ، وبين الطائفة القليلة التي آمنت به .

كانت سارة عقيماً لا تلد ، وكان يُحزنها أن ترى بعلمها الوفي يتطلع إلى النسل ، وقد أصبحت هي على حال لا يرَجى فيها الولد ، فقد بلغت من الكبر عتياً ؛ فأشارت على زوجها أن يدخل بأمها هاجر ، وهي الوفية الكريمة ، المطيعه الأمانة ، علّها تنجب ولداً تشرق به حياتهما ، ويُسرّى عنهما بعض ما يجيدان من لوعة الوحدة ، ومرارة الوحشة ؛ فانصاع لرأيها ، وخضع لإشارتها .

فلما وهبته إياها أنجبت غلاماً زكياً ، هو إسماعيل ؛ فانتعشت نفس إبراهيم ، وقزت عينه ؛ ولعل سارة قد شركت إبراهيم في سروره ، وشايعته زمناً في بهجته ؛ ولكن الغيرة لم تلبث أن دبت إلى قلبها ، بل عصفت بها أعاصير شديدة من الحزن والشجن ، أثارها قلقها واضطرابها ، فحُرمت الهدوء والهجوع ، وتشعب لبها ، وعقدت عليها الكتابة سحابة مُطِقة ، وأصبحت لا تُطبق النظر إلى الغلام ، ولا تحتمل رؤية هاجر .

هي الآن مُلتاعة متحسرة ، كئيبة متذمرة ، لم تجد دواء لعلتها ، وكشفاً لدائها إلا إقصاءه وأمه عن دارها ، وإبعادهما عن عينها ، فتمنّت على زوجها أن يذهب بهاجر وطفلها إلى أقصى الأماكن ، حتى لا يصل صوتهما إلى سمعها ، ولا تقذى برؤيتهما عينها .

أذعن لإرادتها ؛ وكان الله أَوْحَى إِلَيْهَا أَنْ يُطِيعَ أَمْرَهَا ، ويستجيب إلى رجاؤها ؛ فركب دابَّته ، واصطحب العُلام وأمه ، وسار تَرْشِدُهُ إِرَادَةُ اللَّهِ ، وتَحْدُوهُ عَنَايَتُهُ ، وطال به السير ، وامتدَّ الطريق ، حتى وقف عند مكان البيت . فأنزل هاجر وطفلهما في هذا المكان البلقع ، وتركهما في تلك البقعة الجرداء ، وهما ضعيفان لا يملكان شيئاً ، سوى مِرْوَدٍ ^(١) به قليل من الطعام ، وسِقَاءٍ فيه شئٌ من الماء . وإيمانٌ بالله يَعْمُرُ قُلُوبَهُمَا ، ويغمر نفسيهما .

ترك الديار ، واستودعهما الله في هذا المكان ، وقفل راجعا ؛ فتبعته أم إسماعيل وتعلقت به ، وأمسكت بثوبه ، وقبضت على خِطَامِ ^(٢) دَابَّتِهِ ، وقالت : يا إبراهيم إلى أين تذهب ؟ ولمن تتركنا بهذا الوادي الموحش المقفر !

حاولت أن تستعطفه ، ولعلها قد أشارت إلى ابنها تسترحمه بحقه ، وتوسل إليه بفِلْذَةِ كَبَدِهِ ، وترجوه ألا يَخْلُصَ بينهما وبين الجوع القاتل ، والعطش المميت . وقد تكون سألته : مَنْ يحميهم من سَطْوِ الذئاب ؟ ومن يمنعهم من فتك الوحوش ؟ وكيف يحتملان لَفْحَ الشمس ، وحرارة الجو ؟ وأسالت تحت قدميه العبرات الغزيرة ، وذرفت الدموع السخينة ، ترجو أن يُصَيِّخَ إلى استعطافها ، ويستجيب إلى ندائها ، ولكنه لم يستمع إلى قولها ، ولم تَلِنْ قَنَاتُهُ لرجائها ؛ بل أبان لها أن ذلك أمر الله وتلك إشارته ؛ فلا بُدَّ لها من الخضوع لحُكْمِهِ ، والتسليم لأمره ؛ فلما علمت بذلك كَفَّتْ عن حِوَارِهِ ، واستسلمت لأمر الله ، وركنت إلى رحمته ، وقالت : لن يضيِّعنا .

أما إبراهيم فإنه انحدر من تلك الربوة يُثْقِلُهُ الإِشْفَاق والخوف ، ويدفعه الإيمان والثقة بالله ؛ ولا شك أنه الآن يتحسّر جوى ولوعة ، لبعاد فلذة كبده ،

(١) المزود : ما يحمل فيه الزاد (٢) الخِطَام : الزمام .

وفراق حُشاشة نفسه ، ووداع بكره الذى اكتحلت عيناه به بعد أن اكتمل عمره
أو كاد ، وكان يصعد الزفرات ، ويختنق بالمبرات ؛ ولكن إبراهيم فى مكانه من
الله . وفى مقامه من النبوة لا بد أن يصبر على البلاء ، ويستسلم للقضاء . لذلك سار
إلى وطنه ، وخلف وراءه وحيداً فى تلك البقعة النائية ، وهو يدعو الله أن يكلاه
بغايته ، ويحفظه برعايته ؛ ويقول : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ
ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ
النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

نبيع زمزم

قد امتثلت هاتجر للقضاء المحتوم ، وتحلت بالصبر الجميل ، ومكثت تأكل من
الزاد ، وتشرب من الماء حتى نفدا ، فخوى بطنها ، وعصب (١) ريقها .

واحتلمات ذلك صابرةً . ولم يلبث أن جفَّ ضرعها ، وأصبحت لا تجد لبناً
ترضعه الطفل ، أو ماءً يبلُّ صداه ، وثقلت عليه وطأة الجوع والعطش ؛ فبكى
وانتحب ، وصرخ وأعول ؛ وأمه تنقطع نفسها حشرات ؛ ودموعها تنهل غزيرات ؛
وودت لو استطاعت أن تروى ظمأه بدموعها ؛ وأن ترد عنه غائلة العطش بماء
شئونها ؛ ولكن هيات !

حاولت أن تجد لها من مآزقها مخرجاً ، وكان قدَّى فى عينها أن ترى ابنها
يتلوّى ، وتتميع (٢) نفسه أمامها ؛ فتركته مكانه ، وسارت هائمة على وجهها ، تعدو
وتهرول ، وقد حاجها التبياع طفلها ، وأحزنها بكاؤه ونحيبه ، وأخذت تبحث عن
الماء ، وتفشش له عن غذاء ، حتى قرعت صفاة الصفا (٣) ، ثم عادت قزعة مذعورة

(١) عصب الريق بالغم - بفتح الصاد وكسرها : جف وبيس .

(٢) المراد تغنى نفسه (٣) الصفا والمرورة : جبلان بمكة .

ظول مُصابها في وحيدها . وسعت نحو سَرَّابٍ حسبته ماء عند المروة ، حتى إذا جاءته لم تجده شيئاً ، ثم كزت راجعةً إلى هدَفها الأول ، ورجعت ثانية إلى غَرِّضها الثاني ، وهكذا سعت سعى المجهود سبعة أشواط ^(١) ، والطفل يصيح ويصخب ، يُقَطِّع بصوته نياط قلبها ، ويَحْزَنُ بسويله في أعماق فؤادها .

رُحْمَاكَ يارب ! هذا طفل جفَّ حَلَقُه حتى عَيَّ عن البكاء ، وانقطع عن الغذاء حتى خارت قواه ، وخففت أنفاسه ! وهذه أم ترى وحيدها يُسَلِّمُ رُوحه ويجود بنفسه ، وهي لا تجد لها معيناً في وَحْدتها ولا سلوة في مصابها ! إنه الآن يفحص الأرض برجليه ، ويضرب الصلد بقدميه ، علنه يرقّ لحاله إذ قست القلوب ، ويلين لاستعطافه إذ عزَّ النصير ، وهذا هو ذا يضرب ويضرب ، فإذا الماءُ قد انبجس من تحت قدميه ، وفار من قرعِ رجله ! وإن من الحجارة لما يتفجرُ منه الأنهار !

رأت رحمة الله تحوطها ؛ وعناية ربها تُظِلُّها ؛ فجلست خائرة القوي ، يقطر العرق من جبينها ، وأكبت على الطفل متلهفة ، تروى ظمأه ، وتبلل بالماء شفتيه ؛ فسرّها أن ترى الحياة تدب في جسمه ، وأن يُقبل عليها في لطفة وشوق ، فتضمه إلى صدرها ، وترتّب ^(٢) عليه بيدها ، ثم تكفكف دموعه ، وتسرى عنه شجونه وأحزانه ، حتى إذا اطمأنت على وليدها ، وعادت إلى الثقة بنجاته ، وعادوها السرور بحياته ، ارتوت هي أيضاً ، فسرت فيها الحياة ، وانقشعت تلك السحابة السوداء التي أظلمت أزمناً ، وذلك بفضل الله وعنايته .

هذه العين هي زمزمُ ولا زالت قائمة يزدحم حولها الحجاج ^(٣) ، ويستيق الناس إلى حوضها ، علّهم يفوزون منه بقطرة ، أو يرجعون بِشربة .

(١) هذا هو أصل السعى الذي يقوم به الحجاج . (٢) التربيت : ضرب اليد على جنب الصبي لينام . (٣) الحجاج : الحجاج

ولما نبع الماء اجتذب الطير إليه ، فحومت حوله ، وحلقت فوقه ، وكان قوم من جرهم يسرون قُربَ هذا المكان ، فرأوا الطير تحط في ساحته ، وتُحوّم فوقه ، وإنهم ليعرفون أن الأطيّار لا تقع إلا على الماء ، فأرسلوا واردةً^(١) يرتاد المكان ، ويخبرهم بخبره ، ولما ذهب إليه وجد الماء فرجع يزُف إلى قومه البُشرى : فوفدوا إليه زرافات ووحدانا^(٢) ، واتخذ بعضهم موطناً ومقاماً ؛ فأَنيست هاجرُهم ، واطمأنت إلى جوارهم ، وشكرت لله أن جعل أفتدة من الناس تهوى إليهم .

إسماعيل الذبيح^(٣)

لم ينس إبراهيم ابنه ؛ بل كان يفد إليه لِقاماً ، ويزوره غيباً ، ليطمئن على حاله ، ويقرّ عيناً بمرآه ؛ فلما شب وأطاق السعى والعمل ، رأى إبراهيم في نومه أنه يؤمر بذبح ولده - ورؤيا الأنبياء حق ، وأحلامهم صدق .

فتنة إثر فتنة ، ومحنة تستلوهامحنة : شيخ هرم ، جالد الأيام ، وعرك الدهر ، وأحنته السنون ، قد كان طول حياته يأمل الولد ، حتى إذا بلغ من الكبر عتياً^(٤) ؛ رزقه الله بغلام وحيد ، قرّت به عينه ، وأشرقت له نفسه ، ثم أمر بأن يُسكنه بوادٍ غير ذى زرع ، ويتركه وأمه في مكان قفر ، ليس به حسيس ولا أنيس^(٥) ، وامثل لأمر الله ، وتركهما هناك ثقة بالله ، وإيماناً به ، وإطاعة لأمره ؛ فجعل الله لهما من ضيقهما فرجاً ومخرجاً ، ورزقهما من حيث لا يحتسبان ، ثم يؤمر

(١) كل من أتى مكاناً منهلاً أو غيره فقد وردّه . (٢) جماعات وأفراداً .

(٣) الصافات ١٠٢ - ٢١٢ . (٤) عتا الشيخ يمتو عتياً - بضم العين وكسر ها .

كعب وولى . (٥) ليس به أحد .

بذبح هذا الولد العزيز ، الذى هو يسكره ووحيدته ! إن هذه لمحنة تنوء بها الجبال .
الراسيات ؛ ولكن العظام كفوها العظام ؛ فعلى قدر إبراهيم ، وعلو منزلته ، وعلى
مقدار ثبات يقينه ، وكال إيمانه يكون ابتلاؤه واختباره .

استجاب لربه ، وامثل لأمره ، وسارع إلى طاعته ، وارتحل حتى لقي ابنه ،
ولم يلبث أن ألقى إليه بتلك الرغبة التى تدك الجبال ، وتنزع القلوب من الصدور ؛
فقال : يا بنى ؛ إني أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟
عرض عليه الأمر ؛ ليكون ذلك أطيب لقلبه ، وأهون عليه من أن يأخذه
قسراً ، ويذبحه قهراً .

فبادر الغلام بالطاعة ، وأسرع إلى الإجابة ، فقال : يا أبت افعل ما تؤمر ،
ستجدنى إن شاء الله من الصابرين .

بتر عظيم ، وتوفيق من الله أعظم ، وإيمان وثيق ، ونفس راضية بما
أراد الله وقدر .

ثم أراد أن يخفف عن أبيه لوعة الشئكل ، ويرشده إلى أقرب السبل
إلى قصده ، فقال : يا أبت ، اشد وثاقى ، وأحكم رباطى حتى لا أضطرب ،
واكشف عنى ثيابى ، حتى لا يلتصيح عليها شيء من دمي ، فينقص أجرى . وتراه
أمى ، فيشتد حزنها ، وتفيض شونها ^(١) ، واشتد شغرتك ، وأسرع إمرارها على
حلقى ليكون أهون على ؛ فإن الموت شديد ووقعه أليم ، واقرأ على أمى السلام ؛
وإن أردت أن ترد قيصى عليها فافعل ، فإن ذلك فيه تسرية لها وسلوطة لها فى
مصاها ، وهو ذكرى لوليدها ، تشم منه عبيره ، وتتذسم فيه أريجها ، وتعود

إليه حين تبحث حولها فلا تجدني ، وتفتش عني فلا تراني .

قال إبراهيم : نعم العون أنت يا بني على أمر الله ! ثم ضمه إلى صدره ، وأخذ يقبّله ؛ وتبأ كيا وانتحبا .

ثم أسلم إبراهيم ابنه ، فصرعه على شِقِّه ، وأوثقه بكنافه ، وأمسك السكين وأخذ يصوب النظر إليه مرة ، ويحدق في ابنه مرة أخرى ؛ ثم تدفقت عبراته ، وتتابعت زفراته رحمةً به ، وإشفاقاً عليه ، وأخيراً وضع السكين على حلقه ، وأمرها فوق عنقه ، ولكنها لم تقطع ، لأن قدرة الله قد تكلمت ^(١) حدها ، وفلت من غربها ^(٢) .

فقال إسماعيل : يا أبت ، كُبتني على وجهي ، فإنك إذا نظرت إليّ أدركتكَ رحمةً بي ، تحولُ بينك وبين أمر الله . ففعل ، ثم وضع السكين على قفاه ، فلم تمض الشفرة ، ولم تفرّ الأدواج ؛ وأدركت إبراهيم الحيرة ، وشق ذلك على نفسه ، فتوجه إلى الله أن يجعل له مخرجاً ؛ فرحم ضعفه ، واستجاب لدعائه ، وكشف مغتمه ونودي : ﴿ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

فاستبشرا بالفوز ، واغتبطا بالنجاة ، وحمداً لله على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء ، وكشف الغمة ؛ وقد نالا جزيل الثواب ، وخير الجزاء ، وصارا بعد هذا الاختبار أصفى نفساً ، وأثبت إيماناً ، وأرسخ يقيناً ؛ إن هذا هو البلاء المبين ^(٣) . فدى الله إسماعيل بذبح ^(٤) عظيم ، رآه بجواره ، فأقبل عليه ، وهوى بتلك السكين التي كانت كليلة ، وأمرها على حلقه ، فصرع لوقته ، وخضب الأرض

(١) ألم السيف : كسر حده .

(٢) قرب كل شيء : حده ، وفلت : كسرت .

(٣) البلاء : الاختبار .

(٤) الذبح ، بالكسر : ما يذبح .

بدمه : فكان فداءً لابنه ، وحققنا لسمه . ثم صار ذنبُ الضحايا أمراً مشجعاً يساهم فيه المسلمون كل عام ، ذكرى لذبح إسماعيل ، وشكراً لله على نعمته .

إسماعيل وجبرهم

خلق الطير في سماء تلك البقعة التي نبع فيها الماء ، وحوت حول هذه البئر أسرابه ، وسرت في هذا المكان حياةً جديدة ، وإن لم يتصل خبرها بأحد ، حتى رأى قوم من جرهم كانوا قد نزلوا في أسفل مكة طائراً عائفاً ^(١) ، فقالوا : إن هذا الطائر لابدور على ماء ، وعهدنا بهذا الوادي صحراء بالقع ، ثم أرسلوا راءدهم ، فسار حتى وجد الماء فرجع يزف إليهم البشرى : فأقبلوا فرحين ، ووفدوا مسرعين ، وحلّوا بالمكان ، فرأوا أم إسماعيل عند الماء ؛ فاستأذنها في النزول بجوارها ، والسقييا من ماءها ، فأذنت لهم ، على أن يكونوا ضيوفاً مُكرّمين ، لا مقيمين مغتصبين .

فزلوا على إرادتها ورؤوا حكمها ، ثم أرسلوا إلى أهلهم فأقبلوا إليهم يزفون ^(٢) ؛ واجتمع بهذا الحى منهم أهل أبيات كثيرة .

ثم شبَّ إسماعيل ، واستقام عوده ، وذاع صيته ، وطار ذكره ، واختلط بالقوم وحاكهم في لغتهم ، وتعلّم لسانهم ، وأخذ العربية عنهم ؛ ثم تزوج بواحدة منهم ، فتم اندماجه فيهم ، وتوثقت صلته بهم ، وما أظنه إلا قر عيناً باكتمال نموه ، وامتلاء سرورا باجتماع أسباب السعادة له ، ولكن الدهر قلاب ، فها هي ذى المنية تختطف أمه ، فعز عليه فقدّها ، وتفطر قلبه حزناً عليها ، فقد تعهدته في مَهْدِهِ ، ورعته في طفولته ،

(١) عائفاً : محوما . (٢) يزفون : يسرعون .

وأظلمت بحنانها في شبابه ، وكانت له دائماً عضداً في الملمات ، ومعيناً في النازلات .
ولم يكن لإبراهيم أن ينسى وديعته ، وأن يسأل فلانة كبده ؛ لذلك كان يتردد على هذا المكان الذي ترك فيه أهله وولده ، يتفقد حال ابنه ، فوفد إلى مكة مرة ، وأتى بيت إسماعيل ، فلم يجد إلا امرأته ، فسألها عنه ، فأخبرته أنه خرج يبتغي لهم شيئاً ؛ ثم شكت إليه سوء الحال ، وضيق اليد ، وشظف العيش ، فرأى فيها امرأة متمردة على القدر ، ناقية على القضاء ، غير راضية بما قسمه الله لها ، ورأى أنها لا تصلح لابنه زوجاً ، لتبرئها بالحياة معه ، وشكواها من معاشرتها إياه ، فأشاح عنها بوجهه ، ولوى عنان^(١) دابته ، بعد أن حملها السلام لابنه ، وأوصاها أن تبتلّغه أن يغيّر عتبة داره ، يكتفى بذلك أن يفارق زوجته ، وأن يستبدل بها خيراً منها .

وبعد لأي^(٢) أقبل إسماعيل إلى أهله ، وكأنه أنس شيئاً ، فقال لامرأته : هل جاءنا اليوم أحد ؟ فقالت : نعم ، طرق بابنا شيخ صفته كسيّمت وكسيّت ، سألنا عنك فأخبرناه بخبرك ، وأظهر أحداً عليك ، ورغبة في تعرّف أمرك ، وتبين حالك ، فأعلتّه بما نحن فيه من الضيق والشدة .

قال إسماعيل : هل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، هو يقرئك السلام ، ويوصيك أن تغيّر عتبة دارك . فقال : ذاك أبي ، وقد أمرني بفراقك ؛ وتركها غير آسف عليها .

ولم يلبث إبراهيم أن عاد يتفقد ولده ، ويطنّ لهيب شوقه ، وأتى دار إسماعيل ، ولكنه لم يجد فيها إلا امرأته ، فسألها عن مقره ومخطط رحاله ، فأخبرته أنه خرج يبتغي لهم رزقاً .

(١) حاف : زمام . (٢) اللاب : اللب والإبطاء .

ولما هم بالرجوع التفت إليها يسأئلهما عن حالهما ، ويستخبرها خبرهما ،
 فلهج (١) لسانها بالشاء ، وفاض بالحمد ، وذكرت له أنهما في خير من الله كثير ،
 وفيض من نعمته عميم ؛ حينئذ اطمأن قلبه ، وانشرح صدره إذ رآها قانعةراضية ،
 شاكرة مؤمنة ، وعلم أنها وزوجها في خير وسعة ، فأمرها أن تقرئ زوجها
 السلام ، وتوصيه أن يحافظ على عتبة داره ، وقفل راجعاً إلى أهله .

ولما طوى النهار أقبل إسماعيل إلى أهله كعادته ، ولم يلبث أن تجاذب زوجته
 أطراف الحديث ، فأخبرته أن شيخاً حسن الهيئة وسيم الطلعة ، يُجَمِّلُهُ الوقار ،
 وتكسوه الهيبة ، قد طرق اليوم بابهم ، وولج (٢) دارهم ، وأنه قد استنبأها خبره ،
 وأراد الوقوف على أمره ، فأخبرته أنهما في خير وسعة ، وأنه قد أوصاها أن
 تقرئه السلام ، وتأمره أن يثبت عتبة داره .

قال إسماعيل : ذاك أبي ، وقد أمرني ألا أفارقك ؛ فلازمها حياته ، وكانت
 أمَّ أبنائه .

بناء الكعبة (*)

لبث إبراهيمُ بعيداً عن ابنه ما شاء الله أن يلبث ، ثم وفد إليه ، لا ليتفقّد
 أمره ، أو يتعرف حاله ، أو يُروى صدى شوقه ، كما كان يفعل ؛ بل جاء اليوم
 هذه البقاع لأمرٍ جليل ، وشيء عظيم ؛ فقد أمر ببناء الكعبة ، وإقامة أول بيت

(١) لهج بالشئ : أغرى به وثار عليه . (٢) ولج : دخل .

(*) البقرة ١٢٥ - ١٢٩ . آل عمران ٩٦ . الحج ٢٦ . إبراهيم ٣٥ .

للناس ؛ فاستجاب لأمر ربه ، واضطلع به غير هيّاب ولا وِجل ، وخفّ إلى الحجاز ، وجدّ في البحث عن إسماعيل ، وأخذ يحُوبُ مواقع الماء ، ومنازل القبائل ، ومضارب الخيام ، حتى عثر عليه ، وقد جلس تحت شجرة باسقة الفروع ، وعمو يبرئ سِهَاماً له قريباً من زمزم .

ورآه إسماعيلُ مقبلاً ، فنفضَ يده مما كان يُعالجه ، وخفّ إلى استقباله ، وقد تهلّل وجهه ، وانبسّطت أساريره ، وانشرح صدره ، واندفع إليه مُهللاً ؛ وسرعان ما تعانق الوالدُ والولد ، وبثّ كلُّ منهما للآخر ما يجد . وبعد أن أطفأ جذوة الشوق ، وخفّفا لوعة الفراق ، جلسا يتحدثان ، ولو مدّدتَ عينيك لرأيتَ مظاهر الحنان والعطف ، وأحسستَ بواذر السرور والغبطة ، للقاء هذا الولد البارّ بذلك الوالد الرحيم .

مضى عليهما في هذا المقام وقتٌ طويل ، أفاقا بعده في نشوة السرور ، وهناك أفضى إبراهيم إلى ابنه بسرّ رهيب ، وأخبره بأمر عجيب ، فقال : يا بنيّ ، إن الله قد أمرني أن أبنيّ هنا بيتاً - وأشار إلى أكمة (١) مرتفعة على ما حولها - فكان إسماعيلُ أطوع له من بنّائه ، وما كان جوابه إلا السمع والطاعة .

ثم سارا إلى المكان يحدّوهما الرجاء ، وتزجيهما قوة من الله تشدّ من أزرها وتقوّى من عزمهما ، وصارا بالمعاول يحفران ، ويرفعان قواعد بيت الرحمن ، وهما يسألان الله ويقولان : (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

(١) الأكمة : الموضع يسكون أشد ارتفاعاً من غيره .

ولم يابشا طويلا حتى وضع الأساس^١ ، وظهر موضع البناء ، ثم جعل إسماعيل^٢ يأتي بالحجارة ، ويهيئ^٣ الأدوات والآلات ، ولإبراهيم يبنى . ولا شك أنه قد كانت هناك قوة تعاونهما ، حتى يضطلعا بهذا الأمر الخطير ، ويستطيعا وحدهما القيام بهذا العبء الثقيل .

ارتفع البناء ، وطال الجدار ، وقصرت يد إبراهيم عن أن تنال أعلى البناء ، وضعف الشيخ عن أن يرفع الحجارة إلى هذا العلو ، فقال : يا بُنَيَّ ، اطلب لي حجراً أضعه^٤ تحت قدمي لعلني أستطيع إتمام ما بدأت ، وأشرف على ما بنيت .

فذهب إسماعيل يبحث ، حتى عثر على الحجر الأسود ، فقدمه إلى أبيه ؛ فقام إبراهيم عليه ، وصار يبنى ، وإسماعيل يناوله ، وكلما كملت ناحية انتقل إلى أخرى ، وكلما فرغ من جدار سار إلى آخر ، وهكذا تم بناء البيت الذي جعله الله مثابة للناس ، تشتاق إليه أرواحهم ، وتحن^٥ إليه أفئدتهم ، استجابة^٦ لدعاء إبراهيم إذ قال : ﴿ فَاجْعَلْ أَفئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

لوط (*)

رحل إبراهيم عن مصر ، واصطحب معه في سفره لوطا ، ورجعا من هذه البلاد بمال كثير ، وخير موفور ، ونزلا تلك الأرض المقدسة ، ثم ضاقت بأنعامهما وأغنامهما بقعة الأرض التي نزلا بها ؛ فنزح لوط عن محلة (١) عمه إبراهيم ، واستقر به المقام بمدينة سدوم .

وقد كان أهلها ذوى أخلاق فاسدة ونوايا سيئة ، لا يتعففون عن معصية ، ولا يتناهون عن مُنكر فعلوه ؛ وكانوا من أجز الناس وأقبحهم سيرة ، وأخبثهم سريرة ، يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ، ويتربصون لئكل سار ، فيجتمعون عليه من كل حدب وصوب ، ويسلبونه ما حمل ، ثم يتركونه يندب حظه ، ويبكى ضياع ماله ؛ لا يردهم عن ذلك دين ، ولا يصدمهم حياء ، ولا يرعؤون لوعظ واعظ ، ولا يستمعون لنصيحة من عاقل .

وكان نفوسهم الظامئة إلى الإثم لم ترورها تلك الذنوب ، وأفئدتهم المتعطشة إلى الإجمام لم تكفها هذه القبايح ؛ فابتدعوا فاحشة لم يسبقوا إلى اجترامها ، وتعاطوا محرما ما كان يدور بخلد أحد اقترافه ، فكانوا يأتون الذكران من العالمين ، ويدّرون (٢) ما خلق الله من النساء فلا يقربونهن .

(٥) الأعراف ٨٠ - ٨٤ . النمل ٥٤ - ٥٨ ، هود ٧٧ - ٨٣ . العنكبوت ٢٦ - ٣٥ . الشعراء ١٦٠ - ١٧٥ . الحجر ٥٧ - ٧٧ . الصافات ١٣٣ - ١٣٨ . الأنعام ٨٦ . الأنبياء ٤٧ - ٧٥ . الحج ٤٣ - ٣٤ . ق ١٣ - ١٤ . القمر ٣٣ - ٣٩ .
(١) المحلة : منزل القوم . (٢) يذوون : يتركون .

وليتهم سترُوا بليّتهم ، أو حاولوا الخلاصَ من عارها ، والبعدَ عن شرّها ؛
ولكنهم كانوا يحملون الناس على مُشايعتهم ، ويدعونهم إلى الكُنْج من قِليبهم ^(١) ،
وتمادَوْا في ضلالهم ، حتى فشَت المنكرات ، وكثرت الموبقات ، وأُشْرِبت قلوبُهم
حبَّ الفاحشة .

ولما أصاب القوم ما أصابهم ، واستحبُّوا الضلالة على الهدى ، وآثروا
الغواية على الرُّشد ، واستحوذ عليهم الشيطان يستميلهم إلى المعاصي ، ويزينُ لهم
الشهوات - أوحى الله إلى لوط أن يدعوهم إلى عبادة الله ، وينهاهم عن اقتراف هذه
الجرائم ؛ فأذن فيهم بدعوته ، وأعلن بينهم رسالته ، ولكن آذانهم وقّرتْ ،
وعيونهم عميتْ ، وقلوبهم غلّفتْ ، فاندفعوا في شرورهم ، واستمروا على فجورهم ،
وتمادَوْا في طغيانهم ، ولم يردعوا عن غيِّهم ؛ بل حدَّثتهم نفوسهم الأمارة بالسوء ،
وسوّلت لهم عقولهم التي أضاعها العبث ، وتمسكها الشر ، أن يُخرجوا رسولهم من
بين ظُهور أيّهم ؛ فتوعدوه ومن آمن معه بالإبعاد عن قريتهم ، مع أنه لم يرتكب
جُرمًا إلا مُبعده عن مساوئهم ، ولم يقتَرِف إثماً إلا أنه تطهّر من دنسهم ، ونعَى
عليهم طريقهم ، ونأى عن قبائحهم ، ودعاهم إلى الطريق السويّ ، وهداهم إلى
الصراط المستقيم .

ولما رأى منهم ميلاً عن طاعته ، خوّفهم بأس الله وعذابه ، فلم يأتوها لتحذيره ،
واستخفّوا بوعيده ، فألح عليهم بالعظّات ، وأنذرهم سوء العاقبة ، ولكنهم لم يقلعوا
عما كانوا فيه ؛ بل ازدادوا تعلقاً به ورغبة فيه ، وتحدّوه أن يأتيتهم بالعذاب ،
ويُنزل عليهم ما يستحقون من عقاب .

(١) القليب : البئر .

سأل لوط ربه أن ينصره على هؤلاء القوم المفسدين ، ويوقع بهم العذاب الأليم ، وطلب إليه أن يجزيهم على كفرهم وعنادهم ، ويعاقبهم على بغيتهم وفجورهم ، ففهم الداء الويل الذي يخاف انتشاره ، والعضو المريض الذي لا بد من استئصاله . ألم يعيشوا في الأرض فساداً ! ألم يصدوا عن سبيل الله ، ويصيئوا آذانهم عن طريق الخير ، ويتنكبوا سبيل الهداية !

استجاب الله دعاءه ، وحقق سؤاله ، وبعث ملائكته إلى أهل هذه القرية الظالم أهلها ، لينزلوا بهم ما يستحقون من عقاب ، فعاجوا ^(١) أولاً بدار إبراهيم ؛ فحسبهم عابري سبيل ، فقدّم إليهم خير ما يقدم للأضياف ؛ ولكن أيديهم لم تمتد إلى قرأه ^(٢) ؛ فنكروهم ^(٣) وأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف ؛ ولم يزايلوا المكان حتى بشروه بغلام عليم .

وما أظن إبراهيم قد أفرخ روعه ^(٤) أو سكن وجيب ^(٥) قلبه ؛ لذلك استفسرهم عما يقصدون ، وقال ؛ ما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا ؛ إنا أرسلنا إلى القوم الذين لم يستجيبوا الدعوة لوط فكانوا من المجرمين ، وسنزل بهم عذاباً أليماً وبأساً شديداً ، جزاء ما اقترفوا من فجور ، واعتادوا من شرور .

عظم حزن إبراهيم ، وأخذ يجادلهم في قوم لوط ، ويرجو تأخير البلاء ، وتأجيل وقوع العذاب ؛ ولعله كان يأمل منهم الإنابة إلى الله ، والإقلاع عما يرتكبون من الذنوب ، والرجوع عما يقترفون من الفواحش ، وقد يكون إبراهيم قد خاف أن يمسّ لوط بأذى ، وهو مؤمن منكم لما يرتكبون ، ساخطاً على ما يجترحون ، وهو

-
- (١) عاج بالمكان : نزل به . (٢) القرى : ما يقدم للضيف .
 (٣) نكروه : أنكره . (٤) أفرخ روعه : ذهب فزعته .
 (٥) وجب القلب وجيباً : اضطرب .

لذلك ليس أهلاً للعقاب ، ولا مستحقاً للعذاب ؛ فأمره الملائكة أن يهون على نفسه ، ويخفف من حزنه ، ويدع الإجابة إلى الله من أجل هؤلاء القوم الذين يصرون على المعصية ، ويستمسكون بالخطيئة ، وأنبئوه أن لوطاً لن يصيبه أذى ، ولن يمسّه عذاب ؛ وسيكون هو وأهله من الناجين إلا امرأته ؛ فإن هواها معهم ؛ ورأيها تبع لرأيهم ذ.

ولما فصلت ^(١) الملائكة عن إبراهيم أتوا أرض سدوم ^(٢) في صورة شبّان حسان ، وفيما هم يهيمون بدخول هذه القرية عرضت لهم جارية تسستقي الماء لأهلها ، فسألوها أن تضيّقن ^(٣) ؛ فأشفقت من قومها عليهم ، واستضعفت نفسها عن حمايتهم ، وأرادت أن تستنجد بأبيها في الدفاع عنهم ، فأهلستهم حتى تذهب إليه فتستشيره في أمرهم ، وأتت أباهما ؛ فقالت : يا أبتاه ؛ أراك فتیان على باب المدينة ؛ ما رأيت وجوه قوم قط أصبح من وجوههم ، وأخاف أن يعلم بأمرهم قومك فيفضحهم .

هذا الوالد هو لوط ، وهذه الجارية هي ابنته ؛ ولا أظن لوطاً إلا دهش لهذه المفاجأة ، وأقبل على ابنته يسألها عن أمرهم ، ويستزيدها الحديث في شأنهم ، ويستلمهم خيراً السبل التي ينتهجها ، وأفضل الطرق التي يتبعها .

ولعله قد تردّد في السّعى لاستقبالهم ، وحار في قبول ضيافتهم ، وحدثته نفسه أن يبعث إليهم بعذره ، أو يُظهرهم على أمره ، فيكفّوه مدافعتة لقومه ، ويتركوه وشأنه ؛ ولكن الأريحية ^(٤) هزته ، والمروءة دفعته ، فاستصغر هذه

(١) فصلت : رجعت (٢) سدوم : مدينة من مدائن قوم لوط وقيل هي بالذال - اساف العرب (سدم) (٣) أضاف الرجل : أنزله ضيفاً (٤) الأريحية : الارتفاع للندى .

الصعاب ، واستخفّ بتلك العقبات ، وخرج إليهم خفية ، وهو ينأى عن عيون القوم ، ويحاول أن يصل إلى ضيفه ^(١) قبل أن يعترضوا طريقه ، ويصدّوه عن سبيله ؛ فقد حالوا بينه وبين العالمين ، وأمروه ألا يستضيف أحداً ، ونهوه أن يأوى في منزله طارقاً ؛ وكأني بهم قد حسبوه داء وبلاً ، فخافوا انتشاره ، وظنوه خطراً جسيماً فخشوا طغيانه ، وما هو إلا عدو لقبائهم ، ومنكر لمناسدهم .

تسلّل لوط خفيةً ، وسار حتى التقى بالملائكة ، فاستقبلهم ببشره ، وتلقاهم بوجهه ، ثم دعاهم إلى مصاحبته ، وتقدمهم نحو بيته ؛ ولكن الرساوس جاشت في نفسه ، والمخاوف دبّت إلى قلبه ، فضاق ذراعاً بضيفاتهم ، وخاف أن يعلم قومه بنزولهم ، ويقتنوا على دخيلة أمرهم ، فیهبوا إليه مسرعين ، وهو ليس في منعة منهم ؛ أو في عصبية تمنعه من اعتدائهم .

ولكنه سار بهم حتى نزلوا بداره ، وما أظنه إلا بالتخ في كتمان أمرهم ، وتستر خوفاً أن يتسرب إلى القوم خبرهم ، وكانت امرأته تسير القوم في طريقهم ، فأذاعت خبرهم ، وأعلنت قومها بأمرهم ؛ وسرعان ما جاءوا إليه يهرعون ، وأقبلوا عليه مستبشرين ؛ وفزع لوط حين رأى القوم قد اجتمعوا يريدون الفاحشة ، ويرغبون في المنكر ؛ فناشدهم تقوى الله ، ودعاهم إلى ستر مخازيهم ، والكف عن مساوئهم ؛ ولكنهم جميعاً فجرة سفهاء ، وكفرة أغبياء ؛ لذلك لم يستمعوا إلى نصيحته ، ولم ينزلوا على إرادته ، فأغلق الباب دونهم ، وحال بينهم وبين ما يشتهون .

ويخيل إلى أن القوم قد غاض الحياء من وجوههم ، أو أصابهم مَسٌّ في

(١) الضيف ، يطلق على الواحد والجمع .

عقولهم ، فتدافعوا وراء المنكرات ، وتظاهروا على القبائح !

ولما رأى لوط أنهم لم يطيعوا إشارته ، ولم يصيخوا لدعوته ، أرشدهم إلى غشيان نسائهم اللاتي جعلهن الله حلالا لهم ، وأمرهم أن يجتنبوا هذه العادة السيئة ؛ ويحذروا عاقبة هذه القبائح المنكرة ، ولكنهم مع ذلك لم ينتهوا ولم يردعوا ؛ بل ازدادوا تمسكا بما جاءوا له ، وتعلقا بما شغفت نفوسهم الدنيئة به ، وتشبها بما عزموا عليه من فاحشة ، وقالوا : يا لوط ، لقد علمت مالنا في بناتك من حق ، وليس لنا في النساء من حاجة أو رغبة ، وإنك لتعلم ما نريد !

ضاقت بلوط السبيل ، وسدت أمامه أبواب الأمل ؛ فأخذه من الكرب والبرحاء (١) ما جعله يتلهف على نجاة أضيافه ، وخلاصهم من قومه ، فقال : لو أن لي بكم قوة لا استطعت أن أمنع عدوانكم ، وآمن شركم ، وأقف في وجوهكم ، ولو كنت في منعة وعزة لقومت معوَجكم ، وألننت قناتكم .

ولكن القوم قد أعمتهم الضلالة ، فلم يستبينوا سبيل الرشد الذي دلهم عليه ، ولم يحيدوا عن طريق الشر الذي حاول أن يصدّهم عنه ، فهم في نزوة الشر مندفعون ، وإلى اقتراف الإثم يتسابقون .

فغشيته سحابة من الحزن ، وتملكته ثورة من الغضب ؛ حين يئس من ردّهم ، وناله الإعياء والكلال من صدّهم ، ورآهم قد اقتحموا منزله وقهروه ، وهجموا على ضيفه وفَضَحوه ، وهو لم يألُ جهداً في نصّحهم ، ولم يترك سبيلا لردّهم .

ولما رأى الملائكة ما هو فيه من الوجد والحزن رَدُّوا لَهْفَتَهُ ، وسكَّنوا رَوْعَهُ ؛ وقالوا : يالوط ، إنا رسلُ ربك ، جئنا لإِنقاذك ، ودَفَع السُّعدوان عنك ، فلن يَصِلَ هؤلاء الكفَّرةُ إِلَيْكَ ، وإنهم لمهزومون .

وما عَتَمُوا (١) أن تولاهم الفزع والرعب ، فتولَّوا هارين متوَعِّدين .
ولكن لوطاً قد أصبح ، وقد كشفَ الله عنه العُخمة ، ، وأحاطه بعنايته ، وآزره بنصرته ، لا يَأْبَهُ لهذا الوعيد ، ولا يَضِيرُهُ هذا التهديد .

ولما انقشعت غياهبُ الحزن عن لوط أمره الملائكة أن يَسْرِى هو وأهله بِقُطْع (٢) من الليل ، ويتركوا هذه القرية التي أذن الله أن ينزل بها العذاب ، ويَحِلَّ بها العقاب ، ثم نهوه أن يصطحب معه امرأته ؛ فسيَحِلُّ بها ما يحلُّ بالقوم لِنِفَاقِهَا ومشايعتها لهم ، وأمروه أن يدَّرع بالصبر والثبات عند نزول العذاب بهم .
خرج لوط وأهله ، وفارق تلك القرية غير آسف عليها ، حتى إذا صار بعيداً عنها جاءها أمر الله ، ونزل بها عذابه . وزُلْزِلَت الأرضُ زِلْزَالَهَا ، فصار عاليها سافلها ، ثم غشيت بمطر من سَجْجِيل (٣) ؛ فأصبحت ديارهم بِلِسْقَعاً ، ويوتهم خاوية بما ظلموا ؛ ﴿ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

(١) ما عتم : ما أبطأ .
(٢) قطع من الليل : آخر الليل .
(٣) السجّيل : الحجارة الصغيرة .
(٤) الشعراء ١٧٤ .

يعقوب (*)

١

تقدم يعقوب إلى أبيه إسحاق^(١) - وكان رجلاً شيخاً قد رقق جلده ؛
واعوججت قناته^(٢) - وقال: يا أبت ، إنني أشكو إليك عيصو أخى ، وأستعديك^(٣)
على توأده وتهديده ؛ فإنه منذ رمقتني^(٤) بعين رعايتك ، ودعوت لي بالبركة ،
وتكهننت لي بنسل طيب ، ومُلك موروث ، وعيش خافض^(٥) ؛ حسدني لهذه
الدعوات التي أسبغتها علي ، وتحقيد علي لهذه الرجية التي تمنيتها لي ، وأنكر
العلامة التي توسمتها فيّ ، فراح ينالني بقارص كلامه ، ويخزني بوجيع تأنيبه ،
ويخيفني بتهديده ووعيده ؛ حتى يبس^(٦) ما بيني وبينه من ود ، وتقطع ما كان
يجمعنا من رحم .

ثم هو فوق ذلك يفاخرني بامرأتيه هاتين اللتين تزوج بهما من كنعان ،
ويكاثرنى بما يرتقبه من أولاد بضيقون على الرزق ، وينزحونني بمنساكهم في
الحياة ؛ وقد شكوتُ إليك ؛ لتحكم بيني وبينه ؛ بما وهبك الله من رأى حكيم ،
وحلم راجح .

(٥) قصة يعقوب لم تذكر مفصلة في القرآن الكريم ، ولكننا رجعنا فيما أوردناه
إلى كتب التاريخ والتفسير . (١) قال ابن قتيبة في كتاب المعارف : « تزوج إسحاق
رفقا بذات ناحور ، وهي بذات عمه ، فولدت له عيصو ويعقوب توأمين » .
(٢) اعوججت قناته : كناية عن تقوس ظهره كبراً . (٣) أستعديك : أستنصرك .
(٤) رمقتني : لحظتني (٥) خافض : لين (٦) يبس الود : زال .

قال إسحاق - وقد أهمّه ما رأى من القطيعة بين الأخوين ، والنفزة بين الشقيقين : يا بُنى ، إني - كما ترى من هذه اللّمة ^(١) البيضاء ، والجبين المنغصّن ، والظهر المتقوس - أصبحت شيخاً متهدماً ، خذلتني قوتي ، ووقفت بي الأيام على ثنية ^(٢) الوّداع ، وإنه يوشك أن يوافيني الأجل ، ويقطع ما بيني وبين الحياة من أسباب : ولا آمن عليك بعدى : أن يُعاليّنك ^(٣) أخوك بالعداوة ، ويحسّر لك اللثام عن بطش وكيد ، وهو في منعة من شدة أسره ^(٤) ، وقوة خلقه ، وفي حرز من أصهاره وذوى قرّباه .

وما أرى إلا أن تزجّ مع رحيل إلى فدان آرام من أرض العراق ، حيث خالك لابان بن بتويل ، فأبن على إحدى بناته ؛ فإنك تنال العز والشرف والمجد والمنعة ؛ ثم عد بعدها إلى هذه الأرض ؛ وإني لأرجو لك عيشاً أخفض من عيش أخيك ؛ ونسلاً طاهراً خيراً من نسله وولده ، والله يكلّوك بعينه ، ويحفظك برعايته .

٢

كانت هذه الكلمات على قلب الفتى يعقوب أندى من نقيع ^(٥) بارد على فؤاد محرور ^(٦) ؛ وجد فيها مُتنفساً ل صدره ، وروحاً لقلبه ، ونزعت نفسه إلى منببت الأهل وبلد الآباء والأجداد ، فاستودع أبويه بدموع سخينة ، وشيعة بدعوات طيبة كريمة ؛ وخرج مخترقاً الصحراء ، مُسرياً بالليل ، وسائراً بالنهار ،

(١) اللمة : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن . (٢) الثنية في الاصل : الطريق .

(٣) يعاليّنك : يصارحك . (٤) الأسر : الخلق القوي .

(٥) النقيع : الشراب السائغ (٦) محرور : اشتد حره .

يرفعه تَجِدُ ويخفضه وَهْدٌ ، ولقاءُ خاله نُصِبَ عَينيه ، وكلباتُ أبيه ملء سمعه
وبصره ؛ وعناية الله تَرُمُقُه وترعاه .

وكان كلما أتعبه السير وأضناه بُعْدُ الشُّقَّةِ ، تَذَكَّرَ الأمل الذي يرجوه ،
والخير الذي يرتقبه ، فيسهل الحزنَ وينقاد السير .

وطلع يوم تحرَّقت سَمَائُه (١) ، وهبَّت سَوَافِيه (٢) ، ورمت الشمس الأرض
بسهامها المُحْمَاة ؛ فشَقَّ على يعقوب السير ، وبعثت أمامه الشُّقَّةُ ، وتلفَّت أمامه
فإذا بصحراء ممتدة إلى حيث ينتهى البصر ، ورمال ليس بها صَوًى ولا مَعْلَم (٣) ؛
فأدركه السَّامُ ، وأحسَّ مسَّ اللَّغَبِ والنَّصَبِ (٤) ، ووقف ساعة بين الإحجام
والإقدام ؛ أُوِاصل السير ويتغلب على الصعب ، فيظفر بما عساه أن يُقَوِّىَ
عَصْدُه ، ويشدُّ أزره ، أم يُؤَوِّرَ العافية والدَّعة على هذا السفر الشاق الطويل ،
ويَقْتَنِعَ من الغنيمة بالإياب !

وفيا هو يفكر ويدبّر لمح صخرة تكسِفُ ظلاً ، فدلف إليها ليجلس ساعة
يُريح فيها جسمه ، ويُبرِدَ قدميه ، وما أسند ظهره إلى الصخرة حتى أدركته سِنَةٌ
فنام ، ورأى فى نومه رُؤيا صالحة ، أشرقت لها جوانبُ نفسه ، وغرّدت بلابل
آماله ، ورأى أن الله سيؤتيه عيشاً رُضِيّاً ، ويمنحه ملكاً وسيعاً ، ويرزقه نسلًا طيباً
مباركاً ، يورثهم الأرض ويعلمهم الكتاب .

فقام من نومه مشروح الصدر ، مصقول الذَّهن ، مُطْلَق النفس من عقّال

(١) السَّمَاءُ : جمع سموم ، وهى الريح الحارة (٢) سَفَتِ الريح التراب : ذرته وحمله

(٣) الصوى : ما غاظ وارتفع من الأرض ، والمعلم : ما يستدل به .

(٤) اللَّغَبُ : التعب والإعياء .

السَّام ، وقد انفسحت أمامه رُقعة الأمل ، وشام مخايلَ الرجاء ؛ إذ رأى تعزيزاً
لنبوءة أبيه ، وبشيراً بتحقيق أمانيه ؛ وانطلق يعدو كالسهم ، مستأنفاً السير
بعزمٍ جديد .

٣

وطويت الأرض ، وقضيت أيام ، وإذا هو مُشرفٌ على سوادٍ رآه ؛ فعقد
به حبلَ الأمل ، ووصله بما في نفسه من رجاء ؛ أن يكون هذا طليعةَ البلد ،
وموطنَ الشيخ لابان ؛ وخفَّ إليه مسرعاً ، فوجد أن ظنه لم يخطئ ، ورجاه
لم يخيب .

ها هي ذى أقدامه قد بدأت تبتد ، وقلبه قد ذهب عنه الصدا والفُستور ،
وها هي ذى نفسه قد عاودها الجحام ^(١) ؛ وتلك هي قطعان الغنم ، وأسراب الطير ،
وطلائع الشجر ؛ بل هم أولئك رعاة يغشون ، وأطفال يهزجون ^(٢) ويمرحون .
إذن هو قد فارق الصحراء ؛ وإذن هو في أرض إبراهيم التي نبتت فيها رسالته ،
وطلعت شريعته ، وفي أرض خاله ، غايته التي يرجوها ، ورجيته التي قطع المفاوز
في سبيلها ، فليسجد لله شكراً لنعمته ؛ واعترافاً بتوفيقه وهدايته .

٤

تقدم يعقوب الغريبُ سائلاً متلطفاً : أفيكم من يعرف لابان بن بتويل ؟

(١) الجحام - كسحاب : الراحة (٢) المزج : التطريب بالصوت .

قالوا : وَمَنْ مَنَا لَا يَعْرِفُ لَا بَانَ صَهْرَ إِسْحَاقَ الرَّسُولِ ! إِنَّهُ عَمِيدُ بَيْتِهِ ، وَشِهَابُ قَوْمِهِ ، وَصَاحِبُ هَذِهِ الْقِطْعَانِ الَّتِي تَسِيلُ بِهَا هَذِهِ الْبَطِيحُ (١) . قَالَ : وَهَلْ فِيكُمْ مَنْ يَدُلُّنِي عَلَى دَارِهِ أَوْ يَرْشِدُنِي إِلَى مَكَانِهِ ؟ قَالُوا : هَاهُنَا ذِي بَنْتِهِ رَاحِيلُ مُقْبِلَةٌ تَعْدُو وَرَاءَ الْغَنَمِ . فَتَلَقَّتْ يَعْقُوبَ فَإِذَا فَتَاةٌ قَسِيمَةٌ (٢) الْوَجْهَ ، كَامِلَةُ الْخَلْقِ ، ذَاتُ رَوْنَقٍ مُعْجِبٍ ، وَحَسَنُ بَارِعٍ ؛ فَاضْطَرَبَ فُؤَادُهُ ، وَأَحْسَّ كَأَنَّهُ مُجْبَسَةٌ (٣) تَعْقِلُ لِسَانَهُ ، وَلَكِنَّهُ جَمَعَ نَفْسَهُ ، وَاسْتَرَدَّ عَازِبَ حِلْمِهِ وَعَقْلَهُ ، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهَا قَائِلًا : إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَرَابَةٌ وَشَيْجَةٌ ، وَآصِرَةٌ (٤) وَثِيقَةٌ ، فَإِنِّي مِنْ هَذِهِ الدَّوْحَةِ الَّتِي تُظِلُّكَ ، وَمِنْ تِلْكَ النَّسَبَةِ الَّتِي تَفَرَّعَتْ مِنْهَا ؛ أَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الرَّسُولِ ، وَابْنُ رَفِيقَةِ بَنَتِ جَدِّكَ بِتَوِيلٍ ، نَزَحْتُ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ ، وَقَطَعْتُ هَذِهِ الصَّحْرَاءَ الَّتِي تَصْهَرُ الْجِلْدَ ، وَتُدْمِي الْقَدَمِينَ ، مَقْتَحِمًا الصَّعَابَ فِي سَبِيلِ أَنْ أَلْقَى لَابَانَ لِأَمْرِ جَلِيلٍ . فَرَحَّبَتْ بِلِقَائِهِ فِي طَرَفٍ غَضِيضٍ ، وَحَدِيثِ كَرِيمٍ ، وَانْطَلَقَتْ مَعَهُ إِلَى الْمَنْزِلِ .

وَفِيمَا هُوَ فِي الطَّرِيقِ أَحْسَّ كَأَنَّهُ اضْطَرَّابًا بِفُؤَادِهِ ، أَوْ كَأَنَّهُ طَائِرًا طَارَ مِنْ قَلْبِهِ ، أَكَّانَ ذَلِكَ لِرُؤْيَا هَذِهِ الْفَتَاةِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ أُمْلَهُ الَّذِي يَرْجُوهُ ، وَنَبْوءَتِهِ الَّتِي تَنْبَأُهَا لَهُ أَبُوهَ ، وَتَأْوِيلَ رُؤْيَاهِ الَّتِي رَأَاهَا فِي الصَّحْرَاءِ ؟ أَمْ كَانَ قَدْ اعْتَرَاهُ مَا يَعْتَرِي الطَّارِقَ الْغَرِيبَ مُقَدِّمًا عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ ! قَدْ يَكُونُ لِهَذَا وَقَدْ يَكُونُ لِذَاكَ ، وَلَكِنَّهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَلَكَ نَفْسَهُ ، وَأَمْسَكَ بِقُوَّتِهِ ، وَمَشَى بِخُطَوَاتٍ مَطْمَئِنَّةٍ ، حَتَّى التَّقَى بِخَالِهِ لَابَانَ ، وَمَا إِنْ رَأَاهُ حَتَّى عَانَقَهُ طَوِيلًا ، وَأَغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ بِالْدمُوعِ فَرَحًا ، تَمَّ أَحْلَاهُ مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلَهُ مَحَلًّا رَفِيعًا وَمَنْزِلَةً كَرِيمَةً .

(١) الْبَطِيحُ : جَمْعُ بَطِيحٍ ؛ وَهِيَ مَسِيلٌ وَاسِعٌ فِيهِ دِفَاقُ الْحَصَى . (٢) الْقَسِيمَةُ : الْحَسَنُ

(٣) الْمُجْبَسَةُ : تَعَذَّرَ الْحِكْلَامُ عِنْدَ إِزَادَتِهِ (٤) الْآصِرَةُ : الرَّحْمُ وَالْقَرَابَةُ .



أفضى يعقوبُ إلى خاله بما أرسله أبوه ، وما يرجوه من الإصهار إليه : وأنه قد رأى راحيل فخلّت من قلبه منزلة رجا أن تكون له بعدها زوجاً ^(١) ، والسبب الكريم الذي يربط بينه وبينه . فقال لابان : نعم ونعم عَيْن ^(٢) . قد أَجَبْتُكَ إلى سؤالك ، وأَعْنَتُكَ على مُبْتَغَى آمالك ؛ ولكن على أن تقيم عندي سبعَ حِجَجٍ ^(٣) ترعى ، لتكون لك صدَاقاً فيما تريد ، وأنت طَوال ^(٤) هذا العهد يَكْنَفُكَ منى جناح ، ويظلُّك قلبٌ عاطف رَوم .

فقبل يعقوب هذا الشرط ، وأخذ يرعى الغنم ، والأيام تدَّهَن له بمسول المني ، وتُحْيِي في نفسه بوارق الآمال .



كانت راحيل صغرى بنتين للابان ، وكانت لَينًا تكبُّرها في السن وإن كانت تليها في اعتدال الخلق وحسن التقاسيم ، ولم يكن في عزم الشيخ لابان ، ولا في شريعة وقومه أن يزوّج الصغرى قبل الكبرى ، ولكن نفسه لم تستجب له أن يصدَّ يعقوب عن راحيل ، بعد أن امتلأت منها نفسه ، وتعلق بها أمله ، فرأى مخرجاً من هذه الحيرة أن يجمع بينهما لهذا الفتي ؛ إذ هو لذلك

(١) يطلق الزوج على الزوجة .

(٢) نعم العين : أى أفل ذلك إكراماً لعينك .

(٣) حجج : سنين .

(٤) طوال : طول .

كفء (١) وأهل ، والشريعة القائمة لم تكن تأبى الجمع بين الأختين .

فلما قضى يعقوب الأجل ، وحن أن يبني على عرسه (٢) ، ويجمع شملته بأهله ، طلب من لابان أن يُنجز وعده ويُوفى له بشرطه . فقال له : يا بني : إن قلب الوالد وشريعة هذا البلد يأبيان علي أن أنكحك الصغرى قبل الكبرى ، فهذه لييا إن فضلتها راحيلُ بجهاها . فإنها تدانها في كمال عقلها وحرّ مها ؛ فخذها بصدّاقك زوجاً كريمة ، وإن شئت راحيل فامضِ عندي سبع حجج أخرى ، ترعى فيها الغنم أيضاً فيكون لك صدّاق آخر . أوف إليكِ به راحيل كريمة عزيزة .

وما كان ليعقوب وهو الرسول الكريم أن يرد لحاله حاجة ، أو يصدّه عن رغبة ، وهو الذي أكرم وفادته ، وغمره بإحسانه ، وآثره بمصاهرته ، فقبل ما اشترط ودخل بلنّيا ، حتى انقضت سبع حجج أخرى تزوج بعدها راحيل .

ووهب لابان لكل من بنتيه أمةً تقوم بخدمتها ورعاية أمورهما ، ولكنهما آثرتا يعقوب بهاتين الأمتين ؛ تحبباً فيه وزلفى إليه . ومن هاتين الأمتين ، ومن ليا وراحيل رزق يعقوب اثني عشر ابناً هم الأسباط (٣) .

(١) كفء (٢) عرس الرجل : امرأته .

(٣) الأسباط : هم رأوبين ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، ويساكر ، وزبولون - وهؤلاء من ليا . ويوسف ، وبنيامين من راحيل . ودان ، ونفتالى من بلهة جارية راحيل . وجاد ، وأشير من زلفة جارية ليا ، وقد ولدوا جميعاً في فدان آرام ، إلا بنيامين فإنه ولد في أرض كنعان . (البداية والنهاية ١ - ١٩٥) .

يوسف (*)

يوسف بين إخوته وأبيه

تنفّس الصباح ، ورَفَّتْ (١) الشمس بأجنحتها على الوجود ، وهبَّ يوسف من نومه على مُحاسنٍ عذب جميل ، وما جمع أشداته وضمَّ حواشيّه ، حتى خفَّ إلى أبيه مُشرق الوجه ، ضاحك السن ، مُنبسط الأسارير . قال : يا أبت ، إني رأيت ليلة الأمس رؤيا جميلة ، ضاءت (٢) لها جوانب نفسي ، وانشرح لها صدرى ﴿ رأيتُ أحدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشمس والقمر رأيتُهُم لي ساجدين ﴾ (٣) .

قتل وَجْهُ يعقوب وأشرق جبينُهُ ، ووضح البشُرُ بين عينيهِ ، وقال : يا بني ؛ إنها رؤيا صادقة ، تظاهر ما توَّسمته فيك من فضل ، وما رجوته لك من خير ؛ إنها بشرى بما سيخصُّك به الله من علم ، وما سيجبُوك به من نعمة يُتِمُّها عليك ؛ كما أتمَّها على أبويك إبراهيم وإسحاق من قبل ، ولكن لا تقصص رؤياك على إخوتك ؛ فقد عرفت غيبتهم مما أخصُّك به وأخاك من رعاية ، وأوثر كما به من إعزاز ؛ هم اليوم حديثهم عنكما كهمس ، وذكر كما على ألسنتهم تعريض ؛ ولو أنك حدثتهم برؤياك لا تأمن أن تشعل حقدهم ، وتثير كامن كراحتهم ، فيدبُّوا لك كيداً ، أو ينصبوا لك حبايلَ المكروه ؛ وما أسرع أن يشد الشيطان أزرهم ، ويشحذ في الشر عزائمهم !

(٥) يوسف ٣ - ١٠٤ ، المؤمن ٣٤ (١) رف الطائر : حرك جناحيه في الهواء .

(٢) ضاءت وأضاءت : بمني . (٣) يوسف ٤ .

كان يوسف إذ ذاك غلاماً يافعاً ، ورضى الطلعة ، ماسح الهيئة ، فتأن المشاهدة ، ماتت أمه راحيل ^(١) ، وتركته وأخاه بنيامين في الثامنة عشرة من عمره ، أشد ما يكونان حاجة إلى قلبها الرءوم . وصدرها العطوف ، ولهذا آثرهما يعقوب بالحب ، وخصهما بفضل وحنان ، ثم جاءت هذه الرؤيا مُذَكِّيةً لهذا الحب ، مضاعفةً لهذا الحنان ؛ ولم تخفَ على إخوة يوسف منزلته ومنزلة أخيه عند يعقوب ، وإن تحوَّط في السكتان ، وتظاهر بحب الجميع .

دلائل العشق لا تخفى على أحد كحامل المسك لا يخلو من العبق ^(٢)
فسرى إليهم داء الحسد ، ونبتت في صدورهم آكلة الأكباد ، وهاجت الغيرة ، وثار الحقد : واجتمعوا في ناد واحد ، وتشاوروا فيما يصنعون !

قال قائل منهم : ألا ترون أن يوسف وأخاه أحب إلى أيُّنا منا ، وأقرب إليه منا جميعاً ! لست أدري ما الذي يحول بيننا وبين قلبه ! وما الذي يُقَصِّر من شأونا عنده ! ألسنا أكبر من يوسف وأخيه ! ألسنا أشد منهما قوة وأكثر مُحَنَةً ^(٣) ! ألسنا القائمين على مصالحه ، الدائمين على خدمته ! فلماذا يخصهما دوننا بهذا الحب ! أليسرف يفضلائنا به ! لانرى ذلك الشرف واضحاً ، أم لأن راحيل أمهما كانت أقرب إلى قلبه من أمهاتنا ؟ ولكن ما ذنب الأبناء إذا تقاضيت الأمهات ! إن هذا لحيف ظاهر ، وضلال مبين .

(١) قيل لم تكن أمه ماتت بعد ، لأن ظاهر القرآن يقضى بذلك لقوله تعالى : (ورفع أبويه على العرش) . وقيل : بل ماتت ! والمقصود من أبويه أبوه وخالته ، لأن الحالة بمنزلة الأم . (٢) عبقث الراحة : بقيت . (٣) حنكته النجارب : هذبته .

وقال الثاني : إن محبة يعقوب ليوسف وأخيه قد نبئت في قلبه كما نبئت في
الراحتين الأصابع ؛ ولو أننا ذهبننا في سؤاله عن أسباب هذا الإيثار ، ونقاشه
مظاهر هذا التفضيل ، فقلّ أن نَنظُر بِجَدْوَى ؛ أو نَحْطَى بنصيب ؛ إذ للحب
سُلطان على النفوس ، لا يُمنع ولا يمنع . ولا يُسلم ولا يُسلم ؛ هو عاطفة
فوق سُلطان العقل ، وميل يسترقُّ القلوب ؛ وما دُمننا نرى يوسف بيننا فإنه
سيظلُّ هو وأخوه بين قلب يعقوب وشغافه ^(١) ، وما أرى شفاء لهذا الداء الذي
يقتل صدورنا ، وراحةً من هذه البلابل ^(٢) التي ترجعنا ، إلا أن نُريد ليوسف شرّاً ؛
نقتله ، ونمحو آثاره ، أو نذهب به في مَفازة ^(٣) بعيدة ، يأكله حيوان ، أو تدفنه
رمال الصحراء ، وحينئذ تقترب مسافة الخلف بيننا وبين أبنائنا أو تزول . وندنو
من قلبه ، ونأخذ ما حرّمنا من حبه ، ثم بعدها نستغفر الله من ذنبنا ، وما إخواننا
بعد ذلك إلا قوماً صالحين .

قال يهوذا - وكان من أسدّهم رأياً - وأرجعهم حلماً : نحن أبناء يعقوب الرسول
وأحفاد إبراهيم الخليل ؛ ولنا عقل ودين ، والقتل لا يُقرُّه العقل ، ويأباه الدين ؛
ويوسف غلام بريء ، لم يحن إثماً ، ولم يرتكب جرماً ، ولم يقدّم سوءاً ، ولكنكم
إذا كنتم مجمعين له لإبعاداً ، فهذا الجنب ^(٤) الذي بيّيت المقدس ، ملتقى الغادى
والرائح ، ألقوه فيه ، يلتقطه بعض السيّارة ^(٥) الذين يضربون في الأرض ،
فيذهبوا به إلى حيث شاءوا ، وحينئذ نكون قد نأشنا ما نرجوه من إبعاد يوسف ،
وخلصنا من إثم القتل وعاره .

فاستجابوا لهذا الرأي ، وبسّيتوا أمرهم على هذا العزم !

(١) الشغاف : غشاء القلب (٢) شدة الهم والوساوس . (٣) المفازة : الصحراء
(٤) الجنب : البئر البعيد القعر الكثيرة الماء ، وليست بمأوى الناس (٥) السيّارة : القافلة .

ولما أصبح الصباح ذهبوا إلى أبيهم ، والهوى يُزَيِّن لهم ما يصنعون ، والشيطان يحفزهم وهم يمكرون ، وقالوا : يا أبانا ، مالك لا تأمنّا على يوسف ، وهو أخونا وبضعة^(١) منا ، ونحن جميعاً أبناؤك ، يُظِلُّنا عطفُك ، وينتظمنا حُبُّك ! هَلَّا ترسله معنا غداً إلى ظاهر البلد^(٢) ، حيث السماء الصافية ، والشمس الضاحية^(٣) . والرَّيف الوَدِيع ، والظلّ الزرّيف : فبينما نحن نرعى الغنم ، ونتعهّد الأرض ، يلعب هو ويركض . ويعود آخر النهار أصحّ جسماً ؛ وأصنّ نفساً ؛ لئن أرسلته معنا لئن مُقِنه بعيوننا ، ولئن فَنّ عليه بقلوبنا ، ولئن يدَّنه بأرواحنا .

قال يعقوب - وقد حذر العاقبة ، وأشفق من وقوع المكروه : إنه لما يبعث كهني ، ويُثير أحزاني ؛ أن أرى يوسف بعيداً عن عيني وقلبي ، قصيًّا عن جناح عطفي وظلِّ رعايتي ؛ وإنني لأخشى أن تذهبوا به فيصادف الذئب^(٤) منكم غفلة ، أو ينتهز فرصة ؛ فيقتله ويأكله ؛ وحينئذ تخلصون لي حزنّاً طويلاً ، وقلباً لهيفاً ؛ وعيناً عبرى .

قالوا : أيأكله الذئب ونحن عصبة ليس فينا هشيم^(٥) ولا ضعيف ! لئن وقع ما تحذر إنا إذاً لخاسرون .

قال يعقوب : أمّا على أن تحوطوه بقلوبكم ، وتلاحظوه بعيونكم ؛ فدونكم وما تريدون ، والله من وراءكم محيط .

وأصبح الصباح وصحبهم يوسف ، وأخذوا طريقهم إلى الجب^(٦) ، وما وصلوا

(١) البضعة في الأصل : القطعة من اللحم (٢) ظاهر الأرض : ما ارتفع منها .

(٣) الضاحي من كل شيء : البارز الظاهر الذي لا يستقره منك حائط .

(٤) الذئب : الضعيف .

إليه حتى تكشفت نياتهم ، وبرزت سخائم ^(١) صدورهم ، وغلظت أكبادهم ، وقست قلوبهم ؛ فجرّده من قميصه ، وألقوه في الجبّ حيث تلعب به الأقدار ، ولم يشفع عنده دمع سخين ، ولا توسل وجميع .

وحسبوا أنهم بذلك شفّوا غيظ صدورهم ، أو أطفئوا وقدة أحقادهم ، وأنّ قلب أبيهم سيخلو لحبهم ؛ ونفسته تخلص لهم ، وظنوا أن الأيام ستسلي عليه ، وحبته لهم من بعده يلهيه ، ولكنهم قدروا والأقدار تضحك ، ودبروا وأمر الله غالب .

ورجعوا إلى أبيهم عشاءً يلفقون القول ، ويؤثرون الحديث ^(٢) ، واصطنعوا البكاء ظناً منهم أن هذا سيدنّض بحجّتهم ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ^(٣) ، محسباناً منهم أنه يقوم برهاناً على صدق دعواهم .

وقالوا : يا أبانا ؛ لقد وقع ما كنت تحذره ، وحلّ ما كنت تخشاه ؛ لقد تركنا يوسف عند متاعنا ، وذهبنا نجري متسابقين ، وما ظننا أن الذئب يقصد يوسف ويترقب به الأذى ، ولكنه وجد وحيداً ؛ فهجم عليه وأكله ، وخلف لنا هذا الحزن الذي يكاد يفتيك بصدورنا ، وتلك العبرات التي تفيض بها عيوننا ؛ وذلك قميصه مضرّج بدمه ، وما نظنّك تؤمن بصدق قولنا ، ولو كنّا صادقين !

قال يعقوب - وقد فطن إلى ما كادوا ، ونفذ ببصيرته إلى ما دبّروا ، وعلم أن لله شأناً في هذا الغلام هو لا بدّ بالغه : لقد سوّلت ^(٤) لكم أنفسكم أنكرًا ، وأملى عليكم الحسد أمراً ، ولكنني سأصبر صبراً جميلاً ، حتى ينكشف أمركم ، وتظهر عاقبة كيديكم ؛ والله المستعان على ما تصفون .

(٢) زور الكلام : أعدّه وهياه .

(٤) سولت له نفسه : زيّنته له .

(١) السخيمة : الحقد .

(٣) دم كذب : مكذب .

يوسف في الحب

يوسف الآن في الحبّ يحتويه ظلامه ! ويشتمله سكونه : محنة يُمتَحَن بها هذا الفتي الكريم ؛ والله يمتحن المخلصين من عباده بأنواع المصائب ، ويفتنهم ^(١) بضروب الآلام ؛ ليكونوا أقدرَ احتمالا على ما يُلاقى عليهم من مهمّات الأمور وعظيماها .

ولم تكن محنة أنكى في الداء ، وأبلغ في الألم ، وأبعث على الجزع من هذه المحنة التي ابتلي بها يوسف . وربما كانت هذه المحنة أخفّ وقعا ، وأهون شأنا ، لو أنها وقعت على رجل سخر أساليب الحياة ، ونجّم عيّدان ^(٢) الأمور ؛ إذن لعرف كيف يحتال لنفسه ، أو يتدبّر في أمره ؛ ولكن يوسف لا يزال فتي غريراً لا يرش ^(٣) ولا يبري .

وربما كانت أخفّ احتمالا لو أن يوسف كان قد اقترف خطيئة ، أو ارتكب إثماً ؛ إذن كان خليقاً بهذه المحنة ، جديراً بهذا العذاب ؛ ولكنه كان مبرئاً من العيب ، بعيداً عن التهمة ، قاصياً عن مواطن الرّيب ، وهو بعد في زكاه الطفولة وغلابة القوّة ، وأمره في رقة الحاشية وخفض الجناح كان معروفاً مألوفاً .

ولو أن رمية يوسف كانت من غير إخوته ، ومحنة جاءته من غير آصرته ^(٤) لاحتملها قلبه ، واتسعت لها جوانب صدره ، ولم يتشعب فيها همه وأسفه ، ولكنه سبهم إخوته ورمية بني أبيه !

ولو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري ^(٥)

(١) يفتنهم : يختبرهم . (٢) عجم عيّدان الأمور : أي احتيرها .

(٣) يقال : أبرى النبال وأربشها : أي أنحتها وأصلحها ، وأعمل لها ريشاً لتصير سهماً

يرمى به . (٤) من لهم به صلة . (٥) الاعتصار : إزالة الغصة بالماء قليلاً قليلاً .

هو الآن يحول بعينه في نواحي الجب ، ويتلفت أمامه فلا يجد إلا ماءً راكداً ، يرى فيه خياله السكاسف^(١) ، وظله الحزين ، ويتلفت فوقه فلا يلمح إلا ظلاماً متكاثفاً لا يميز فيه شيئاً : ما عسى كانت بلائ^(٢)ه ! وما خطرات نفسه ! لعله تذكر أيامه : فأعادت إليه الذكرى ابتسامته التي كانت تطالقه في الصباح ، وحديثه الذي كان يتساقط إلى أذنيه في المساء ، وكلفه بذاته ، وتعاقبه بشخصه . وما حاله الآن بعده ؟ وأي حزن يشتمل عليه !

بل لعله قد رآه الظلام ، وأوحشه ضيق المكان : فحن السلعة الشمس وتألق البدر ، واشتباك النجم ، وزرقة السماء ، ورواق الضحا ، وبهجة الربيع ، وانسجام الظلال .

ثم هو قد جاع ، أو أنه سيجوع ، فمن أين يستحاجته ؟ وأتى له بالطعام الذي يحفظ جسمه ، ويطيل في الحياة أنفاسه ! بلابل^(٣) لا تحملها ساحة قلبه ، وهموم لا تتسع لها رقعة نفسه .

إن البلاء يُطاق غير مضاعفٍ فإذا تضاعف صار غير مُطاق

لكن رحمة الله قد أقربت منه ، فهو قد امتحنه بهذه البلوى ، وهو الذي سيربط قلبه ، وسيجمع ما تفرق من نفسه : ها قد أوحى إليه : أن تجمل بالصبر ، واعتصم بالعزاء : فإني جاعل لك من ضيقك مخرجاً ، ومن همك فرجاً ، وإني مظهر^(٤)ك على إخوتك ولكن بعد حين : عند ذلك ذهبت همومه ، ورجعت إليه نفسه ، وانتظر يرقب أمر الله .

(١) السكاسف : سبي الحال (٢) البلابل : الوسواس .

ها هو ذا يسمع من بعيد صدى حركة مُبهمة ، وأصوات مختلطة ؛ لقد أرهف سمعه ، وودّ لو أن كل جارحة من جوارحه استحالت آذاناً .

وها هي ذى الأصوات أخذت تقترب رويداً رويداً ؛ وتتضح شيئاً فشيئاً ، أصوات أسفرت عن وقع أقدام ، وخفق نعال ، ونباح كلاب ؛ هي قافلة ، وأمل يتسم ، وزهر الرجاء بدأ يتفتح ، وساعة الخلاص آن أوانها .

ألقت السيّارة ^(١) عصاها بجانب الجب ، وهتف رئيس القافلة بصوت سمعه يوسف ، ووقع على قلبه وقوع الماء من ذى الغلطة الصادي : ألق دلوّك يا هذا في الجب وامتح ^(٢) لنا ماء ننقع به غلتنا ، ونسد حاجتنا ، ونسقي دوابنا ، بعد أن أجهدنا السير ، وأصابنا بُعد الشقة ، وأخذ منا الكلال .

فألقى الرجل دلوّه ، وراه يوسف فتعلق به ، وما راع الرجل إلا غلام متعلق بالحبل ؛ وجهه كأنه فلقه قمر الفصاح : يا بشرى ، هذا غلام !

فاجتمع القوم ، وأخذهم الدهش . ثم أجمعوا رأيهم على أن يتخذوه غلاماً يبيعونه بمصر !

ولو أنهم كانوا يحملون بين جوانحهم قلوباً رحيمة ، أو يحتنون نفوساً كريمة لتعرّفوا حاله وردّوه إلى أهله ؛ ولكنهم بعض الأنام ، يحرون على طباع البشر : إنما أنفس الأندلس سباع يتفارسن جهرةً واغتيالاً واستأنفت القافلة السير ، حتى ألقت عصاها بمصر .

وهناك عرضوه للبيع في سوق الرقيق ؛ وهو الحر الأبى ، والرسول الكريم ، وباعوه بيع السباح ^(٣) بثمن قليل ، ﴿ ذَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ .

(١) السيّارة : القافلة ، ألقت عصاها : استقرت (٢) متع الماء : نزع وأخرجه .

(٣) السباح : المساهلة في البيع .

خَشِية أن يفتضح أمرهم ، أو يُهتَكَ سرُّهم ، ولو أنهم باعوه بملء الأرض ذهباً
لما كان ذلك عدلاً لهذه النفس العظيمة ، وكفء لهذا الغلام الكريم .

اشتراه عزيز مصر ^(١) ووزيرها الأكبر ، فتوسَّم فيه معدناً كريماً ، وعزقاً
طيباً ، فقال لامراته : هذا غلام يُخَيَّلُ إلى من معارفه وهدوء طبعه أنه نبيل
الفِطرة ، سرى ^(٢) الأخلاق ، كريم المنبت ؛ فأكرمه مثواه ومأواه ، وحاشاك أن
أن تزجره زجر الخدم ، أو تضربه ضرب العبيد ؛ فإنني لأرجو إذا اكتمل
عوده ، ونضجت سنُّه ، أن ينفعنا ، أو نتخذَه ولداً .

وانصرف يوسف إلى العمل ببیت العزيز ، في جِد وأمانة ، ولقى فيهم
أهلاً بأهل وجيراناً بحيران .

يوسف وامرأة العزيز



لم يكد يوسف يَخْلُص من محنة الجب ويخلدُ إلى حياة هادئة في منزل
العزيز ، حتى ابتدأت الأيام تخطيط له محنة أخرى ، يَقْوَى بها عزُّمه ، وتقرب إلى
الله بها نفسه ، والأقدار قد جاءت في محنته هذه من ناحية حسنه وجماله ، ودخلت
إليه من طريق فتوته وغضارة شبابه ، فشقي بهذا الحسن زمناً ، وجز عليه
بلاء طويلاً .

وكم رَمَتْ قَسَمَاتُ الحُسْنِ صاحبها وأتعبتْ قَصَبَاتُ السبقِ حاويها
وزهرة الرّوضِ لولا حُسْنُ رونقها لما استطالتْ عليها كفُ جانبيها

(١) هو رئيس شرطة مصر ، واسمه قوطيفار . (٢) رفيع .

ابتدأ يوسف في عمله ، وهيأت له الملابس إظهاراً مكنون حزمه وعقله ، وأمانته ونزاهته ؛ فازدادت به ثقة العزيز ، وأدخله فيما بين نفسه وأهله ، وبوّأه مكان الأشراف الأحرار ، ووضع من قلبه موضع الأبناء الأبرار .

وتقدمت به الأيام ، وأظله ربيعُ العمر ، وخلع قيصرُ الحداثة ، ولبس بُردُ الشباب ، وإذا امرأة العزيز يشغلها أمر هذا الغلام ؛ فأخذت ترقبه في غدوه ورواحه ، وتلاحظه في قيامه وقعوده ، وفي يقظته ومنامه ، وطعامه وشرابه ، وحرّكته وسكونه ، وبدت لها محاسنه الخفية ، وحيويته القوية ، وشعرت أن حبّه ينبت في قلبها ، وينبض في عروقها ، ويجرى مع أنفاسها ؛ فوسوست به في خلوتها ، وتمنّته - وللحسّان تمنّ في لياليها - ولكن كيف السبيل إليه ، وهي امرأة العزيز ، ومقامها في القصر مقامها ، ومكانة زوجها في مصر مكانتها ؛ لخير لها أن تغلب ميلها ، وتسحق هواها ، وتصرف نوازي الهوى عن نفسها ؛ ولكنها كلما رأتها مال إليه قلبها ، وبُعث الحب قوياً في صدرها .

وأشدُّ ما لُقِّيتُ من ألم الجوى قرب الحبيب وما إليه وصولُ

كالعيس في البَيْداء يقتلها الظما ^(١) والماء فوق ظهورها محمول

ولما ضاق صدرها ، ودنف ^(٢) جسمها ، رأت أن تجيب داعي الهوى ، وتجاذبه ثوب الغرام ، ولكن على ألا تُذل نفسها ، أو تهبط عن عرشها ؛ فنصبت له حبال الفتنة ، وأطلعت من نفسها على ماعساه أن يصيب نفسه ، ويشير داعية هواه .

لكنه أعرض عن تلويحها وتلبيحها ، وغض بصره عن محاسنها ورواق جمالها ؛ وما كان ليوسف - وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم - أن يميل

(١) العيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة . (٢) دنف : مرض وذبل .

قلبه إلى محزم ، أو تَجَنَّحَ به نفسه إلى معصية . وما كان له أيضاً - وقد مَهَّدَ له العزيزُ من كَسَفِهِ ، وبَسَطَ له مِهَادَ صَدْرِهِ ، وأُثْمِنَهُ على أهله - أن يَخْتَانَهُ في منزله ، أو يسوِّدَهُ في امرأته .

ولكن الإِعْرَاضَ ضَاعِفَ هواها ، والمنعَ أَثَارَ كَامِنَ غَرَامِهَا ؛ فرأت أن تَصِلَ بالتَصَرِّيحِ إلى ما لم تَنَلْهُ بالتَلْوِيحِ ، وأن تَكُونَ أَجْرَأَ على ما تَطْلُبُ ، وأَشْجَعَ فيما تريد ؛ فما بَقِيَ في قَلْوَسِ الصَّبْرِ مَنَزَعٌ ، وما عادت بعد اليوم تُطَاقُ صَدَهُ وإِعْرَاضَهُ ؛ وأَجْمَعَتِ الرَّأْيَ ، وهَيَّأتْ نَفْسَهَا لما تريد ؛ بعد أن أَلْقَتِ صَوْلَجانَ الملكِ ، ولبست شعار المَتَصَيِّبَةِ العاشِقةِ ، ودَعَتْهُ لِمَخْدَعِهَا فلبى سريعا ، استجابةً لأمْرِهَا ، وجرياً على عادته في طاعتها ؛ ثم أَسْدَلَتِ الشُّجُفَ (١) وغلَّتْ الأبوابَ ، وقالت : هَيْتَ (٢) لَكَ !

ولكن يوسف ، وإن كان في رَيعانِ الشبابِ ، وغَضاضَةِ الإِهَابِ ، وفراغِ البَالِ ، وحسنِ الحالِ ، قد ارتَضَعَ لِبَانَ الحِكْمَةِ ، وترعرَعَ في كَسَفِ الرِّسَالَةِ ، وأَعَدَّهُ اللهُ لشرفِ النبوةِ ، و﴿ اللهُ يَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ ؛ فقلبه مشغولُ بربه ، ليس فيه موضعُ تَسْتَمِيلِهِ المرأةَ ، أو تَسْتَهْوِيهِ نِزَوَاتِ الهوى .

أجابها : معاذ الله أن أُجِيبَكَ إلى ما تريدِين ، أو أَدْعِنَ إلى ما تَطْلُبِين ، وحاشاى أن أخون مولاي العزيز ، وهو الذي أحسن مَثْوَايَ ، وأَكْرَمَ مأوَايَ ، وما أنا بمنكِرٍ للنعمة ، ولا بجاحِدٍ للجميل .

إن كنتِ قد غلَّتْ الأبوابَ ، وأسَدَلْتَ الحُجُبَ ، فإن الله يعلم خائنة الأعينِ (٣) وما تُخْفِي الصدور ! وحاشاى أن تطاوعني نفسي لمعصيته ، أو أن

(١) السجف : الستور . (٢) هيت لك : تهيات لك .

(٣) أي ما تخون فيه من مسارقة النظر إلى ما لا يحل .

يستجيب قلبي إلى ما فيه غضبه ، إنه لا يفلح الظالمون !

امرأة العزيز في سَطوتها وعزتها ، وجمالها ودلالها ، تدعو فتى من فتيانها ، بل واحداً من خدامها ، فيأبى ويمتنع ، ويستكبر ويستعهم ، وهي الأميرة الناهية في قصرها ، والسيدة المطاعة في خدمتها وحشمها ! إنها لعظيمة لا يحتملها كبرياؤها ، وكبيرة لا تسبخها نفسها .

استطار غضبها ، وهاج هائجها ؛ فهمت به بطشاً ، وأرادت به سوءاً ؛ انتقاماً لعزتها المضاعة ، فهمم أن يلقى الشر بالشر ، ويصد الضرب بالضرب ، ولكنه أحسن بإشراق النبوة في نفسه ، ورأى برهان الله في قلبه ، وأوحى إليه : إن الفرار خير من القتال ، والمسالمة خير من الموائبة ؛ فاستجاب لَوحي ربه ، وهمم إلى الباب جرياً ، وهمت وراءه عدواً ، حتى أمسكته من قميصه ، وجذبتة من ثوبه . وما انتهى إلى الباب حتى رآه العزيز واقفاً وقميصه ممزقاً !

كان موقفاً يبعث على الريبة ^(١) ، ويشير الاتهام ، رجعت فيه المرأة إلى كيدها ومكرها ، والتجأ يوسف إلى صدقه وصراحته ... قالت : إن يوسف لم يرع حرمتك ، ولم يحفظ يدك ؛ فإنه حاول أن يدنس ثوبي ، فراودني عن نفسي ، ﴿ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

فلم يجد يوسف ملجأ إلا الصراحة في القول ، والاعتراف بالواقع ؛ إذ كانت جريئة في الكذب ، جريئة في البهتان ؛ فقال : هي التي راودتني عن نفسي ، وجذبتني ثوبي العفيف ، وهذا قميصي شاهداً على صدق دعواي .

وفيما هو في أمره معهما دخل ابن عمها ، وكان فطناً ليلاً ، زكناً أريباً ؛ فسمع القضية من أطرافها ، وفطن لما وراء قصتها ، فقال : إن كان قميصه قد ^(٢)

(١) الريبة : الشك (٢) القد : الشق طولاً .

من قبيل^(١) فصدقت وهو من السكاذبين ، وإن كان قيصه قد من دبر^(٢) فكذبت وهو من الصادقين .

فلما رأى قيصه قد من دبر ، جلت الزغوة عن الصريح^(٣) ، ووضح الحق الذى عينين ، وظهرت براءة يوسف ، والتفت العزيز إلى امرأته ، وقال : إن هذا من كيد النساء ومكرهن ؛ فاستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين . وأنت يا يوسف ، اربط لسانك عن الخوض فى الحديث ، خشية أن تشيع القالة ، وينتشر الحديث بين الناس .

٢

وشاع فى المدينة وعلى ألسنة النسوة ، وبين جنّبات القصور ، أن امرأة العزيز قد افتنت بسلامها العبرانى ، ووقعت فى غرامه ، واستهامت بجماله ؛ وأنها لما امتحنّت به من حبه ، وأصمّلت بنار عشقه ، قد نزلت عن عرشها ، ودعته لنفسها ؛ وسددت إليه سهام فتنها وسحرها ؛ ولكنه عزف^(٤) عنها ، وزهد فيها ، ولم يفتنه حسنّها ولا دلالها ، ولم يستهوّه روعتها ولا جمالها ، فهى لهذا مسلوّبة الفؤاد مضرّمة الأنفاس ، تخفى أمرها فيفضحها اللمع ، وتستر وجدها فينمّ عليه السقم .

وأخذت تلك القالة تشيع وتنشعب ، وتتخذ لها ألواناً وأشكالا ، حتى انتهت إلى امرأة العزيز ، وسقط فى سمعها كل ما تحدث به لداؤها^(٥) وأتراها من نسوة المدينة ، وما تزيّدن فيه ، وما نلنّه منها بحصائد ألسنتهن وقارص تأنيدهن ، فلم تر بدا أن تدحض هذا القول ، وتفلّ ذلك السلاح ، وتقابل مكرهن بمكر ، وكيدهن بكيد .

(١) قبل : أمام (٢) دبر : وراء (٣) الصريح : اللبّ الخالص ، وهو من باب التمثيل (٤) انصرف عنها . (٥) اللدات : جمع لدة ، وهى من يساوى المرء فى سنه .

فدعتهن في يوم من أيامها المشرقة إلى طعامها ؛ وهيات لهن مُتَكَات وثيرة ،
وأرائك مُرِيحة ، وخلعت عليهن أرديةَ الحفاوة ، وحاطتهن بهالة من النعيم ،
وقدمت لهن الفاكهة ، وآتت^(١) كل واحدةٍ مِنْهُن سكيناً ، وقالت ليوسف :
اخرج عليهن ، وأمش بين صفوفهن ؛ فخرج من مخدعه وقد صَبَغ الحياء غلالة
وجهِه ، وملاه الحسن من أخمصه إلى مفرقه^(٢) ؛ فشاهدن فتى لا كالفتيان ،
وشاباً لا كالشبان ، أبلج الغُرة ، وضئ الطلعة ، سَمَح المعارف ، حلو الملائح ،
ملء أردانه قوة وشباب ، وحشو درعه مهابة وجلال . وشاهدن من وراء هذه
القَسامة^(٣) نفساً جميلة كريمة ؛ فذهبن عما كن فيه ، وُخولطن في عقولهن ، فإذا
السكاكين تقع على أيديهن فتقطعها ، فقلن : حاش لله وتبارك خالقُه ! ﴿ ما هذا
ببشرٍ إن هذا إلا مَلَكٌ كريم ﴾ .

فصَفقت امرأة العزيز بدينها ، وكأنه قد سرى عنها ، وقالت : هذا يوسف
الذي لمتنني فيه ، وُخضتن في حديثي معه ، وهذا شأنك فيهِ ، وقد رأيتُنه عفواً ،
وشاهدتُنه لحاً ، فما بالكن تلبنني فيه ، وقد ترعرع في داري ، وبلغ أشده أُمَامِي ،
واستوى بين سَمْعِي وبصري ، فأنا أشاهدُه في قعوده وقيامه ، ويقظته ومنامه ،
وطعامه وشرابه ، وحركته وسكونه ، وأخلو به في ليلي ونهارى ، وأترأى له في
زيتني ، وأعرض على نظره ما ظهر من محاسني ؛ فيُعرض عني استعصاماً ، ولا يرفع
إلى طُرْفاً ، ولا يُميل نحوي عطفاً^(٤) ؛ بل يتجلى فيهِ الروح الملائكي بأظهر
مجاليه ، والعبادة الإلهية بأكمل معانيها .

(١) آتت : أعطت (٢) الأخص من باطن القدم : ما لم يصب الأرض . والفرق -
بمكسر الراء وفتحها : الموضع الذي يفرق فيه الشعر : القسامة : الحسن
(٣) أصل العطف الجانب ، ويقال : ثني عطفه عني ، أي أعرض

أَمْثِلْ هَذَا الْمَلِكَ الْقَاهِرَ يُسَمَّى عَبْدًا طَائِعًا ! وَمِثْلَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْمَقْهُورَةِ تُسَمَّى سَيِّدَةً مَالِكَةً ! تَأْمُرُ - بَلْ تُشِيرُ - فَتَطَاعُ ، ثُمَّ يَنْكُرُ عَلَيْهَا أَنْ تَرَاوِدَ فِتْرَةً ، وَتُرِيدَ إظهارَ سُلْطَانِهَا فَتَعْجِزُ !

لَا أُخْفِي عَلَيْكَ أَنَّي قَدْ رَاودْتَهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَجَذَبْتَهُ مِنْ قَلْبِهِ ، فَتَأْتِي ^(١) وَأَسْتَعْصِمُ ، وَأَنْصَرِفُ عَنِّي وَأَعْرِضُ ؛ وَلَا أُخْفِي عَلَيْكَ أَيْضًا أَنَّي سَرَفٌ لَا أُطِيقُ عَلَى إِعْرَاضِهِ صَبْرًا ؛ وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمْلِكَ لِقَلْبِي مَعَهُ زَمَانًا . فَهُوَ قَدْ مَلَكَ أَعِنَّةَ قَلْبِي ، وَاسْتَرْقَ فُؤَادِي ، وَأَطَالَ لَيْلِي ، وَسَلَبَ الْكَرَى ^(٢) مِنْ أَجْفَانِي ؛ وَلَسَكُنِي - وَقَدْ أَذَلَّتْ نَفْسِي ، وَافْتَضَحَ أَمَامَ النَّاسِ أَمْرِي - لَنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَا دَفْعَنَ بِهِ إِلَى غِيَابَاتِ ^(٣) السَّجْنِ ؛ يَعَانِي ظَلَامَهُ ، وَيُيْنَلِي فِيهِ رِذَاءَ شَبَابِهِ ؛ أَوْ لَاذِيقَتَهُ هَوَانَ نَفْسِهِ ، وَإِلْذَاءَ جَسْمِهِ ؛ فَهُمَا أَمْرَانِ يَخْتَارُ أَمْوَنَهُمَا عَلَيْهِ .

رَأَى النِّسْوَةَ مَا رَأَيْنَ مِنْ جَمَالِ يُوسُفَ وَرُوعَتِهِ وَرُفُونِقِهِ وَتَأَلَّقَ غُرَّتَهُ ، ثُمَّ رَأَيْنَ مَا رَأَيْنَ مِنْ حُرْقَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ ، وَصَسْبُوتِهَا وَتَمَنِّيْهَا فِي عَزِّهَا وَجَاهِهَا ، وَفِي سَطْوَتِهَا وَسُلْطَانِهَا ، ثُمَّ سَمِعِينَ مَا سَمِعْنَا مِنْ تَهْدِيدِهَا وَوَعِيدِهَا ؛ فَتَأَلَّبْنَا مَعَهَا عَلَيْهِ ، وَتَقَرَّبْنَا إِلَيْهِ ؛ قَالَتْ لَهُ إِحْدَاهُنَّ : أَيُّهَا الْفَقِي الْكَرِيمُ ، مَا هَذَا التَّأَلُّبُ وَالتَّمَنُّعُ ! وَلَمْ يَهَذَا الْإِنْصِرَافُ وَالْإِزْوَارُ ! أَلَيْسَ لَكَ قَلْبٌ يَلِينُ لِهَذِهِ الَّتِي أَسْلَمْتَ نَفْسَهَا ؛ وَدَفَعْتَ إِلَيْكَ بِقَلْبِهَا ! أَلَيْسَ لَكَ عَيْنٌ تَنْظُرُ إِلَى مَنْ "تَقْدِيرُ" السَّطْرِفِ بِحُسْنِهَا ، وَتَسْتَمِيلُ الْقَصِيَّ بِجَمَالِهَا ! أَلَسْتَ شَابًّا مَكْتَمِلَ الشَّبَابِ ، غَضِيضَ الْإِهَابِ ؛ لَكَ فِي الْمَرْأَةِ نَصِيبٌ ؛ وَمِنْ الْمَتْعَةِ بِهَا مَقْدَارٌ !

(١) تَأْتِي : أَمْتَع (٢) الْكَرَى : النُّومُ .

(٣) غِيَابَةُ كُلِّ شَيْءٍ : مَا اسْتَرْكَ مِنْهُ .

وقالت الأخرى : ودعك من جماها وغرامها أأست تنظر إلى مالها وسلطانها وعزها وجاهها ! ألم تعلم أن كل ما في هذا القصر مبذول لك لو أطيعتها ، فميسر لك لو أجببتها !

وقالت الثالثة : إن لم يكن لك مأرب في جماها ، أو مطعم في مالها ، أأست تخشى ما تورعته بك به من سجن لا تعلم مداه ، أو عذاب لا تدرك غايته أو منتهاه ! لخير لك أن تسلس من قيادك ، وأن تخفف من عنادك ، فتفوز بالحسنين : الجمال والمال ، وتأمن من شرين : السجن والعذاب .

قيل ذلك ، وحسب أنهن بالغات بكلامهن قرارة نفسه ، أو محركات مكان الهوى من فتواده ، ولكن يوسف اضطرب بين الوعد والوعيد ، وبين المنع والإغراء ، حتى خاف أن يشتبه عليه الأمر ، ويوسوس إليه الشيطان ؛ فتوسل إلى الله - والمؤمن لا يزال يفرع ^(١) إلى الله في كل ما يحزبه من هم ، أو يصيبه من مكروه ، أو يشتبه عليه من أمر ، فيلتمس منه العون والإرشاد .

وكذلك كان يوسف ؛ فإنه توجه إلى الله ، وتضرع إليه أن يصرف عنه السوء ؛ ويصد عنه كيد النساء ، وقال : رب ، إن السجن على ظلامي ووحشته أروح على نفسي ، وأميل إلى قلبي من مجاهدة هؤلاء النسوة ومغالبتن ؛ فيه أصبر على بلائك ، وأزيد إيماناً بقضائك ، وأعلم ماخفي على من شئون خلقك ؛ وقد يفتح لي باب الدعوة إلى معرفتك وتوحيديك ، وتنبأ لي الفرصة لعبادتك وتمجيدك ؛ وفيه أعبد نفسي لإقامة الحق ؛ ونصب ميزان العدل ؛ فيما عسى أن تخولني من الأمر ، كما وعدت أن تمكّن لي في الأرض ، ووعدك الحق وقولك الصدق .

أما أن أقيم بين هؤلاء النسوة ، يَفْتِنَنِي بالقول ، وَيُزْخِرْفَنِي باطل الحياة ،
فإنني لأخشى من هوائ أن يميل ، ومن الشيطان أن يُوسوس فيتغلب ، فأصبو
إليهن ، ﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ
أَصْبُ ۝ (١) إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

وكلُّ تلك المحن التي ابتلى بها يوسف ، والحبائل (٢) التي نُصِيبَتْ له ، والأقاويل
التي نُسِجَتْ حوله ، خرج منها عفيف النفس ، طاهر الذيل ؛ فقد افْتَنَّتْ سَيِّدَتُهُ
فِي مُرَاوَدَتِهِ ؛ ولكن لم يكن لذلك أدنى أثر في جَذْبِ خَلِصَاتِ نَظَرِهِ ، وَلَا خَفَقَاتِ
قَلْبِهِ ؛ بل ظلَّ معرضاً عنها ، متجاهلاً لها ، حتى إذا ما صارحته بكلمة اقشعرَّ جلدُهُ ؛
واستعاذ بربه ، وَأَنِفَ أَنْ يَخُونَ سَيِّدَهُ ، وَاتَّهَمْتُهُ بِالْإِعْتِدَاءِ عَلَيْهَا ؛ فشهد شاهدٌ من
أهلها بما أسقط حُجَّتَهَا ، وَأَوْهَى كَلَامَهَا ، واجتمع حوله النسوة يفتنه ، فما نَقَضْنَ
لَهُ مِرَّةً (٣) ، وَلَا حَوَّلْنَ لَهُ قَلْبًا .

ظهرت هذه العلامات دالة على براءته ، شاهدة على نزاهته وأمانته ، وعليها
العزيم ، واستيقنتها نفسه ؛ ولكن امرأته - وقد عِيلَ (٤) صبرها ، وانقطع من يوسف
رجاؤها - فزعت إليه ، وكان مطوَاعَةً لها ، وجملاً كَلُولاً في يدها ، وقالت له :
إن يوسف قد فضحني في أمرى ، واقترى على الزور في شرفي ؛ وما أرى إلا أن
تَسِجَنَهُ ، فتأخذ لشرفي ، وتشفي من غيظي .

فانقاد لقولها ، وصدع بأمرها ، ودفع يوسف إلى السجن ، بريئاً من
ذنبه ، كما كان الذئبُ بريئاً من دمه ؛ فاستقبل فيه مِحْنَةً جَدِيدَةً ، تَلَقَّاهَا بِقَلْبِ
الصَّابِرِينَ ، وَعِزِّ الْمُؤْمِنِينَ .

(١) أصب : أهن وأميل . (٢) الحبائل : جمع حباله ، وهي المصيدة .

(٣) المرة : طاقة الحبل وقوة الخلق . (٤) نفد صبرها .

يوسف السجين

دخل يوسف السجن - لا كما يدخل مجرمٌ قتل نفساً ، أو لص سرق متاعاً - بل دخول مظلوم لم تنصفه كلمة القضاء ؛ فأسلم نفسه يرجو عدل السماء ؛ دخله مُرتاح الضمير ، رضى النفس ، منقوع الفؤاد ؛ وما السجن وظلامه ، والأشر وأغلاله ؛ فى جانب هذه الفتنة التى أثرت حوله ، والمؤامرة التى دُبّرت الإيقاع به ! ألم يكن السجن نجاةً له من هذه الفتنة مُقصد بها ثلْمُ دينه ، والمؤامرة التى دُبّرت لو كس (١) خُلُقَه ، وإفساد عصمته ! وما ضرَّ يوسف أن يُسجن أو يمنع من الغدق والرواح ! أليس هو واجداً فى السجن قوماً جفاة ظالمين ، أو عتاة مجرمين ! لخيرُ له أن يقوم بينهم معلماً راشداً وناصحاً أميناً ؛ فلعله يَخْضِدُ (٢) من شوكة الظلم فيهم ، أو ينزع نوازى الشر من صدورهم ، فيكون قد طهر الإنسانية من بعض أدرانها ، وخفف عن كاهلها ما تنوء به من عبء مجرميها ؟

ألا يجد فيه قوماً مظلومين ، وأغفالا (٣) مساكين ! إنها فرصة طيبة ، وسانحة جميلة ، ليواسيهم فى آلامهم ، ويشاركهم فى محنتهم ، فيكون ذلك أروحَ لنفسه الرضية ، وأنسبَ لطبعه الكريم ، والله قد وعده النبوة ، ومناه بالرسالة . وأى شرف يعلو هذه المنزلة ! وأى عزٍ يطاول هذا المقدار ! فما يبالي بعد ذلك السجن والعذاب ، والقيّد والأغلال !

وامتدت أيام سجنه ، ومكث فيه دهرأ ، يعودُ المرضى ، ويواسى الضعفاء ،

(١) الوكس : النقصان . (٢) يخضد : يسكس .

(٣) الأغفال : جمع غفل ، وهو لا يرجى خيره ، ولا يخشى شره .

وَيَنْصَحُ الْأَشْقِيَاءَ ، وَيَنْشُرُ عَلَيْهِمْ مَعَ كُلِّ صَبْحٍ فَيْضاً مِنْ عِلْمِهِ ، وَقَبَساً مِنْ فَضْلِهِ ، حَتَّى أَحَبَّهُ الْمَسْجُونُونَ ، وَكَافَرُوا بِهِ . وَاطْمَأْنَنْتْ نَفُوسُهُمْ إِلَيْهِ .

وَدَخَلَ فِيمَنْ دَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ مِنْ حَاشِيَةِ الْمَلِكِ : سَاقِيهِ وَخَازِنَ طَعَامِهِ ؛ ذَاقَا مَعَهُ آلَامَ السَّجْنِ ، وَاحْتِمَالَ ذُلَّ الْأَسْرِ وَالْقَيْدِ ، حَتَّى أَصْبَحَا يَوْمًا عَلَى رُؤْيَا أَهْمَشَهُمَا ، وَأَزْعَجَتْ طَائِرَ الْأَطْمِشَانِ فِي صَدْرِهِمَا ؛ فَأَسْرَعَا إِلَى يُوسُفَ يَسْتَنْبِئَانِهِ عَنْ رُؤْيَيْهِمَا ، وَيَسْتَفْتِيَانِهِ فِي أَمْرِهِمَا .

قَالَ السَّاقِي : لَقَدْ رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي بَسْتَانٍ كَرُمٍ مَعْرُوشٍ ^(١) ، زَاهٍ مُخَضَّرٌ ؛ وَكَأَنَّ بِيَدِي كَأْسَ الْمَلِكِ ، أُعْصِرُ مِنْ عَنَاقِيدِهِ فِيهَا .

وَقَالَ الْخَازِنُ : وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ رَأَيْتُ كَأَنِّي أَحْمِلُ سَلَالًا فِيهَا أَصْنَافُ الْخَبْزِ وَالطَّعَامِ ، وَكَأَنَّ سَرَبًا مِنَ الطَّيْرِ يَتَهَاوَى إِلَيْهَا وَيَتَخَطَّفُهَا ؛ وَيَذْهَبُ بِهَا إِلَى مَكَانٍ سَحِيقٍ ؛ فَهَلْ لَكَ أَنْ تَنْبِئَنَا بِتَأْوِيلِ مَا رَأَيْنَا ؛ بِمَا نَعُوذُ فِيكَ مِنْ فَضْلِ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّنْذِيرِ !

وَكَانَ يُوسُفُ - قَبْلَ أَنْ يَلْجَأَ إِلَيْهِ الْفَتَيَانِ - قَدْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ ، وَآتَاهُ مَا وَعَدَهُ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَضْطَلَعَ بِمَا اضْطَلَعَ بِهِ أَبُوهُ مِنْ قَبْلِ ، مِنْ الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ ، وَإِشْعَالِ قَبَسِ الْإِيمَانِ . وَعَسَىٰ بِهِ أَنْ تَكُونَ دَعْوَتُهُ مُؤَكَّدَةً النِّجَاحِ ، مَقْرُونَةً بِالْفَلَاحِ ؛ فَهُوَ فِي قَوْمٍ فَقَرَاءٍ قَدْ طَهَّرَ نَفُوسَهُمُ الْفَقْرَ ، وَمَظْلُومِينَ يَسْتَشْرِفُونَ إِلَى الْإِيمَانِ ؛ وَهُؤُلَاءِ وَأَوْلَاؤُكَ أَقْرَبُ النَّاسِ لِفَهْمِ الدَّعْوَى ، وَأَكْثَرُهُمْ اسْتِعْدَادًا لِمَا يُبَلِّغُنِي عَلَيْهِمْ مِنْ هُدًى وَإِرْشَادٍ .

(١) معروش : له عرش ، والعرش : السقف .

وينا هو يتهيأ للدعوة ، ويُعقد نفسه لإعلان كلمة التوحيد إذ جاءه الفتيان ، وراها يوسفُ فرصةً يمهّدُ بها للدعوة ؛ فقال : يا قوم ، إن وراء هذه الأصنام التي تعبدونها ، والآلهة التي تتقربون إليها ، إلهاً قد أوحى إلي أن أدلكم عليه ، وأرشدكم إليه ، وأن ما تعبدونه من رَعٍ أو أيديس^(١) ، أو تمثال أو صنم ، ليست إلا أسماء ستمتعوها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان . ولا يحملكم على عبادتها دليل أو برهان ، وإن التستم دليلاً على صدقي ، أو أردتم برهاناً على صحة دعوتي ، فدونكم تأويل رؤيا الفتيين ؛ أما أحدهما فسيخرج من سجنه ، ويعودُ إلى سابقِ عهده ، ساقياً للملك ، قائماً بينه وبين ندمائه . وأما الآخر فسيصلب وستأكل الطير من رأسه ؛ عرفت هذا عن وحي غيب ، لا بكهانة^(٢) أو تنجيم ، أو ما يشبههما من صناعة أو تعليم ؛ ذلك مما علمني ربّي ؛ إني تركت مِلَّةَ قومٍ لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون .

ويوسف كان عالماً بصدق تأويله ، وبوقوع نبوءته ، فقال للساقى - وقد علم نجاته ، وتوقع صدور العفو عنه : يا هذا ، إذا ما فارقت سجنك ، ورجعت في قصر الملك إلى مكانك ، فاذكر له أن مظلوماً يحويه السجن ، ومتهماً بغير جريمة ، يعاني الأسر والأغلال .

وصحّ تأويلُ يوسف ، ونجا رجلٌ ومُصلب آخر ، وما ابتدأ الساقى يعود إلى مليكه ، حتى اضطرب فيما يضطرب فيه الناس ، وأنساه الشيطان أن يذكر يوسفَ لربه ، فلبث في السجن بضع سنين .

(١) رَع : علم على الشمس ، وأيديس : علم على العجل ، وكانا من الآلهة عند قدماء المصريين .

(٢) كهون : قضى بالغيب .

خروج يوسف من السجن

أصبح الملك على رؤيا أهميته وأفعيته ؛ فدعا إليه علماء دولته ، وأشراف قومه ، وقص عليهم ما رأى .

قال : إني أرى سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ^(١) مهزليل ، وسبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات ؛ ثم طلب إليهم تعبیر هذه الرؤيا ، وتفسير ذلك الحلم ؛ فكلهم عجز عن التأويل ، وعى عن التفسير ، وقالوا : خيالات وأوهام ، وأضغاث ^(٢) أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين !

ولكن هذه الرؤيا ذكرت ناسياً ، ونسيت لاهياً ، وأثارت عنده ذكريات بعيدة ، وأياماً في تاريخه ماضية ؛ فساقى الملك ما كاد يسمع هذه الرؤيا ، ويحس رغبة الملك في التأويل ، حتى تذكر يوسف السجين ؛ ذلك الذى أول له الرؤيا ، فصَدَق في التأويل . وهو الآن يمرح في أبراد ^(٣) النعمة ، ويتقلب في أعطاف النعيم .

قال : أيها الملك ، إن بالسجن قتي كريماً ، صائب الفكر ، مُدبهم الرأى ، يكشف ودائع الغيوب بنور عقله ، ويصيب شاكلة ^(٤) الصواب بثاقب تدبيره ، مُعَرِّض عليه الرؤيا فيخمرها ويُجِيلها ؛ ويجيد الفكرة فيها ويَطِيلها ، ثم يخرج بعد ذلك بالرأى الوثيق ، والتأويل الصادق ؛ ولو أرسلتني إليه لجئتُك بالخبر اليقين .

وانطلق الساقى إلى يوسف في سجنه ، ومهبط آلامه ؛ فوجده كما تركه صابراً محتسباً ؛ مؤمناً قانتاً ؛ قال له : يوسف أيها الصديق ؛ جئتُك فيما أرجو أن يكون .

(١) العجف : ذهاب السمن ، وهو العجف ، وهى عجفاء (٢) أضغاث أحلام : رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها . (٣) أبراد : جمع برد ، وهو ثوب مخطط . (٤) أصل الشاكلة : الخاصرة .

لك فيه فرَج من ضيقك ، وعافية من محنتك ، أفنتنا في سبع بقرات سمان يا كلهن سبع عجاف مهازيل ، وسبع سنبلات خضر ، وآخر يابسات ؛ فلعلك بعلمك تروى نفوساً للتأويل ظامئة ، وتجيب على أسئلة في الصدور محتاجة ؛ ثم أرجو أن يعرف بعدها القوم فضلك الواسع ، وعلمك الفياض .

ويوسف عليه السلام لم يكن عالماً يؤول الرؤيا فحسب ، بل كان رسولا مصلحاً أرسله الله هادياً للناس في دنياهم وآخرتهم ، ومعاشرهم ومعاذهم ؛ فما كان يرى فرصة يتنفّس فيها برسالاته إلا انتهزها ، ولا نهزة^(١) صالحة للدعوة إلا علق بها . فمن سنين مضت سأله الفستيان عن رؤيائهما ، فوجدها فرصة لإعلان كلمة التوحيد فأعلنها ، وللتنديد بعبادة الأصنام فهزئ بها ؛ واليوم يسأله الملك عن رؤياه فيعرف التأويل ، فلا يقصر حديثه عليه ، بل يمزج بالتأويل رأيه ، ويسدى إلى الشعب نصحه .

قال : إنكم تستقبلون سبع سنوات لينة رخاء ، تكونون في أخصب تربة وأمرع^(٢) جناب ، تزدهر حقولكم ، وتزكو^(٣) غلاتكم ، ويصفو لكم العيش ، وتطيب الحياة ؛ ثم تأتي في أعقابها سبع شدة يظلمكم فيها الأمل ، وتكشف لكم الأيام عن سحاب خلّب^(٤) ، وميض^(٥) خادع ، ينكص النيل فلا يفي بوعدده ، ولا يمدكم برّ فده ، ويتجههم وجه الأرض ، فلا تبشّشكم مكنون خيرها ، ثم لا تجدون قائماً يحصد ، ولا حصيداً يخزن ، وتصابون من دهركم بالدهية الجملى ، والنائية العظمى .

ثم بعد ذلك تصالحكم الأيام ، ويقبل عليكم الزمان ، وتهلّل وجوه الشجع ،

(١) النهزة : الفرصة (٢) أمرع الوادى : اكلا (٣) تزكو . تزيد .
(٤) سحاب خلّب : لا مطر فيه (٥) ومض للبرق : لمع لماعاً خفيفاً .

وَتَنْحَلُّ عَقْدَ الْأُمُور ، وَيُظْلِمُكُمْ عَامٌ خَصِيبٌ ، مُنْغَاثُونَ فِيهِ مِنْ شِدَّتِكُمْ ،
وَتَصْلَحُونَ مَا فُسِدَ مِنْ أُمُورِكُمْ ، تَجُودُكُمْ الْأَرْضُ بِالْخِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ فَمَا كَلُونَ ، وَالْقُرُطُ طُمُ
وَالزَّيْتُونَ وَالسَّمْسَمُ ، فَتَعْصِرُونَ وَتَأْتِدُمُونَ ؛ ذَلِكَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَا ، وَذَلِكَ مَا أَشْرَقَتْ
بِهِ نَفْسِي ، وَمَا تَلَقَيْتَهُ بِالْوَحْيِ عَنْ رَبِّي .

وَإِذَا كَانَ مَا أَخْبَرْتُ وَاقِعًا لَا مَحَالَةَ ، فَمَا حَصَدْتُمْ فِي سِنِيكُمْ الرِّخَاءَ فَاخْزَنُوهُ
فِي أَهْرَائِكُمْ ^(١) وَدُورِكُمْ ، مَمْصُونًا فِي سِنْبَلِهِ ، حَتَّى يَظْلُ سَلِيمًا نَقِيًّا ؛ إِلَّا مَا تَحْتَاجُونَ
إِلَيْهِ مِمَّا يَقِيمُ أَوْدَكُمْ ، وَيَحْفَظُ حَيَاتَكُمْ ؛ لِيَتَّقُوا السَّبْعَ الشَّدَادَ ، وَالسَّنِينَ الْجِعَافَ .

وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْمَلِكِ هَذَا التَّفْسِيرَ ، وَفَطِنَ لَذَلِكَ النَّصِيحَ وَالتَّوْبَةَ ، أَدْرَكَ أَنَّ
وَرَاءَ هَذَا عَقْلًا حَصِيفًا ، وَفَكَرَ مُلْهَمًا ؛ فَدَعَاهُ إِلَيْهِ لِيَسْتَبْرَ غُورَهُ ^(٢) ، وَيُدْرِكَ
بِهِ شَأْنَهُ ^(٣) ، وَيَقْبِذَ مِنْ رَأْيِهِ وَعَلَيْهِ .

حَضَرَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ وَنَادَاهُ : يَا يُوسُفُ ؛ إِنَّ الْمَلِكَ يَدْعُوكَ إِلَى حَضْرَتِهِ ، وَيَطْلُبُكَ
إِلَى مَجْلِسِهِ ؛ فَقَدْ شَأَمَ ^(٤) مِنْ تَعْبِيرِكَ عِلْمًا غَزِيرًا ، وَلَمَحَ مِنْ نَصِيحِكَ رَأْيًا حَصِيفًا ؛
وَإِنَّهُ لَيُوشِكُ أَنْ يَرْتَفِعَ مَقْدَارُكَ ، وَيَطْلُعَ نَهَارُكَ .

وَلَكِنْ يُوسُفُ كَانَ رَسُولًا كَرِيمًا ، وَعَلَّمَهُ رَبُّهُ كَيْفَ يَكُونُ صَبُورًا حَلِيمًا ،
فَمَا اسْتَجَابَ لِلْكَلِمَةِ الْأُولَى - وَهُوَ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَى الْإِنْطِلَاقِ مِنَ الْأَسْرِ
وَمُفَارَقَةِ السِّجْنِ ؛ فَقَدْ طَالَ عَهْدُهُ بِوَحْشَتِهِ وَظُلَامِهِ ، وَأَحْزَانِهِ وَآلَامِهِ ؛ وَقَدْ مَرَّتْ
عَلَيْهِ سِنَوَاتٌ مَجْزَمَاتٌ ^(٥) ، لَمْ يَرِ الشَّمْسُ الطَّالِعَةَ ، وَلَا الْبَدْرُ الْمَتَأَلِّقَةَ ، وَلَا
النَّجُومَ الْمُشْتَبِكَةَ ، وَلَا الزَّرْعَ النَّاضِرَةَ ، وَلَا الْحَقُولَ الْمُضْرَعَةَ ؛ بَلْ لَعَلَّهُ أَمْضَى
أَيَّامَ سِجْنِهِ لَمْ يَذُقْ إِلَّا طَعَامًا يَابَسًا ، وَخَبْزًا قَفَارًا ^(٦) ، وَمَاءَ كَدِرًا رَنْقًا ^(٧) .

(١) الْأَهْرَاءُ : جَمْعُ هَرَى ، وَهُوَ الْخَزْنُ (٢) يَسْتَبْرَ غُورَهُ : يَخْتَبِرُهُ (٣) الشَّأَمُ : الْغَايَةُ
(٤) شَأَمَ : رَأَى (٥) مَجْزَمَاتٌ : كَامَلَاتٌ (٦) قَفَارًا : غَيْرَ مَادُومٍ (٧) رَنْقُ الْمَاءِ : كَدَرٌ

ولعلّ رجليه لم تحرّم يوماً من قيد غليظ ، ويديه لم تسلم من غلّ ثقيل ؛ ولعله أيضاً آذته ليالٍ افترش فيها المدر ^(١) ، وتوسّد الحجر ، ونام على الآلم ؛ وهو مع تلك الآلام التي شاهد ، والمصائب التي لاقى ، لم يكن إلا مظلوماً مغلوباً على أمره ، يلقى العذاب ثمناً لما ادرع به من عصمة وإيمان ، ونزاهة وطهارة سرّ بال .

فما أحبّ أن يخرج من سجنه مَمْنُوناً عليه بعفو ، أو مُتَفَضِّلاً عليه بشيء ؛ بل قال للرسول : ارجع إلى الملك وسأله أن يتعرّف أمر هؤلاء النسوة اللاتي قَطَّعن أيديهنّ ، وأخذت ظلهماً بحريّتهنّ ^(٢) ؛ ليظهر أمرى قبل أن أغادر السجن ، وتعرّف قضيتى قبل أن يُفصلَ فيها بالعفو .

فأهمّ الملك أمر يوسف ، وشغل باله ذكرُ النسوة ، وتشبّعت أمامه وجوه القضية ؛ فما كان يظنّ الأمر يعدّو أن يكون ذلك السجين قتي لا يُؤوبه له ، وهو اليوم يدعوه إليه لما ظهر من فضله ، وعرف من عليه وخبره ؛ ولكن ها هي ذى أمور ظهرت لديه كانت خافية ، واتضحت أشياء كانت غامضة .

فأحضر النسوة بين يديه ، وسألنّ : ما خطبك إذ راودتُنّ يوسفَ عن نفسه ؟ فما وجد الإنكار سبيلاً إلى قلوبهنّ ، وما استطاع الكذب أن يسبق إلى ألسنتهنّ ؛ بل صرّحن بمحض ^(٣) الحق ، فقلنّ : حاشَ لله ! ما علمنا عليه من سوء ، وما خبّرنا فيه إلا قتيّ عفيفاً كريماً ، نزيهاً أميناً ، غير مُمتّتهم في رأى ، ولا ظنّين ^(٤) في عِفّة .

وقالت امرأة العزيز - وقد نالت منها الأيام والسنون : الآن حصّخص ^(٥) الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وجذّبته للغرام من ضبعه ^(٦) ؛ فقد كان قتي وسيمياً ،

(١) المدر : صغار الحجر (٢) الجزيرة : الذنب والجناية (٣) المحض : الخالص (٤) الظنين : المتهم (٥) حصّخص : بان وظهر (٦) ضبعه : عضده كلها .

جميلاً وضيئاً ؛ وقد كان مَسْنَى قَرِيباً دَانِياً ، وشخصُهُ أَمَامَ عَيْنِي أَبَداً ماثِلاً ؛ فَعَلِمْتُهُ قَلْبِي ، ولم أَسْتَطِعْ لَهُ كَدْفَعاً ؛ فدَعَوْتُهُ فَتَأَبَّى ، وطلبتُهُ فامتنع ، وكان لِرَبِّهِ ^(١) حَافِظاً ، ولزَوجِي وَفِيّاً .

وَإِنِّي أَخْبَرُكُمْ الْآنَ أَنَّهُ أَغْفُ مَنْ رَأَيْتُ نَفْساً ، وَأَزْكِي مَنْ شَهِدْتُ قُلُوباً ، وَأَنَّهُ احْتَمَلَ مَا احْتَمَلَ مِنْ آلامِ السِّجْنِ بَرِيئاً مَظْلُوماً .

أَنَا قَذَفْتُ بِهِ إِلَى السِّجْنِ ، وَأَنَا أَلْقَيْتُ بِهِ فِي هَذَا الْعَذَابِ . ذَلِكَ الَّذِي أَعْتَرَفُ بِهِ الْآنَ فِي وَضْهِ النَّهَارِ ، وَضَوْءِ الشَّمْسِ ، بَيْنَ سَمْعِ الْمَلِكِ وَبَصَرِهِ ، وَبَيْنَ حَاشِيَتِهِ وَبَطَانَتِهِ ؛ لِيَعْلَمَ يُوسُفُ - وَهُوَ الْآنَ فِي سِجْنِهِ - أَنِّي لَمْ أَصِمِّهِ ^(٢) بَعِيبَ ، أَوْ أَرْمِهِ بَرِيئَ ، مِنْ يَوْمِ سِجْنِهِ إِلَى هَذِهِ السَّاعَةِ الَّتِي يُفْصَلُ فِيهَا فِي أَمْرِهِ . لَقَدْ صَرَّحْتُ لِهَؤُلَاءِ النِّسْوَةِ مِنْ قَبْلِ بَأْنِي رَاوِدُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَالْآنَ أَعْتَرَفُ بِأَدْنَى دَعْوَتِهِ لِنَفْسِي فَأَبَى ، ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أُخْنِهِ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ .

(١) من معاني الرب : السيد والمولى . (٢) وصمه : عابه .

يوسف عزيز مصر

جاءت شهادة امرأة العزيز مبررة ليوسف من الذنوب ، مُنزّهةً له عن الأغراض والعيوب ، وظاهر هذه الشهادة ما رواه الساقى من سيرته في السجن ، وما شهده عليه من صبر يُجتمّله الحلم ، وعلم يزّينه التواضع ، وما خبره عنه الملك من تحسين التأويل ، وإحكام التدبير ، وما لحظه فيه حينما دعاه للخروج من سجنه ، فأبى إلا أن يخرج بريثا .

هاتيك الأخلاقُ الكريمة ، والشيمُ الحميدة ، أثارت عند الملك رغبةً صادقة في أن يُقرّبه إليه : ليكون في حاشيته ، زعيما في بطانته ، والملك سوق مُجلب إليه ما تنفق عنده .

ومثل بين يديه ، وحادثه ، فألفاه حصيفا^(١) أريبا ، وعاقلا رشيدا ، طابق فيه الخبرُ الخبرَ ، والسمعُ البصر .

قال : يا يوسف ؛ إن ما تجملت به من هذا الخلق الكريم ، وما خلفته وراءك من ذكر عطر ، وماض زاهر ، وما نطق به عن حلم راجح ، وعقل حصيف ؛ كل ذلك رفع عندي مقدارك ، وأعلى مقامك ؛ وإنك منذ اليوم أمينٌ على هذه الدولة تعمل لخيرها ، وتقوم على إصلاحها ، مكيين^(٢) فيما تصنع ، مفوض فيما تريد .

ولكن يوسف كان يعلم أن الأمة مقبلة على أيام يُسر وأيام بلاء ، وأن النيل سيمدّهم بالماء ، وينفجهم بالخير أعواما ، ثم يكف عنهم الرغد ، ويُخلف عنهم البعد أعواما ، وأنه لا بُد لمن يلي أمورهم ويدبّر شئونهم أن يكون بيده زمام

(١) حصف عقله : استحكم (٢) مكيين . متمكن ، وله منزلة عند السلطان .

المال ؛ وعنده مفاتيحُ الخزائن ؛ إذ المال عَصَبُ الأمة وقوامها ، ولُبُّها ومُصاصها (١) ؛ فأراد أن يمتلك الزَّمام الذي يستطيع أن يقود به الأمة إلى خيرها ، وأن يُمسك بالدفة التي يستطيع أن يسير بها سفينةَها ؛ فقال للهالك : إن أردت أن أكون مسئولاً عن هذه الأمة ؛ محاسباً عن تدبير شؤونها ؛ فاجعلني أميناً على خزانها ، ووزيراً لأموالها ؛ وستجد الأمةُ إن شاء الله ما ترجو من صلاح الأعمال ، واطراد الأحوال ، في العسر واليسر ، والرخاء والبلاء .

ومكَّن الله ليوسف في الأرض ؛ فأضحى بين عشية وضحاها وزيراً مُطلق اليد ، مسموع الكلمة ، نافذ السلطان ، وحضرته مطاع الجود ، ومهوى الوفود ؛ وقد كان بالأمس سجيناً أسيراً ، ومن قبل غلاماً يُباع ويُشرى ، ويُسلب ويُعطى ؛ وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء ؛ والله ذو الفضل العظيم .

ولى يوسف الأمر في مصر سبع سنوات ، جاد فيها النيلُ وأغلت الأرض ؛ فأسهل عيشهم وامتد خيرُهم ؛ وتفتَّحوا في ظلال الراحة والنعيم دهرًا ؛ وكان يوسف نِعَم الحاكمُ اليقظ ، والمولى الفطِن الأريب ؛ بنى الأهرام ، وأعد المخازن ، وملاها بالغلات الوفرة ، والخيرات الكثيرة ؛ حتى إذا ما أقبلت السَّبع الشداد استقبلها القومُ آمنين ؛ فلم تغيّر لهم حالاً ، ولم تنل منهم شيئاً ، ولم تدق لهم عظماً ؛ ولم تأكل منهم لحماً .

وامتد القَحْطُ إلى ما جاور مصر من البلدان ، ومسَّ ما حولها من الأقطار ، حتى وصل إلى كَنْعان ، حيث يقيم نبيُّ الله يعقوب وأبناؤه الأسباط .

وسطح ذكر يوسف في مصر ، وامتد نوره إلى الأصقاع ؛ وشاع بين الناس أن بمصر وزيراً حكيماً ، يحمل بين جنبيه نفساً كريمة ؛ فقد أعد عدته للجوع والقحط ، والسنة^(١) والجذب ؛ فهو يوزع الحنطة بين الناس بميزان عادل ، ويقضى حوائجهم بقسطاس مستقيم ؛ لا يفرق بين شعب وشعب ، وقطر وقطر .

قال يعقوب لبنيه : يا بني ؛ إن الجذب عَمَّنَا ، والقحط يكاد يأتى علينا ، فهلمْ شدُّوا ركابكم ، وأعملوا في السير نياكم ، وأقصدوا هذا العزيز الذى حملت إلينا الركبان أخباره ، وتناقل الناس أحاديثه ، وطبق اسمه السهل والجبل والسهل والحضر ؛ ولكن اتركوا عندى أخاكم بنيامين ، أتعزى ببقائه عن فراقكم ، وأسكن إليه حتى يعود جمعكم ، ويلتئم شملكم ؛ والله كالثكم وراعيكم ، وهاديكم ومبصركم .

* * *

واستأذن الحاجبُ على يوسف ، فقال : إن بالباب عشرة رجال تتشابه معارفهم ، ويلتئم نورُ الصلاح في وجوههم ، وكأنهم غرباء عن هذه الديار ، أو ضيوف على هذه الأقطار ؛ عرفت هذا من لغام^(٢) ولهجتهم ، وحيرتهم وترددهم ؛ وإنهم اليوم يبابك يستأذنون في الدخول عليك ، والمثول بين يديك .

وأذن لهم يوسف ، ودخلوا عليه ؛ فإذا هم إخوته وبنو أبيه ؛ لم تغَيَّر ملامحهم السنون ، ولم تُخَفِ معالمهم الأيام ؛ هم إخوته الذين تآمروا على قتله ، وتظاهروا على إيذائه ، وهم الذين فرقوا بينه وبين أبيه ، وأذاقوه بعده جَفْناً مؤرقاً ؛ وكبدوا مجروحاً ؛ وهام أولاء يلقاهم اليوم في حضرة من غير سابق تدبير ؛ بل بإحكام من اللطيف الخبير .

وقد يجمعُ الله الشَّيْئَتَيْنِ بعد ما يظنَّان كل الظنَّ أن لا تلاقيتما

عرَفهم وما عرفوه ، وتبينهم وأنكروه ، وأين يوسف الذى خافوه فى الجُبِّ ؛ ولا يدرون أغتالته شعوب (١) ، أم أكله سبُعٌ ، أم بيع فى سوق الرقيق ، من هذا المليك المتَّوج النافذ السلطان ، ذى الحشم والأعوان !

ولكن يوسف كان حازماً حكيماً ، وزكياً (٢) أريباً ، رزين الحصاة (٣) ، بعيد الأناة ، فلم يبادئهم بالإعلان عن نفسه ، والإفصاح عن أمره ؛ بل حاول أن يصل إلى ما فى نفوسهم ، ويعرف مكان أسرارهم . وما خفى عليه من أخبارهم ، واحتجب من أحوالهم ، بأسلوب الحكيم ، ومنطق الحاذق الحصيف .

آوَاهم وأكرم وفادتهم ، وأحسن ضيافتهم ؛ ثم دعاهم يوماً إلى حضرته . وقال لهم : لقد أكرمتكم ، ومن حق أن أسالكم ، وأتعرف أحوالكم ، فمن أنتم ؟ وما شأنكم ؟ إني لأنكسر عددكم ، وقد بدأت أشكُّ فى أمركم ، وأخشى أن تكونوا عيوناً علينا من ملىكم ! فهل لواحد منكم أن يُفضى إلى بحقيقة حالكم ؛ فلعلَّه يمزق قناع الشك ، ويبتدئ سحائب الريب ؟

قالوا : أيها العزيز ، نحن اثنا عشر أخاً ، سُلالة نبيِّ كريم ، ورسول عظيم ، عشرة منهم هم رُسُلُه الآن بين يديك ، وآمالهم منتبهة إليك . وأما الحادى عشر فقد خلفناه عند أبيه يقوم على أمره ، ويسهر على رعايته . وأما الثانى عشر فقد قدَّناه ، ولا ندرى أختاره الله لجواره ، أم هو يضرب فى الأرض الواسعة سهلاًها وحزناًها (٤) ، وغورها ونجدها ! ذلك هو أمرنا ظاهره وباطنه ، جملته وتفصيله .

(١) شعوب : اسم المنية .
(٢) الزكن : الفهم والتفريس .
(٣) الحصاة : العقل والرأى .
(٤) الحزن : ما غلظ من الأرض .

قال يوسف : قد يكون حقا ما تقولون ، ولكن لا وزنَ لقول لم يُعزَّز بيينة أو يُدعم بشاهد : فأقيموا عندى البيئنة أو اثبتوا بالشاهد ، حتى أطمئنَّ لحقيقة حالكم ، وأنسكن لصحة أقوالكم .

قالوا : أيها العزيز ؛ إنا فى عُربة عن بلادنا ، وعزلة عن أصدقائنا وأهلينا ، وإنك تكلفنا محالا أن نأتى لك هنا بمن يعرفنا ، أو يشهد بصحة أقوالنا ؛ ولكن التمس لنا غيرَ هذا المخرج ، وشيئا غير هذه السبيل .

قال : إني سأجهزكم بجهازكم ، وأوقِرُ بالميرة (١) ركائبكم ، على أن تعودوا ومعكم أخوكم الذى خلفتموه عند أبيكم ؛ ليكون شهيدا عليكم ، مصدقا لأقوالكم ، وسأضعف إكرامكم ، وأزيدكم حمل بعير فى غلاتكم ؛ هذا هو شرطى ، وذلك هو عهدي . فإن لم تأتونى به فلا كيلَ لكم عندى ولا تَقْرَبُون .

قالوا : أيها العزيز ؛ مانظن أن أبانا يأذنُ بسفره ، أو يصبر على فراقه ؛ ولكننا سنراوده عنه ونسلطف إليه ؛ وإنا لفاعلون .

وأمر غلبانه أن يؤفوا لهم الكيل ، وأن يدُشوا لهم فى رحالهم البضاعة التى حملوها ، والفضة التى جاءوا يبتاعون بها ؛ ليكون ذلك أدعى لرجوعهم ، وأمكن لعودتهم .

وظعنوا (٢) عن مصر ، وساروا إلى بلادهم ، يحملون عن هذا العزيز أطيب الذكريات وأزكاها ، وأعذبها وأحلاها ، وتلقاهم يعقوب ، وأخذ يستوضح أخبارهم ، ويستقصى أنباءهم .

قالوا : يا أبانا ، إنا لقينا رجلا عظيما ، ووزيرا كريما ، عرف فضلنا ، وأكرم وفادتنا ، ووفى لنا الكيل ، وأنزلنا خيرَ منزل ؛ ولكنه أخذ علينا عهدا وشرطا

(١) الميرة : الطعام . وأوقر : أثقل . (٢) ظعنوا : رحلوا .

ألا يكيل لنا من بعدُ حتى نأتيه بأخيـنا ، يخبره بحقيقة حالنا ؛ إذ أنه شكَّ في أمرنا ، ودخله الريبُ في رحلتنا ، وغداً ستفرغ الميرة ونحتاج إلى غيرها ، فأرسله معنا ليكون مُعيناً لنا على الكيل ، مساعداً لنا في الرُّفد ^(١) .

قال يعقوب : لن آذن لكم بسفره ، ولن أسترىح لفراقه . وهل تروني آمنكم عليه كما أميتكم على أخيه من قبل ! فاصبروا عني كيديكم ، واكفوني شرِّكم .

وفتحوا متاعهم ، وفدَّشوا رِحالهم ، فإذا بضاعتهم قد رُدَّت إليهم ، وفَضَّضَتْهم قد عادت معهم ، نَفَضُوا إلى أبيهم مسرعين ، وتحدَّثوا إليه مسرورين ، وقالوا : يا أبانا ، ما كذبتك حين زعمنا أننا لقينا عزيزاً وافر الفضل ، تجمَّ المروءة ، وما خدعناك حينما طلبنا إليك أن تأذن لنا بأخيـنا ، فهذه بضاعتنا قد رُدَّت إلينا شاهدةً على كرم العزيز ومروءته ؛ فأرسل معنا أخانا ، وسنفديه بأرواحنا ونرفَّ عليه بأجنحتنا .

ورأى يعقوب أن حاجتهم إلى الميرة ^(٢) مأساة ، ورغبتهم في الرحلة أكيدة ، وأنهم قد أخذوا على أنفسهم عهداً فلن يُخفروه ^(٣) ؛ وأن العزيز قد شرط لعودتهم أن يحضروا له أخاهم فلن يخلفوه ؛ فأذن لهم بينيامين على أن يأخذ عليهم عهداً أكيداً ، وشرطاً وثيقاً : أن يأتوه به سليماً معافى ، إلا أن ينزلَ بهم قدرٌ لم يكُ في الحسبان ، أو يفجأهم مكروه من الحدَّثان ، وأخذوا على أنفسهم الميثاق ، ووكدوا الإيمان وقالوا : والله على ما نقول وكيل .

(١) الرُّفد : العطاء (٢) الميرة : الطعام يمتاره الإنسان .

(٣) خفروه : نقض عهده وغدر به ، كما خفروه .

وساروا يخفضهم وهد ، ويرفعهم تجدد ، حتى ألقوا عصاهم بساحة يوسف . ورأى يوسف أخاه ؛ فحنا عليه ورق له ، ولكنه أخفى عواطفه ، وستر مافي نفسه ، ودعاهم إلى طعامه ، وأجلسهم مثنى مثنى ، وبقي بنيامين وحيدا ، فبكى ، وقال : لو كان أخى يوسف حيّا لجلس معى ؛ فأجلسه معه على مائدته ثم قال : لينزل كل اثنين منكم بيتا ، وهذا لاثاني له ؛ فيكون معى .

فبات عنده ، وقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : مَنْ يجد أخا مثلك ! ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ؛ فبكى يوسف ، وقام إليه وعانقه ، وقال : إني أنا أخوك الذى تَلُدُّه وتهبُّ فُ باسمه ، وتلهف لرؤيته ؛ قد تقلبت بى صدوف ، ورميتى صُروف ، ولقيت من كيد إخوتك ألوانا ، وتحملت من غدرهم أحزانا وأسقاما ، وأبُتليت بعدهم بمحنة ، وأصبت بفتنة ؛ ولكنى صبرتُ وجاهدتُ حتى أبدلتنى الله - كما ترى - نعيما بيؤس ، وغنى بفقر ، وعزّا بذُلّ ، وكثيرا بقلّ ؛ فاكتُسم عن إخوتك هذا الخبر ، واحجُب عنهم هذا السر . وقرّت نفس بنيامين ، وسكنت أحزانه وانسلت (١) همته ، وارتد إليه عازب حِلْمه ، وغدّا يتقلب فى نعيم أخيه وعزّه ، وينعم بكرمه وعطفه .

وانقضت أيام الضيافة ، وأجمع الركب الرحيل ؛ فأراد يوسف أن يعمل لهم مكرّا ، ويحدث بهم أمرا ؛ فأمر غلبانه أن يجهزوهم بجهازهم ، وأن يدسوا السّقاية (٢) فى رَحْلِ بنيامين !

(١) انسلى منه : ذهب .

(٢) السّقاية أو الصواع : وعاء جعل للكيل .

وينا هم خارجون مُودِّعون إذا يناد جهير الصوت يناديهم : أيها الركب
المزْمِع سَفَرًا ، المَجْمِع رَحِيلًا ؛ أُنِخُوا رُكَّابَكُمْ ! وَأَنْزِلُوا مَتَاعَكُمْ : فَمَا أَنْتُمْ
إِلَّا سَارِقُونَ !

فدهشوا وذهلوا ، وأقبلوا على المنادي يقولون : ما هذا الهجر الذي تنطق به ،
والفرية ^(١) التي ترمينا بها ! وما تحطبك ! وما الذي فقدت منك ! قال : لقد فقدنا
مُصَوِّعَ الْمَلِكِ ، وإنا للشك أن تكونوا قد سرقتموه وأخفيتموه ، فارجعوا عما
عزمت عليه ، ولا بأس عليكم ولا حرج في أمركم ، ومن جاء به منكم فله حِمْلٌ
بغير نافلة ^(٢) ، وأنا زعيم لكم بهذا الشرط ، كفيل بهذا الحِمْلِ .

قال إخوة يوسف : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين .

قال المنادي : إنا لا نتجنى عليكم ، ولا ننصب الشراك لكم ؛ ولكن ما حكمكم
لو وجدنا الصَّوَّاعَ عندهم ، مستقرًّا في رحالكم ! قالوا : إن لنا شرعًا ودينًا ، وذمة
وعهدًا ؛ فمن وجدتموه في رحله فخذوه أسيرًا عندهم ، عبدًا لكم ؛ ذلك هو شرعنا ،
وهذا هو عهدنا ؛ وإنا على يقين من براءة ذمتنا ، وطهارة أعراقنا .

وطابت نفسُ يوسف لهذا العهد ، واستروح لهذا الرأي ؛ إذ ما كان شرعُ الملك
في مصر يحجز له أن يحجز السارق ، أو يتحكم فيه ، ولكن الله مكِّن له فيما أراد عن
طواعية ^(٣) من إخوته واختيار .

فبدأ يُفتش أوعيتهم وعاء وعاء ، حتى انتهى إلى وعاء بنيامين ، فوجد السقاية
مستقرة بين طياته ؛ فاستخرجها منه ، وأشهرها في وجوههم ، فسهموا ووجعوا ،
وذهلوا وذهلوا ، وأطرقوا حياءً وخجلًا .

(١) الفرية : الكذب (٢) نافلة : زيادة (٣) الطواعية : الطاعة .

قال لهم يوسف : عليكم بالشرط ، والشرط أملك ! فدعوا هذا الذي وجدنا عنده الصُّواع ، نتحكّم فيه ونأخذ حقنا منه .

قالوا : أيها العزيز ، إن له أباً شيخاً كبيراً ، قد ناهز العُمَرين ^(١) ، وإنه ليتعلق بشخصه ؛ وقد أخذ علينا عهداً أن نحافظ عليه ونردّه إليه ؛ وها نحن أولاء عشرة بين يديك ؛ فنُخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المُحسنين . قال : ﴿ معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون ﴾ .

ولما استحكّم فيهم اليأسُ من قبول العزيز لشفاعتهم ، ونفضُوا الأُكف من رواج اقتراحهم ؛ خلصوا إلى أنفسهم يتساجون ويتشاورون ، قال يهوذا : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهداً ، واستحلفكم أيماناً أن تأتوه بأخيكم ، وأن تبرّوا له بأيمانكم ! فما نقول له اليوم ! وها نحن أولاء قد فقدنا الأخ ، وحنّنا في اليمين !

إن جرح يوسف في كبد أبيكم لم يندمل ^(٢) ، وإن دموعه من عينيه لم تنقطع ، ونحن قد جنّينا في الأولى ، وها نحن أولاء نجنى في الثانية ﴿ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين . أرجعوا إلى أبيكم فقولوا : يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنّا للغيب حافظين . واسأل القرية التي كنا فيها والعِير ^(٣) التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ﴾ .

وذهب التسعة ، وخلفوا كبيرهم يهوذا ، وتفقد يعقوب بنيامين فلم يجده فيهم ، فكان طائراً طار من قلبه ، أو كأن قطعة تفصّت ^(٤) عن كبده ، ثم قال .

(١) يقال : فلان ناهز العُمَرين ، إذا قارب الثمانين (٢) لم يندمل : لم يبرأ ..
(٣) العير : القافلة أو الإبل تحمل الميرة
(٤) تفصّت : انفصلت ..

بصوت حزين : ما صنعتُم بأخيكم ، وما فعلتم بأيمانكم ! فقصُّوا عليه قصصهم ،
وحدثوه بدخيلة أمرهم ، فتولى عنهم ؛ وقال : ﴿ بل سَوَّاتٌ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ
أَمْراً فصبِر جميل واللهُ الْمُسْتَعَانُ على ما تَهْضِفُونَ ﴾ .

لقد فقدت يوسف من قبل ، واليوم أفقد بنيامين ، وأفقد يهوذا ، ﴿ عسى الله
أَنْ يَأْتِنِي بِهِمْ جميعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

اللقاء

وتساورت يعقوبَ الهموم ، وتشعبته الأحزان ، وأقضت مضجعه الكروب .
ولم يعد يجد متنفساً لهمه ، أو سُلوة من ألمه ، إلا ساعتين : ساعة يفزع فيها إلى ربه
يصلي ويسجد ، ويتحدث ^(١) ويتمجد ، مستلهماً منه الصبر ، مستنجداً بالإيمان
واليقين ؛ وساعة يخلص فيها إلى نفسه ، ويقضى حق الذكرى لولديه ، ثم يستنجد
بالدمع ويستروح ^(٢) بالبكاء ، فتسحَّ جفونه ، وتفيض شئونه ^(٣) . فمن الصلاة
والذكر كان يستلهم صبراً وإيماناً ، ومن سخين الدمع كان يلقي راحة واطمئناناً .

لم يُخلق الدمع لأمري عبثاً الله أدرى بلوعة الحزن

وما زال به واكفُ الدمع حتى ابيضت عيناه ، وضوى جسمه ، وتضمَّر
وجهه ، وعاد كالخلال ^(٤) شفوفاً وضموراً ؛ حتى كان يوم أطل عليه أحد أبنائه
وهو في مخدعه ، فوجده قد انفتل ^(٥) من صلاته ، وانتهى من دعواته ، ثم أخذ

(١) تحدث : تعبد

(٢) استروح : وجد الراحة .

(٣) الهثون . مجارى الدموع . (٤) الخلال : العود تخلل به الأسنان .

(٥) انفتل : انصرف .

يولول ويتوجع ، ويبكي ولديه ويدمع ، ويقول : يا أسفا على يوسف ! بصوت
وجيع ، وهمّ جميع ! فهاله ما رأى ، ودعا إخوته ليرؤا معه كيف يتلوّى يعقوب
فى شقائه ، وكيف يتألم لبلائه .

وقال واحد منهم : أى أبانا ! أنت رسول عظيم ، ونبي كريم ؛ عليك يهبط
الوحي ، ومنك تتلقى الهدى والإيمان ، فما هذا الذى تبّخع ^(١) به نفسك ، وتحشد
له بنات هَمَك ! ألم تكف هذه الدموع التى ذرقتها ، حتى هجّمت ^(٢) مُقلّاتك ،
وايّضت عيناك ! ألم تكف هذه الزفرات التى أصعدتها حتى فَنَى جسمك ،
ودنفت ^(٣) نفسك ! ﴿ تَاللّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا ^(٤) أَوْ
تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ .

قال يعقوب : إن عذلكم ^(٥) يبعث شقائى ، ويُشير كامن دأى ، وما دون
رؤية يوسف أن تسكن لوعتى ، وترقا دمعى ^(٦) . ويوسف - وإن كان أكله
الذئب فى زعمكم ، واخترمته شعوب ^(٧) فى رأيكم - حتى يتنفس الهواء ، وتظلمه
الخضراء ^(٨) ، عالمته إحساساً كميناً فى نفسى ، وشعوراً ينبعث فى قلبى ، وفيضاً
من الله على علمى ، ولكننى لا أدرى أى واد سلك ، وأى مذهب ذهب ! ذلك
الذى يُشير حزنى ، ويبعث أوجعاً ؛ وما أحرأكم - لو أردتم أن تنضوا عنى شعار
الهم ، وتزيحوا عنى غواشى الآسى - أن تضربوا فى الأرض متحسسين عن يوسف
وأخيه ، معتصمين بالدأب والصبر ، غير يائسين من رَوْح ^(٩) الله ورحمته ؛ ﴿ إِنَّهُ
لَا يَبْئُتُ مِنَ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

(١) تبخع : تهلك (٢) هجّمت : غارت (٣) دنفت الرجل : ثمل من المرض ودأب من
الموت (٤) حرَضاً : مرضاً مشفياً على الهلاك (٥) عذلكم : لومكم (٦) رقا الدمع :
جف (٧) شعوب : المنية (٨) الخضراء : السماء (٩) الروح : الرحمة .
(٨ - قصص القرآن)

ولأخوة يوسف يُظاهرون أقوالَ أبيهم في أعماق نفوسهم ، ويوافقونه فيما بينهم وبين سرائرهم ؛ فهم ألقوه في الجُب ، وهم خلفوه في القفلة ، وما يمنع أن يكون قد خرج من مُجْثه ، ونجا من فلاته ؟ ولكن أين هو ؟ وأى مكان يشتمله ؟ وأى وادٍ يضمُّه ؟ أرض الله وسيعة فأين يبحثون ؟ وبلاده عريضة فأين يتحسسون ؟ لانهم من يوسف على شفا اليأس ، وخيبة الرجاء ؛ ولكن هذا بنيامين يعرفون مكانه ، ويعلمون مراحه ومغده ؛ فليذهبوا إلى العزيز ، وليتلفظوا عنده ، ويتوسلوا إليه ، فلعلهم يرجعون به إلى أبيهم ، فتخف بعض اللوعة ، ويجد في لقائه بعض العزاء .

* * *

وهبطوا مصر مرة ثالثة ، وآمالهم بين الخيبة والرجاء ؛ ووقفوا بين يدي العزيز ، ترهقهم ذلة ، ويحيطهم انكسار : ذلة العزيز ، وانكسار الكريم .

قالوا : أيها العزيز ؛ ها قد رجعتنا الأيام إليك ، وأرادتنا أن نقف موقف الضراعة والاستكانة بين يديك ؛ وللأيام تقلبات ، وللدهر نكبات ؛ وقد جئناك ببضاعة مُزجاة^(١) ، إذ الحال رقيق ، والعيش نكد ، والذهر غير مُوات ؛ فإن شئت تصدقت بما يقيم الأود ، ويُصلح مُعوجَّ العود ، وإن أحسنت إلينا بعد ذلك بتسريح أخينا ؛ فإنك بذلك تكون قد أرقأت له دمعا ، وخففت عن أبيه لواعج وأشجانا ؛

وإذا كان الله قد بلغ بقصة يوسف ويعقوب أسنى ما يطمح إليه المثل الأعلى ؛ من الإيمان بالقضاء ، والصبر على الأواء^(٢) ، فقد آذن يوسف أن يعلن لإخوته عن نفسه ، ويكشف لهم عن حاله ، وأن يصفح بكرمه عن زلستهم ، ويسموهم عن

(١) بضاعة مزجاة : قليلة (٢) الأواء : الشدة .

إساءتهم ، ليضم إلى الرواية فصلاً في الصنفح والكرم ، والعفو والغفران .

قال : ألا تذكرون يوماً في مِيعَةِ الحداثة^(١) وَغَرَارَةِ الصبا : زَيْنَ لَكُمْ الهوى ؛
ووسوس الشيطان أن تكيدوا ليوسفَ وأخيه ، فتعلقوا بيوسف في الحب ،
وتصنعوا مع أخيه صنوف الكيد والإيذاء ؟ ثم ألا تذكرون يوم أخذ واحدكم
بيده القوية يوسف ، وجذبه وهو ضعيف من ثيابه ، وأنه قد توسل واستشفع ،
وبكى وتوجع ، فلم تقبلوا منه شفاعته ، ولم تأخذكم فيه رحمة ؛ بل ألقيتموه في الحب
وحيداً ضعيفاً تعمل فيه الأقدار !

فتخالجهم الشكُّ في أمره ، وداخلهم الريب في حقيقة حاله ؛ إنه ليدكر أشياء
وقعت ، مَنْ أعلمه بها ؟ ويحدث عن تاريخ ؛ مَنْ قصَّه عليه ؟ أيكون بنيامين ؟
أولكن بنيامين وكل الناس في أمر يوسف سواء ، إنه لا يعرف شيئاً عن حقيقة
مره ، ولا حادث إلقائه في الحب ! ورجعوا بعد الحُدُس والتخمين إلى يوسف
يتوسمون علاماته ، ويتعرفون شِيسَاتِهِ ، ويتذكرون ما كانوا يعرفونه من ملاحظه
وشاراته . وما غابوا في هذا طويلاً حتى صاح واحد منهم يقول : إنك لأنت يوسف !

وما كان أسرع أن أجاب يوسف وأشار إلى بنيامين : نعم ﴿ أنا يوسف وههنا
أخي قد منَّ الله علينا ، إنه مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

فامتدحت ألوانهم ، واضطربت مشاعرهم ، وتالجج الحديث بين أشداقهم ،
وتمنوا لو انشقه آفَقُ في الأرض فابتلعهم ، أو هبط عليهم كوكب فصعقهم . . .
ويوسف كان أكرم نفساً من أن يطيل خوفهم ، وأوسع صدرأ من أن يكافئهم
بزلاتهم ؛ فهم ما برحوا إخوته وبنى أبيه ، وإن تظاهروا^(٢) على قتله ، والفتك به

(١) مِيعَةُ الحداثة : أولها . (٢) تظاهروا : تعاونوا .

وإن توافروا على الكيد له ولأخيه .

قال لهم : ﴿ لَا تَثْرِيْبَ ^(١) عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

ونعود إلى يعقوب ، وقد امتسح حَقْبَةً من الدهر فتحمّل ، وابْتَسَلِي بِمَا تَعْبُزُ عَنْ سَمَلِهِ الْجِبَالُ فَتَجْمَلُ ^(٢) ؛ وإن الله لهذا كُتِبَ فِي صَحِيفَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَوَّلَى الْعِزِّ الْأَخْيَارِ ، الطاهرين المحتسبين الأبرار ، وأعدّ له الجنة جزاءً وفاً ، ومكرمة وثواباً ؛ وأراد أن يكافئه في الدنيا ، إطعاماً لمن يصبر من خلقه ، وعزاء لمن يَبْتَلى من عباده .

ذهب إلى مُصْلاهِ يوماً ، فصلى وذكر الله ، ثم بكى ما شاء الله أن يبكي ، وشفقة هدأت ضلوعه ، وجفّت دموعه ، ودخل روح على قلبه ؛ ما هذا الشعور الغريب ، والإحساس الوافد ! إنه الآن ليَشْعُرُ بِإِنْشِرَاحٍ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ ، وَابْتِهَاجٍ فِي قَرَارَةِ وَجْدَانِهِ ، وَنَشْوَةٍ نَبَتَتْ فِي حَنَائِيَا ضُلُوعِهِ ؛ إن هذا الشعور الذي يغمره ، والفيض الذي يَشْمَلُهُ ، لِيُشَبِّهُهُ مَا كَانَ فِي صَدْرِ أَيَّامِهِ الْمَاضِيَةِ ، وَعَهْوَدِهِ الذَّاهِبَةِ ؛ حينها كان يَخْطُرُ يَوْسُفُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ويرى ابتسامة الحياة على شفّتيه !

أحسّ هذا يعقوب ؛ فصاح بملء قلبه وجوارحه : ﴿ إِنِّي لَا جِدَ رِيحَ ^(٣) يَوْسُفَ ﴾ ؛ انعكس هذا الريح هَزَّةً فِي أُعْطَافِي ، وَتَغْرِيداً فِي خَوَاطِرِي ، وَرَوْحاً وَرِيحَاناً فِي قَلْبِي .

وما كان يعقوب خاطئاً في وهمه ، ولا بعيداً في استرواحه ؛ فقد فصلت ^(٤) العير عن مصر تحمّل القميص ، قميص يوسف الذي يحمل البشرى ، ويرتد على يعقوب نعمة البصر والحياة .

(١) لا تثرِب : لا لوم (٢) تحمل : صبر (٣) الريح : الرائحة (٤) فصلت : رحلت .

وقطعت البيرُ طريقها ، وجاء البشير ، فالتقى القميصَ على يعقوب ، فإذا بصره قد عاد ، ورُشده قد تاب ، وقصُّوا عليه قصتهم ، وحدثوه بما كان من أمرهم ، ثم طلبوا إليه المغفرة والرضوان .

قال يعقوب : لست أملكُ من أمركم شيئاً ، أو أستطيعُ لكم من عذاب الله دَفْعاً ؛ ولكني أستغفرُ لكم ربِّي ، وهو الغفورُ الرحيمُ ؛ زُشُّوا ^(١) إبلاكم ؛ وأجمعوا إرادتكم ، وهياً بنا إلى ساحة العزيز .

ورأى يوسف أبويه في ساحته ، وحولهما أحدَ عشرَ من إخوته ، والجميع يسجدون له معظمين ، ويقفون بين يديه خاشعين ؛ فرفع يديه إلى السماء - شاكراً أنعمه ، ذاكراً فضله . وهو يقول : ﴿ ربِّ قد آتيتنِي من المُلْكِ وعلمتني مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَقَّقْ مَسْلَمًا وَالْحَقُّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

(١) زم البعير : خطمه : أى أعدوها للسفر .

شعيب (*)

كان أهل مَدْيَنَ عَرَباً يَسْكُنُونَ أَرْضَ مَعَانَ ، من أطراف الشام ، وكانوا
يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ، وَيُشْرِكُونَ بِهِ ؛ إِذْ عَبَدُوا الْآيَةَ (١) مِنْ دُونِهِ ، وَصَارُوا يَبْخَسُونَ
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَإِذَا اكْتَالُوا (٢) عَلَى النَّاسِ يَسْتَوفُونَ ، وَإِذَا كَالُواهُمْ (٣)
أَوْ وَزَنُواهُمْ يَخْسَرُونَ .

بعث الله فيهم شُعَيْباً رسولاً ، وَأَزْرَاهُ بِالْمَعْجَزَاتِ ، وَأَتَيْدَهُ بِالْبَيِّنَاتِ ؛ فدعاهم إلى
عبادة الله وحده ، وأمرهم بالعدل ، وحذّرهم عاقبة الظلم ، وذكّرهم نعمة الله عليهم ؛
إِذْ كَثَرَهُمْ بَعْدَ قِلَّةٍ ، وَأَغْنَاهُمْ بَعْدَ فَقْرٍ ؛ ثُمَّ خَوَّفَهُمْ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ إِنْ لَمْ يَتَّبِعُوا
مَا أُرْسِدَهُمْ إِلَيْهِ وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ ؛ فَاسْتَهْزَءُوا بِقَوْلِهِ ، وَسَخِرُوا مِنْهُ ، وَتَهَكَّمُوا بِهِ ، وَقَالُوا :
يَا شُعَيْبُ ؛ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَعْبُدَ غَيْرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا الْأَقْدَمُونَ
وَأَسْلَافُنَا الْأَوَّلُونَ ؛ وَتَهْأَكَ أَنْ نَعَامَلَ النَّاسَ كَمَا نَحْبُ وَنَشْتَهِي ؛ فَندع ما دَرَجْنَا
عليه ، ونشأنَا فيه ، وَكَثُرَتْ أَمْوَالُنَا مِنْ طَرِيقِهِ !

كيف تنهانا عن دين أَلِفْنَاهُ ، وَشَرَعُ وَرَثَانَهُ ، وَأَنْتَ الرَّاجِحُ عَقْلاً ، السَّيِّدُ
رَأْيَا ، الْوَاسِعُ حِلْمَا !

ولكن شعيباً لم تَبْدُ مِنْهُ جَفْوَةٌ أَوْ قَسْوَةٌ ، بَلْ تَلَطَّفَ فِي جِدَالِهِمْ ، وَآثَرَ اسْتِمَالَتَهُمْ
بِاللِّينِ ، وَاجْتَنَابَهُمْ بِالرَّفْقِ ، وَذَكَرَهُمْ بِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنْ صَلَةٍ ، فَذَلِكَ أَدْعَى لِقَبُولِ
النَّصِيحِ ، وَالْإِنْصِياعِ إِلَى الرَّأْيِ ، وَأَدْلَى عَلَى الرِّغْبَةِ فِي الْخَيْرِ وَالْحُبِّ لِلنَّفْعِ .

(*) الأعراف ٨٥-٩٣ ، هود ٨٤-٩٥ ، الشعراء ١٨٦-١٩١ ، العنكبوت ٣٦-٣٧

(١) الآية : غيضة تثبت الشجر (٢) اكْتَالُوا : إِذَا كَانَ لَهُمْ حَقٌّ بِالْكَيْلِ أَوْ الْوِزْنِ

(٣) كَالُواهُمْ : إِذَا كَانَ لِلنَّاسِ حَقٌّ عِنْدَهُمْ فِي مَكِيلٍ أَوْ مَوْزُونٍ .

ولما أنسَ منهم ميلا إليه ، وظن أن آذانهم تفتحت لسماع قوله ، بيّن لهم أن ظهور البينة له ، وكثرة نعم الله عليه تحولان بينه وبين الانسياق إلى طريقهم ، والاندفاع في غيِّهم ، وتمنعانه عن التفريط في وحي الله والتهاون في تكاليفه ؛ ثم أعلن إليهم أنه قد أوحى إليه بالهدى ، وأرسل بالحق ، وأوتى من الله الرحمة ، وأرشد إلى ما لم يهتدوا إليه ؛ وأنه لن ينّى عن العمل بهذه الدعوة التي اختير لها وألقي إليه وحيا ، على أنه لن يُكرههم على اتباع دعوته ، ولا يأمرهم بشيء إلا رضيه لنفسه ، وهو الذي اشتهر بينهم بالحلم وعُرف فيهم بالرشد ؛ ثم هو لا يطلب منهم أجراً على هديهم ، ولا جزاء على إرشادهم ، بل يريد لإصلاح أمرهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

ومن كان هذا شأنه فهو أحقُّ أن يتبعوه ، وأولى أن يقتفوه ، وليس له غرض خاص من دعوته ، ولا مأرب من وراء طلبه .

ولكنه أحسن نفورهم من نصيحته ، ورأى منهم ميلا إلى مخالفته ، مع أنه لم يُبق لهم شبهة ، ولم يترك لهم حجة ؛ فظن أنهم إنما يأنفون من متابعتهم ، ويميلون عن دعوته ، بغيا وحسدا ، وبغضا وكبرا ؛ فهاهم أن يحملهم ذلك على الانصراف عنه ، أو تدفع بهم الرغبة في مجانبته إلى السئى عما يدعوهم إليه ، وخوفهم بأس الله وعذابه ، وبين لهم أن اقتراف المعصية ، وارتكاب الإثم لا يمنعهم أن يؤمنوا بالله ، ويتوبوا إليه ؛ لينجوا من العذاب ويتخطاهم العقاب .

ولما أظهر لهم فساد اعتقادهم ، وبيّن لهم عاقبة ظلمهم ، وأيد قوله بالحجة البالغة والآيات البينة ؛ لجئوا إلى المراوغة في القول ومدافعة الحجة بالشتم ، فقالوا له : إننا لم نَفقه^(١) كثيراً من قولك ؛ لأنه ليس لكلامك سبيل إلى قلوبنا

أو منفذ إلى عقولنا ؛ فلتكف عن إثارة مَنْ هم في عزة ومَنعة ، وأنت المستضعف
الذليل ، الذي لم يمنعنا من أذاك إلا مكان عشيرتك ، وحرمة قبيلتك .

ولكن شعبياً لم يطأ طيُّ رأسه أمام عزتهم ، ولم يضعف أمام قوتهم ؛ بل هب
يدفع باطلهم بحقه ، ويمحق زورهم ببيئته ؛ وتملكته العزة بنصرة الله ، وتاه غمراً
بمؤازرته ، وأبان لهم أن رهطه ^(١) ليسوا أرفع قدراً ، ولا أشد قوة ، ولا أمتع
جانباً من الله الذي منحهم هذه القوة ، وأفاض عليهم تلك العزة ، وقال : هلا تركتموني
رعايةً لحق الله ، وحفظتموني ؛ إطاعة له ؛ إن ذلك أولى من حفظي لمكان قومي
وعزة رهطى .

لم يضعف تهديدهم قوته ، ولم يقل وعيدهم من عزمه ، بل دعاهم أن يبذلوا
ما يملكون من قوة لإيصال الشر إليه ؛ وأعلن إليهم أنه لن يألوا جهداً في سبيل
دعوته ، ولن يتخروا وسعاً في الوصول إلى غايته ؛ فشقته بنصر الله أكيدة ، وعاقبته
عنده حميدة ، وهو أعلم بما يعملون ، خبير بما يصنعون .

دأب شعيب^ه على الدعوة إلى الله ، فوجد من بعض القوم آذاناً صاغية وقلوباً
واعية ، وآمن به نفرٌ قليل ، فهلعت نفوس القوم خيفة أن يعظم أمره ،
ويستد^(٢) ساعده ، وينتشر دينه ، وتكثر جماعته ؛ فتوعدوه ومن آمن معه أن
يخرجوهم من قريتهم ، إن لم يبرءوا من دينهم ، ويعودوا إلى مللتهم ؛ ولكن شعبياً
أنبأهم أن هؤلاء الذين اتبعوه قد استرق الإيمان قلوبهم ، وملك عليهم مشاعرهم ،
وخالط نفوسهم ؛ فلن يعودوا إلى حمأة^(٣) الرذيلة إلا كارهين ، ولن يرجعوا

(١) رهط الرجل : قومه وقبيلته .

(٢) يشتد . (٣) الحمأة : الطين .

عن عبادة الله طائعين ، فقد أصبحت نفوسهم تعاف ارتكاب المعاصي ، بعد أن نجاهم الله منها ، وتأبى أن تتردى ^(١) في مهاوى الضلالة بعد أن أخرجهم الله في تمبأتها ^(٢) .

ولما يئس من هدايتهم إلى الحق ، وتبين إصرارهم على الكفر ، استنصر ربه عليهم ، ودعاه أن يجزّيهم على كفرهم وجحودهم ، وتضرع إليه أن يعجل لهم ما يستحقون من عذاب ؛ ولكن القوم عن الحق لا مهون ، وعلى الدين مقبلون ، وعما خبأ لهم القدر منصرفون ؛ فرجعوا إلى القوم المؤمنين ، وأعادوا الكثرة على من ظنّوهم مستضعفين ، وخوّفوهم الخسران إن تركوا الظلم ، وعاملوا الناس بالقسط ، وهددوهم بالخراب إن لم يطفّفوا ^(٣) الكيل والميزان ، وحذروهم العدم إن لم يبخسوا الناس أشياءهم ويعيشوا في الأرض مفسدين .

ثم كروا على شعيب بالكذيب ، ونسبوا إليه الشعوذة والسحر ، وتحذوه أن يسقط عليهم كسفاً ^(٤) من السماء ، وأن ينزل عليهم العذاب إن كان من الصادقين .

استجاب الله دعاءه ، وآزره بنصره ؛ وابتلاهم بالحر الشديد ، فكان لا يروى ظمأهم ماءً ، ولا تمنعهم ظلال ، ولا تقيهم الأسراب والمنازل ؛ فقرّوا هاربين ، وخرجوا من ديارهم مسرعين ؛ ولكنهم فرّوا من قضاء الله وقدره إلى قضاء الله وقدره ؛ فقد شاموا سخابة ظنوها من وهج الشمس واقية ، وحسبوها للحر دافعة ؛ فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلمها ، ويستريحوا فيها ، حتى إذا تكامل عددهم ، وتآلف جمعهم ، رمتهم بشرر وشهب ، وجاءتهم صيحة من السماء

(١) تسقط .

(٢) المكان الموبوء .

(٣) التطفيف : نقص الكميات . (٤) كسفاً : قطعاً علوية مهلكة .

وأحسوا الأرض تتزلزل تحت أقدامهم : ففزعوا لهول ما رأوا ، ولم يكادوا يحسون ما حلّ بهم حتى أزهقت أرواحهم ، وهلكت نفوسهم .

رأى شعيب ما حلّ بقومه : فأعرض عنهم ، يشقله الحزن على ما أصابهم ؛ ولكنه ذكر كفرهم بالله ، وتسفيهم لرأيه ، واستهزاءهم بمن آمنوا معه ، ومخالفتهم نصيحته : تخفف ذلك من وجده ، وتولى عنهم ﴿ وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ !

موسى (*)

ولادة موسى وتربيته

تمادى فرعونُ في غيِّه ، وعلا في الأرض ، وأنزل الخسفَ بطائفة من رعاياه ، هم بنو إسرائيل ؛ إذ عاشوا في ظلاله عيشةَ البلاء ، واضطربوا على اللاأواء ، وبينهم يضطربون ويرزحون في نكدٍ من العيش وسوء الحال ، إذ تقدّم الكاهن من فرعون وقال له : يولد مولود في بني إسرائيل يذهبُ ملكك على يده ؛ فشارت ثورته ، وسدر^(١) في بهتانه ، وأمعن في غيِّه ؛ فذبح أبناءهم ، واستبقى نساءهم ؛ ولكنَّ قدرة الله تعالى تسامت أن يقف أمامها تدبير خائب ، فقدر في قديم أزله لهؤلاء المستضعفين أن يرثوا ملكَ هذا الطاغية الجبار على يد طفل يرَبِّي في بيته ، ولكنه كالورد ينبت من ثنايا الشوك ، وكالفجر يدرج من مهد الظلام .

مكّن الله لبني إسرائيل ، وأورثهم أرض مصر والشام ، وأرأى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون .

جلست يوكابد^(٢) في كنٍّ من منزلها ، وقد جاءها المخاضُ ، فدعت قابلةً لتُهيئَ لها مثل ما يكون في هذه الحال ، فعالجتها ، فلما وقع موسى على الأرض اضطربت نفسها ؛ ولكنَّ حُبَّه تغلغل في قلبها ، فحرّصت على حياته ، وجدت في البُقية عليه ، فلم يتسرّب خبرُه إلى فرعون عدو الأطفال ، واستمرّ ثلاثة

(٥) القصص ٣ - ٤٣ ، طه ٩ - ١٠١ ، والشعرا ١ - ٦٨ ، الأعراف ١٠٠ - ١٥٦ ،

١٦٠ ، يونس ٧٥ - ٩٢ ، النمل ٧ - ١٤ ، النازعات ١٥ - ٢٦ ، هود ٩٦ - ١٠١ ، إبراهيم

٨ - ٥ ، المؤمنون ٤٥ - ٤٨ ، الإسراء ١٠١ - ١٠٤ .

(١) سدر : تحير . (٢) يركابد : أم مرسى .

من الشهور كذلك ؛ حتى إذا نشر الملكُ عيونه في المدينة يتفحصون الأطفال ألهم الله أم موسى أن تهبي له صندوقاً تضعه فيه ، ثم تُلقي به في النيل ، وترسل على الشاطئ أخته تقص أثره ، وتعلم بخبره ، بعد أن ثبتت فؤادها ؛ وهذا رؤيتها بقول كريم .

سارت أخت موسى تقص أثره ؛ وما كان أشد هلعها حينما حمل الصندوق إلى فرعون ؛ ولكن رحمة الله قريب منه ؛ فلم تسكد تنظره امرأة فرعون حتى ألقي الله محبته في قلبها ؛ فطلبت إلى زوجها أن يكون ابناً لها وله ، وقد أصبح قلب يوكبد فارغاً من الهم والإشفاق على وليدها ؛ لأنه استودعته الله ، وهي رابطة الجأش ، ثابتة الإيمان .

وسميت إليه المراضع ، لعله يقبل على واحدة منهن ، فيروى غلاته ويشبع جوعته ، ولكنه عاف المراضع ؛ فانبرى هامان ، وقال : إن هذه الفتاة تعرفه ، فخذوها حتى تُخبر بحاله ؛ ولما سئلت الفتاة قالت : إنما أردت أن أكون للملك من الناصحين ، فأمرها فرعون أن تأتي بمن يكفله ، وأقبل يحمل الطفل باكياً ، وهو يعال له حتى أقبلت امرأة ، فاستأنس بها الوليد والتقم ثديها من دون النساء .

فدهش فرعون وقال لها ؛ من أنت ؛ فقد أبى كل ثدي إلا ثديك ؛ فقالت أم موسى : إني امرأة طيبة الريح ، طيبة اللبن ، لا أوتى بصبي إلا قبلني ؛ فدفعه إليها وأجرى عليها رزقا ؛ فرجعت به إلى بيتها . وهكذا كافأها الله ، فقترت عينها به ؛ لتعلم أن وعد الله حق .

خروج موسى من مصر

أتمت يوكابد رضاعَ ابنها موسى ، ثم أسلمته إلى القصر الفرعونيّ ليكون لهم عدواً وحزناً .

ولما بلغ أشده واستوى ، أوحى إليه بالنبوة ، وآتاه العلم والحكمة .

اتجهت أنظار المستضعفين المغلوبين إلى موسى ، ليختمهم بما أثقل كاهلهم من الظلم والآلام : وهؤلاء قومه ، وهو ذو النفس الكريمة التي أشربت عزّة الله ، واستنارت بنور الله .

عاهد موسى نفسه على أن يكون لهؤلاء المظلومين . وفيما هو يتجه نحو العاصمة الفرعونية : إذ وجد رجلين يقتتلان : أحدهما عبريٌّ من مشاييعه ، والآخر فرعونيٌّ من أصحاب القوة والسلطان ، فسأله مظهره أن يحول بينه وبين اعتداء الفرعوني ، فهجم موسى فضرب الفرعونيّ فكانت القاضية : ثم ندم على فعلته ، وعندها من عمل الشيطان ، واستغفر ربه على ما فرط منه ، فغفر له ربه إنه غفور رحيم .

ولقد كان الغُفْران نعمة على موسى ، وحافزاً لرحمته ، وداعياً لسلامه ، فاستعاذ بالله أن يكون ظهيرا ^(١) للمجرمين ! ولكن موسى تغلبت عليه بشرّيّته ، وانتصرت على حوائسه طبيعة الإنسان : فلم يُعَلِّق إرادته بإرادة مدبّر الأمر ، ومصرّف الكائنات ، ولم يستثن مشيئة الله ، فوقع فيما عزم على النجاة من غوائله ؛ إذ أصبح في المدينة خائفاً يترقب ، فإذا الذي استنصره بالأمس يستنصرُخه ؛ فرماه موسى بالغواية والضلال ، ولكنه اندفع إلى مظهرته ، فظن أن موسى يقصد قتله ، فتقدم

إليه مسترحماً قائلاً : ﴿ يا موسى أتريدُ أن تقتُلنِي كما قتَلتَ نفساً بالأمسِ إن مُريدُ إلا أن تكونَ جباراً في الأرضِ وما تريدُ أن تكونَ من المصلحين ﴾ . فلم يكذب يسمع الفرعونُ هذا الاتهامَ الصريح - وقد كان قومه في حيرة في أمر قتيل الأمس ، لا يعرفون قاتله ، حتى وافاهم وأخبرهم بخبر موسى ؛ فتألب القومُ يبحثون عن موسى ليمزقوه شرُّ ممزق ، ولكن رحمة الله قريب ؛ إذ جاء من أقصى المدينة رجل يسعى ، قال : يا موسى إن العلاء يأتيمرون بك ليقتلوك ؛ ثم نصحه بالخروج من المدينة إلى حيث يشاء ربُّ العالمين .

موسى ينزل أرض مدين

خرج موسى من المدينة خائفاً يترقب ، متجهاً إلى أن يصرف عنه كيد الظالمين : سار ثمانى ليال قاصداً بلاد مدين^(١) ولأُمعين له إلعناية الله ، ولأرفيق يؤنسه إلا نور الله ، ولا زاد يحمله إلا زاد التقوى ، مشى حافياً حتى تساقطت جلود قدميه ، جائعاً لتكاد تترأى خضرة البقل من بطنه هزالاً وضعفاً .

ولم يكن له عن كل ذلك إلا عزاء واحد ، هو غنيمته بالبعد عن فرعون وقومه ، ونجاته بعيداً عن الرقباء والكائدين .

توجه إلى مدين ، فوجد حشداً من الناس قد تزاحموا على مَورد^(٢) ماء ، كل منهم يعتمد على قدرته في التقدم والمسابقة إلى البئر ، ورأى من دونهم امرأتين تفصيلان أغنامهما حتى لا تختلط بأغنام غيرهما في ضعفٍ وذلة ، إلى أن ينكشف هذا الحشد ، وينصرف الجمع ، فتقدما للسُّقيّما .

(١) بين الشام والحجاز . (٢) المورد : موضع ورود الماء .

ثارت في نفس نبي الله ثورة النصفة ، وحماية المستضعفين ؛ فتقدم وسألهما :
ما خطبكما ؟

قالتا : لانسقى حتى ينصرف الرعاء ^(١) حذراً من مزاحمة الرجال ، وقد جئنا
نسقى اضطراراً ، لأن أبانا شيخ كبير لا ينض ؛ فما تأخر موسى عن نجدة الضعيفتين ،
بل سقى أغنامهما ، وتولى إلى الظل ، ثم انطلق لسانه يسترحم رب السموات ،
ويستدر العطف ، لأنه فقير محتاج .

بكرت الفتاتان بالرُّجعى إلى أبيهما الشيخ على غير عادة ؛ فسألهما الخبر ،
فأخبرتا ، وقد استجاب الله استرحام موسى . فحنا عليه ، إذ ألهم الشيخ أن يرسل
في طلبه إحدى ابنتيه ، فجاءته الفتاة مستحيية متخففة فقالت : إن أبي يدعوك
ليجزيك أجر ما سقيت لنا .

تبع موسى الفتاة إلى بيت أبيها استجابة للدعوة ، فنزل صدى رحباً ، وآنس
حرماً آمناً ؛ ثم قص عليه قصصه ، وأفضى إليه بمكنون سره ، فطمأنه الشيخ ،
وقال : ﴿ لَا تَخَفْ تَجَوَّتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

موسى يهمل الشيوخ ^(٢) ثم يعود إلى وطنه

هدأت نفس موسى في منزل الشيخ الكريم ، وسكنت إلى صحبته ، ولا بدع
فنور الإيمان يتلألأ في كلا القلبين ، وفيض الإخلاص يتفجر من كلا الرجلين ،
وشبهه الشيء منجذب إليه .

ولقد كان موسى كريماً فتيماً ، أثار في نفس الشيخ وبنائه عوامل الإكبار
والإعجاب ، ولما زانه الله به من طبع قويم ، وخلق كريم ؛ فتحرك في نفس الفتاة

(١) الرعاء : الرعاة . (٢) يرى الحسن البصري ومالك بن أنس أن الشيخ هو
شعيب عليه السلام ، ويرى آخرون أنه شعيب آخر وليس بالنبي .

حُبُّ الاستظهار بموسى وقوته ، والإبقاء عليه لطهارته وأمانته ، فقالت : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ .

أو ليس هو الذى أقلَّ الغِطاءَ عن البئر منفرداً مع صعوبة حمله ، على ما كان به من تعب وهزال ! أو ليس هو العفَّ الطاهر الذيل الذى أطرق برأسه حينما بلغته رسالةُ أبيها واستدعته إليه ؟ فسار أمامها وسارت خلفه : وفاء لحقوق الشهادة وذِمَامِ (١) المكرمات ، وحتى لا تمتد عينه إليها فيكون من الخائنين .

مر حديث الفتاة إلى أذن أبيها ، فلم ينبَّه غافلاً ، ولم يحرك ساكناً ؛ بل كان صدًى يرجع ما كان يجيش في صدر الشيخ من أمل ورجاء : أما وقد مزق التماسُ الفتاة حجاب السكوت ، فقد استقر أبوها في مجلسه ، ثم انبرى يقول : يا موسى ؛ إني لراغب في أن أزوجه لك إحدى ابنتي هاتين على أن تكون عوناً لي وظهيراً أجيراً ترعى الغنم ، وتقوم بنصرتي ومساعدتي ثماني حجج (٢) ، وإن زدتها اثنتين فتلك منَّةٌ جليلة ، أرجوها منك ، ولا أحتملها عليك ، وسأكون لك إن شاء الله من الأوفياء المخلصين .

ولقد كان موسى شريداً في بلاد مَدْيَنَ ، وحيداً طريداً ، نائماً عن الأهل ، قصيماً عن الأخلاء ، مستوحشة نفسه ؛ فلم يكدر يسمع دعوة الشيخ حتى سرى أمل الحياة في نفسه ممسري المساء في العود ، وانطلق لسانه يقول للشيخ : إني لسعيد بصحبتك أيها السيد الكريم ، قوىٌ بمناصرتك ، عزيزٌ بمؤازرتك .

طاب مقام موسى ، واخضرَّ في حياته عود الأمل ؛ فآتمَّ أقصى الأجلين يكلاً أمورَ الشيخ ويدبر شؤونَه برعاية الأمين الناصح الحكيم ، وتمَّ الزواج بإحدى الفتاتين . ثم وهب له صهره الكريم أغناماً له خالصة سائغة ؛ وبعد ذلك تحركت

في صدره نشوة الحنين إلى الوطن ، ونزعت نفسه إليه ، ولجّ به الشوق والهيام :
 بلادُ أَلِفَناها على كلِّ حالة وقد يُؤَلَفُ الشيء الذي ليس بالحسن
 وتستعذبُ الأرضُ التي لا هوى بها ولا مأوئها عذبٌ ولكنها وطن

جمع موسى أشتات متاعه ، وهياً رحله ، واستعدّ ليذهب مع زوجته إلى مصر ؛
 فودعا الشيخ وداعاً حسناً ، ودعا لهما بالتوفيق والسداد ؛ ثم سارا نحو الجنوب ؛
 حتى طور سيناء ؛ وهناك ضلّ موسى الطريق ، فغار في أمره ، والتوى عليه قصده ،
 ولكن عناية الله لاحظته ، فلم يخبُ ضياؤه ، ولم ينطفئ رجاءه .

وإذا العناية لاحظتك عيونها نعم فالخاوف كلهن أمان

سار موسى غير بعيد ؛ فأبصر من الجهة التي تلي الطور ناراً ؛ فخطّ رحاله ،
 وأسرع وحده إلى النار بعد أن قال لأهله : ﴿ امكثوا إني آنست^(١) ناراً ،
 لعائى آتيكم منها بخبر ، أو جندوة^(٢) من النار لعائكم تصطلون ﴾ .

في شاطئ الوادي الأيمن ، في البقعة المباركة من الشجرة ؛ في تلك الليلة
 المسفرة الضاحكة ، بسم الزمان لنبي الله الكريم ؛ فنودي : ﴿ أن يا موسى إني أنا
 الله رب العالمين ﴾ فكانت بدء نبوته ، إذ خصه الله بكرامته ، وبعثه برسالته ؛
 وهناك سمع نداء الله الكريم : ﴿ وما تذكّ بيمينك يا موسى ﴾ ؛ فعجزت قدرته
 البشرية أن تسمو إلى سرّ الإبداع في السؤال الكريم ؛ فأجاب كما يجيب غيره من
 الناس : ﴿ هي عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها
 ما رب آخرى ﴾ ؛ ظناً أن المقصود أن يذكر خصائص العصا ، ومنافع العصا ...
 تسامت قدرة الله ، وتعالى سبحانه علواً كبيراً ؛ فلم يكن السؤال إلا تمهيداً
 لتبيان ومقدمة لإعلان !

(١) آنست : أبصرت

(٢) الجندوة : الجرة الملتبجة .

سأل الله عن حقيقة العصا ؛ حتى إذا رأى موسى بعد ذلك فيها خوارق ، واستبان عندها معجزات ، علم أن في ذلك آيات بينات ، وحججا صادقات ، خصه بها رب السموات ، تميزاً لرسالته وتقوية لدعوته .

فكم طابت به للحق نفس بحبل الله تعتصم اعتصاما
أمر موسى أن يلقى عصاه فألقاها ، فإذا هي حية تسعى ؛ نمت وعظمت
حتى غدت في جلادة الشعبان ، وضخامة الجان ^(١) ؛ لمحها موسى بخاف وهرب ؛
فسمع نداء العلي العظيم : ﴿ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

حقت نبوة موسى ، واطمأنت نفسه لنداء الله الكريم ، وقزت عينه بنور
الحق الواضح ؛ فتوجه ربه بمعجزة أخرى ؛ إذ أمره فأدخل يده في جيبه ؛ فإذا
هي بيضاء من غير سوء .

كانت هاتان المعجزتان لموسى نبي الله الكريم أمراً له ما بعده ، جعلهما الله
تثبيتاً لقلبه ، وتمكيناً لرسالته بين فرعون وقومه ، وتهيئةً للمناداة بالحق ؛ فرفع
صوته عالياً ، وشهر سيفه قاطعاً ؛ ليزق به حجب الزيف والضلال .

موسى الرسول

عاش فرعون وأعدائه في بلاد النيل ، يحكمون القبط وبني إسرائيل ؛ ويفسدون
في الأرض ظلماً واستكباراً ، ويتخذون من نفوسهم أرباباً ، مصورين من طبيعتهم
البشرية الناقصة آلهة يفرضون على السوقة عبادتهم من دون الله ، ثم هم بعد قد
أنزلوا الخسف ببني إسرائيل ، وساموهم سوء العذاب ، وأتعبوهم في العمل ،
وأطفئوا أمامهم سرج الأمل ؛ فكانوا معهم من سقط المتاع .

(١) الجان . نوع من الحيات .

وأوغلوا في شهواتهم ، وانصرفوا عن نور الإيمان ووضح اليقين ، وانحسرت
نواظرهم عن سبل الهداية ، فحادوا عن الطريق المستقيم

وقومٌ في الضلالة قد تهاووا أليسوا بالرسالة يُرحمونا !

إذن فلتقض رحمة الله ، ولتتفجر ينابيع عدله وكرمه ، وليكن أرحمَ بهؤلاء
القساة الجنّاة من أنفسهم ، فيهيّ لهم مدارج النور ، ويفسح أمامهم طريق الهداية ،
ويُنيرَ مفاوز^(١) الظلمات .

نادى الله موسى : أنْ لديك برهانان من ربّك إلى فرعون وقبائمه ، يعزز الله
بهما كلمتك ، ويُعلي حجّتك : فاذهب إلى هؤلاء حتى تخرجهم من الظلمات إلى النور ،
وترفع للحقّ علماً يخفق في بلاد النيل ، فينبليج نور الرشاد ، ويتوارى غلس الضلال .

سمع موسى دعوة الله ، وتهياً لتلبية النداء الكريم : وهو وإن يكن ربط الله
بالإيمان قلبه ، ووثق بالبراهين دعوته : فأراه حجّتين بهما يتقوى ويستند ،
ويُساجل ويناضل ، ويعزز كلمة الله أمام فرعون وقومه - إن يكن له كلُّ ذلك فإن
لدى موسى ثأراً قديماً لفرعون : فهم يطالبونه منذ أمد ، وهو قد أمعن في الحرب ،
وفارق الأهل والوطن : لإنجاء نفسه ، وطلباً للسلامة من أقرب الأبواب . وهو
كذلك وإنْ جاشت في نفسه نزعة الحنين إلى الوطن ، واختلجت في فؤاده عوامل
الشوق والشجن^(٢) ، لا يزال يجد أمام الأمل سُدة^(٣) . فيغض الطرف عن هذا
المطلب البعيد المنال ، أما وقد دعاه الله وهبأه لرسالته ، فقد آن له أن يتقدّم حيث
أحجم ، وأن تنبعث آماله حرّة طليقة بعد أن حبسها وحال دونها الخوف والحرمان .

فاضت الضراعة من قلب موسى إلى ربه ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ

نفساً فأخاف أن يقتُلون) ، قال قَوْلُهُ : ليطمئنَّ قلبه ، وليشرف قدره ، ويعظم جاهه ، فينفحه ربه بقول كريم ، يُشير في قلبه مصابيح الرجاء ، ويفسح أمامه مسالك الأمل ، ويثلج خاطره ، ويهدئ روعه ، ويؤمن نفسه .

أمر موسى أن يذهب إلى فرعون ؛ فتهيب الموقف ، واستعظم الأمر ، وهو الذي لا يكاد يُبين عن آيات الهدى ، ودلائل الحق ؛ لأنها فياضة زاخرة ؛ تمتلئ بها مشاعره ، وتجيش بها خواطره ، وتملك عليه عقله وقلبه ، وهو لا يملك أن يكون قوى التعبير ، رصين الحجّة ، مُفوّّه المنطق ، سرى البيان ؛ لأنّ شأنه شأن خطير ، وأمره أمر كبير ؛ فدعا ربه فقال : رب اشرح لي صدري ، حتى ينفسح لتحمل أعباء هذا الأمر العظيم ، ويسّر لي أمري برفع الموانع والصعاب ، وأحلّل عُقْدَةَ من لسانى أكنّ ناصع البيان ، سديد البرهان ، حتى ينفذ بلاغى إلى نفوسهم ، ويتسرب إلى قلوبهم ، واجعل لى شريكاً وزيراً من أهلى ، هو هارون أخى ، أشدّ دبه أزرى ، وأشرّ كه فى أمرى .

أجاب الله دعاء نبيه الكريم ، تدعياً للدعوة ، وتكريماً لرسوله ، وتنبيهاً لشأن الحق ؛ فألهم هارون - وقد كان بمصر - أن يذهب إلى حيث يقيم موسى أخوه ، ليشاركه فى أمره ، ويحمل معه أعباء هذا الأمر الخطير . فلبّى هارون داعى الحق ، وسار فقابل أخاه بجانب الطور الأيمن .

إذن قد اطمأن موسى ، وتقوى ظهوره ، وآتاه الله سُؤْلَهُ .

أوحى الله إلى موسى وأخيه : أن اذهبا إلى فرعون ، فقولا له قولاً لئينا ، أرْفَقَ بنفسه ، وآلفَ لقلبه ، عسى أن تلين قسوته ، وتخشع سطوته ، فلا تحمله حماقته على أن يسطو عليكما ؛ ولتسدّا أمامه منافذ التحلل والاعتذار ؛ وعسى أن تكون دعوتكما لئينة رقيقة ، فلا تفجعه فى سلطته ، ولا تصدمه فى عزته .

وَمَنْ أُولَى مِنْ رَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِأَنْ يَعْلَمَ الْأَدَبَ ، وَرَقَّةَ الْعِبَارَةِ ، وَسَمَوَاتِ
الْحُسْنِ ، وَحُسْنَ الْمَعَامَلَةِ ! وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا !

أَلَيْسَتْ لِفِرْعَوْنَ عَلَى مُوسَى حَقُوقُ التَّزْيِينَةِ ! فَمَنْ حَقُّهُ عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ فِي الْقَوْلِ ،
وَرَقَّةٌ فِي الْأَسْلُوبِ .

قال الله : يَا مُوسَى ؛ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، وَتَدْرِجًا
مَعَهُ فِي الدَّعْوَةِ ، فَقُولَا : إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ ، وَادْعُوهُ لِيُخَلِّصَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِمَّا هُمْ
فِيهِ مِنْ ظُلْمٍ وَإِيلَامٍ .

ذهب موسى وأخوه إلى مصر ، فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ ، فَاسْتَهَانَ بِهِمَا ، وَاسْتَكْبَرَ
خَطْبَهُمَا ، فَقَالَ : حَتَّى أَنْتَ يَا مُوسَى ، ﴿ أَلَمْ نُزَيِّدْكَ فِينَا وَلِيدًا ^(١) وَلَيْسَتْ
فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ .

فَقَالَ مُوسَى : أَتَمْنَى بِتَرْيِيقِي لَدَيْكَ وَلِيدًا فَتَحْسِبُهَا نِعْمَةً ! أَلَيْسَ مَنَشْؤُهَا ظُلْمُكَ
وَاسْتِعْبَادُكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ !

فَانْطَاقَ فِرْعَوْنَ قَائِلًا : وَكَذَلِكَ فَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْجَاهِلِينَ
بِنِعْمَتِنَا . وَدَحَضَ ^(٢) مُوسَى حُجَّتَهُ ، وَرَدَّ دَعْوَتَهُ : فَقَالَ : بَلْ فَعَلْتُمَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ
الضَّالِّينَ ؛ وَلَمَّا خِفْتُ بِطُشْكُمُ فَرَرْتُ مِنْكُمْ ، فَأَصَابَتْنِي نِعْمَةُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ ، فَوَهَبَ لِي
عِلْمًا وَحِكْمَةً ، وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

حِينَئِذٍ اسْتَغْلَقَ بَابُ النِّقَاشِ أَمَامَ فِرْعَوْنَ ، فَعَمِدَ ^(٣) إِلَى طَرِيقِ آخِرٍ ؛ وَاهْمًا
أَنْ بِهِ تَصَفُّفُهُ ، وَفِيهِ سَلَامَتُهُ ، فَقَالَ : وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟

فَقَالَ مُوسَى : إِنْ أُبْقِنْتَ حَقِيقَةَ الْأَشْيَاءِ ، وَأَدْرَكْتَ وَجُودَهَا وَآثَارَهَا ، فَإِلَهِي
رَبُّهَا ، رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا .

(١) الْوَلِيدُ : الصَّبِيُّ الْمَوْلُودُ (٢) دَفَعَ وَابْطَلَ (٣) عَمِدَ إِلَى الشَّيْءِ : قَصَدَ لَهُ .

فتميز فرعونُ غِيظًا ، وراح يُشيرُ سخيمةً مَنْ حوله ، ويبعث دهشتهم وعجبهم واستنكارهم ، فقال :

أيها القوم ؛ ألا تسمعون ! أسألهُ عن حقيقة ربه فيذكر لي أفعاله ! فقال موسى :
ربِّي ربكم ورب آبائكم الأولين ، ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا يَنْهَمَا أَنْ
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

فثار فرعون ، واضطربت نفسه ، وُلجَّ في غضبه ، وزاد غيظه ، وعجزت حجته ،
فلجأ إلى حيلة المُحنَق الموتور ، وعمد إلى قوته ، وقال : لئن اتَّخَذْتُ إِلَهًا
غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُودِينَ ﴿ ١ ﴾ .

لم يُسال موسى ، واطمأن لدعوته ، وانبعث لسانه بدفء الأمل ، فقال :
﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾ ! حجة دامغة ، ومعجزة قاطعة ، تُزيل عنك
الريب والشكوك !

فقال فرعون : إذن فأت بها إن كنت من الصادقين .

معجزات موسى

كان موسى قوَّى الظهر ، مستد الخطا ، يستمد العون والتوفيق من الله العليّ
الكبير ، وكان السحر فنًّا ذاع في بني مصر أمره ، واشتهر شأنه ، فظهر منهم الساحر
الذي يخلبُ العقول ، ويسترق الفؤاد ، ويلعب بالآلِباب لِنِعْبِ النكباء (١) بالعود ؛
برعوا في هذا الفن وأتقنوه ؛ فليس يباريهم سابق ، ولا يبلغ شأوهم لاحق .

ومن هذه الناحية وحدها شاءت إرادة الله أن يُعجز القوم ، وأن يقفهم

(١) النكباء : الريح .

دهشين ذاهلين ، إذ تُصَوَّب سهامهم إلى نحورهم ، فلا يستطيعون ردها ، ولا هم يُنظرون .

تلك حكمة^(١) أرادها الله ؛ فأجرى المعجزة على يد نبيه موسى ، تحاكي ذلك النوع الذي برع فيه القوم ، حتى يُفْرِغُوا كل كُنائهم ، ويستنفدوا كل جهودهم ؛ فإذا عجزوا في محط سَبَقهم ، وغاية براعتهم فهم عن غيره من الأعمال أُعْجز ؛ وحينئذ فكلمة الله هي العليا ، وكلتهم هي السفلى ، والله لا يهدي كيد الخائنين .

ألقى موسى عصاه التي أودعها الله القوة الخارقة ، فإذا هي ثعبان مبين . شِده^(٢) فرعون ، وتملكه مزيج من الكبرياء والحيرة ، ثم قال : هل من غيرها ؟ ظانا بأن ذلك نهاية الشوط ، وأن موسى لا بد عاجز ؛ ولكن الرسول أدخل يده في جيبه ثم نزعها ؛ فإذا شعاع ينبعث منها يكاد سَنَا^(٣) بَرَقه يأخذ بالآبصار ، وينتشر حتى ليكاد يسدُّ الأفق .

بعد ذلك ضاقت مسالك القوم أمام فرعون ، وغشيه هم واكتئاب ، ولج به حرصه على مُلكه وجبروته ، وبهره سلطان المعجزة ، فأنزله من عليائه ، وصغر شأنه في عين نفسه ، ففسى أنه ربهم الأعلى ، وأنه ما علم لهم من إله غيره ؛ ثم عمد إلى التمسح في أذيال قومه ، ومداهنتهم ، فأشركهم في الأمر ، وتبادل معهم المشورة والرأى ، وتقدم لمؤامرتهم ، وتنفيرهم من موسى ، فلبسوا الباطل ثوب الحق ، والخديعة والتدليس ثوب الصراحة والحقيقة ، فقال : يا قوم : هذان ساحران يريدان أن يخرجاك من أرضكم بسحرهما ؛ فما ترون ؟ فقال أنصاره وحواشييه : احبسهما وابعث رجالك في المدائن^(٣) يأتوك بسكل ساحرٍ عليم .

(١) شِده : تحير . (٢) سَنَا : ضرو .

(٣) المدائن : جمع مدينة ، كالمدين .

صادف هذا الرأى هوّى فى نفس فرعون ، وهو الذى يتعلّق بخيوط واهية ، ويستمسك بالأمل الكاذب : ويستند على أوهن أساس ، لعل فيه الخلاص والنجاة .

فجدّ فى جمع السحرة من كل مكان ؛ كل ذلك والهواجس والوساوس تتنازع نفسه ؛ خوفاً على صوّاته ، وفرقاً (١) على دولته ؛ إذ قال لموسى فى نكران ودّ هّش :
﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ .

ما بال فرعون اضطرب وجزع ، وتقطعت نفسه وهلع ! أليس هو الإله المتجبر ! أو ليست له قدرة وكرامة ! إنه أمام تلك القوة الخارقة التى أجراها رب الأرباب على يد بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق !

قال فرعون لموسى : ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخَافُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ ﴾ .

قال موسى : موعدكم يوم العيد ، يوم اجتماع الناس وزينتهم ، حتى يشيع الحق ، وينبلج أنبلج النهار .

جد فرعون واجتهد ، وجمع السحرة ، وأتى بهم فى ذلك الزمان ، وهذا المكان ، تمشى فى نفسه بقيةً من الأمل ، ورغبة شديدة مُلِحّة من الحرص والسلطة ، يدفعانه دفعاً إلى مساجلة موسى والقضاء على دعواه ؛ ولكن هيهات أن يدّس الشمس غباراً ثائراً ، أو يحط من قدر العدالة سلطان جائر .

كناطح صخرةً يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوّهى قرّنه الوعلُ
تلفّت موسى فوجد حشداً هائلاً من السحرة ، فقال لهم : الويل لكم إن
افتريتم الكذب على الله ، فدعوتهم معجزاته سحراً ؛ ولم تصارحوا فرعون بالنور

الساطع ، والحق القاطع ، فتظهروا له ما بين سحرهم وإعجازي ، وتفرّقوا بين باطلهم وحق ؛ فمن احتال منكم ليبيطلَ حقًا ، أو يُحق باطلا فقد خاب ، وباء بالخسران المبين .

كان كلامُ موسى نداء الحق رنّ في آذان الساحرين ، فأفاقهم من غشية الضلال ، وأزال عن أفئدتهم سحلك المحال (١) ، وفتق أغشية قلوبهم لتصيح لدعوة الحق ، ولتستبين طريق الرشاد .

اثتمر السحرةُ بأمر فرعون ؛ لم يتخلف واحد منهم ، فإذا بهم آلاف ، مع كل واحد منهم حبلٌ وعصا ، مقبلين إقبال رجل واحد ، ومشتمرين عن سواعدهم ؛ ليكون ذلك أدعى إلى تسرب الخوف إلى موسى وأخيه ، وبث المهابة في نفوس الرائيين .

نادى فرعون في قومه ، حاثًا لهم على الإسراع والبدار (٢) ، ليشهدوا ذلك الحفل العظيم ساعة الضحى من يوم الزينة ، يوم يتبارى القرنان ، ويتساجل الخصمان .

جاء الناس مدفوعين بالرجاء في نصرة الساحرين ؛ لما رسخ في نفوسهم من الضلالة ، وران (٣) على قلوبهم من الجهالة ، فسلبهم سلامة التقدير ، وصحة التصوير .

أقبل السحرة مُدليّين بعلبهم ، مزهوّين بغرورهم ؛ وكيف لا يُدِلون ويُعجبون وهم فوارسُ الميدان ، وجياد الرهان ، ومناط الأمل ، ومحط الرجاء !

قالوا لفرعون : ألنا أجر إن غلبنا ؟ فقال : لكم أجرٌ وقُرْبى ! تنعمون في حماي ؛ وتسعدون بجوارى ، وتنزلون موارد الرفاقة (٤) والترف والنعيم ؛ لأنكم

(٢) بدر إلى الشيء : أسرع .

(١) المحال : السكيد والمكر .

(٤) الرفاقة : السعة والرغد .

(٣) ران على قلوبهم : غلب .

تشتون أزرى ، وتقوون ظهري ؛ فاطمأن السحرة لهذا ، ودارت برؤوسهم كئوس
الآمل ؛ فأقبلوا مدفوعين ، ثم قالوا : ياموسى : إما أن تُتلى ، وإما أن نكون
أول الملقين .

فلم يبال موسى سحرهم ، واستخف بخطهم ، وأذن لهم بأن يلقوا حبالهم
وعصيهم ، حتى يستنفدوا أقصى وسعهم ، ويفرغوا غاية جهدهم ، ثم يُظهر الله
سلطانه ؛ فيقذف بالحق فيدفعه ^(١) .

تقدم السحرة وألقوا ما فى أيديهم : فخيّل لموسى أنها حياتٌ على الأرض
تسعى ، ولكنه وهمّ تسلل إلى خبايا نفسه حذراً وخوفاً أن يؤخذ الناس بهذا
الظاهر الممّوه ، والباطل المشوّه ؛ فینصرفوا عن دعوته مدبرين ، ولكن حمّاه الله
ورعاه ، فقال : لا تخف إني أنت الأعلى ، ولا تحفل ^(٢) بكثرة هذه الأجرام
وعظمتها ؛ فإن العويذة التى فى يدك أخطرُ شأنًا وأعظمُ أثرًا ؛ فآلقها فإنها بقدره
الله تبتلع ما افعلوا وزوروا ، وموهوا وضلّوا ؛ فما كلُّ ذاك إلا كيد ساحر ،
ولا يُفلىح الساحرُ حيثُ أتى .

هدأت حصاة موسى ، وألقى عصاه ؛ فإذا هى تلقف ^(٣) ما يافكّون ، وإذا
السحرة يلبسون الحقيقة الرائعة ، ويتبينون الرُّشد من الضلال ، والحق من
المحال ، فإذا هم يخزّون ساجدين : توبة عما صنعوا ، وخشوعاً لهيبة الحق ،
وإكباراً لذلك الأمر الخطير .

غلت مراحلُ الحقد والحفيظة فى صدر فرعون ، واحتدم غيظه لتلك المفاجأة
الغريبة التى فجأتها ، مستطيرة الشرر ، شديدة الضرر ، على حين كان يرجو من

(١) يدفعه : يمحوه . (٢) حفل بكذا : بالى به .

(٣) لقف الشيء وتلقفه : تناوله بسرعة .

ورائها تقويةً لسلطانه ، وتدعيماً لبهتانه ، فإذا هي عاصفةٌ هوجاء تقوّض ذلك العرش الذى أُسّس على الزور والبهتان .

لم يجد فرعون فى كيناته إلا أن يُشيعَ نهم غيظه ، ويستمر مرارة خجله ، فقال : أتؤمنون له ، وتخضعون لحكمه قبل أن آذن لكم ! أليس فى ذلك اتفاق مقرر ، ورأى مدبراً !

حقاً إنه لأستاذكم ، وكبيركم الذى علمكم السحر : فاتفقتم معه على فعلكم ؛ أما وقد أقدمتم على ذلك ، وخرجتم على حدود طاعتي ، ونقضتم حبال عهدى ، فلا قطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبَنَّكم فى جذوع النخل ، عقاباً لكم ، وتمثيلاً بكم ، لأنكم كفرتم بنعمتى ، ونقضتم ميثاقى ، ولتُعرّفنكم أيام الزمن قوةً بأسى ، وشدةً عذابى .

ولكن قوة الإيمان ، وفيض النبوة ربّنا على قلوب هؤلاء المؤمنين ؛ فأزال الله عن قلوبهم غشية الباطل وغمرة البهتان ، ودرجوا قديماً نحو الصراط المستقيم ؛ فقالوا لفرعون : ليس فى سبيلك خير ، ولا فى رضاك أجر ؛ فلن نخارك على ما جاءنا من نور ساطع وحق قاطع . فأوغلّ فى وعيدك ، وأكثر من تهديدك ، فما أنت إلا غويٌّ مُضِلٌّ مُبين : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خيرٌ وأبقى ﴾ .

عناد فرعون

شده فرعون لما رأى من سحر موسى كما يسميه ، وانطلق تتنازعه عاطفتان جامحتان : أقواهما الإبقاء على ملكه ، ومجاهدة موسى حتى تنجلي عجاجة ظلامه ، وتنكشف سخابة غمته ، فيستتب لفرعون المصير ؛ وكيف لا يناضل عتل^(١) جبار في سبيل هذه العزة الشاحنة والثروة العريضة ! إنه لمضطر تحت نزعات هذه النفس الكافرة أن يدافع ويحالد حتى يدحر^(٢) ذلك الخارج على سلطانه . أصر فرعون على عناده ، وظاهره الملاء من قومه ، فقالوا : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ ﴾ ! فتغاليى في بطشه وعنفوانه ، واستطار شره وبهتانه ؛ فقال : إنا سنقتل أبناءهم ونستحي^(٣) نساءهم . ثم راح ينزل بهم صنوف الظلم وألوان الأذى ؛ فضجوا لاجئين إلى موسى ، ليحميهم من أذى الكافر الجبار ، وقالوا : يا موسى ؛ لقد أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . فسكن الرسول ثورتهم ؛ وهدا روعهم ، ومسانم الخير والنجاة قائلا لهم : ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

قال موسى هذا ، واستمر في دعوته يمهّد لقومه سبيل النجاة ، ويتجه إلى ربه بقلب ثابت ، وإيمان موثق ، واطمئنان موفور .

أما فرعون فقد خلاص إلى ملاء من قومه يأتمرون بموسى ليقتلوه ؛ فذلك أقرب طريق أمامهم ، وأدنى السبل لبقاء ملكهم ، بعد أن أعيبتهم الحيل ، وُسدت أمامهم منافذ الخلاص ؛ وبينما هم في أخذ ورد ، يقلبون أوجه الرأي ، ويحيلون

(١) عتل : شديد الخصومة كثير العناد (٢) يدحر : يغلب .

(٣) نستحي : نتركهم أحياء .

الفكر في الإقدام على جريمة القتل ، إذ دفعت المروءة والشجاعة رجلاً أنار الله بصيرته ، وكشف له سبيل الرشد والإيمان ، فدافع عن موسى أشدّ الدفاع ، وناضل عنه وجادل ، وبين لهم سوء أمرهم ، وعاقبة تدبيرهم ، وفند حججهم ، وزيف ضلالهم ، وطفق يضرب المثل ، ويتقوى بالحجج .

فقال : يا قوم ﴿ أَتَقْتَلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴾ .

ثم طفق مؤمن آل فرعون يذكّرهم ببأس الله وبطشه ، فقال : ﴿ يا قوم إني أخافُ عليكم مثلَ يومِ الأحزابِ ^(١) . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلياً للعباد . يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ^(٢) . يوم تولثون مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . ولقد جاءكم يوسفُ من قبْلِ بَآئِنَاتٍ فَآزَلْتُمْ بِفِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ .

ولكن القوم - على الرغم من قوة عارضته - قاوموه وكذبوه : ليلجئوه إلى صفتهم ورأيهم ، فقال : ﴿ يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار . تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علمٌ ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم ^(٣) أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأنّ مردنا إلى الله وأنّ المُسرّفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم وأفوضُ أمري إلى الله إنّ الله بصيرٌ بالعباد ﴾ .

ضاق القوم ذرعاً بهذا الرجل الذي فجأهم برأيه ، وسفّه أحوالهم بهديه ؛
فناووه وسفّوه ، وهمشوا به ليقتلوه ، فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل
فرعون سوء العذاب .

استمر موسى في دعوته ، لا يثنيه وعيد ، ولا يخيفه تهديد ، يدعو فرعون إلى
الإيمان بربه ، والرّجعى إلى خالق الأرض والسموات ، وأن يطلق معه بنى إسرائيل ؛
ولكن هذا كان شديداً كل الشدة على ذلك الطاغية الجبار ؛ فاشتطّ في غوايته ،
وظل في جهالة ، وجمع أشتات الزائعين من قومه الذين أَلفوا الذّلة ، وارتضوا
عيش الهوان والاستعباد ؛ جمعهم يريد أن يهرهم بالقوّة ؛ ويثبتهم على الكفر
والمذلة ، ونادى في قومه ، قال : ﴿ يا قوم أليس لى مُلكُ مصر ، وهذه
الأنهار تجري من تحتى ، أفلا تبصرون . أم أنا خيرٌ من هذا الذى
هُوَ مُهِينٌ ولا يكادُ يُبينُ . فلو لا ألقى عليه أسورةٌ من ذهبٍ
أو جاء معه الملائكة مُقترنين ﴾ .

وهؤلاء هم أذئاب شره ، وعمد زُيغه وظلمه ، قد أطاعوه ، إنهم كانوا
قوماً فاسقين .

لم يبق في قوس الصبر منزعٌ ، ولا لحجة المبين موقع ، بعد أن عتا فرعون
عتواً كبيراً ، وسد مسالك القول بهتانه ، وأنكر الشمس في وضوح النهار ؛ بل إنه
قد استمر يذيق بنى إسرائيل أنواع المذلة وصنوف الهوان ؛ فأمر الله تعالى موسى
أن يعلن فرعون وقومه بأن الله لا بد مديقهم جزاء كفرهم وحبسهم بنى إسرائيل .

فأخذهم الله بنقصٍ في الأموال والأنفس والثرات ، فنضب معينُ النيل ،
وغاض مائه ، وقل غناؤه ، وقصّر عن إرواء أرضهم ؛ فنقصت ثمراتهم ، ودوى

عودُ خيرهم ؛ ثم أغرقهم الطوفان من مطر السماء . فأضرَّ بالزرع والضرع ، ثم زحف عليهم جراد أكل الثمار والأزهار ، واستولى عليهم القُمَّل ، فأقضى مضاجعهم ، وأقلق رقادهم ، وابتلوا بالضفادع ، فنفست عيشهم ، واحتشد جمعها في طعامهم وشرابهم وبين ملابسهم . وساطط عليهم الدم ، فسال الرعاف من آنافهم ، ثم محق الله أموالهم وأهلكها جزاء خطيئاتهم وكفرهم . ﴿ ولما وقع عليهم الرِّجْزُ (١) قالوا يا موسى آدعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرِّجْزَ لنؤمننَّ لك ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل ﴾ .

كشف الله عنهم هذا البلاء ، ليمهد لهم سبيل الخلاص من حماتهم ، وليقوَّى بحكمته الحجة والدليل عليهم : ولكنهم نكثوا عهد الله فكانوا من الخائنين .

خروج بني إسرائيل من مصر

أفصحَ النهار لدى عينين ، فتبين بنو إسرائيل الغيَّ من الرشاد ؛ وانحازوا لرسول الله الكريم ، يلتمسون لديه الرحمة والهداية ، وهم الذين ضربت عليهم الذلَّة والمسكنة ، وسيموا سوء العذاب ؛ فعاشوا عيشة البلاء ، واصطبروا على اللأواء .

وكيف لا تفتتح بصائرهم ، ولا تتفجر ينابيع إيمانهم ، وقد لمسوا آية الحق ناصعة مشرقة ؛ فقرت بها عيونهم ، واطمأنت إلى مهادها جنوبهم . فلم يحفلوا بوعيد فرعون ، ولم يأبهوا لزعجته وتهديده ، والتمسوا الفرار من أرض مصر ؛ طلباً للسلامة ، وبُعداً عن القوم الظالمين !

سار بهم موسى أول الليل إلى الأرض المقدسة وقد سهَّل الله إليها طريقهم ،

فساروا حيثاً ؛ يدفعهم الخوف ، ويعصمهم الإيمان ، حتى قطعوا رقعة اليابسة المصرية ، وإذا بهم أمام بحر لحيّ يقف أمامهم سداً منيعاً دون غايتهم ، وحائلاً دون أمنيّتهم ، فساوَرَهُمُ الْقَلَقُ ، واستولى عليهم الجزع ، وتوزّع نفوسهم الرُّوع والفرزَع : أليسوا هم المطلوبون لفرعون وجنوده ، وهو الذي يجتد في السير ويمعن في الطلب حتى ليوشك أن يقترب منهم ؛ لأنهم - على زعمه - عبيد آبقون ، وأتباع مارقون ، وكان قد جيّش جيشه ، وحشد خيله ورَجَلَه^(١) ، وسار وراء موسى ومن تبعه حتى صار منهم قاب^(٢) قوسين أو أدنى .

هاج بنو إسرائيل ، وتقلّعت نفوسهم هما وحسرة ؛ أليس الموت قد كاد يُدرِكهم ، وحبائلُ فرعون قد اقتربت لتقتنصهم ؛ هنا مسمع صوت يجار كما تنبعث الهَيْعَة^(٣) الصاخبة وسط المفازة المترامية ، فيه عتب ، وفيه لوم ، وفيه استنجاد ، وفيه يأس ، وكان صاحب الصوت يوشع بن نون ، من قوم موسى .

قال : يا كليمَ الله ، أين تدبيرك ، ها قد دهمتنا غوائلُ القَدَر ؛ فالبحر أمامنا ، والعدوّ وراءنا ، وليس لنا من الموت نَحْيَص ولا مفرّ . فقال موسى : لقد أمرت بالبحر ، ولعلّ أومر الآن بما أصنع . فسرّت في نفوس القوم ساريةٌ من الأمل ، ولكنه لا يلبث أن يمدّ شعاعه ؛ حتى تطفئه عواصفُ اليأس والقنوط ، ويشيع في نفوسهم ثورة يحبسها ما تبقى في قلوبهم من رجاء ، وما يعللهم به نبشهم من فرج ورجاء ؛ إذن فليستسلخوا لتمضاء الله ، والله لا بد راحهم وعاصمهم من فُتْك الظالمين .

أوحى الله إلى موسى : أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه ؛ فانجابت دياجير

(١) الرجل : المشاة . (٢) قاب : قوس .

(٣) الهَيْعَة : صوت مفرزع .

الظلام . وانحسرت طاغيات اليأس ، وإذا اثنا عشر طريقاً لاثنى عشر سبباً^(١) ؛ لكل سبب طريق ، وإذا الشمس والريح يهيهما الله ، فتجف هذه الأرض ، وتمهد تلك السبل ، وإذا القوم يسرون آمنين في رعاية الله الكبير المتعال ، وإذا ربهم يؤمن رسولهم ؛ إذ يقول : ﴿ قَاضِرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَسَا لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى ﴾ .

انساب الأسباط يهرعون إلى بر الأمان والسلام ، وقد قام الماء على جانبي كل طريق كالطود^(٢) العظيم ، حتى عبروا سالمين .

استشرف القوم بعيونهم ، فأبصروا فرعون وجنوده يتأهبون ليسلكوا في البحر مسالك بني إسرائيل التي عبروا منها ، حتى يلحقوا بهم ، فينزلوا بهم أشد العذاب ؛ فغشيهم من اليم ما غشيهم ، وعاد القلق والاضطراب ، بعد أن ظلمتهم سحابة من الأمن ، وتملكهم الخوف والإشفاق ؛ خشية أن يمتد إليهم عدوان فرعون ؛ بعد أن يجوز البحر من حيث جازوه .

اتجهت القلوب ، وتطلعت الأنظار نحو موسى حتى يكشف ربه عنهم هذا البلاء المجدق ، الذي يكاد يدتهم من حيث لا يشعرون ؛ حينئذ هم موسى ليدعوا البحر فيرجع إلى حاله ، حتى يحول بينهم وبين فرعون ، وليكون حاجزاً يحجز عنهم ذلك البطش الذي يلاحقهم في كل مكان وزمان .

لم يكد عزم موسى يحتاج في فؤاده حتى أوحى الله إليه ؛ أن اترك البحر ساكناً على حاله ، فلا تضربه بعصاك لئلا يتغير منه شيء ، لأن الله لا يريد أن يجعل البحر حائلاً بينك وبينهم ، فيرجعوا إلى ديارهم سالمين ؛ بل سبقت كلمة الله في هؤلاء أنهم جند مغرقون .

(١) السبب : الفريق من اليهود . (٢) الطود : الجبل .

تلفست فرعون وجنوده ، فإذا سبيلُ البحر ممهدةٌ أمامهم ، فيها يسرون ، ومنها إلى بني إسرائيل يصلون ؛ فانتفخت أوداجهم ، وأعماسهم غرورهم ، وتاهوا في ضلال الصلّاف والإعجاب ، فقال فرعون لجنوده : انظروا إلى البحر كيف انقلب ؛ طَوْعاً لأمرى ، وانصياعاً لإرادتى ، حتى أدرك هؤلاء الخارجين .

وكأنها كانت معجزة لفرعون في نظر أصحابه الضالين ، فتقوّوا بقوّته ، واطمأنوا لنصرته ، ثم اندفعوا إلى مسالك البحر ، وقد لجت بهم العجلة ، طلباً لبني إسرائيل ؛ ولم يسكادوا يصلون إلى عُمرٍ ضه (١) حتى انطبق عليهم ، فأغرقهم أجمعين ، فصاروا مثلاً للآخرين .

نسى فرعون عليائه ومجده ، وأدرك الحقيقة التي طالما خفيت عليه ، وأبصر فإذا هو عبدٌ كليلى الرأى ، حقير الشأن ، لاحول له ولا قوة ؛ فانجابت عنه تلك السحابة القائمة المظلمة ، وتسرب إلى قلبه شعاع من الحق المبين .

وقد بهرت فما تخفى على أحد إلا على أحد لا يعرف القمر
في هذا الوقت العصيب آمن فرعون ، فقال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ .

لم يقبل الله محال هذا الطاغية الجبار الذى أهلك الحرث والنسل ؛ بل جازاه على شر أعماله وبئس المصير .

انطبق البحر ؛ فسمع صوت انطباقه صاخباً شديداً ، فسأل موسى بنو إسرائيل : ما هذه الضوضاء ؟ فقال لهم : إن الله قد أهلك فرعون ومن معه مغرقين ؛ فعادوتهم غريزةٌ تأصلت في نفوسهم ، وباطل تمكن من قلوبهم ، ووثم تسلط على عقولهم ؛

فقالوا : ياموسى ؛ إن فرعون لا يموت ؛ ألم تر كيف كان يلبث كذا من الأيام وكذا من الشهور ، لا يحتاج إلى شىء مما يحتاج إليه بنو الإنسان !

قالوا هذا ، ويغشى على أفئدتهم وهم باطل ، ولكن فليختلقوا القدرة والحول ، والإمكان والسَّطوْل لفرعون ، وليُمعنوا فى دعاويهم الزائفة الكاسدة ؛ فهذه قدرة الله ، وذلك حول الله . أَمَرَ فَأَلْقَى الْبَحْرَ جُثَّةَ فِرْعَوْنَ عَلَى سَاחِلِهِ حَتَّى لَا يَكُونَ فِي مَوَارِقِ الْبَحْرِ إِيَّاهَا سَبِيلٌ مِنْ سُبُلِ التَّقْوَلِ لِفِرْعَوْنَ . فربما قالوا : إنه يعيش فى عالم آخر ، وربما افترؤا ، وربما كذبوا ، فليُخرس الله ألسنتهم ، وليكتم أنفاسهم ، ولينبذ البحر هذا الجسد المحطم ، وذلك السلطان المهدم .

نظر بنو إسرائيل دهشين ذاهلين مصرع هؤلاء الجبابرة العاتين ؛ إذ أغرق الله فرعون وجنوده ، ونجى فرعون بيدنه ، ليكون آية لمن خالفه ؛ آية ناطقة على تلك القدرة المعجزة ، وذلك الإلّعام الذى تفضل به رب العالمين .

مواعدة موسى

استقرت عصا التسيار بموسى ومن معه ، فأقاموا حيث واثاه المقام ، ومن ثم احتاجوا إلى منهاج يسرون عليه ، وشرع يركنون إليه ؛ فسأل موسى ربه كتاباً به يهتدون ، وإلى حكمه يرجعون ، فيه من الأمر ما يأتون ، ومن النهى ما يدرون ، حتى لا تتردى بهم أيام الزمان ، ولا يخبطوا فى أمور المعاش والمعاد خبط عشواء . أمر الله موسى أن يتطهر ، وأن يصوم ثلاثين يوماً ، ثم يأتى إلى طور سيناء حتى يكلمه ربه ، فيتلقى أمره فى كتاب يكون لهم المرجع والمآب .

اختار موسى من قومه سبعين رجلاً ، ثم ذهب لميقات ^(١) ربه ، ولكنه تعجل

(١) الميقات : الوقت المضروب للفعل ، والميقات أيضاً : الموضع .

فسبقهم إلى الطور ، فوصل بعد ثلاثين ليلة ، وقد تأخر عنه المختارون من قومه ؛ حينئذ سُئل عن الأمر الذي بعثه على الإسراع والعجلة ، فقال : هم أولاء على أثرى وعجيتُ إليك ربى لترضى . فأمر أن يتم ميعات ربه أربعين ليلة .

وكان موسى قد ترك قومه ، واستخلف عليهم أخاه هارون وزيراً ، يقوم على شؤونهم ، ويصلح أمورهم ، ويرعى أحوالهم ، حتى يعود إليهم يحمل الأمانة الغالية ، ويسعد بذلك الشرف الموعود .

سار موسى إلى طور سيناء ، فكلمه ربه وناجاه ، وقربه وأدناه ، حتى سرت في نفسه روعة وهزّة ، أّججت في فؤاده نار الشوق ، وألهمت أوار^(١) الهيام واللهفة ، فقال : رب أرني أنظر إليك ؛ ولم لا يختلج في فؤاد موسى خاطر يدفعه إلى أن يطلب رؤية ربه ، وقد نعم بتلقّ رسالته ، وسعد بالقرب من رعايته ، ونال ما لم يناله قبله أحد من العالمين ، أليس المأربُ شريفاً ، والقصد كريماً !

وموسى نفسه هو الرسول الذى طالبه قومه ؛ فقالوا : أرنا الله نجهرّة ؛ فلماذا لا يسأل ربه ذلك ليرى بنفسه أمر الله فى ذلك المطلب المرغوب ، وإسكون محكم الله حجة قاطعة لهؤلاء الراجين المُلحفين !

قال ربه : لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ؛ فإن استقر مكانه فسوف ترانى . تلبّست موسى فإذا الجبل قد دُكّ ؛ وغار فى الأرض وساخ ؛ فارتاع لهول ذلك الخطب الجلل والأمر العظيم ؛ فخر صعيقاً ، فلطف الله به وشمله برحمته ، فأفاق من صعقته ، وقام يسبح الله الكبير المتعال .

أخذ موسى الألواح ، وفيها ما يحتاج إليه بنو إسرائيل ، موعظةً وتفصيلاً لكل شيء ، فقال : يارب لقد أكرمتنى بكرامة لم تُكدرم بها أحداً قبلى . فقال : يا موسى

إني اصطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ، نَحْنُ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْتُ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

وانتظر بنو إسرائيل أن يوافقهم موسى بعد ثلاثين يوماً من بدء غيبته ، ولكنه - على غير علم منه - طال غيابُه حتى صار أربعين يوماً ، فأجالوا الرأى بينهم وقالوا : إن موسى أخلفنا وعده ، ونقض عهده ، وتركنا في جهل مقيم وليل بهيم ^(١) ، وما أجدرنا بمن ينير لنا المسالك ، ويُرشدنا إلى سواء السبيل !

عندئذ تحركت في نفس السامريّ نزوةُ الشر والفساد ، فاغتنمها فُرصة ، وقال لهم : عليكم أن تتخذوا لكم إلهاً ، فليس موسى برّاجع إليكم ، لأنه خرج ينشد إلهكم فضل الطريق ، فأبطأ عليكم وأخلف الميعاد .

قال الشيطان قوله هذا بعد أن استشفّ ما في نفوس القوم من سُخُورٍ وانحلال ؛ أليسوا هم الذين مالت قبلُ نفوسهم إلى الكفر ، وقد مرّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا : يا موسى ؛ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

اغتنم السامريُّ هذه الجهالة الجُهلاء ، وتلك الضلالة العمياء ، وأخذَ حُلِيّاً ، ثم احتفر حفرة ، وقذفها فيها ، ثم أوقد ناراً ، وصنع منها عجلاً جسداً له سُخُور ؛ فأصبح فتنةً بين القوم ، ميزت فيهم الغثَّ من السَّمين .

فُتِنَ بنو إسرائيل بهذا العجل وعبدوه ، فتقطعت نفس هارون أَسَى وحرناً ، وقال لهم : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي . قَالُوا : لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى . ﴾

فأقام هارون مع البقية الثابتين على وفائهم ، المتمسكين بإيمانهم ، وخشى أن يحارب الضالين الخارجين ، حذراً من التحزب ، وخوفاً من الفتنة والثورة .

اشتعر موسى من ربه هذا الأمر ؛ إذ قال : يا موسى ، إنا قد فتنّا قومك من بعدك وأضلّهم السامريُّ . فلما أتم ميقات ربه ، وسار نحو قومه ، وسمع على بُعد لغطاً وضجيجاً ، أدرك سرّ الأمر ، وحقيقة الحال ؛ حيث همّ حول العجل يرقصون ويطربون ؛ فتملكته نوبة من الغيظ والثورة ؛ فألقى ما بيده من الألواح ، ثم دلف نحو هارون ، وأخذ برأسه يحجره إليه قائلاً : ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا ألا تتبع طريق فيهم ؛ فترّد شاردهم ، وتحارب مُفسدُهم ، حتى تنطفئ هذه النار المتأججة بالبغي والكفران !

فتساقطت نفسُ هارون همّاً وحسرة ، وأقبل على أخيه يستأينه ويسترحمه ، ويهدئ حدة نفسه ، وثورة غضبه ، وقال : يا بن أمّ ، لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ! فإن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني . فلا تُشمت بي الأعداء ، ولا تجعلني مع القوم الظالمين . لقد خشيتُ أيها الأخ الكريم إن حاربتهم أن تقول : فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي !

بعد ذلك سكّت عن موسى الغضب ، وأخذ يعالج حالهم بحسن الرأي والحزم ؛ فالتفت إلى منبع الفتنة ، ورأس البدعة ، وداعية الضلالة ، وقال : ما خطبُك يا سامري ؟ فقال السامريُّ : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ، وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ .

ثم أقبل موسى على قومه ، فقال : يا قوم : ألم يَعِدْكم ربكم وعداً حسناً ، أفتال عليكم العهد ، أم أردتم أن يَحُلَّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ! قالوا : ما أخلفنا موعدك بِمَلَكِنَا ، ولكنّا حملنا أوزاراً من زينة القوم ، فصورها لنا

السامريّ ، وأخرج لنا عَجْلاً جسداً له خوار ؛ فأضلنا عن الطريق المستقيم .

ثم ندموا على سَقَطَتِهِمْ ، واستغفروا ربهم ، فقالوا : إئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكوننَّ من الخاسرين ، فقال لهم موسى : إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل . قالوا : فأيّ شيء نصنع ؟ فقال لهم : توبوا إلى بارئكم . فسألوه أن يبين لهم طريق التوبة وسبيل المغفرة .

فقال موسى : عليكم بقتل أنفسكم ؛ اكسروا حذتها ، واكتبوا شهوتها ، وطهروها من الشر والإثم ، وجردوها عن كل مشتهى مرغوب ، وأقصوها عن كل تمرُّجٍ مطلوب ، حتى يصغر شأن النفس الآثمة ، ويهونَ خطيئها ، ويحقر أمرها ؛ فروضوا أرواحهم ، وهذبوا نفوسهم ، وأقبلوا على نبيّهم ؛ فتاب الله عليهم إنه هو التواب الرحيم .

أما السامريّ الذي أشاع تلك الضلالة المنكرة ، فإن الله عاقبه في دنياه بأن أمر بني إسرائيل ألا يخالطوه ، ولا يقربوه ؛ فصار وحشيّاً ، لا يألف ولا يؤلف ، ولا يدنو من الناس ، ولا يمس أحداً منهم ؛ وإن له لموعداً لن يخلقه يوم القيامة ، يوم يساق إلى النار آثماً ؛ ليعذب بما تجنت يداه ، وبئس مصير الظالمين .

وأما عجله فقد أحرقه موسى وألقاه في اليمّ ؛ وبذلك انجابت غيابة هذه الجريمة الشنعاء .

التيه

لم يكن على عهد بنى إسرائيل قومٌ حباهم الله الخير ، وأفاض عليهم النعمة ، وآثرهم بالبركات مثل هؤلاء الأقوام : نجّاهم الله من آل فرعون بعد أن ساءمهم العذاب دهرًا ! ثم عاد فأهلك فرعون على أيديهم ، وبين أسماعهم وأبصارهم ؛ ثم جعلهم بعد ذلك أحرارًا ، بعد أن كانوا عبيدًا أذلاء ؛ وجعل فيهم عددًا من الأنبياء يرشدونهم وقد كانوا ضالًّا لا جهلاء ؛ وفجّر لهم الصخر ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين .

وإتماماً لنعمة الله عليهم ، ورغبةً منه - سبحانه - في الإحسان إليهم ، أوحى إلى موسى أن يقودهم إلى الأرض المقدسة من بلاد الشام ، وهي أرض الميعاد ، التي وعد الله إبراهيم الخليل أن يجعلها ملكاً للصالحين من ذريته ، والقائمين على شريعته .

ولكن بنى إسرائيل كانوا ، بما تعاور^(١) عليهم من ظلم الفراعنة ، وترادف عليهم من جور الحكام ، قد جِدَّعتْ أنوفهم ، وذَلَّتْ أخادعهم ، وأمكنوا من أيديهم على خنوع ، وأعطوا المقادة على خضوع ، حتى هان عليهم الهوان ، وحسب إليهم الضعف والاستسلام

من يَهْنُ يسهل الهوانُ عليه ما 'الجرح' بميتٍ إيلام

فلم يكادوا يسمعون كلمة الغزو ، أو يكلّفون دخول « أريحاء » ليخْرِجوا منها الحيثيين والكنعانيين ، ويتخذوها وطنًا كثير الخيرات ، وافر البركات ، حتى قالوا لموسى - جنبناً وضعفاً ، واستخذاء واستسلاماً - : ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾

(١) تعاور : تتابع .

وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخسر جوا منها فإنا دا خلون .

وكأنهم طمِعوا أن يخرج القوم منها بما أَلْفُوا من المعجزات ، وخوارق العادات ، ثم يدخلوا موفورين لم يُكَلِّم أحد منهم في سبيل الله بكَلِّم^(١) ، ولم يُصَب بجرح ؛ شأن الضعيف العاجز والخائر الجبان !

ولكنَّ رجلين كانا ممن طبعهم الله على الإيمان ؛ وفطر نفوسهم على الطاعة والإذعان ، لم يحطبا في حَبْل أقوامهم^(٢) ، ولم يجريا في الحديث على غرارهم ؛ فتَوَجَّها إلى قومهم ناصحين ، وقاما فيهم مرشدين : ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين .

ولكنهم عادوا إلى حديث مُجَنِّبهم ، وإعلان خوفهم ، وزادوا على ذلك القِحة والتمرد ، والغباء والتبذ ، وقالوا لموسى قولا يُذهب صبر الحليم ، ويثير وَجِيع الجرح الأليم ؛ قالوا : ﴿ يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ .

وعند ذلك تَلَقَّت موسى فلم يجد مَنْ يثق بمعاونته ، ويعتمد على نصرته ، إلا أخاه هارون ؛ وهما شخصان وحيدان ، في أضعف جند ، وأنكد أتباع ، وأمامهما عدوٌّ قوى المرأس ، كثير الجنود ؛ فتوجه إلى الله قائلاً : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

فأوحى الله إليه : أن دَعَهُم يتيهون في هذه البيداء ، يضربون في مجاهلها ، ويخبطون في نواحيها أربعين عاماً ، حتى يَفْتَنَى كبراؤهم ، ويهلك رؤساؤهم ، ويظهر بعدهم جيلٌ عزيز الجانب مَنيعُ الساحة ، حينئذ يعودون إلى الغزو ، ويركبون مَتَن الجهاد .

البقرة (*)

تقدم بالشيخ تسابع الأيام ، وأحسَّ بدنو الأجل ، وكان عبداً صالحاً لا تفتنه
زخارف الحياة عن الثقة والرجاء في الله ، ولم يُلهِه التكاثر في المال والبنين ؛
بل كان لا يملك سوى بقرة يأتي بها إلى الغَيضة ، ثم يتوجه إلى بارئه بقلب خالص ،
ونفس ثابتة ، فيقول : اللهم إني استودعتكها لابني حتى يكبر ؛ وما زال الرجل
يتفرق في صدره هذا الأمل القوي بنور الله حتى مات وبقيت البقرة لليتم ، وهي
عرض من العروض لا تغني شيئاً ؛ إلا أن رحمة الله أبقي وأعز .

واستمر اليتيم يرعى البقرة ، يحذوه مشعاع من الأمل ورثه من الصالحات
الباقيات لأبيه .

وقد كان من وجوه بني إسرائيل شيخٌ موسر مدَّ الله في أسباب دنياه ، وبسط
له نعمة الغني ، ورزقه ابناً وحيداً تنحدرُ إليه بعد موت أبيه كلُّ هذه الثروة
الواسعة ؛ ولكن بنى عمومته تفسوا^(١) عليه هذا المال ؛ إذ لا يجدون من قليل
ولا كثير ، فتألبوا عليه فقتلوه ، ثم طالبوا قوماً آخرين بدمه ، فهبت عاصفة
هو جاء ، وثار ربح تكباء ، فلم يجد القوم ملجأ أمامهم إلا باب موسى عليه
السلام ؛ يتحاضرون إليه ، ويلتمسون عنده إيضاح الخفاء .

سأل موسى ربه ؛ فأمرهم أن يذبحوا بقرة ، ويضربوه بلسانها فيحيا ، فيخبر
بقاتله ؛ فضلت أحلامهم ، وعزبت عن عقولهم قوة الله وقدرته ، وظنوا أن
موسى يهزأ بهم ، ويسفه أحلامهم ؛ فراجعوه ؛ فقال : أعوذ بالله أن أكون من
الجاهلين .

(*) سورة البقرة ٦٧ - ٧٣ (١) نفس عليه : حسده .

ولو أنهم ذبحوا أى بقرة من يوم أن أمرهم رسولهم لكانت كافية ؛ ولكنهم تمادوا في إلحافهم ولجاجهم ؛ فشدد الله عليهم ؛ وجعل البقرة مسوَّمة بعلامات خفى عليهم أمرها ، فتأهوا في بيداء اللجاج .

ولقد كان هذا أمراً خارقاً ، وحقيقة تقتصر عن صدقها عقولهم ؛ فسألوا ضالين : ما هذه البقرة ؟ أكما عهدنا هذا الجنس من الحيوان ، أم هى خلق آخر تفرد بمزية ، واختص بإعجاز ؟ فأوضح الله سبيلهم ، وبَّين أنها بقرة لا مُسنَّة ولا فتية ؛ بل هى عوان^(١) بين ذلك ، فليفعلوا ما يؤمرون .

ولكنهم - وهم من البشر - قالوا : ادع لنا ربك يبيِّن لنا ما لونها ؟ قال : إنه يقول : إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسرُّ الناظرين . فازدادت حيرتهم ، وضلت عقولهم ؛ فلم تستطع أن تسمو إلى هذا الإلهام الإلهى العجيب ؛ وكأنهم لم يعُوا شيئاً ، فكررُوا سؤالهم الأول معتذرين بأن البقر تشابه عليهم وهم يرجون بمشيئة الله الهدى والرشاد . فأجيبوا بأنها بقرة غير معدة لسقى ولا لحراث ، سلبت من العيوب ، ولا شية فيها^(٢) .

فاهتدوا إليها بعد لآى عند ذلك اليتيم الذى بارك الله فى بقرته ؛ فاشتروها منه بمال وافر ، فذبحوها بعد حيرة طويلة ، وتردد كثير .

(١) عوان : وسط . (٢) لا شية فيها : خالصة الصفرة .

موسى والخضر (*)

وقف موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل ، مذكراً لهم بأيام الله بعبارات تُثير الأسى وتبعث الشئون ^(١) ؛ ففاضت العيون ، ورقّت القلوب .

ولما انتهى من قوله تعلق بأهدابه رجل ، وقال : أى رسول الله ، هل فى الأرض من هو أعلم منك ؟ قال : لا . أليس هو كبير أنبياء بني إسرائيل وقاهر فرعون ! أو ليس هو صاحب اليد والعصا ، بعصاه انقلب البحر ! أليس الله قد شرفه بالنوراة ، وكلمه جَهْرَةً وعياناً ، فأى غاية أبعد من هذه الغاية ؟ وأى شرف أسمى من هذا الشرف !

ولكن الله أوحى إليه أن العلم أعظم من أن يحويه رجل ، أو ينفرد به رسول ، وأن فى الأرض من خصه الله بعلم أوفر من علمه ، ونصيب من الإلهام أوفر من نصيبه . قال : يارب ! أين مكانه لعلنى ألقاه ، فأصيب قبساً من علمه ، أو فيضاً من إلهامه ويقينه ؟ قال : تَلَقَّاه بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ . قال : اجعل لى علماً ^(٢) يدانى عليه ، وآية ترشدنى إليه . قال : آية ذلك أن تأخذ حوتاً فى مِكتَل ^(٣) ، فحيث فقدت الحوت فقد وجدت الرجل .

فأخذ موسى الأمر مُعَدَّة ، واصطحب فتاه ، وخمّله المِكتَل ، ووضع الحوت فيه كما أوحى إليه ربه ، وظل سائراً وقبلة الرجل ، وأخذ على نفسه عهداً أنه سيظل مجدداً فى السير مُتَمَعِّناً فى الطلب ، حتى يبلغ هذا المكان ، ولو مضت عليه الأيام ، أو تعاقبت السنين ، ثم آذن الفتى أن يخبره إذا فقد الحوت .

(*) سورة الكهف ٦٠ - ٨٢

(١) الشئون : الدموع (٢) علماً : علامة (٣) مِكتَل : ما يعرف به (المقطف)

ولما بلغا تجتمع البحرين ، فى المكان الذى أراد الله أن يلتقى فيه نبيّ بنى إسرائيل بعبد الصالح ، أخذت موسى سِنَّةً فَنَامَ . وفى أثناء نومه هَضَبَت (١) السماء ، فابتلّ الحوت وانتفض ، وسرت إليه الحياة ، ثم قفز إلى الماء .

واستيقظ موسى - عليه السلام - ونادى فتاه : هَيَّا نواصل السير والشّرى (٢) . وأنسى الشيطانُ الفتى ما كان من أمر الحوت ، وتابعا المسير إلى أن أدركهما الأَيْنُ (٣) وأحسّا الجوع ، فقال موسى لفتاه : آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا .

ولما همّ أن يأخذ الغداء من المِسْكَلِ تذكر ما كان من أمر الحوت وذهابه فى الماء ، فقال : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ، وَحِينَ غَشَاكَ النُّعَاسُ ، فَإِنَّ الْحَوْتَ قَدْ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ إِلَى الْمَاءِ ، وَنَسِيتُ أَنْ أَذْكُرَكَ ، وَمَا أَنَسَانِي إِلَّا الشَّيْطَانُ .

وحينئذٍ لاحت لموسى شارةُ الظَّفَرِ ، ووجد ريح الرجل ، فقال : ذلك ما كنا نبغيه وننشده ؛ هَيَّا بِنَا نَعُودْ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ فَإِنَّا سَنَصِيبُ الْغَايَةَ ، وَرَجَعَا يَقُوفَانِ الْآثَرَ (٤) وَيَتَعَرَّفَانِ الطَّرِيقَ .

ولما وصلا إلى حيث فقدوا الحوت وجدا رجلا نحيل الجسم ، غائر العينين ، عليه دلائل من النبوة ، وفى وجهه فيضٌ من السماحة والتقوى ، قد سُجِّىَ بثوبه ، وجعل طرفه تحت رجله ، وطرفه الآخر تحت رأسه ؛ فسأله موسى فكشف عن وجهه ؛ وقال : هل بأرضى من سلام ! من أنت ؟ قال : أنا موسى ! قال : موسى نبيّ بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، ومن أعلمك بهذا ؟ قال : الذى بعثك إلى . فعلم موسى أنه ضالّته التى ينشدها ، وبُغِيْتُهُ التى جهد فى سبيلها ؛ فتلاطف فى القول ،

(١) هَضَبَت السماء : أمطرت . (٢) الشرى : السير ليلا .

(٣) الأَيْن : النعْب . (٤) بقرفان الآثر : يتبعانه .

وتجمل بأحسن ما وهبه الله من أدب الحديث وفَضْل التواضع ، وقال : هل تأذن أيها العبد الصالح لرجل جاهد في سبيل لقائك ، وليق العناء حتى أصاب موضعك ، أن تفيض عليه من علمك ، وأن تقبسه شيئاً من هديك ، على أن أتبعك ، وأسير في ظلالك ، وألتزم أمرك ونهيك !

قال له الخضر : إنك لن تستطيع معي صبراً ، ولو أنك صحبتني فإنك ستري ظواهر عجيبة وأموراً غريبة ، وستري أموراً منكّرة في ظاهرها ، وإن كانت حقاً في باطنها ؛ ولكنك بماركب الله في البشر من إلف القيل والقال والجنوح إلى البحث والجدال ، سوف لا تسكت عن الاعتراض ، ولا تتورع عن الامتناع ؛ وكيف تصبر على ما يخرج عن مألوفك ، ويتجاوز معروفك ! فقال له موسى - وكان حريصاً على العلم ، تَوَاقاً إلى المعرفة : ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ، ولا أعصى لك أمراً ﴾ .

قال الخضر : إن صحبتني آخذُ عليك عهداً وشرطاً ، أن تأخذ عُدتك من الحزم والصبر ، ونصيبتك من التجلّد وضبط النفس ؛ فلا تبدّريني بسؤال ، ولا تُثّر أُمّامى أياً اعتراض ، حتى ينقضي الشرط وتنتهي الرحلة ، وإني بعدها سأتي على ما في نفسك ، وأُشفي ما بصدرك .

فقبل موسى الشرط ، وقيد نفسه بذلك العهد ، وساراً على الساحل ، حتى لحا سفينته في البحر ، فطلبها من أهلها حملهما إلى حيث يذهبون . ولما قرءوا السماحة في وجههما ، ورأوا بريق النبوة يلمع في عيونهما ، حملوهما من غير نَوَلٍ (١) . وبالسَّغْوِ في إكراههما ، والحفاوة بهما .

وبينما هما في السفينة ، وعلى حين غفلة من أهلها ، أخذ الخضر لوحيين من خشب السفينة فخلعهما ، فهال موسى - وهو الرسول الكريم الذي أرسل لهداية الناس ورد عادية الظلم عنهم - أن يُقَابِلَ صَنِيعَهُمْ بِالْإِسَاءَةِ ، وَجَمِيلَهُمْ بِالنِّكَرَانِ ؛ وَخَشِيَ أَنْ يَصِيبَهُمْ غَرَقٌ أَوْ هَلَاكٌ ؛ فَنَسِيَ عَهْدَهُ وَشَرْطَهُ ، وَصَاحَ : أَتَعْمِدُ إِلَى قَوْمٍ أَكْرَمُوا وَفَادَتْنَا ، وَأَحْسَنُوا لِقَاءَنَا ، فَتُخْرَقُ سَفِينَتُهُمْ وَتُحَاوَلُ إِغْرَاقُهُمْ ! ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ^(١) 〉 .

فالتفت الخضر إليه ، وما زاد على أن ذكّره بشرطه ، وما قدّره من قبل أنه سوف لا يصبر على سؤال ، ولا يسكت عن مرأى ، وقال : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ! 〉 وحينئذ أدرك موسى ما وقع فيه من خطأ ، وما تورط فيه من نسيان ؛ فاعتذر إليه واستغفره من نسيانه ، وقال : لا تؤاخذني بما نسيت ، ولا تحرمني شرف الصحبة ، وفضل المرافقة ؛ وسأكون بعد الآن كما شرطت .

وغادرا السفينة ، وتابعا السير ؛ فوجدا غلاما وضيقا يلعب مع إدراته وأقرانه ، فأخذه الخضر بعيدا ثم أضجعه وقتله ! ففرع موسى من هذا القتل ، وكبر عنده ذلك الإثم ؛ إذ رأى غلاما يافعا ، قد يكون وحيدا أهله ، ورجاء والديه ؛ يُقْتَلُ فِي غَيْرِ قَوْدٍ ^(٢) ، وَيُسْفَكُ دَمُهُ مِنْ غَيْرِ إِثْمٍ ؛ عَلَى يَدِ رَبَّانِي كَرِيمٍ ، وَإِمَامٍ مِنْ أُمَّةِ الدِّينِ ! فَتَحَلَّلَ مِنْ عَهْدِهِ ، وَأَطْلَقَ نَفْسَهُ مِنْ مِثَاقِهِ ، وَقَالَ : مَا هَذَا الْمُنْكَرُ الَّذِي تَأْتِيهِ ، وَالْإِثْمُ الَّذِي تَرْتَكِبُهُ ! ﴿ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكَرًا ^(٣) 〉 .

فالتفت إليه الخضر ، ولم يزد على أن ذكّره بعهدده ، وما كان من شرطه ، وما قدّره مما سيكون من سؤاله عما لا يعرف ، وامتعاضه مما لا يالف ، قائلا :

(١) شيئا إمرا : عظيما (٢) قود : نار (٣) المنكر : المنكر .

﴿الم أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ .

وهنا استجيا موسى ، وأدرك أنه قد أثقلَ على هذا العبد الصالح ، وكان خليقا به أن يدّرع بالصبر ، ويُمسِك لسانه عن الجدل ، حتى يُفصِّح له بعدُ عما خفيَ من أمره ، وما تشابه عليه من علمه ، وخشيَ أن تُمادى أن يقع منه على مَوْجدة أو كراهية ؛ فاتخذ لنفسه شرطا : ألا يعجّل بسؤال بعد الآن ، وإلا فإن رفيقه في حلٍّ من مفارقتة ، وقطع صحبته ، وقال : ﴿إن سألتُكَ عن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تَصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا﴾ .

وانطلقا على هذا الشرط حتى أدركهما السّطوى ، ونال منهما النّصبُ والكلال ، وصادفا قرية في طريقهما ، فدخلها طمعا في زادٍ يعينهما على السير ، ويمسكهما على الجوع ؛ ولكنّ أهلها - بما كانوا عليه من لؤم النّحيزة (١) وكزّازة النفس - أبوا أن يضيّفوهما ، وردّوهما ردّا غير جميل ؛ فلم يجداهما عندهم مأوى ولا طعاما ، وخرجا جائعين ساخطين .

وقبل أن يجاوزا القرية وجدا جداراً يتداعى للسقوط ، فأقامه الخضر ، وأصاح من شأنه ؛ فقال موسى : عجبا ! أتجازي هؤلاء القوم اللؤماء الذين أساءوا اللقاء ، بهذا الإحسان ! لو شئتَ لاتخذتَ على عملي هذا أجرا نسدُ به حاجتنا ونحفظُ به على الحياة أنفسنا !

قال الخضر - وقد آمن بأن موسى سوف لا يستطيع بعد الآن صبرا : ﴿هذا فراقٌ بيني وبينك ، سأنبئُكَ بتأويلِ ما لم تستطِعْ عليه صبرا﴾ :
أمّا السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ، فيصيدون منها رزقا ، يعينهم على الكسب ، ويقطعون به مفازة الحياة ؛ ولكن مملكا ظالما كان يتبع كل سفينة

صالحة ، يأخذها من أهلها عنوة ، ويستولى عليها غصباً ؛ فأردت أن أعيبها ؛ رفقاً بهم ورحمة لهم ، حتى إذا شهدها ملكهم تركها لعييبها ؛ فهذا عمل إن كان ظاهره الفساد ففي باطنه الرحمة ، وإن كنت قد حسبتَه نُكراً فإنما هو حِفْظٌ للمساكين وإبقائه على حياة هؤلاء البائسين .

وأما الغلام فكان وقاحاً مُبَغَضاً من الناس ، وكان أبواه مؤمنين ؛ وبما فطر الله الآباء على حب الأبناء ، والدفاع عنهم بالحق وبالباطل ، خشيت أن يحملهما هذا على التعصب له والميل إلى طريقته ، فينتهيا إلى الطغيان والكفر ؛ فقتلتُه حفظاً لدينهما ، ورجاء من الله أن يرزقهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحماً .

وأما الجدار فقد علمتُ من الله أن تحته كنزاً ليتيمين صغيرين ، تحدّرا من رجل صالح كريم ؛ فأردت أن أحميَ هذا الجدار ، حتى يشتد أزرهما ، ويقوى على الحياة أمرهما ؛ فيستخرجا كنزهما مالا حلالاً طيباً لهما .

وما فعلتُ هذا بعلى ولا برأى ، ولكنه وحى من الله وهدى منه : ﴿ ذلك تأويل ما لم تستطع ^(١) عليه صبراً ﴾ .

(١) تستطع : تستطع .

قارون (*)

كان من قوم موسى وعشيرته الأقربين ، يَمُتُ إليه بسبب ، وتصل بينهما رَحِم ، وقد آتاه الله بسطةً في العيش ، وسعةً في الرزق ، وكثرةً في الأموال ؛ فاجتمعت له أسبابُ السعادة ، وفاز من الدنيا بنصيب لا يَظْقَرُ به إلا قليل .

كان قارونُ ذا حظٍّ عظيم ، فقد فاضت خزائنه بالأموال ، واكتظت صناديقه بها ، حتى ضاق الحفظُ ذُرْعاً بمفاتيحها ، وأثقلهم حملُها ، وناء العُصْبَةُ أولو القوةُ بها .

وكان يعيشُ بين قومه عيشةَ البَذخِ والترف ؛ فكان يلبسُ الملابس الفاخرة ، ولا يخرج على قومه إلا في زينته ، ويسكن القصور ، ويصطفى لنفسه الخدم ، ويستكثر من العبيد والحشم ، ويستمتع من الحياة بما يشبع نَهَمَه ، ويروى ظمأه ، ويريد أن يصلَ إلى الغاية في النعيم ؛ إن كانت للنعيم غاية .

والمالُ منذ الأزلِ زينةُ الدنيا وبهجَتُها ، وأساسُ الحياةِ وقوامها ، ومن استَحَوَّذَ عليه طغى وتكبر ، واغتر وتجبّر ، وظنَّ أن أحدًا أن يقدرَ عليه ، وخيّلَ إليه أن الناس جميعاً من طينة غير طينته ، أو أنهم ما خلُقوا إلا مُسَخَّرِينَ له ؛ فإذا تكلم طأطأوا رءوسهم عند سماعِ صوته ، وإذا أشار كانوا عند إشارته ، وإذا نادى استبقوا لتلبية ندائه ؛ وكانوا خُلصاء له ، أو يجب أن يكونوا كذلك ، وإلا فالويل لمن تُحَدِّثُه نفسه بالعصيان ، والحرمانُ لمن يقعد عن نُصْرَتِه أو يتوانى عن تحقيق أمانيه .

لن يكون قارونُ بدعاً في الحياة ، وإنما هو كغيره من الناس ؛ يسير سيرتهم ، ويترسّم طريقهم ، فبغى على قومه ، وفرض سلطانه عليهم ، وسامهم بطشه وجبروته .

وليت هؤلاء الأغنياء يخففون من غلوائهم ، ويعرفون الحياة على وجهها الصحيح ، ويتبينون منها الطريق الواضح ، إذا عرفوا أن المال وحده لا يخضع الرقاب ولا يستذل العباد ؛ وإنما الناس عبيد الإحسان ؛ يستطيعون أن يجعلوهم طوعاً بنانهم إذا أفاضوا عليهم من خيرهم ، وأطعموهم شيئاً من طعامهم .

لعلهم بذلك يستميلون القلوب ، ويدفعون كثيراً من الشر ، ويجلبون لأنفسهم الخير ، ويجمعون الناس على محبتهم ، والالتفاف حولهم ؛ ولعلهم بذلك أيضاً يُدركون رضا الله ، فيكافئهم بثوابه ، ويجزيهم بجنّته ، فينالوا الحسنيين : حسن الآحاد وثة في الدنيا ، وحسن الجزاء في الآخرة .

ولكنها القلوب يغميها المال ، والبصائر يذهب بها الزهو والغرور ؛ فلا ترى إلا جماعات المرائين ، ولا تسمع إلا كلمات المنافقين ، ولا تحسّ نقمة المحروم ، ولا لوعة المظلوم .

ورأى القوم أن قارون سادراً في طغيانه وبغيه ، لا همّ له إلا أن يستكثر من المال وإن تضوّر غيره جوعاً ، وأن يكتسى من اللباس ما يزيّن به وإن رأى العرى فاشياً ؛ هذا مع غرور واستئثار ، وبطّر واستكبار . . . لمّا رأوا منه ذلك نقموا عليه طريقه ، وحاولوا أن يثيروا فيه روح الخير ، وأن يُنبّهوه على ما غاب عنه ، ونصحوه ألا يُغويه المال أو يُضِلّه ، أو يحول بينه وبين الإحسان إلى قومه ، وإقالة عشرة المحتاجين ، ومسح دموع البائسين ؛ فبذلك يكسبُ الحمد في الدنيا ، وينالُ الثواب في الآخرة ؛ وهذا خير من المال وأبقى .

وقالوا : إنا لا نريد أن تنفض يدك من الدنيا وزينتها ، وتبتغى عن مباحها ، وتنأى بنفسك عن الاستمتاع بها ؛ فذلك لما لا نريده ونأباه ؛ وإنما

نرى لك رأياً فيه خيرٌ لنا ولك ؛ هو أنك تقصد إلى الطيب من الرزق ، والحلال من المتاع ، فارشف من منهله ، وخذ فيه كما تشاء .

على ألا يشغلك ذلك عن الفقراء ، ولا ينسبك المحتاجين ، فأحسن إليهم كما أحسن الله إليك ، ليحفظَ عليك نعمتك ، ويزيد في مالك ، ويُضفي عليك خيره وبركته .

على أن المالَ ظلٌّ زائل ، ووديعةٌ مستردةٌ ، فلا تفرح بما أوتيت ، ولا تغترّ به ؛ واتخذهُ وسيلةً لقضاء مآربك في الدنيا ، وسبيلاً إلى سعادتك في الآخرة ، وما حملنا على إسداء النصيحة إليك إلا مُحِبُّنا لك ، ورَغِبُّنا أن يُبقى الله فضله سابغاً عليك ، وخوفُنا أن يسلبَ الله مالك أو يحرمك جنته .

وأنى للطاغية أن تفتتح آذانه للنصيحة تُلقَى إليه ! ومن المستكبر ينال النصيحة من نفسه ويمسّ شغاف قلبه !

إن قارون قد أُشربَ قلبه حب المال ، وزاده الغنى عُلوّاً واستكباراً ؛ فليس لمثل هذا الكلام سبيلٌ إلى نفسه . فمن هؤلاء الذين يشيرون عليه فيأتمر ، وتتطاولُ أعناقُهم إلى نصيحته فينتصح ! إنهم لا شك قد استباحوا حماه ، ووضعوا أصابعهم فيما لا يعنيه من أمره ؛ بل إن هذا من أموره الخاصة !

لذلك كان جافياً في رده إذ قال : لستُ بحاجة إلى نصيحتكم ، فأنا أرجحكم عقلاً ، وأسدُّكم رأياً ، وما أوتيتُ هذا المال إلا لأنى به أجدد وأحق ؛ فاحتفظوا بهذه النصيحة لأنفسكم ، وقوموا بها أموركم ؛ أما أنا فخيرٌ منكم مقاماً ، وأكثر عرفاناً .

وأراد أن يزيد في إيلاهم ، فخرج على قومِه في زينته ، يُدلّ بما أعطاه الله من خير وفير ، ومال كثير .

ورآه المستضعفون من قومِه يرِفَل في الشياب الجميلة ، ويركب المراكب المطهّمة ، وحوله الخدم يحفّون به؛ فأحدقت به العيون ، واستشرف الناس لرؤيته ، وحزّ في نفوسهم أن يروّهُ في هذا النعيم ، وهم في ضنك وبؤس مُقيم ؛ وتحدث بعضهم إلى بعض يقولون : ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظٍ عظيم !

ولما كانت النصيحة مع مثله لا تجدى ، واللّسب لا يكفي عنده سبباً لعطف القلوب ، ومنظر البؤس لا يستميل النفوس ، والفقر لا يستجيب إلى دعائه مجيب ، فليس سيف القانون لينفذ إلى تلك الحجب السكيفة ، فيهلك ظلماتها ، ويزيل ما تراكم عليها ؛ فتنبعث للخير ، وتميل للإحسان .

ليعلن إليه موسى في شدة وإصرار أن يؤدى زكاة ماله ، وأن يحسن إلى الفقراء ؛ ففي ماله حقّ معلوم للسائل والمحروم .

ولكن قارون قد طبع الله على قلبه ، وران عليه شئُه ، فلم يُصغ إلى دعوة موسى ، بل هزئ به وسخر ، ورماه بالبهتان ؛ وردّ حديثه في عنفٍ وسخرية ، فقال : قد احتملنا منك ما احتملنا ، فقد جئتنا بدين جديد ، فخاريناك فيه ، وأمرتنا بكذا وكذا فاستمعنا لأمرِك ؛ فأطمعك ذلك فينا ، وسجّرك علينا ، فلم يبق إلا المال تسلبه ، والثروة تريد أن تستحوذَ عليها ، لقد أسلمنا لك القلوب ، وأخضعنا لك الرقاب ؛ ولكن هيات أن تُسلمَ لك من القلب سُوءُ بداءه ، ومن الطرف سواده ؛ إنك بهذا قد دللت على كذبك ، وكشفت ما حاولت ستره من أمرِك ؛ إنك لساحر كذاب !

وحاور قارون وجادل ، وأضر موسى وقاوم ، فهذا أمرُ الله لا يحتملُ الجدل ولا المساومة ، وخضع قارون بعد لأيٍّ وعلى مَمض !

ورجع إلى بيته يحسب ما ينال الفقراء من ماله ؛ فهاله ما وجد ، وأفرعه ما رأى ؛ فرجع إليه داؤه ، وتملكه شحه ، وأراد أن يمسك المال حتى لا يرى نفوساً بائسة يدخل إليها النعيم والسرور ؛ واحتال للأمر فأذاع ذائعة السوء ، فقال : إن موسى إنما يلبس ثوب الرياء ، ليكون له من ذلك عَرْضُ الدنيا وزينة الحياة ؛ ولو قتلنا عن مكنون سره ، وما يختلج في ضميره لوجدناه أبعد الناس من الدين وأقصاهم عن الله .

وحاول بالمال أن يفتن الناس^(١) ويصرفهم عن موسى ، ويزلزل عقيدتهم ؛ ولكن الله كشف ما أضمّر ، وأظهر ما أخفى ، وخرج موسى من هذه التجربة أصفى نفساً ، وأعلى مقاماً .

ولما يئس موسى من صلاحه دعا الله أن يُنزل به عذابه ، ويخلص الناس من فتنه وإغوائه .

فاستجاب الله لدعائه ، وخسف به وبداره الأرض ؛ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المستنصرين .

وابتلعته الأرض ، وساخت فيها أمواله وقصوره ، فكان عبرة لقوم موسى والمستضعفين من أتباعه . ولما رأى القوم ما حلّ بقارون رجعوا إلى أنفسهم نادمين على ما كان منهم ، وحمدوا الله على أنهم لم يكونوا مثله ، وقالوا : ﴿ لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ .

(١) انه ذكر كتب التاريخ والتفسير انه اغرى امرأة لتغيب الى موسى الفاحشة ، وفعلت ولكنها اعترفت اخيراً أمام حفل جامع بأن قارون هو الذى دفعها الى ذلك وأنه برىء مما رمته به .

طالوت (*)

كان التابوتُ نعمةً من نعم الله على بني إسرائيل - ونعمه كانت عليهم سابعة وآلاؤه متلاحقة - وكان لهذا التابوت عندهم شأنٌ عجيب ، ونبأ طريف ؛ كانوا إذا اشتبكوا مع أعدائهم في قتال ، أوالتقّوا بهم في ساحةٍ نزّال ، يحملونه بين أيديهم ، ويقدمونه في صفوفهم ، فينشُر في قلوبهم سَكينةً واطمئناناً ، ويبعثُ في أعدائهم هلعاً ورعباً ، اسرَّ عجيب فيه ، ومزايا خصه الله بها .

ولكنهم لما انحرفوا عن شريعتهم ؛ وغيروا ما بأنفسهم ، سلّط الله عليهم الفلّسطينيين فغلبوهم على أمرهم ، وأخرجوهم من ديارهم ، وحالوا بينهم وبين أبنائهم ، وأخيراً أخذوا التابوت منهم ؛ فانفصمت عروقتهم ، وتصدّعت وحدتهم ؛ ثم استكانوا إلى ذل - وأغمضوا جفونهم على هوان .

وظلّوا على ذلك حِقبةً من الدهر ، حتى كان نبّيهم صمويل ، ففزع إليه نفرٌ منهم أرادوا أن يتجافّوا بنفوسهم عن مطّارح الهوان ، وينزعوا بها عن معرّة الامتحان ، وطلبوا إليه أن يختار لهم ملكاً يتألّفون تحت رايته ، ويُجمعون أمرهم تحت زعامته ؛ لعلهم به يغلبون العدو ، ويكتب الله لهم النصر .

فقال لهم - وقد كان سَبَر أحوالهم ، وعجَم عيدانهم ، وعرف مَوضع الضعف فيهم : إني أتوقع تخاذلَكُمْ إذا كَتَبَ عليكم القتال ، وتواكلَكُمْ حينما يدعوكم داعي الجِهاد .

قالوا : كيف نتخاذل ونتواكل ، وقد أُخرجنا من ديارنا ، وحِيلَ بيننا

وبين أبنائنا؟ وأى حال أسوأ مما نحن فيه ! وأى ذل أشد مما ابتلينا به !

قال صمويل : دُعُونِي أَسْتَخِيرُ اللَّهَ فِي أَمْرِكُمْ ، وَأَسْتَوْحِيهِ فِي شَأْنِكُمْ .

واستخار الله فيمن يصلح لملكهم ، ويقوم على قيادتهم : فأوحى الله إليه :
إني قد اخترت عليهم طالوت ملكا . قال صمويل : يارب : إن طالوت رجل
لم أعرفه بعد ، ولم أره من قبل : فأوحى إليه : إني مُرِّسُكُ إِيَّاكَ ، وسوف
لا ترى عسراً في لقائه ، ولا جُهداً في تعرُّفِ مَلايحِهِ ، فوالله المُلْكُ ، وسلِّمهُ
رَايَةَ الْجِهَادِ .

وكان طالوتُ رجلاً بادنًا ^(١) فارعاً ^(٢) ، وافيَ التَّقْطِيعِ ^(٣) ، شديدَ الأسْرِ ^(٤) ،
له عِينَانِ يُلَمِّحُ النَّظَرَ إِلَيْهِ أَنْ وَرَاءَهُمَا قَلْبَا ذَكِيَا ، وَجَنَانَا كَفْتِيَا ، وَلَسْكَنَهُ لَمْ يَكُ رَجُلَا
بَعِيدَ الصِّيتِ : أَوْ مَعْرُوفَ الذِّكْرِ ، كَانَ يَقِيمُ مَعَ أَبِيهِ فِي قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى الرَّادِي ،
يُرْعَى لَهُ الْمَاشِيَةُ ، وَيُفْلَحُ الْأَرْضُ ، وَيُصْلَحُ الزَّرْعُ .

وفِيَا هُوَ فِي شَأْنِهِ فِي الْحَقْلِ مَعَ أَبِيهِ ، ضَلَّتْ مِنْهُمَا الْأُتُنُ ^(٥) ، فَخَرَجَ مَعَ غَلَامِهِ
يَنْشُدَانِهَا فِي شَجَابِ ^(٦) الْوَادِي ، وَبَيْنَ أَوْدِيَةِ الْجِبَالِ ، وَظَلَا أَيَّاماً يُغْذَّانِ ^(٧) السَّيْرَ
بَيْنَ غُورِ الْأَرْضِ وَنَجْدِهَا ^(٨) ، حَتَّى وَرِمَتْ مِنْهُمَا الْأَقْدَامُ ، وَأَكَلَتْهُمَا الشَّرَى .
فَقَالَ طَالُوتُ لْغَلَامِهِ : هَيَّا بِنَا نَعُودُ أَذْرَاجَنَا ، فَإِنِّي أَحْزَرُ ^(٩) أَنْ أَبِي قَدْ كَثُرَتْ
بَلَابُهُ ، وَتَشَعَّبَتْ هَوَاجِسُهُ ، وَأَخْشَى أَنْ يَشْتَغَلَ بِنَا عَنِ الْأُتُنِ .

قال الغلام : إنا الآن قد وصلنا إلى أرض « صوف » موطن صمويل ، وهو

(١) البادن : الجسم . (٢) الفارع : الطويل المرتفع . (٣) وافي التقطيع : ضخم
القُدِّ والقَمَامَةِ . (٤) شديد الأسر : قوى البنية . (٥) الأتُن : جمع أتانة ، وهي الأتني
من الحنجر . (٦) الشجبة : ما انشعب من الوادي وعدل عنه إلى غيره ، وجمعة شعاب (٧) يسرعان
(٨) الغور : ما انخفض من الأرض . والنجد : ما ارتفع منها (٩) أحزر : أقدر .

فما أعلم نبيّ يأتيه الوحي ، وتهبّط عليه الملائكة ، هلمّ إليّ نستوضحه شأن الآتين ،
لعلنا نستضيء برأيه ، أو نهتدى بوحيه . فارتاح طالوت لهذا الخاطر ، وتجدد عنده
الآمل ، وشامّ بارق النجاح .

ولقيا في طريقهما إلى صمويل فتياتٍ خرجنَ يستيقين الماء ، فطلبا إليهن أن
يرشدنهما إلى صمويل نبي الله الكريم ، أين يقيم ؟ وكيف يلقيانه ؟ فقُلن لهما :
إن الشعب ينتظره فوق هذا الجبل ، وهو يوشك الآن أن يجيء ؛ وبينما هما
في الحديث معهن إذ طلع عليهما صمويل يفوح منه أريج النبوة ، وتحدثت معارفه (١)
عن نبي كريم ورسول أمين ، والتقت عينا طالوت بصمويل ، فتعارفت أرواحهما ،
واتصلت نفوسهما ، ووقع في قلب صمويل أن هذا طالوت الذي أوحى الله إليه
بتمليكك ، وأذنه (٢) بأنه يحمل أعباء الزعامة والسلطان .

قال طالوت : إنني جئتُك يا نبي الله مستوضحا مسترشدا ، إن لأبي أتنا ضلّت
في شعاب هذا الوادي ، وقد خرجتُ في إثرهما مع هذا الغلام نتعرّف الطريقَ
ونقفُ (٣) الأثر ، فما ظفّرنا بعد ثلاث إلا بالخيبة ، وما عدنا إلا بكواذب
الآمال ؛ وقد جئناك لعل فيضاً من علمك يهدينا إليها ، أو يدلنا عليها !

قال صمويل : أما الآتين فهى في طريقها إلى أبيك ؛ فلا تربط قلبك بها ؛
ولا تعلق حبال ذهنك فيها ، ولكنى أدعوك لأمرٍ أجلّ خطراً ؛ وأعظم
مقداراً ؛ إن الله قد اختارك على بنى إسرائيل ملىكاً ، تجمع كلمتهم ، وتحزم
أمورهم ؛ وتخلصهم من أعدائهم ؛ وسيكتب الله لك - إن شاء - النصر ،
ولأعدائك الكبت والخذلان . قال له طالوت : ما أنا والملك والرياسة ،

(١) المعارف : ما يظهر من الوجه . (٢) أذنه : أعلمه . (٣) قفا الأثر وقافه : تبعه .

والزعامة والسلطان ! أنا من أبناء بنيامين أنحملُ الأسباط ذكرا ، وأقلهم مالا ، فكيف أصير إلى الملك ، أو أمسك بحبال السلطان !

قال صمويل : إن هذه إرادة الله ووحْيُهُ ، وأمرُهُ وكلْمَتُهُ ؛ فاشكر له هذه النعمة ، وأجمع رأيك على الجهاد . وأمسك طالوتَ من يده ، ووقف به على القوم يقول : إن الله قد بعث لكم طالوتَ هذا ملكا ، له حقُّ الرياسة والسلطان ، وعليكم الطاعة والإذعان ؛ فأجمعوا أموركم ، واستعيدوا للقاء عدوكم .

ولكن ما كان أشدَّ ذهولهم ، وأظهر وجومهم عند ما أخبرهم صمويل أن الملك فيهم سيصير إلى طالوت ، وهو من رأوه خمولَ ذكْرٍ ، وقلة مال ، وسوء حال ؛ ثم نظر بعضهم إلى بعض ، ولَوَّوا بأخاديعهم ^(١) ، وزمَّوا بأنوفهم ، وقالوا : كيف يكونُ له الملك علينا ، وهو في النسب غير عريق ، وفي المحمَد غير كريم ! لا هو من أبناء لاوى ^(٢) فرع النبوة وسرَّحة ^(٣) الرسالة ، ولا هو من غصن يهوذا معدن الملك وأصحاب الرياسة ! ثم كيف تُولَّى علينا رجلا فقيرا ، فارغ اليد ، لا يجد مالا يُدبِّر به الملك ، أو يحفظ به حوزة السلطان ، وما منا إلا صاحبُ ثروة وجاه ، وذو سطوة ونفوذ !

قال صمويل : إن زعامة الجيش ورياسة الملك لا يحتاجان إلى نسب أو تشب ، وما يُجندى النسب لفدَم ^(٤) أخرق ، لا يعرف من تصريف الأمور شيئا ! وما غناء المال لمتخلِّف الذهن ، سقيم الفهم ، لا يملك في سياسة الجيوش حولا ولا ظرلا ! ولكن هذا طالوت ، فضَّله الله عليكم ، لما فيه من الكفاية والقدرة ،

(١) الأخدع : عرق في المحجمين ، وهو شعبة من الوريد . (٢) كان الانبياء في بني إسرائيل من « لاوى » والملوك من « يهوذا » ، اختصا بهذا من سائر الأسباط .
(٣) السرَّحة في الأصل : الشجرة العظيمة . (٤) الفدَم : الغبي .

وما رزقه من مواهب الزعامة والرياسة ، وأتم ترؤنه رجلا بسط الله في جسمه ،
وسوى في خلقه ، صلب العَصَل ، متين العَصَب ، عريض الألواح ، وذلك
أَجَلِبُ للهابة ، وأنسبُ للرياسة . ألا ترون لو أن الله مَلَك عليكم رجلا قتيلاً ^(١) ،
مُسْرِق ^(٢) القوة ، مُنَحَل العزيمة ، فإنه لا بد أن تقتحمه عيوسكم ، وتزدرية
جنودكم . ثم إن الله رزقه استعداداً فطرياً ، وميلاً للحروب غريزياً ؛ وأحكم من
عقله ، وأرهف في ذهنه ، حَوَّلَ قَلْبَهُ ، رَحَّبَ الذراع ، طَوَّلَ الباع ، بصير
بالحروب ، خبير بمواطن الكفاح .

وفوق ما منحه الله من الصفات الحمودة فإنه قد اختاره لكم وملكه عليكم ؛
وهو أعلم بالمصالح وأعرف بالعواقب ! ثم هو - جل شأنه - مالك الملك ، يؤتيه
مَن يشاء ، ويصرفه مَن يشاء ، وما كان يابق بكم - وقد اختار الله لكم - أن تكون
لكم الخيرة من أمركم ؛ أو النُفرة من جانبكم .

قالوا : أما إذا قضى الله بشيء ، أو صدر عنه أمرٌ أو نهى فلا معقَّب لحكمه ،
ولا مُعَدِّل عن أمره ، ولكن هات لنا آية نعرف بها أمره ونعلم قضاءه .

قال : إن الله قد علم لجاجكم وعنادكم ، وقيلكم وقالكم ، فجعل لكم علامة
وآية : أن تخرجوا إلى ظاهر المدينة فثروا التابوت ^(٣) - الذي ذلَّتم بعد ذهابه ،
ولقيتم الخسْف والهوان بعد ضياعه - قادماً إليكم ، وفيه سَكينة لكم تحمِلُهُ الملائكة ؛
وفي ذلك آية لكم إن كنتم مؤمنين .

وخرجوا كما واعدهم ، فوجدوا التابوت ، ونزلت عليهم السكينة ، وصحَّت

(١) القمى : الصغير الذليل . (٢) مُسْرِق القوة : ضعيف . (٣) التابوت :
الصندوق الذي يحرز فيه المتاع ، وقيل : لم تختلف لغة قريش والأنصار في شيء من القرآن
إلا في التابوت ، فلغة قريش بالتاء ولغة الأنصار بالهاء .

عندهم العلامة ؛ فبايعوا طالوت ، وأقروا له بالملك والسلطان .

واضطلع طالوت بالملك ، وأحسن قيادة الجنود ، وأظهر حزمًا وعزمًا ، وفطنة وذكاء . قال : يا قوم ؛ لا ينتظمن في جيشي إلا من كان خاليًا من الهواجس ، فارغًا من الصوارف ؛ فلا يدخل من كان قد شرع في بناء لم يتمه ، أو خطب عروسًا لم يبين^(١) بها ، أو له تجارة وعقله مشغول بها .

وتم له ما أراد ، واستوى أمامه جيش متلاحم النسيج ، قوى القلب ، قوى الجناحين ؛ ولكنه أراد أن يتحوط لنفسه ، بعد ما بدا له منهم الشك في أمره ، والجدل حول تملكه ، فأراد أن يختبرهم مخافة أن يخذلوه ساعة اشتباك القنا^(٢) ، وحقق البنود^(٣) ، أو يفروا حين الزحف وتقابل الأقران ، فقال : إنكم ستبلغون نهرًا ؛ فمن كان صابرًا محتسبًا ، فلا ينهل إلا بمقدار ما يبرد كبده ، وييل ريقه ، هذا الذي أحسبه مني ، وتسكن إليه نفسي ؛ أما من نهل وعلى^(٤) فقد جاوز الأمر وركب متن الخلاف^(٥) .

وكان ماخافه طالوت ؛ فقد شربوا منه إلا قليلا منهم ؛ هم الصابرون المؤمنون ، المخلصون المجاهدون ، وأصبح الجيش أوزاعاً من ضعفاء العزيمة وخائريها ، ومن صادقي النية وكاذبيها ، ولكنه أدرع بالمخلصين ، وصابر المترددين ، وخرج بالجمع يلقى العدو ، ويجاهد في الله .

(١) لم يبين بها : لم يدخل بها . (٢) القنا : الرماح . (٣) البنود : الاعلام .

(٤) النهل : الشربة الأولى . والعمل : الشربة الثانية .

(٥) لعل الحكمة في ذلك أنه خشى لو أباح لهم الهجوم على النهر بعد عطش شديد ، وقع أكثرهم في النهر وأفرطوا في الشرب فخارت قواهم ، وجبنوا عن لقاء عدوهم .

ولما خرجوا إلى الساحة واستشرفوا للقتال ، لحوا من أعدائهم رجالاً أشداء ،
 ما فيهم إلا ابنُ كريمة^(١) وخِواض غمرات ، يَفْضُلُونَهُمْ أَهْبَةً ، ويفوقونهم عُدةً ،
 وجالوتُ بُهْمَتُهُمْ^(٢) ، وكَبِشَ كَتِيبَتُهُمْ^(٣) يصول بينهم ويجول .

وانقسم أصحاب طالوت مُشعبتين : شعبة منهم خار مُعوذهم ، وانخلع فؤادهم ،
 وتخاذلت قوتهم ، وقالوا : ﴿ لا طاقة لنا اليومَ بجالوتَ وجُنُودِهِ ﴾ . وشعبة منهم
 ظَلَّتْ صابرة صامدة ، هم الذين عمَّرَ قلوبهم الإيمان ، وأُشربوا في قلوبهم حبُّ الله ،
 واستعدّوا للبوت ، ولم تزعجهم كثرة أعدائهم ، ولم تردّ عهم قلة عددهم ، بل قالوا
 لطالوت : امض لشأنك ، وسِر في سبيلك ، وإنا إن شاء الله لا نُنْخِذُكَ مِنْ قَلَّةٍ ،
 ولا نغلب على أمرنا من ضعف ، و﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً
 بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

وخرجوا وعَتَادُهُم الصبر ، وزادُهم الإيمان ، وتوجهوا إلى الله ؛ طالبين منه
 أَنْ يُفَرِّغَ عَلَيْهِمْ صَبْرًا ، ويسبغ عليهم نصراً ؛ فإنهم ما خرجوا إلا جهاداً في
 سبيله ، وابتغاء لمرضاته .

ولما التقى الجمعان ، وَحَمَى الوَطِيسُ^(٤) برزجالوتُ يدعو للمناجزة والمبارزة ؛
 يخاف الباقون بطشه ، وهابوا صَوْلَتَهُ ، ووقفوا حوله بين متقاعس ومحجم ،
 أو منخذل ومتراجع .

(١) الكريمة : الحرب . (٢) البهمة : المجمع الذي يستقيم على أقرانه مأناه .
 (٣) كبش الكتيبة : قائد الجيش (٤) حمى الوطيس : اشتدت الحرب ، والوطيس
 في الأصل : التنور .

كان يقيم في بيت لحم ^(١) رجل تقدمت به السنون ؛ وأخذت صعدته ^(٢) الأيام ، يعيش سعيداً في نفسه ، آمناً في سره ، وادعاً مع بنييه . ولما وقعت الحرب ، واستنفَرَ طالوتُ بني إسرائيل للجهاد ، انتخب ذلك الرجل ثلاثة من كبار أبنائه ، وقال : خذوا معدتكم وسلاحكم ، وظاهروا إخوانكم ، وأدؤوا في الجهاد نصيبكم . ثم قال لأصغر أبنائه : أما أنت فنصيئك في الجهاد أن تحمل الطعام لإخوتك ، وأن تكون سفيراً بيني وبينهم ، وتُسفر لي صباح كل يوم عن أحوالهم ؛ أما ساحة الحرب فخذار أن تقر بها ، أو تخوض غمارها ، أو تصلى بنارها ؛ فإنك لست من رجالها ولا فتيانها ، ودعها لمن زبنتها ^(٣) وزبنته ، وعرفها وعرفته .

كان ذلك الغلام داود عليه السلام ، وكان - مع حداثة سنه ، ولدونة عوده - وضيء الطلعة ، أبلج الغرة ، متسعر الذكاء ، متوقد ما بين الجوانح .

سار مع إخوته ، وما وصل إلى ساحة القتال حتى وجد رجلاً راعه أنه عملاق طاغية يتحدى ، ولكن الأقران تتحاماه ، والشجعان تخشاه ؛ فسأل عن هذا الذي يقف متحدياً متغطرساً ! وما بال هؤلاء القوم ينكصون ويتراجعون ! فقل له : هذا جالوت رئيس الأعداء وزعيمهم ، وما برز إليه شخص إلا رده جريحاً ، أو أَرَداه قتيلاً ؛ والقلوب قد هلمعت لهيبته ، واضطربت من بأسه وشدة . وقد جعل طالوت جزاء لمن يقتله ؛ ويبقى المؤمنون كيده وشره ، أن يزوجه إحدى بناته ، ويوليّه الملك من بعده ؛ فثار الحفيظة في نفس داود ، وهاجت الحمية

(١) بيت لحم : بلد قريب من بيت المقدس ، وفيه ولد عيسى عليه السلام .

(٢) الصعدة في الأصل : القناة المستوية تنبت كذلك ، والمراد بها هنا القامة .

(٣) الزبن : الدفع .

فى قلبه ، وكبر عليه أن يرى عملاقا كافرا يتحدى ، ويصول ويجول ، ويذهب ويجىء ، ولا يلتقى إلا رعيديدا ، مخلوع الفؤاد .

نخفت إلى طالوت ، وطلب إليه أن يأذن له فى منازلته جالوت ، لعل مصرعه يكون بيديه ؛ فاستصغر طالوت شأنه ، وخشى أن يخرج هذا الحدث للقاءه ، فتنااله ضربة تطيحُ بها رأسه ، وتذهبُ فيها نفسه ، وهو لا يزال فتى أغز فى مِيعَةِ الحداثة وربيع الأيام ، وطلب إليه أن يترك الأمر لمن عساه أن يكون أكبر سنا ، وأقوى جسما ، وأمضى عزما ، وأجمع قلبا .

قال داود : لا يَخْدَعَنَّكَ ما تراه من صغر سنى ، وقِساءِ جسمى ، عن حرارة الإيمان التى تجيش فى صدرى ، ونارِ الحنق التى تلتهب فى قلبى ؛ ولقد هجم بالأمس القريب أسد على غنم لأبى فعَدَوْتُ ورائه حتى أصبته فقتلته ؛ وصادفتى مرة فى طريقى دبّ فاتك فنازلته ثم أرديته ؛ والعبرة بقوة النفس لا بكبر السن ، وبمضاء العزم لا بضخامة الجسم .

ورأى طالوت الصدق فى لهجته ، والحزم والعزم فى نيته ، فقال له : دونك وما تريد ، والله كالمُك وحافظك ، وهاديك ومبصرك ! ثم ألبسه ثيابا ، وقلده سيفه ، وتوجّه به مُخَوَذَةً^(١) فوق رأسه ؛ ولكن داود لم يكن قد لبس الدرع ، ولا عالج السيف ؛ فتناهى بما حمله ، وثقل عليه ما اشتمل ؛ فخلع كل ذلك ، واحتمل عصاه ، واحتقب مقلّاعه ، واصطحب أحجارا ملسا ، وتهايا للخروج .

قال طالوت : كيف القتال بالحبل والمقلّاع ، وهذا مقام السيف والنشاب^(٢) ! قال داود : إن الله الذى حمانى من أنياب الدب ومخالب السبع

(١) الخوذة : المغفر يبقى الرأس فى الحروب . (٢) النشاب : النبل .

سَيَمْنَعُ عَنِّي - بِلا شَكٍّ ، ما يريد لي هذا الطاغية من كيدٍ أو نكال .

وخرج وهو من مضاء عزمه في أَمْنَعِ حِرْزٍ ، ومن صدق إيمانه في أقوى حصن ،
والقلوب نحوه تهفو ، والعيون إليه ترنو .

ورأى جالوتِ قرنه ^(١) غلاماً حديث السن ، صغير الجسم ، لا يحمل سيفاً ،
ولا يتنكب قوساً ؛ فهزئ به ، واحتقر شأنه ؛ وقال : ما هذه العصا التي تحملها !
أكلباً تطارده ، أم غلاماً مثلك تناجزه ! أين سيفك وترسك ؟ وأين سلاحك
وعُدتك ؟ يخيل إلى أنك كرهتَ حياتك ، وسئمت عيشك ، مع أنك لا تزال
حديث السن ، ولم تحتمل بعدُ تكاليف العيش ، ولا نصيب الحياة ؛ تعال ، ادنْ
منى ؛ فإنه بعد لحظة ستسيل نفسك ، وتطوى صحيفة عمرك ، وأقدمك لهما طرياً
لوحوش البرية ، وطيور السماء .

قال داود : لك درعك وترسك ، وسيفك ونشابك ؛ أما أنا فإنني أتيتك باسم الله ،
إله بني إسرائيل الذين أذللتهم وأخضعتهم ، وسترى عما قريب ؛ أهو السيف الذي
يصرع ويقتل ، أم هي إرادة الله وقوته !

ومدَّ يده إلى كتفه ، وأخرج الحجر ، ووضعته في المقلاع ، وسدَّده نحو جالوت
فإذا هو مشجوج الرأس ، سائل الدم ، مُشَخَّن الجراح ؛ ثم قفاه بحجر وحجر ، حتى
خر صريعاً لليدين وللقدم .

وارتفعت راية النصر ، وانكسرت بعد جالوت شوكة العدو ، وولوا
منهزمين ، يتبعهم المؤمنون ضارباً وطعنوا وقتلوا ؛ وثأروا لأنفسهم ، واستردوا
عزهم والذهب ، ومجدهم التليد .

بين طالوت وداود (*)

انعقد لداود النصر ، وتم له السَّطَفَر ، فَأُتِلَفَتْ على محبته القلوب وتأكدت له أواصرُ الإخلاص ، وأصبح بين عشية وضحاها حديث القوم ، وموضع الإشارة ، ومحوّر الحديث .

أما طالوت فقد وُتِيَ بشرطه ، وبر بعهدده ، وصدق في يمينه ، فزَّوَّجَهُ ابنته ، وأحلَّه بين نفسه وقلبه ، وأضحى موضع نصحه ، وعَيْبَتَهُ (١) سرّه . وجمعت بينهما أواصرُ نسب ، وألَفَتْ بينهما غايةٌ من جهاد ، قَتِيماً لداود بذلك فتح مبين ، وفوز كبير ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

ولكن القلوب مهما تكن صافية لا يُؤَمَّن على الدهر كدَرُها ، والنفوس وإن كانت منخولةً نقيّة قلَّ أن يَبْقَى على الأيام نقاؤها ، فقد أصبح داود يوماً ، فإذا طالوت عابس الوجه ، لاوى العِذار (٢) ، مقطبُ ما بين العينين ؛ ابتسأته تكلف ، وقوله تحفظ . وحديثه ينمُّ عن حقدٍ وافد ، وضغْنٍ جديد ، فإذا غيّر من قلبه ورثق من صفو مودته ؟ وما عسى الواشى أن يكون قد بلغ عنده ؛ ألم يكن داود - ولا يزال - سيفاً سله الله حديداً قاطعاً ، مجاهداً لا يكل ، غازياً لا يمل ، مظفراً في الحرب ، ميمون النقيبة في ساح القتال ؛ ألم يجعل من نفسه وعافيته درعا لطالوت يدفع عنه البلاء ، ويصد عنه كيد الأعداء ؟ أليس هو صهره وراعي ابنته ؛ ومن يوم أن بنى بها لا يزال بينهما تحض الود ، وخالص الوفاء ؟ فما عسى أن يكون قد غير قلبك يا طالوت !

(٥) البقرة : ٢٥١ (١) غيبة سره : موضع سره . (٢) العذار : جانباً للحمية

(١٢ - قصص القرآن)

قال داود : لعله خاطرٌ متردد . ووهم عارض ، ومزاج مُعتكر ، لا يلبث أن يصفو ويلين .

وضمه مع زوجه « مكيال » (١) ليل ساج ، وشملهما سكونٌ شامل : فقال لها : وهو يهمس بصوته ، ويتحفظ في حديثه : يا مكيال : لا أدري أخطئُ أنا فيما رأيتُ أم مصيب ؟ وصادق فيما حررتُ أم غير صادق ؟ لقد رأيت أباك عابس الوجه ، ضائق الصدر . تحدث نظراته عن غيظ كامن . وتبشى سعارفه عن شيء جديد . فهل عندك شيء مما رأيتُ ؟

قالت مكيال - وقد أرسلتها آهة حبيسة ، وذرفت لها دموعه سخينة : لست أكتُمك يا داود شيئاً أعلمه ، وأصونُ عنك أمراً تجهله ؛ إن أبى منذ رأى القوم من بني إسرائيل يُسكنون لك في نفوسهم محبة وإجلالا ، ويُغضون عيونهم في حضرتك مهابة وإعظاما ، ومنذ رأى كلمتك بينهم تعلو ، وخطارك فيهم يسمو ، ومنذ رآك تنتقل من ظفر إلى ظفر ، ويحيئك النصر يتبعه النصر ، خشى على مُلكه من نفوذك ، وخاف على نفسه من سلطانك ، والمالك - كما تعلم يا داود - مرعى خصب ، ورحمى عظيم ، يدافع عنه صاحبه بنفسه وسلاحه ، وقلبه وجنانه ؛ وصاحبه أبدا يشك حتى في بطائنه ، ويشفق عليه حتى من صفوته وخاصانه ؛ فهو لذلك يأخذ بالظن ؛ ويتهم بالخدس ، ويعاقب لمجرد الإشفاق .

وأبى - وإن كان مؤمناً خالص الإيمان عالما وافر العلم - ملك تذبذبه سرورة الملوك ، وسلطان تختاج في صدره هو اجس السلاطين . وقد علمت أخيراً - وإن لم أكن أجزمُ بصحة ما علمت - أنه ينسك في التخلص منك والقضاء على

(١) اسم زوجته : وهى بنت طالوت .

سلطانك ، والقص من جناحك ؛ والرأى عندي أن تأخذَ بالحزم نفسك ،
وتتحوطَ لحياتك ، فإن كان ما توقعته حقاً ظفرتَ بالسلامة ؛ وإن كان بعيداً
لم يضرَّك الحزم شيئاً .

قال داود - وقد أشجاه ما سمع : ما أنا إلا جندي مقاتل تحت راية السلطان ،
ومؤمن أدافع عن بيضة الإيمان ؛ ولعل ما دخل على طالوت كان من وسوسة
الشيطان ، أو تسويل النفس الأتارة بالسوء ؛ وربما أخزى شيطانه وقهرَ هواه .
ثم أغمض أجفانه على نوم هادئ ، كأنه لم يعرف من دخيلة نفس طالوت شيئاً .

واستيقظ داود يوماً على دعوة طالوت ، ومثلَ أمامه ، فقال له : يا داود ،
إن بي اليوم همماً ناصباً ، وأمرأ حازماً ؛ قد بلغني اليوم عن كنعان أنهم عادوا ،
فجمعوا جموعهم ، وألفوا أحزابهم ، فاستحصد^(١) أمرهم ، وأصبح متوقعاً شرهم ؛
وليس لي عون إلا بك ، وليس لهذا الأمر سواك ؛ نخذ سيفك ، واختر من
ترى من جنودك ، واذهب إليهم ؛ وإياك أن تعود إلا منصوراً ؛ يرُعف^(٢) سيفك
بدماء أعدائك ، أو مقتولا محمولا على أعناق رجالك .

وحسب طالوت أنه كُفي أمر داود ؛ ولكن داود على الرغم مما عرّف من
أمرٍ صاحبه ، واختلاط إرادة الشر بإرادة الخير في دعوته - أطاع طالوت ، وذهب
إلى الكنعانيين ، مقاتلاً بسيفه ، مُرخصاً حياته ، لا يبالي أوقع على الموت أو وقع
الموت عليه ؟ ولا يعبأ أخرج من الحرب سليماً معافى ، أم تفتت الحياة من بين
جذبيه . وكتب الله النصر ، وعاد إلى طالوت مظفراً منصوراً .

(١) استحصد أمره : قوى . (٢) يرُعف : يسبل .

فما زاد ذلك طالوت إلا ضغناً ، وما أكسبه عنده إلا حنقاً وكرهاً ؛
فأضمر له القتل ، وبليت النكال ! وعلمت زوج داود بما أضمر أبوها ، وما يُراد
بزوجها ، فذهبت إليه لهيفة حزينة ، وحدثته بلفظ خاطف ، وأقلب واجف ؛
أن انجُ بنفسك ، واهرب بحياتك ؛ وإلا أكسبتني حسرة بموتك ، وضاعفت
همي بمصرعك .

فما وجد داود بُدّاً من الهروب ، وركوب مَتْنِ الاغتراب ، واتخذ
الليل سجلاً ، وهرب طريد الحسد ، طريد الحقد ، عامر القلب بالإيمان ، عظيم
الثقة بالله .

وانتهى إلى مَفَازة أوى إليها ، وألقى بهمومه فيها ، وفزع إليه إخوته ، وعلم
بمكانه مريدوه من بني إسرائيل ؛ فَهَرَّعُوا إليه جماعات ، واثالوا عليه زَرَافَات .
أما طالوت فقد ضَعُف أمرُه في قومه ، وكثر الخارجون عليه والهاربون من
جنده ، وخاف العاقبة ، فأعمل السيف ، وعاقب بالظن ، وأخذ البريء بذنب المسمى
والمؤمن بالعاصي ، ثم آذى العلماء ، واضطهد القراء (١) ، وألقى الرعب في قلوب
الجنود ، واستوى له بذلك جيش محاط بالقوة ، عليه سياج من بطش وجبروت .

ولكن داود لا يزال حياً ينافسه في ملكه ، ويتحداه في قومه . ولا يأمنه على
نفسه ، وقد كشف له صحيفة ضغنه ، ورأى له سهام مكره ؛ فلا بد أنه
مُضْطَهِغٌ عليه ، مريدُ الشرِّ له ، إذن فلينهض إلى حربه ، وليتهيأ لقتاله ؛ مهما
يقف في سبيله من عقبات .

وخرج داود من مَفَازته ، يتحسس أمر طالوت ، فإذا هو قد انتهى إلى

(١) القراء : طائفة من علماء بني إسرائيل .

وادومعه ثلثة (١) من شيعته وجنده ، وقد رقدوا ؛ لما أصابهم من جهد وما أدركهم من آين (٢) المسير ؛ فشى داود وتيداً ؛ حتى استلّ ربح طالوت من بين جنبيه وعاد . ونهض طالوت يتفقد رُحمته ، ويبحث عمن أخذه ؛ وبينما هو حائر مضطرب وافاه رسول داود يقول : هذا رُحمك ؛ وقد مكن الله لداود من رأسك ، ولكنه كان أعزّ نفساً ، وأكرم قلباً ، وأدنى إلى الله إيماناً .

ونالت كلمات رسول داود من نفسه ، ولمست مكان الإحساس من قلبه ، فأخذته حبرة من الأسى ، ونالته حرقلة من الندم ؛ ورجع باكياً مستعبراً ؛ نادماً أنه قد غدر بـداود ؛ وما كان أهلاً للغدر ؛ وقتل العلماء والقراء ؛ وما استحقوا القتل ؛ فما يفعل غداً بين يدي جبار السموات !

فرجع أدراجه ، ثم هام على وجهه ؛ ومضى في الفلوات يعلن الندامة ، وينشد من الله التوبة ، حتى وافاه الحمام (٣) .

أما بنو إسرائيل فقد هرعوا جميعاً إلى داود مبايعين ؛ وشدّ الله ملكه وآتاه الحكمة وفصل الخطاب .

(١) الثلة : الجماعة من الناس (٢) الاين : الإعياء والتعب (٣) الحمام : الموت .

داود

فتنة داود (*)

تاقت نفس (أوريا بن حنان) إلى أن يكون زوجاً لشريكه يسكن إليها ،
ويقوى بها أمره ؛ وقد صادف هواه مثالاً له صورة رائعة خلابة جذابة ، تأسر
الفؤاد ، وتملك المشاعر ، وتسبى العقول ، فيها كل ما ترغب النفس العزيزة الطموح
من فتنة وجمال وكمال .

لم يَطل ليل أوريا في البحث عن ضالته المندودة ، وتحقيق حلمه الجميل ، بل
ألقي مرساته على فتاة كريمة من فتيات قومه هي سابغ بنت شائع ؛ فما اكتحل طرفه
بجمالها حتى طار إلى أهلها ؛ فخطبها إليهم ، ووثق رباطه معهم ؛ وهنا هدأت قِطاة
قلبه ، وسكنت حصاة عقله ، وراح قرير العين بارد الفؤاد .

جعل هذا الفتى بعد ذلك همه في أن يمهد السبيل للحياة الهنيئة التي يود أن
يحياها بجانب شريكته ، وفي هذه الحياة كل سعادة وهناءة وفيها كل ما يديم حياة
السكون والاطمئنان ؛ فصار يستعجل الزمن ، ويسترسل في شوقه وتلهفه لذلك
اليوم الموعود ؛ يوم يجمع الله شملهما بعد الزواج .

ولقد كان أوريا شاباً ، وعلى الشباب كذلك جزية يؤدونها قرباناً لوجه الوطن ؛
فعليه إذن أن يتهيأ ، وأن يخلع عن نفسه رداء السلم ، وأن يدفع بها وسط الجيش
الزاخر الذي أعده نبي الله داود ، جهاداً في سبيل الله .

لم يَتَوَّانَ ذلكَ الفتي المقدم عن تأدية حق الجهاد ؛ بل أقدم وانتظم في عداد الجيش ، وبِنفسه ما بهامن الحب واللوعة ، ولكن بلا بلّ نفسه سكنت ؛ إذ هُدهدا (١) بأملٍ مُحلّو مرّجى ، أو ليست سابغ خطيبته دون سواه ، وهى له وهو لها ، مهما يتطاول الزمن ، ويمتدّ أمد البعاد ! إذن فليقض حق الجهاد ، ثم ليرجع حيث يبنى بحبيبة قلبه ، ومطرّح أمله .

طالت بالجيش أيامه ، وتعدّد إصباحه وإمساؤه ، واتسعت أمامه الغزوات ؛ وليس لفتانا إلا أن يصبر ، وأن ينسى في سبيل الجهاد كل شيء ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

في تلك الغيبة الطويلة التي كُتِبَتْ على ذلك الجندي المجاهد ، وهو قصيٌّ عن أهله ووطنه ، في فراق يكاد يكون غيبةً منقطعة ؛ إذ لم يسفر لها صباح ، ولم ينكشف عن غيابتها قناع ، ولم يبرق في سماءها أمل ، ولم يُضَيِّقْ في أفقها كوكب لماع ؛ في هذه الغيبة من الزمن تعلقت أنظار داود بهذه الفتاة المكتملة الرائعة سابغ بنت شائع ، ثم تالتت رغبته بأن تكون زوجاً له ، فما تردّد أن ذهب إلى أهلها يطلب إليهم القربى والمودة ، ومَنْ هم هؤلاء حتى يردّوا يدَ نبيّ الله الكريم ؟

أليس في ذلك الشرف لهم كل الشرف ؟ أليس أوريا قد طالت غيبته ؛ ورثت حبال خطيبته ؟ بهذه المعاذير تساق آل الفتاة وزفوا بنتهم حلالاً طيباً لبنيهم داود ، فعاشت معه عيشة كلها خير وكلها سعادة .

إلا أن تحت الأفق نفساً كان ذلك الخبر أشدّ عليها من وقع السهام في غلّس الظلام ، ولكن ما بها من حيلة ، فالأمر لله من قبلُ ومن بعد ، بأسو برحمته

(١) هُدهد الصبي : ربت على ظهره ليستكت .

جراح المنكوبين ، ويمسح عن جبين الإنسانية ما عسى أن يُلمّ بها من أذى أو هوان .

قزت عين داود بوجه الجديدة التي تعلقت بها نفسه فكانت له ، وهو من بعد قد سار على منواله ، فكان يتبع نظامه الذي شرعه لنفسه منذ حين من الدهر ؛ قد قسم الدهرَ أرباعاً : واحداً لنفسه ، وآخر لعبادة ربه ، وثالثاً للفصل والقضاء بين الناس ، والرابع لبنى قومه يعظّمهم ويرشدّهم إلى سواء السبيل .

وداود كذلك ملك ونبى ، أقام على منازله الحرّاس والجند ، وهو لا يغيّر أنظمته تلك ولا يحيد عنها ما تتابع المملّوان ، وأشرق النيران ؛ بل هو يسلك الطريق الذى يسوّى بين تلك القسمة العادلة ، وهذا الحساب الحكيم .

رجلان لهما كل ما للرجال من خِلقةٍ وصفات ، إلا أنهما يختلفان عن رجال بني إسرائيل قوم داود ؛ فأولئك تعوّدوا أنظمة مملّكهم فأطاعوها راضين مختارين ، وذانٍ خرقا سياج العُرف ، وخرجا على المتّبع المألوف ؛ فتقدّما إلى الجند طالبين أن يَدْخُلَا على داود ، وذلك فى غير وقت القضاء ومقابلة الناس ، فليس للحراس إلا أن يذودوهما ، وأن يمنعهما عن ذلك الحمى المنيع ، حتى يحين الوقت الذى يساح فيه لأعمالهما أن يتقدّما بين يدى نبي الله الكريم .

وما كان للحراس أن يدركوا هذه القدرة الخارقة المعجزة ؛ فليس هذان إلا مملّكين فى صورة الناس ، وهما سيّصِلان حتّى إلى داود ، وسيكون لهما شأن لديه مشهود ، وسيفذّان إليه بتلك الحكمة الصادقة ، والحجة القاطعة ، وسيكون من أمرهما عبرة ناجعة لنبي الله داود .

تسور المملكان المحراب ، ودخلا على داود : ففزع منهما ، وقد رآهما بين يديه جالسين بغير إذن ولا شفيع ، فقالا : ﴿ لَا تَخَفْ ، خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأُحْكَمْ بَيْنُنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطُ ۚ ۱ ﴾ وأهدنا إلى سواء الصراط .

وجد داود نفسه أمام أمر واقع ، قهرياً لهما ، واستعد للحكم بينهما ، واستمع لجدالهما ، فإذا أحدهما يقول : إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجةً ، ولى نعجة واحدة ، ولكن أخى امتدت به أطماعه ، فلم يقهر نفسه ، ولم يُغالب هواه ؛ بل قال : أعطينيها . فلما ناقشته غلبني نقاشه ، وأخمني حجاجه وجداله ، لأنه أفصح منى لساناً ، وأقوى حجةً وبياناً .

تلفت داود إلى الرجل الآخر ، فاستوضحه الأمر ، وسأله رأيه فيما يقول خصمه .

فقال : إن لى تسعا وتسعين نعجة ، وله نعجة واحدة ، فأردت أن أخذها منه حتى تكمل نعاى مائة . فقال داود : أَوَأُخْوِكَ يَكْرَهُ ذَلِكَ ؟ قال : نعم ! فاستشاط داود غيظاً ، ورماه شذراً ، وقال : إِذْنٌ فَإِنَّا لَا نَدْعُكَ ، وَإِنْ رُمْتَ ذَلِكَ ضَرْبَنَا مِنْكَ أَنْفَكَ وَجْهَتِكَ . فقال الرجل : يا داود : أنت أحق منى بهذا ! فقد كان لك تسع وتسعون امرأة ، ولم يكن لأوريا غير واحدة ! ومع ذلك امتدت رغبتك إليها ، وحرمتها إياها ، ثم صارت لك زوجة ؛ ولم ترعَ لعهدك حقاً ولا حرمة !

تلفت داود بعد هذا القول الحكيم المنبعث عن نفس خبيرة بصيرة ، فلم يجد أحداً حوله ، فعرف سرَّ الأمر ، وفطن إلى حقيقة الحال ، فاستغفر ربه ، وخر.

راكعاً ، وجاهد نفسه راغباً إلى الله تعالى في العفو والصفح والغُفران : فتاب الله عليه وغفر زَلَّتْه ، وأبقى له منزلة الأنبياء المكرمين .

وما كان يدورُ بخلد نبي الله داود أنه بعمله مقدمٌ على ما يستوجب اللوم والعتاب ، ولكن الله حاسبه فألزمه الحجة على علو كعبه ، وعظم منزلته ، حتى يوقن الناس أن الله لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وأنه يؤاخذ الناس جميعاً بأعمالهم ، سواء في ذلك عامتهم وأنبياءهم ، فلا يدع مؤاخذه نبي لنبوته ، ولا يغفل عن حقّ مظلوم أقعده ضعفه عن بسط ظلامته .

أصحاب السبت(*)

كان من تعليم نبي الله الكريم موسى أن ينقطع قومه بنو إسرائيل عن أعمالهم يوماً في كل أسبوع ، فلا يركنُون إلى مزاولة عملٍ ما تشغلهم به دنياهم ، بل يفزعون فيه إلى عبادة ربهم ، ويعكفون على حمده ، وتعداد نعمه وآلائه ، حتى تظهر قلوبهم بذكر الله ؛ والذكرى تنفع المؤمنين .

كان يومُ الجمعة هذا اليومَ الذي أمرُوا أن يعبدوا الله فيه ، ولكنهم رغبوا أن يكون يوم عبادتهم يومَ فرغ الله من عبادة الخلق ، وهو يوم السبت . ولما اختاروه قبل الله اختيارهم ؛ فكان موسى عليه السلام يزعمهم ويعظهم ، ويُقبل إليهم فيه مذكراً مرشداً .

مرّت الأيام وبنو إسرائيل على عاداتهم يقتسون يوم السبت ، ويفردونه لطاعة يتقربون بها ، أو لعبادة يسبحون الله فيها ، وتكاثرت أعقابهم ، وتوالت أيانهم ، وهم على هذا مقيمون ، وعلى تلك السُّنة دائبون .

وفي قرية من قراهم على شاطئ البحر الأحمر يقال لها أيلة كان يسكن قوم من سلالة بني إسرائيل في زمن داود عليه السلام (١) ، وكان عليهم أن يلتزموا سنة آبائهم وأجدادهم ، فيسيروا على عبادة الله في يوم السبت ، فكانوا لا يراولون فيه عملاً من أعمال دنياهم من صيد أو متاجرة أو صناعة .

وكان على ساحل البحر بجانب أيلة حِجران أبيضان ، تخرج الحيتان إليهما ليلة السبت ويومه ؛ إذ قد أمنت أن تصاد ، فهي تأنس في هذا الزمن وتأمن ،

فتسكاثروا وتزاحموا ، والقوم حينئذ لا تمتد أيديهم إلى ترويع هذه الحيتان بصيد :
لأنهم مشغولون بتسبيح خالقهم ، محرم عليهم أن يفزعوا صيداً ، أو يمارسوا في
الدنيا عملاً . وإذا جاءت ليلة الأحد تسربت الحيتان إلى البحر ، فانبعثت إلى باطنه :
فتعذر على القوم أن يصطادوها في أيام هي حلّ لهم .

تحرّكت دواعي الطمع ، وثارَت عوامل الجشع في نفوس الفساق من أهل هذه
القرية ، فغفلوا عن تعاليم أنبيائهم ، ونسوا حظاً مما ذكروا به : فتشاوروا فيما بينهم
وتبادلوا زمام الرأي ، وقالوا : ما بالنا ترك هذه الحيتان في يوم تكثر فيه وتزيد ،
وتزاحم متسابقة إلينا ؛ ونأتى إلى صيدها في أيام تُحجّم عنا وتدبر ؟ فلا سبيل إلينا
إلا بمشقة وجهاد ، إننا بذلك لحائدون عن طريق الصواب .

لأرأى إلا أن نقبل على هذا الصيد في يوم السبت ، فنأخذ منه ما نشاء ، ونصل
فيه إلى ما نبغى ونريد .

أقبلوا على الصيد ، فاصطادوا كثيراً بلا تعب ولا عناء ، ثم صنعوا به ما شاءوا
وما اشتهوا من مطبوخ ومشوى ، وأقبلوا يُشبعون نهمهم ويملشون بطونهم .

علم المتسقون منهم بما فعل هؤلاء الفساق المستهترون ؛ فخرجوا إليهم ووعظوهم
وحذروهم ؛ فما زادهم ذلك إلا استهتاراً وإمعاناً في غيهم ، وانسياقاً في ضلالهم ؛
فشارت ثائرة المؤمنين ، وحاصروا القرية بسلاحهم يمنعون هؤلاء المارقين من
دخولها ، لأنهم خارجون عن طاعة الله آثمون فاسقون .

اشتد ذلك على الفساق ، وشق عليهم أن يمتنعوا عن الصيد في يوم السبت ، مع
كثرة الحيتان فيه ، دون غيره من الأيام ؛ فقالوا للمؤمنين منهم : إن القرية لنا
ولكم ، ولا حق لكم في دفعنا عنها ، والانفراد بها دوننا ، ولا أحد يلزمنا بتركها

الكم ، إنها موطننا وموئلنا ومحط رزقنا ، ولا سبيل إلى تركها ، ولا مفر لنا إلى غيرها ، فإن صممتم على رأيكم ، ولم تحيدوا عن عزمكم فلتقاسمونا القرية ، ولتسببن حيطاننا بيننا وبينكم ؛ حتى يعيش كل منا على ما يشتهي وكما يريد .

ارتضى المؤمنون أن يقاسمهم القرية ، وأن يقيموا سدا يحجب عنهم هؤلاء المارقين .

انفردت كل طائفة ، وشغل الفساق بلهوهم وصيدهم ، وحفروا نهيرات تصل البحر بقريتهم ، فإذا كانت ليللة السبت سارت الحيتان فيها إلى أبواب دورهم ، فإذا غربت شمس السبت وهمت الحيتان بالرجوع حجزوها بسدود أقاموها تعترض مجرى النهيرات ، فلا تلك الحيتان أن تتسرب إلى البحر .

ولكن المؤمنين لم يغفلوا عن زجرهم وتخويفهم عذاب الله ؛ فلما طال النصح ، ولم يزد لهم إلا تماديا وعتوا ﴿ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ^(١) ۝ ﴾ !

فتركوهم في غيهم يعمهون ، وانصرفوا عن وعظهم لأنهم لا يتعظون . استمر الفساق في لهوهم ، وسددوا في غلوائهم ، وكثرت أموالهم ، وتغالوا في فسوقهم وعصيانهم ، حتى ضاق بهم نبي الله داود ؛ فاتجه إلى ربه يستنصر به ، ويطلب اللعنة لهم ، فأجاب الله سؤاله ، وحقق أمله ؛ فزلزلت قريتهم زلزالا عظيما ، ففرع المؤمنون من ذلك وخرجوا من بيوتهم ، ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ^(٢) بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ^(٣) ۝ ﴾ . ١٣١

سليمان

سليمان وبلقيس (*)

اتجهت همة نبي الله سليمان إلى بناء بيت المقدس بالشام ، تسهيلاً لأسباب العبادة ، وقربانا إلى الله ؛ فنشط حتى أقامه على الأركان ، شاخ البنيان ؛ ولما تم له ذلك اطمأن قلبه ، وسكنت نفسه ، ثم نزعت إلى أن يؤدى فريضة الله ، فلا بد له إذن أن يتهيأ للجهج في حشد عظيم .

يتم النبي شطراً الحرم ، فوافاه ، وأقام به ماشاء ؛ حتى إذا وفى نذره شذ رحله وفارقه ، ثم جد به السير نحو أرض اليمن ؛ فدخل أرض صنعاء ، وأخذ يتفقد الماء ، ويتلبس منافذه ، ويسبر أغواره ، فأعياه البحث ، واستعصى عليه المنال .

لذلك خفّ سليمان ، فتفقد الطير باحثاً عن الهدهد ليدلّه على الماء ، فوجده من الغائبين ؛ فأقسم ليعذبنه أو ليدبحنه ، إلا أن يأتى بحجة واضحة ، يمهّد بها لعذره ، ويزيل ما يخالج النفس في أمره ؛ ولكن الهدهد غاب غيبة قصيرة ، وعاد يخفض رأسه وذنبه تواضعاً لسيده ، وتقدم إليه ينزع من نفسه ما عسى أن يكون قد ألم بها من غضب عليه ، أو كيد إليه ، تقدم الطائر فقال : لقد اطلعت على ما لم يمتد إليه علمك ، ولم تصل إلى الإحاطة به أسباب قوتك وملوكك ، وكشفت سرّاً ندّ عنك أمره ، واختفى خبره .

خفّض هذا الحديث المشوق ما كان من حدة سليمان ، وبعث إلى نفسه كثيراً من التلهف والاستعجال ذلك الحديث المستحسن الجذاب ، فاستحث الهدهد أن يأتى

(*) الانعام ٨٤ ، الانبياء ٨١ و ٨٢ ، سبأ ١٢ - ١٤ ، النمل ١٥ - ٤٤ ، البقرة ١٠٣ ،

بخبره ، وأن يُدلى بحجته ومُعدره ، فقال الهدهد : وجدت في أرض سبأ امرأة تملكهم ، وقد أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، إلا أن الشيطان قد استبطنهم ، وخالط منهم اللحم والدم ، والمسامع والأطراف ، فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ؛ وجدتها وقودها يسجدون للشمس من دون الله ، فهالني أمرها وروى عن شأنها ، وما كان أجدرهم ، وأولى بهم — وهم أولو القوة والمجد — أن يسجدوا لله الذي يعلم ما تكمن الجوانح ؛ لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

مدّ هـش سليمان لهذا الأمر العجيب ، وقد رأى ألا يضيع الهدهد في خبره ، وألا يرد عليه قوله ؛ بل قال له : سننظر في نبئك ، ونتحقق أمر صدقك من كذبك . وإذا كان الأمر كما وصفت ، والحق كما صورت ، فهذا كتابي ، اذهب به فألقه إليهم ، ثم تنحّ إلى مكان تنتظر رأيهم ، وترقب جوابهم .

حمل الهدهد الكتاب ، ثم سار إلى بلقيس ، فألقاها بقصرها في مأرب ، فطرح الكتاب أمامها ، فتلقّفته وقرأته ، فإذا فيه : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىَّ وَأَتُونِي مَسْلُومِينَ ﴾ .

فجمعت الملكة وزراءها وأمراءها ، وأكابر دولتها إلى مشورتها ، لتطيب نفوسهم ، لا اعتدادها بهم وكونها إليهم ، ولكي تعتصم بحكمهم ، وتستظهر برأيهم ، فقالوا : نحن أبناء حرب وجلاد ، لا أهل رأي وسداد ، وقد تركنا أمورنا لتديرك وشؤوننا لتفكيرك ؛ فانظري ماذا تأمرين ، نكن طوعاً بنانك ورهن كلامك .

لمحت الملكة في كلام رجالها ميلاً إلى الحرب والمدافعة ، فزيفت كلامهم ، وخطأت رأيهم ، وأبانت لهم أن الصلح خير ، وأن الأجدر بذوى العقول الصائبة أن يبدعوا بالتى هي خير لهم وأحسن ، فقالت : إن الملوك إذا غلبوا قرية ، ودخلوها

عنوة خربوها : فأبادوا حضارتها ، وجعلوا أعزتها أذلة ، وتحكموا في الرقاب ، واشتطوا في الاستبداد ؛ ذلك دأبهم ما تعاقبت الأيام ، وتوالت الأزمان ؛ وإني مرسله إلى سليمان بهدية ، فيها من كل غال وثمين ، ونفيس وكريم ، أصانعه بها على مملكتي ، وأتبين بها سبيله ، وأتعرف منها نهجه .

ثم جمعت هدية بعثت بها مع رجال من كرام القوم . فانتقل الرسل بالهدايا وأقبل الهدهد إلى سليمان يبشئه الخبر ؛ فاتخذ سليمان للأمر معدته ، وقدم لما بعده أهيبته ، لذلك أمر الجن فزينوا له بناء عجيبا ، وصرحاشيدا ، يهز الأفتدة ، ويهر الأعين ، ويدهش القلوب .

فلما دنا القوم نظروا فبهتوا ، وأقبل عليهم سليمان بوجه طلق ، يرحب بقدمهم ويتهلل للقاءهم ، ثم بدأ يستشف غرضهم ، ويتعرف رأيهم ، فقال : ما وراءكم ؟ فتقدموا بما حملوا من هدايا ونفائس ، يدغون بها رضا رقبولا من النبي الكريم ، فتعفف سليمان وتلطّف ، وقال الرسول : ارجع إليهم بهديتهم ؛ فإن الله أعطاني الرزق السخي ، والنعيش الرضي ، ومدّ لي أسباب النبوة والملك ، وآتاني ما لم يؤت أحدا من العالمين ، وكيف يرضى مثلي أن يمدّ بمال يصانع به ، أو كيف يلهيه عن نشر دعوته ملأ الأرض ذهباً ؛ إنكم قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، فأتم بهديتكم تفرحون ؛ ارجع أيها الرسول إليهم ؛ فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولا قدرة على احتلالها ، ولنخرجهم من سبيل أذلة ، ذاهبا عنهم العز والملك والسلطان .

ذهب الرسل فأخبروا بلقيس بما رأوا وما سمعوا ؛ فقالت : ليس لنا بُد من السمع والطاعة ، ولنبادر إلى إجابته ، ونسارع لقبول دعوته .

فلما سمع سليمان بقدمهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن سُخِّرَ له من الجن : أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مُسلمين ؟ قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن ينقضى مجلسُ حكمك ، فتقوم من مقامك ، وإني لذو قوة على إحضاره ، وأمينٌ على ما فيه . قال الذي أوتي العلم والحكمة : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفُك ^(١) .

أراد سليمان عرش بلقيس عنده فكان ، فقال : هذا من فضل ربي عليّ ، وتلك نعمة من نعمه إليّ ، ليلوّنِي ^(٢) أشكر أم أكفر . ومَنْ حسنت النعمة لديه ، وصادفت من قلبه مكاناً طهرت حواشيه ، وسكنت نوازيه ، فشكر ربه فإنما يشكر لنفسه ، لأن مرجع الشكر إليه . وأما من كفر بنعمة ربه ، وخبثت سريرة نفسه فإنما هو من الذين خسروا الدنيا والآخرة ، والله غني عن العالمين . ثم قال سليمان لجنوده : نكثروا ^(٣) لها عرشها ، وغَيِّروا رواه لننظر : أتهتدى إليه أم تكون من الذين لا يهتدون .

فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ! فاستبعدت أن يكون عرشها ، وقد دخلته بأرض سبأ ، ولكنها رأت معالمه ، وتبينت آياته ومحاسنه ، فدهشت لذلك الأمر الغريب ؛ وقالت : كأنه هو ، ووقفت مشتمة الفكر ، حائرة القلب ، والهة الفؤاد .

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج أبيض ، ثم دعا ملكة سبأ إليه . فلما رآته حسبته لجة ، فكشفت عن ساقها ؛ قال : إنه صرح ممرّد ^(٤) من قوارير . فأنكشف حجاب الغفلة عنها ، وقالت : ربّ إني ملت حيناً عن عبادتك ، وضللت حرساً ^(٥) من الزمن عن رحمتك ، فظلمت نفسي ، وحبستها عن نورك ورحمتك ، والآن قد أسلمت مع سليمان ، خالصة لك ، متوجهة إلى طاعتك وأنت أرحم الراحمين .

(١) الطرف : العين . (٢) ليلوّنِي : ليختبرني (٣) نكثروا : غيره إلى مجهول .

(٤) ممرّد : مطول أو ممس : (٥) حرساً : دهرأ .

حكمة سليمان (*)

هذا داود عليه السلام قد استوى مَلِكاً على عرش بني إسرائيل ، يحكم فيها شَجَر يَبْنِيهِمْ ، وَيَصْرِفُ أُمُورَهُمْ ، وَيَرْعَى وَحْدَتَهُمْ وَمَعَاشَهُمْ ، وَهُمْ يَغْدُونَ إِلَيْهِ يَقْصُونَ قَصَصَهُمْ ، وَيَبْسُطُونَ خُصُومَتَهُمْ ، وَيُدْلُونَ بِحُجَجِهِمْ ، وَهُوَ يَفْصِلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ .

وهذا ابنه سليمان لما يكتمل ، فهو في الحادية عشرة من عمره ، ولكن أباه قد أصبح شيخاً همّاً ، أوشكت شُعُوبُ أَنْ تُخْزِمَ أَجْلُهُ ، فهو دائم التفكير في أمر قومه ، مهتم بمن تكون له الولاية من بعده ، يرى أبناءه من حوله ، وسليمان - وإن كان صبيّاً - إلا أنه يفضّلهم علماً وحكمة : قد نضجت شمائله ، واكتملت بوادره ، يصرفُ الأُمُورَ تصريفَ الناقدِ الحازم ، البصيرِ النَّظَّارِ (١) .

جرت سنة داود على أَنْ يُخْضِرَ خُصُومَتَهُ ابْنَهُ سُلَيْمَانَ ، حتى تزداد قوته ، وَيَسْتَحْصِفَ (٢) رَأْيَهُ ، فكان سليمان ملازماً لأبيه في مجلسه ، حتى يكون له من آرائه فيما بعد نور يمشى به ، ودستور يسير عليه في مشكلات الملك ودقائق التدبير .

وفي مجلس من مجالس القضاء اجلس النبيُّ الملكُ داود ، وجلس بجانبه ابنه سليمان ، فألقى خصمان ، قال أحدهما : إن زرعاً له قد آتى ثمره ، ودنت قطوفه ، وصار بهجة الناظر ، وعتاد الزارع ، انتشرت فيه غنم خصمه ، ولم يردّها راذ ، أو يُحْكِمَ وِثاقها راعٍ ؛ بل سامت ، وانسابت في الزرع ليلاً ؛ فأهلكته وأبادته ، حتى صار أثراً بعد عين .

(*) الأنبياء : آية ٧٨ وما بعدها .

(١) النظار : الممعن النظر في الأمور . (٢) استحصف رأيه : استحكم ..

قال صاحب الزرع ما قال ، ولم يدفعه صاحب الغنم بحجة ولا دليل ، فلزمته الخصومة ، وحققت عليه كلمة القضاء .

حكم داود بالغنم لصاحب الزرع يأخذها خالصة له كفاء زرع ، وجزاء إهمال أصحابها الذين تركوها ، فَتَفَشَتْ^(١) في الزرع بالليل ، ولكن الصبي سليمان - وقد آتاه الله علماً وحكمة ، وأوقفه على دقيقات هذه الخصومة ، وجمله بالرأى فيها تهيةً منه ليتولى ذلك الملك العريض - انبرى في مجلسه ، وفكّ عقال صمته ، وانفلتت إلى القوم حجته ، فقال : غيرُ هذا أرفق ، ودون هذا أوفق .

فدُهِشَ القوم لجرأة الغلام ، وانتظروا صامتين ما وراءه ، فقال : تدفعُ الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها ، وتسلم الأرض إلى أصحاب الغنم يقومون على زراعتها ؛ حتى تعود كما كانت ، ثم يترادان ، فيأخذ كلٌّ ما كان تحت يمينه ، وبذلك لا يكون هناك غنم ولا غرم ؛ فهذا أقرب إلى العدل ، وأصح في الحكم ، وأولى في القضاء .

كان هذا مبدءاً لظهور أمر النبي سليمان ؛ الذي كان خير خلف لأبيه .

(١) نفشت الغنم : رعت ليلاً بلا راع .

سليمان على عرش أبيه (*)

داود يهيئ ابنه سليمان ؛ ليكون خليفة من بعده مع ما هو عليه من حداثة السن وغضاضة الإهاب ، ولعله قد أخذ بأبهة العرش ، وازدهى بعزته ، فحافظ قلبه الفخر ، وامتد أمله إلى التعلق بغرض من أغراض الحياة ، وذلك - وإن يكن عززيًا في بني الناس - إلا أنه كثير على من مُنح هبة النبوة ، واصطفاه الله لهداية العالمين . وهذا ابن آخر لداود : هو أبشالوم قوى عتيد ، قد استوى ساقه ، وعرك تجارب الدهر ، وعرف دخائل الأمور ، ومع ذلك فهو مستحي عن الممالك ، مُبعد عن الخلافة والسلطان .

وذلك تدبير لا يرضى أبشالوم ، ولا يطمئن إليه ؛ فهو لذلك سيشق عصا الطاعة خارجاً عن أبيه وأخيه ، وسيكافح ويناضل في سبيل هذا الملك ، مهما يكلفه ذلك من عزيز .

استمر أبشالوم ردحا من الزمن يتقرب إلى قومه بني إسرائيل ، ويغمرهم بعطفه ، ويقضى بينهم ، ويصلح أمورهم ، ويجمع شملهم حوله ؛ انتظاراً لأمر يديره وعمل يُبَيِّته ؛ حتى لقد غالى في أمره ؛ فكان يقف بباب أبيه الملك يصعد عنه كل صاحب حاجة ، ليقتضيها له بنفسه ؛ ليكون له على كل إسرائيلي مسنة ويد ، ليعرفهم أنه صاحب حَوْلٍ وطَوْلٍ ؛ حتى يكونوا إليه نازعين ، ولرأيه خاضعين .

بعد أن أعد أبشالوم عدته ، ودبر مكيدته ، واطمأن إلى أنه قد استرق قلوب بني إسرائيل ، واستولى على زمامهم - بعد ذلك استأذن أباه داود في أن يخرج

إلى «جدون» (١) لئىوفى بنذر نذره هناك ؛ ثم أرسل جواسيسه فى أسباط بنى إسرائيل قائلاً : إذا سمعتم بُوقاً يُنذر بجمعكم فانفروا إلىّ وأعلنوا الملك لى ، فذلك خير لكم ، وأوفى لحقوقكم ، وأمكن لسلطانكم .

ثار الشعب واشتدت الفتنة ، وتزايد الصّخب ، وهبت على أورشليم ريح هوجاء توّشك أن تأتى على الأخضر واليابس .

علم داود بالخبر ، فكان شديداً عليه ، إلا أنه ربط جأشه ، وملك نفسه ، ثم قال لمن حوله : هيتا بنا نهرب ، لأنه ليس لنا نجاة من بطش أبشالوم ، ثم عبر هو ورجاله وأهل بيته نهر الأردن ، وصعد داود إلى جبل الزيتون باكياً حافياً هو والذين معه .

وكان تفرّ قد شتموا بداود ، فتألبوا عليه يسبونّه ، ويؤلمونه بقوارس الكلام ؛ فهمّ بهم خلاصاؤه إلا أنه منعهم فى ألم وحسرة قائلاً : إذا كان ابنى يطلبنى فما أحرى غيره بذلك !

ثم تقدم داود إلى الله فى ضراعة وذلة : أن ينجيه مما حاق به ، وأن يكشف عنه البلاء المحيط .

دخل أبشالوم بعد مخرج أبيه إلى أورشليم وامتلك نواصى الأمور . ثم أرسل داود قوّاده ، وأوصاهم أن يعالجوا الأمر بالروية والحكمة ، وأن يحقنوا دم ابنه أبشالوم ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل ، إلا أن القدر قد دبر غير ما اشتهى الوالد الرحيم ، فقد دخل القوّاد إلى أبشالوم ولم يروا إلا قتلاته ، فسكنت الفتنة ، واستراح الناس .

ورجع الملك إلى داود ومن بعده لابنه سليمان .
قز سليمان فى ملكه ، ووهبه ربه ملكاً عريضاً ، وجاهاً وسيعاً ، وسخر له

الريح تجرى بأمره ، وتسير بمشيئته ورأيه ، وعلمه منطق الطير ، فكان يتفاهم بأصواتها ، وينتفع بمواهبها ، ويطمئن إلى إخبارها .

وأسال الله له عيناً مُصْطَهرة ، تقذف النحاس من باطن الأرض ، فيقبل عليه صنّاعه من الجن للانتفاع به في شتى أعمال الإصلاح والتعمير ، ومن الجن مَنْ يعملُ له ما يشاء من محاريبَ وتمائيل وجِفافٍ كالجوابي^(١) وقدور رايسيات .

ورث سليمان داود في نبوته وملكوته : وآتاه الله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وعلمه منطق الطير ، وسخر له الشياطين ، وأطلق بأمره الريح ، فكان يعرف تخاطبَ الطير بلغاتها ، ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها .

ولقد ركب نبيُّ الله الملكُ يوماً في حشدٍ عظيم من الإنس والجن والطير ، حتى نزل أرض عسقلان ، فأتى على وادى النمل ، فبصُرت به على بُعد نملة من النمل ، فارتاعت لذلك الحشد ، وخافت على قومها أن تدوسهم جنود سليمان فتحطمهم ، فأهابت بهم أن ادخلوا مساكنكم حتى لا تذهبوا ضحية سليمان وجنوده وهم لا يشعرون .

سمع سليمان قولها ، وعرف مرادها في ندائها ، فتبسّم ضاحكاً لقولها ، سروراً بما ألهمه الله من قوة يدرك بها هذا المنطق العجيب ، وإعجاباً بما تجلّسى في قول النملة من شعور وإدراك ، لأنها أيقنت أنه نبي ، والأنبياء لا يؤذون خلق الله إلا إذا كانوا لا يشعرون .

طلب نبيُّ الله من ربه أن يقبضه لشكره على ما أنعم عليه من عطية ، وما خصه به من مزية ، وأن ييسر له سبيل الأعمال الصالحات ، فيهيئ له من أمره رَشداً ، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين .

قضاء الله في بني إسرائيل (*)

استشرى ^(١) الفساد في بني إسرائيل ، وتهافتوا في حماة الضلال ، وفشايهم العيصان ، واضطرب جبل الأمان ، ولم تعد للرحمة مكان في نفوسهم ، ولا لهيبة الأنبياء نصيب من قلوبهم . أما أحبارهم وقرّاءهم فقد أنكروا حق الله ، وأما ولائهم فقد كذبوا الرسل ، وتبذروا وراء ظهورهم الكتاب ، كتاب الله ! فاستحقوا من الله أن يذيقهم العذاب ، وأن يوقع عليهم شديد العقاب ، ولكنه - سبحانه وتعالى - أعدل من أن يأخذ قوماً بالعذاب قبل أن يرسل إليهم النذير ، أو يعاقب طغاة ظالمين قبل أن يبين لهم وجه الطريق .

وكان « أرمياء » نبيّاً من أنبيائهم ، ورجلاً من صميم بيوتهم ، فوقف بينهم ليصيح بكلمة الحق ، ويصدع ^(٢) بأمر الله : أي قومي وأبناء عشيرتي ، لقد طال فسادكم وعمّ داؤكم ، وسخط عليكم ربكم . هذا كتاب الله وراءكم قد نبذتموه ، وذلك حقه فيكم قد جمعدتموه ، وقد علمتم نعمة عليكم سابغة ، وأبرّاد خيره فوقكم ضافية ، وآلاءه عليكم ظاهرة وباطنة ، قد مكن لكم في أرضه ، وأنزلكم إلى حمى بيته . وفضلكم على العالمين .

لقد كان لكم بالأمس القريب عظة - وفي رحمته بكم عبرة ؛ هذا سنحاريب ^(٣) نزح إليكم من بابل في عسفه وبطشه ، وفي جنده وحزبه ، وفي قوته وصبره ،

(٥) سورة المائدة : ٧٤ و ٧٦ ، وآل عمران ١٣١ .

(١) استشرى : استطار ، (٢) يقال صدع بالامر : أصاب موضعه ، وجاهر به .

(٣) سنحاريب : كان ملك بابل ، أراد أن يغزو بني إسرائيل ولكن الله أرسل على

جيشه الطاعون فأباده .

حاول أن يغزوكم في عُقر داركم ، وأن يتغلغل في صميم بلادكم ، ولو مُخلى بينه وبين ما يريد لأَفْتَى عددكم ، وأذهب جَمْعكم ؛ لكن الله رحمكم بنبيكم شعباً (١) ، فوقف إلى الله داعياً مُتَعَمِّناً ، وإليه راجباً متطلباً : أن يصرف عنكم السوء ، ويدفع الأذى ، ويرُدَّ ما يراد بكم من كيد ؛ فاستجاب الله دعوته ، وتقبل كلمته ، ورجع عدوكم مذموماً مذخوراً ، يتعثر في ثوب الخزي ، ويتسربلُ سربال الهوان ، بعد أن هلك جنده ، ودبت إليهم الأمراض ونحو تهم (٢) الأسقام .

وماذا كان جزاءُ شعباً فيكم ، وماذا كان مقامه في نفوسكم ؟ لو كان في قوم غيركم يرعون الجميل ، ويحفظون يد الكريم - لظل دهره بينهم مرعى الجانب ، مسموع الكلام ؛ ولكن يا حسرةً عليكم ، ويا بؤساً لصنيعكم ! لقد أهتسموه وخذلتوه ، ثم قتلتموه وذبحتموه ، فأرقت منه دماز كيثاً ، وأهنتم كريماً أبيّاً ! وصعدت روحه إلى الله طاهرةً مقدسة ، مبرورة مكرمة ، تشكو إلى الله الجور والطغيان ، وتبرأ إليه من العقوق والكفران .

ثم ما زلتُم أتم هؤلاء : تظاهرون بالإثم ، وتواصون بالعدوان ، ولا تتناهون عن منكر تفعلون ، كأن التوراة لم تهذب من نفوسكم ، وكأن الرسل تنادى في غير دياركم .

اسمعوها كلمة صادقة ، وتلقّوه إنذاراً حاسماً : لقد أوحى الله إليّ أن أدعوكم إلى الحق وأنذركم العذاب والعقاب ؛ لئن لم تُفسيقوا من سَكْرَتكم ، وتزجروا غرابَ جهلكم ، وترجعوا إلى كتابكم تستمسكون بعروته ، وتحتكمون إلى آياته ، وتعودوا قوماً صالحين ، ليبعث عليكم عبيداً أشداءً وجنوداً أقوياء ، بأسهم

(١) شعباً بن أموص : كان نبياً من أنبياء بني إسرائيل ، (٢) نخوتهم : اضطفتهم .

شديد ، وعزُّمهم حديد ؛ لا تسكن الرحمةُ نفوسهم ، ولا تعرف الرأفةُ سبيلها إلى قلوبهم ، يأخذون بناصيتكم ، ويُريغون أنوفكم ، ثم يجوسون هذه الديار ؛ فإذا تلك القصور التي تنتمون في ظلالها قد استحالت خرابا يبابا ، وإذا تلك الآطام^(١) المتراسة أصبحت إشعابا^(٢) ، وحدائقكم التي ترونها ذات بهجة تُضحى عريسات^(٣) أسود ، وحقولكم تلك التي تجنون ثمارها تسمى مرايض نمور وفهود ، والمعابد التي خلقها الله رَوْحاً لقلوبكم ، ومثابة لنفوسكم ، لِيُنْتَهِيَنَّ حرَماتها وليستريحنَّ عَرَصاتِها . . وهكذا تُصبحون حراماً مستباحا ، وكلاً مُباحا ، وأنتم بعد ذلك بين أسير وقتيل .

وقد نصحتُ لكم ما وسعني النصيح ، وأفصحت لكم ما استطعت الإفصاح ، وأنتم بعد ذلك مُفوضون في الطريق التي تسلكون ، وفي النهج الذي تنتهجون .

قال كبيرهم : أهذا الذي جمعتُ إليه حشدنا ، ودعوتُ إليه لفيقنا ! لقد كذبت على الله وأعظمت الفرية عليه ! أكان لله الذي اختارنا من بين خلقه ، واصطفانا لتلقى كتابه - أن يُذهب مُلكنا على يد كفار لا يعبدون إلا النار ، ولا تعنو جباههم إلا للأوثان ! إنما ترجمُ بالغيب ، وتظنني بالمنكر ، وتضرب في أودية الوهم والضلال .

قال أرميا : يا هؤلاء ؛ إنما يرسلهم الله عليكم معذنين ، ويرميكم بهم معاقبين ؛ كما يرسل الطاغون الجارف ، أو السيل العارم ، وما الفرق بين أن تصيبكم دويبةٌ تقطع دابركم أو يظهر عليكم ملك كافر يُذلُّ ناصيتكم ، ويمزق أوصالكم ؛ وشهد الله أني نصحتكم وما غششْتُكم ، فانظروا لأنفسكم ، وتخَيَّروا لأبدانكم .

(١) الآطام : الحصون . (٢) الإشعاب : الطريق . (٣) العريسة : بيت الأسد .

قالوا : جاذَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ الْجِدَالَ ، وَكَأَنَّكَ رَأَيْتَ رُقْعَةَ الْحِلْمِ وَسِيعَةَ فَأْغَرِيَّتِ
بِالسَّكَّامِ ، وَطَاطَرُ الصَّدْرِ سَاكِنًا فَبَلَغْتَ فِي الْمَلَامِ ، وَمَا نَرَى لَكَ إِلَّا أَنْ تَغْلَّ يَدَاكَ
وَتَصْفَدَ رِجْلَاكَ ، وَتُرْمَى فِي سَجْنٍ عَمِيقٍ ، أَوْ تَنْفَى إِلَى مَكَانٍ سَحِيقٍ . وَطَلَعَ الصَّبَاحُ
وَإِذَا بِأَرْمِيَا مُلْقًى فِي سَجْنِهِ ، مُصَفَّدًا مَغْلُولًا !

وَتَلَفَّتُوا إِلَى الشَّرْقِ يَوْمًا ، فَإِذَا بِالْغُبَارِ يَعْلُو حَتَّى يَبْلُغَ عَنَانَ السَّمَاءِ ^(١) ، وَيَنْعَقِدُ
حَتَّى يَحْجِبَ الضِّيَاءَ ، وَيَتَكَثَّفُ حَتَّى يَمَلَأَ الْأَرْضَ حُلُوكَةً وَظَلَامًا ؛ ثُمَّ يَنْقَشِعُ هَذَا
الْغُبَارُ ، وَيَفْتَضِحُ عَنْ أَشْوَوسَ ^(٢) مُتَقَدِّمًا ، يَقُودُ جَيْشًا كَقَطْعِ الْغَمَامِ ، مَا فِيهِمْ
إِلَّا خَمْسٌ ^(٣) جَمِيعُ الْفُؤَادِ .

كَانَ هَذَا بِخْتَنَصَرٍ زَحَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَابِلَ ، يَرِيدُ بِهِمُ الشَّرَّ ، وَيَقْصِدُ لَهُمُ الْهَلَاكَ ،
وَهُوَ نِقْمَةُ اللَّهِ أَرْسَلَهَا ، وَغَضَبَتُهُ رَمَى بِهَا ، فَمَنْ الَّذِي يَسْتَطِيعُ صَدَهُ ؟ وَمَنْ
الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يَقِفَ جَيْشَهُ ؟ وَتَسَاءَلُوا ؛ أَهَذَا الَّذِي خَوَّفَنَا بِهِ أَرْمِيَا ؟ إِنْ كَانَ هُوَ
فَقَدْ حَالَتْ الدَّاهِيَةُ وَوَقَعَتِ السَّكَارَةُ .

وَلَمْ يَمْلَهُمْ بِخْتَنَصَرٍ حَتَّى يَتَمَثَّلُوا حَدْسَهُمْ ، وَيَعْرِفُوا مَا وَرَاءَ زَعْمِهِمْ ؛ بَلْ انْقَضَ
عَلَى الْمَدِينَةِ وَحْشًا كَاسِرًا ، مَخْزَبًا هَدَامًا ، جَرِيثًا مَقْدَامًا ؛ لَمْ يَصَادَفْ مِنْزَلًا إِلَّا قَوَّضَهُ ،
وَلَا صَرْحًا إِلَّا هَدَمَهُ ، وَلَا طَرِيقًا إِلَّا أَخْفَى رُسُومَهُ ، وَلَا قَصْرًا إِلَّا مَحَا أَعْلَامَهُ .
وَبَيْتَ الْمُقَدَّسِ انْتَهَكَ حُرْمَاتِهِ ، وَأَسْقَطَ سُورَاتِهِ ، وَعَطَلَ الْعِبَادَةَ فِي جَنَابَاتِهِ .
أَمَّا الْقَوْمُ فَقَدْ حَاطَهُمْ قَتْلًا وَذُبْحًا ، وَأَسْرًا وَسَبْيًا ، ثُمَّ فَرَّقَهُمْ فِي الْأَرْضِ بَدَدًا ،
وَتَرَكَ دِيَارَهُمْ خَرَابًا يَبَابًا :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَبَجُونِ إِلَى الصَّفَا أُنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرٌ

(١) عَنَانَ السَّمَاءِ : مَا اعْتَرَضَ مِنْ أَقْطَارِهَا . (٢) الْأَشْوَوسُ : الْجَرِيُّ .

(٣) خَمْسٌ : شَدِيدٌ فِي الْقِتَالِ .

ومرت أعوام ، وتصمرت أجيال ، واشتعبت بختنصر شُعُوب (١) ، وقُطِعت أسبابه من الحياة ، وتولى عرش بابل ملك خافِض الجِناح ، سهل المُقَادَة ، لدُن العُود ؛ ورأى القومَ من بني إسرائيل يرسفون في أصفاد الذل ، ويغدون ويروحون تحت نِير (٢) الهوان ، فسأل : ما خطبهم ؟ وما أسباب هوانهم ؟ قالوا ؛ إنهم أسلاف يعقوب ، وأحفاد داود ، وكانوا يُقيمون في الشام وبلادهم مشغُورة (٣) الموارد ، عَذْبَة المناهل ، وإن أباك قد أذل أبائهم ، وأرغم حميتهم ، وفرّقهم في البلاد طرائق ، وشرّدَهم في الآفاق حزائق (٤) ، وضرب عليهم ما تراه من ذلٍ وهوان .

فوجدت هذه الكلمات منه قلباً رحيماً ، وصادفت عنده طبعاً كريماً ، فنادى فيهم أن اجمعوا شملكم ، ولمثوا شتاتكم ، وضموا نشركم (٥) ، وثوبوا إلى بلادكم ، وعودوا إلى ما كنتم فيه من شمل جميع ، ونسج متلاحم .

ورجعوا إلى بلادهم ، ورد الله الكثرة عليهم ، وأمدّهم بالأموال والبنين ، وأخصب لهم الزرع ، ونما الضرع ، واطردت لهم أسباب السعادة والوثام .

وكان من حقهم أن يُعتبروا بما كان ، وأن يقابلوا النعمة بالشكران ، ولكن أنسى للنفوس التي طُبعت على الشر أن تسترّوح الخير ، وتميل إلى الصلاح ! وأنى لسلائل القوم الذين تماثلوا على يوسف ، وآذوا موسى من بعده ، أن تأنس نفوسهم إلى الاطمئنان ، أو تنسى العدوان ؛ فإنهم ما عتموا أن يرجعوا أدراجهم

(١) شعوب : الموت .

(٢) النير (في الأصل) : الخشبة المعلقة في عنق الثورين .

(٣) ماء مشغورة : كثرت عليه الأيدي .

(٤) الحزائق : جمع حزبة ، وهي الجماعة .

(٥) النشر : القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس .

إلى الشر ، وأخذوا يَحْمِلُونَ فِي جِبَالِ الظُّلَمِ وَالْبَغْيِ ، حَتَّى إِذَا قَامَ فِيهِمْ زَكْرِيَا وَيَحْيَى
نَبِيَّيْنِ رَحِيمَيْنِ ، وَرَسُولَيْنِ كَرِيمَيْنِ ، سَفَكَوَا دَمَهُمَا ، كَأَنَّهُ بَنَفْسُهُمْ عَطَشًا إِلَى الْأَسْمَاءِ ،
وَكَانَ وَتَرَأَ ^(١) بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ : وَعَادُوا إِلَى الشَّرِّ وَالْعَدْوَانِ ، وَعَادَ اللَّهُ بِهِمْ إِلَى
الْمَكْرِ وَالْإِنْتِقَامِ : وَسَاطَ عَلَيْهِمْ جُودَرَزْكَ سَلَطَ عَلَى مَنْ قَبْلَهُمْ بِخُتْمِ نَصْرٍ : وَأَعَادَ
الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَهَابِ مَلِكِهِمْ ، وَتَخْرِيْبِ مَعَابِدِهِمْ ، وَهَكَذَا مُزِقُوا كُلَّ مَزْقٍ ،
وَتَفَرَّقُوا تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ ، وَضَرَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَيْدِي الدَّهْرِ الذَّلَّةَ وَالْمُسْكِنَةَ ، وَبَاءُوا
بِغَضَبِ اللَّهِ ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ .

(١) الْوَتَرُ : الثَّارُ .

دخل حديقته فإذا هي مخضرة العود ، وارفة الضلال ، ، دانية القطوف ،
تصدح فيها البلابل ، وتطرب الأطيّار ، فقضى ساعته متملياً ^(١) بما فيها من
جلال ، مستمتعا بما تحويه من شيات ^(٢) الجمال ، ثم ملأ سلة من العنب ، وأخرى
من التين ، واصطاحب مقداراً من الخبز ، وامتنطى حماره ، وأخذ طريقه إلى المنزل .
وبينما هو يفكر في سر الكون ، وعظمة الوجود ، ضلّ به السير ، واضطرب
أمامه الطريق ، واشتبهت معالم الجهات ، وإذا هو في قرية خربة تحدث عن قوم
فرقتهم عدواء الدار ^(٣) ، واحتبلتسهم حبول المنايا : رسوم دارسة ، وأطلال عافية ،
وعظام نخرة ، وأجساد بالية .

فزل عن حماره ، وألقى بالسلاطين إلى جواره ، وربط الحمار ، وأسند ظهره إلى
جدار حتى يجمع نفسه ، ويسترجع قوّته وفكره ؛ ثم طاب له المسكان ، واستراح
إلى النسيم ، وأطلق العنان لعقله يفكر في هذه الأموات وكيف تنشر ، وتلك
الأجساد وأئى تبعث ؛ بعد أن أصبحت أديماً للأرض ، وتراباً يجود عليها كل
أسحم ^(٤) هطال . ثم استحال هذا التفكير إلى سهوم ووجوم ؛ ثم أغمضت عيناه ،
وتخاذلت ركبته ، ودخل في نوم مشتمل ؛ وكأنه لحق بمن في القبور .

ومرت مائة عام مجرّمات ^(٥) ، وهرمت أطفال ، وفنيت أعمار ، وانحلت شعوب ،
وتقوّضت صروح ؛ وعزير مُلقى في مكانه جسداً بلا روح ؛ وعظامه ممزقة

(٥) سورة البقرة : ٢٥٩ ، سورة التوبة : ٣٠ .

(١) متملياً : متمتعا . (٢) شيات : علامات . (٣) عدواء الدار : بعدها .

(٤) أسحم : سحاب . (٥) مجرّمات : كاملات .

الأوصال ، مهشمة المفاصل ؛ حتى أذن الله أن يفصل في قضية حار الناس في أمرها ، واستعجم عليهم طريقها ، واختلفوا في تقريرها بحكم يلتمسونه بأيديهم ، أو يقع تحت حسهم وأبصارهم ؛ فجمع عظامه ، وسوى خلقه ، ونفخ فيه من روحه ، فإذا هو قائم مكتمل الخلق ، شديد البضعة ^(١) ؛ وإذا هو مُعزير يقوم كأنه منتدبة من نومه ، يبحث عن حماره ، ويفتش عن طعامه وشرابه !

وجاء المَلَكُ يسأله : أتظن كم لبثت في رَقَدَتِكَ يا عزير ؟ قال - ولم يُرو ولم يفكر : لبثت يوماً أو بعض يوم ! قال : بل لبثت مائة عام تسكن هذه الأحداث ، ويجودك الظل ^(٢) ، وتمضب ^(٣) عليك السماء ؛ وتمر عليك السافيات الذاريات ^(٤) ، ومع هذه السنين الطويلة والأزمان المتعاقبة ، فإن طعامك مازال سليماً ، وشرابك لم يتغير ؛ ولكن انظر إلى حمارك تراه مُفَرَّقَ العظام ، مُتَفَصِّص ^(٥) الأعصاب ، والله - جل شأنه - سَيُريكَ هذه العظام ، كيف ينشرها ويحييها ، ويبعث الحياة فيها ؛ لتطمئن نفسك بالبعث ، ويزداد إيمانك بيوم المعاد ، وليجعلك آية للناس تخرجهم من حنَادِس ^(٦) الشك ، وتوضح لهم ما استعجم عليهم من مذاهب الإيمان .

وتلفت عزير ؛ فإذا حماره بأشراطه ^(٧) وسماته ، قائم على أربع ، تجري فيه شرايين الحياة ! فقال : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

وأخذ حماره ، وشرع يتعرف الطريق إلى بيته ؛ وقد تبدلت المعالم ، وتحولت المنازل ، وبدأ يسترجع ماضيه كأنه يتذكر في حلم بعيد ... حتى انتهى إلى منزله ؛

(١) البضعة : القطعة من اللحم . (٢) الظل : المطر الخفيف (٣) تمضب : تقطر .

(٤) السافيات الذاريات : الرياح . (٥) المتفصص : المنفصل .

(٦) الحنَادِس : الظلمات . (٧) بأشراطه : بعلاماته .

فإذا عجوز ذَوَى عودُها ، ووَهَنَ عمودُها ؛ ولكنّها لا تزال باقية على تناسخ
الملوك^(١) ، وتعاقب الجديدين ، وقد عَشَى بصرها . كانت هذه أُمّةٌ التي خلفها
في ربيع حياتها ، ورَبَقَ^(٢) شبابها .

سألها : أهذا منزل عُزير ؟ قالت : نعم ، هذا منزل عُزير ؛ وَخَنَقَتِهَا العَبْرَةُ ،
ثم جادت عيناها بدمع هَنُونٍ ، وقالت : لقد ذهب عُزير ؛ ونسيه الناسُ ، وما
رأيت من حقبة بعيدة مَنْ ذَكَرَ عُزيراً إلا الآن !

قال : أنا عُزير ؛ أُمَاتَنِي اللهُ مائة عام ، وها قد بعثني إلى الوجود ، ورَدَّنِي إلى
الحياة ؛ فاضطرب أَمْرُ العجوز ، وأنكرت عليه بادئ الرأى دَعْوَاهُ ، ثم قالت :
إن عُزيراً كان رجلاً صالحاً ، مستجاب الدعوة ؛ مات طائِباً أمراً إلا تَقَبَّلَ مِنْهُ
اللهُ ، ولا تشفع له في مريض إلا شفاهُ ، فادعُ الله أن يُصَحِّحَ جسمي ، ويرد
بصري . فدعا الله ، فإذا هي ذات بصر حديد ، ووجه وضيء ! فقَبَّلَتْ يديه
ورجليه ، ثم ذهبت من ساعتها إلى القوم من بني إسرائيل ، وفيهم أبناؤه وأحفاده ،
منهم من بلغ الثمانين ، ومنهم من أخذ بعُنُقِ الخمسين ، وفيهم أترابه ، وقد برى
الدهر عظامهم ، وأبلى أبراد شبابهم ، وردَّهم^(٣) على حافرتهم . وصاحت : إن
عزيراً الذي فقدتموه منذ مائة عام قد رَدَّه اللهُ رجلاً غض الإهاب ، يَخْطِرُ في
مطارف الشباب .

وطلع عليهم عُزير رجلاً وافر المُنَّة ، مستوى الخَلْق ، شديد الأسر^(٤) ؛
فأنكروا صِفَتَهُ ، وأعظموا فِرْيَتَهُ ، ولكنهم أرادوا أن يفتنوه^(٥) بالرأى ،

(١) الملوك : الليل والنهار وكذلك الجديدان . (٢) ربق الشباب : أوله .

(٣) ردَّهم على حافرتهم ، يقال : رجع على حافرتي ؛ أى في الطريق الذي جاء منه .

أى رده بعد القوة إلى الضعف . (٤) الأسر : الخلق . (٥) يفتنوه : يمتحنوه .

وَيَمْتَحِنُوهُ بِالْبِرْهَانِ ؛ قَالَ أَحَدُ أَبْنَاءِهِ : إِنَّ لَأَبِي شَامَةً فِي كَتِفِهِ كَانَ يَتَمَيِّزُ بِهَا ،
وَيُعْرِفُ بِصِفَتِهَا . وَكَشَفُوا عَنْ كَتِفِهِ ؛ فَإِذَا الْعَلَامَةُ كَمَا عَرَفُوهَا أَبْنَاؤُهُ ، وَكَمَا سَمِعَ عَنْهَا
أَحْفَادُهُ ؛ وَلَكِنْهُمْ أَرَادُوا أَنْ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ ، وَتَسْتَيْقِنَ نَفُوسُهُمْ ، وَتَمُتَّحِيَ خِيُوطُ
الشَّكِّ مِنْ بَيْنِ جَوَانِحِهِمْ ، فَقَالَ كَبِيرُ مِنْهُمْ : لَقَدْ مُحَدِّثْنَا أَنَّهُ مِنْذُ زَحَفَ بِخَتْمِهِ عَلَى
بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، وَمِنْ وَقْتُ أَنَّ أَحْرَقَ التَّوْرَةَ ، لَمْ يَكُنْ عَلَى الْأَرْضِ مَنْ يَحْفَظُ
التَّوْرَةَ إِلَّا قَلِيلًا ، وَمِنْهُمْ عُزَيْرٌ ؛ فَإِنْ كُنْتَ عَزِيرًا فَاتْلُ عَلَيْنَا مَا كُنْتَ تَحْفَظُهُ مِنْهَا ،
فَقَرَأَهَا لَهُمْ لَمْ يَتْرِكْ آيَةً ، وَلَمْ يَحْرِفْ جُزْءًا ، وَلَمْ يَخْرِمْ لَفْظًا .

عِنْدَ ذَلِكَ صَاحَفُوهُ مُصَدِّقِينَ ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ مُبَارِكِينَ ، وَلَكِنْهُمْ — لَشَقَوْتُهُمْ —
بِمَا أَزْدَادُوا إِيمَانًا ، بَلْ أَزْدَادُوا كُفْرًا ؛ وَقَالُوا : ﴿عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ .

صراع بين الحق والباطل (*)

أخوان من بني إسرائيل تحذرا عن رجل واحد ، وأرضعتهما أم واحدة ، ولكنهما تباينا في طبيعتهما كما تتباين النبتة والنبته وأصلهما واحد ، والزهرة والزهرة وكُمهما متشابه ؛ فيهوذا نشأ مؤمناً بربه ، عارفاً بمقدار نفسه ، عفيفاً كريماً ، وقوراً حليماً ، أعرض عن الدنيا ومُخَدَّعها ، وغضَّ طرفه عن متاعها وزخرفها ، وقطر وس نشأ كافراً جاحداً ، شحيحاً بخيلاً ، كزّ اليدين ، غليظ الكبد ، جافى الطبع .

وجمعهما أبوهما على ثروة ضافية ، ونعمة وافية ، حتى إذا علقته حماته ، ومطويت من الحياة أيامه ، اقتسما المال والعقار ، وذهب كل منهما في إنفاقه مذهباً يؤاثر طبيعته ، وينسجم مع تميزته وهواه .

أما يهوذا فقد توجه إلى الله قائلاً : يارب ، إني سأخرج عن مالي في مرضاتك ؛ وسأبذله في طاعتك ، شكراً لنعمائك ، وطمعاً في جنتك . . . وانطلقت كفافه بالإِنفاق ؛ فأعطى العاني ^(١) ، وفكّ العاني ^(٢) ، وحمل السكل ، وبذل المعروف ، وأعان على نوائب الدهر ، حتى رَقِيتْ حاشية حاله ، وتبدّ مالُه أو كاد ، ولكن ظل دهره هادئاً الضمير ، مُرتاح الفؤاد ، قانعاً بالكفاف ، راضياً بقليل الزاد .

أما قطروس فإنه ما كاد يتسلم ماله ، حتى احتواه ، ووضع دونه المفاتيح والأغلاق ؛ ثم حرم السائل ، وتجبّه القاصد ، وأصمّ أذنيه عن أنة الفقير ،

(*) الكهف : آية ٢٣ وما بعدها .

(١) العاني : القاصد السائل (٢) العاني : الأجير (٣) السكل : اليتيم ، والثقل : لاخير فيه .

وأغْمَضَ عَيْنَيْهِ عَنْ رُؤْيَا الْمَسْكِينِ ، ثُمَّ ارْتَفَقَ حَائِطَيْنِ ^(١) أَنْفَقَ عَلَيْهِمَا أَيَّامَ عُمْرِهِ ، وَأَرَاقَ فِيهِمَا مَاءَ شَبَابِهِ ؛ أَنْبَتَهُمَا كَرَمًا فَأَوْرَقَا وَأَثْمَرَا ، وَامْتَدَّ عَرُشُهُمَا ، وَأَوْرَقَ ظِلُّهُمَا ، ثُمَّ اتَّخَذَ بَيْنَهُمَا طَرِيقًا عَبَّدَهَا وَمَهَّدَهَا ، وَأَجْرَى بَيْنَهُمَا الْمَاءَ ، وَحَاطَهُمَا بِالنَّخِيلِ ، فَكَانَ رَأْيُهُمَا يَحْسَبُ أَنَّ جَنَّةَ الْخُلَدِ قَدْ نَزَلَتْ إِلَى الْأَرْضِ فِي أَهْلِهَا ، وَأَنْفُسُ حُلَاكَاهَا : رُبْعُ خَصِيبٍ ، وَثَمَرُ قَرِيبٍ ، وَوَرَقُ نَضِرٍ ، وَمَاءُ خَصِرٍ ^(٢) ، وَزَهْرُ يَنْفَجٍ ، وَوُرْقُ تَصْدَحٍ ، حَتَّى أَضْحَتَا نِزْهَةً السَّمْعِ ، وَفَتْنَةً الْبَصَرِ .

ثُمَّ بَسَطَ اللَّهُ فِي رِزْقِهِ ، وَزَادَ فِي مَالِهِ ، وَبَارَكَ فِي ثَمَرِهِ ، وَرَزَقَهُ بَنِينَ وَأَوْلَادًا ، زَادُوا فِي مَظَاهِرِ نِعْمَتِهِ ، وَرَفَاهِيَةِ عَيْشَتِهِ .

وَتِلْكَ النِّعْمَةُ الَّتِي ظَلَّ يَمْرَحُ فِي أُبْرَادِهَا ، وَيَتَقَلَّبُ عَلَى جَنَابَاتِهَا كَانَ خَلِيقًا بِهِ أَنْ يَتَدَبَّرَ صَانِعَهَا وَتَجَسَّسَ بِهَا ، وَمَانِحَهَا وَمُعْطِيَهَا ؛ فَيُؤْمِنُ وَيُشْكُرُ ، وَيُذْنَعُ وَيُحْمَدُ ؛ وَلَكِنْ فَرِيقًا مِنَ النَّاسِ تُطْغِيهِمُ النِّعْمَةُ ، وَيَغْشَى عَلَى بَصَائِرِهِمُ النِّعَمَ ، وَيُظْلَمُونَ سَادِرِينَ ^(٣) فِي غُلُوءِ أَثْمِهِمْ ، مَعْنِينَ فِي إِغْفَالِهِمْ ، حَتَّى يَقْرَعَ عَلَيْهِمُ الدَّهْرُ بِنَابِهِ ، فَيَذَا الْغَشَاوَهُ تَرْتَفِعُ ، وَالْحُجُبُ تَتَمَزَّقُ .

وَكَذَلِكَ كَانَ قَطْرُوسَ ، وَمَا أَزْدَادَ عَلَى نِعْمَةِ اللَّهِ إِلَّا كُفْرَانًا ، وَمَا أَثْمَرَتْ عِنْدَهُ إِلَّا طُغْيَانًا .

مَرَّ عَلَيْهِ أَخُوهُ فِي مُخْلَقَاتِهِ ^(٤) الْمُرْقَعَةِ ، وَأَسْمَاةُ الْبَالِيَةِ ، فَاقْتَحَمَهُ بِعَيْنِهِ . وَازْدَرَاهُ فِي نَفْسِهِ ، وَنَالَ مِنْهُ بِقَارِصِ قَوْلِهِ :

أَيْنَ مَالِكَ وَنَشَبُكَ ؟ أَيْنَ فَضْتِكَ وَذَهَبِكَ ؟ لَشْتَانِ مَا بَيْنِي وَبَيْنِكَ ! أَنْتَ رَقِيقٌ

(١) ارتفع : انتفع . والحائط : البستان . (٢) خصر : بارد .

(٣) السادر : لذي لا يهتم ولا يبالي ما صنع . والغلواء : شرة الشباب .

(٤) خلقتان : جمع خلق ، وهو الثوب البالي .

الحال ممزق السَّرْبَال ، فاقد الأعوان ، قليل الإخوان ؛ وأما أنا فكما ترانى : فى
 بِلَهْنِيَّة عيش ، وخَفْض أيام ؛ ولى مالٌ وبنون ، وخدم وأعوان . تعال ادخل
 إلى جَنَّتِي ، تَر الكروم المهدلة ^(١) ، والأعواد المخضرة ، والمياه المتفجرة ، والظل
 الوارف ، والغُصن العاطف ، والثر الدانى القُطوف ؛ ثم انظر إلى هذه الثمار ،
 إنها ترَبو فى كل عام ، وتنتج وافراً فى كل أوان ، هو خيرٌ دائماً ماأظنه يَنفَد ،
 وثوبٌ من النعمة ما أراه يَبْلى .

أما الساعة التى تَرُجُف دائماً بقيامها ، والبعث الذى ما برحت تلهجُ بوقوعه
 وضرورة حصوله ، فما أحسبه قولاً مفهوماً ، أو سائغاً معقولاً ، على أنى لوجريت
 فى عِنان فكرك ، وخضعتُ لمفهوم قولك ، فإنى لا بد واجد عند الله خيراً من
 هذه الجنة ، وأكرم من هذه الثمار ؛ ألا تراه قد آثرنى فى دنياى بالخير ! فما يمنعُ
 عنده أن يؤثرنى فى آخرتى بما هو أكرم عنده ، وأحسن لديه !

قال يهوذا : إنك لتكفر بالله ؛ إذ تُنكر عليه أن يبعثك ، أو يحييك بعد
 موتك فيحاسبك ، أفمن خلق الإنسان من سُلالةٍ من طين ، ثم جعله نطفةً فى قرار
 مكين ، ثم أحال النطفةَ علقةً ، ثم صَيَّرَ العلقةَ مُضغَةً ، ثم جعل المضغةَ عظاماً ،
 ثم كَسَا العظام لحماً ، ثم أصبح بعد ذلك إنساناً ، عجيب الأسرار ... أفمن مرّت
 به أدوارُ حياته على هذا النحو ، يَعْجزُ خالقُهُ أن يبعثه من مرقده ، أو ينشره
 بعد موته ؟ لا ، بل إن ذلك أهونٌ عليه ، وأقربُ لديه ؛ ولكن على قلبك

غلاف ، وفي سمعك وقّر^(١) . وعلى عقلك حجاب : فاشتبه عليك الأمر ، وتدّ عنك الصواب .

ثم تعيّرني بالفقر ، وتكاثرنى بالمال^(٢) ، وأنا فى فقرى أغنى منك فى غناك ، فليست الثروة بما تحرز من مال ، أو تحويه من مستغلات وعقار ، مما تشغل به دائماً نفسك ، ويتعلق به أملك ؛ بل الثروة إنما تقدر بقدر ما تزهد فيه من حاج ، أو تستغنى عنه من متاع وزخرف ؛ وإن تلك الجواهر التى تفخرُ بها ، وتكاثرنى على حسابها ، لا تعدو أن تكون فى نظرى حصى يتألق ، أو آلاء^(٣) يلج ؛ وذلك البستان المونق المعجب ، لا يجاوز فى تقديرى عُشباً يطلع فى الأرض ينمو ويتزعزع ، ثم يئسبس ويصبح هشيماً^(٤) تذوره الرياح ؛ وذلك النفر الذين تعتدّ بهم ليسوا إلا أعواناً لك على الشر ، يطغونك ويفتنونك ، أما أنا فحسبى بالله نصيراً ووكيلاً .

والنعمة كل النعمة عندي أن أجد الكفاف حاضراً ، والصحة فارهة ، وأن أكون آمناً فى سرّى ، خارجاً من سلطان ما بينى وبين الناس ، ولأنّ أجوع يوماً فأدعو الله ، وأشبع يوماً فأحمده وأشكره ، خير لى من هذا المسال الذى قد يُبطلنى ويظلمنى ، كما أبطرك وأطغاك ، وعسى ربى - كفاء لما صبرت على قضائه ، وما أنفقت من مالى على فقرائه - أن يكون قد أعدّ لى جنّة خيراً من جنتك ، ونعيماً مقيماً خيراً من نعيمك .

(١) الوقر : الثقل فى الأذن .

(٢) تكاثرنى : تريد أن تغلبنى بكثرة المال .

(٣) الآل : السراب . (٤) الهشيم : اليابس المتكسر من الثبات .

أما جَنَّتَاكَ هَاتَانِ فَقَدْ لَا تَأْمَنُ عَلَيْهِمَا عَوَادَى الْعَوَاصِفِ ، أَوْ تَقْلَابِ
الْأَنْوَاءِ ^(١) ، فَإِذَا الْأَوْرَاقُ جَافَتْ ، وَالْكُرُومُ كَعَصَفِ ^(٢) عَلَى الْأَرْضِ مَا كَوَّلَ ؛
وَهَذَا الْمَاءُ النَّصِيرُ الَّذِي يَجْرِي سَلْسَلًا بَيْنَهُمَا ، فَيُبْعَثُ الْحَيَاةَ ، وَيَنْشُرُ الْمَوَاتَ ،
قَدْ يَغُورُ فِي أَعْمَاقِ الْأَرْضِ فَتَتَطَلَّبُهُ بِكُلِّ حِيلَةٍ ، وَتَحْتَالُ لاسْتِنْبَاطِهِ بِكُلِّ سَبِيلٍ ،
فَإِذَا هُوَ أَعَزُّ عَلَيْكَ مِنْ بَيَاضِ الْأَنْوَقِ ^(٣) .

وَفَرَّغَ يَهُودَا مِنْ قَوْلِهِ ، ثُمَّ تَرَكَ أَخَاهُ يَعْجَبُ بِبَيْسَتَانِهِ ، وَيَمْرَحُ بَيْنَ أَزْهَارِهِ وَنَوَّارِهِ .
وَأَصْبَحَ قَطْرُوسٌ يَوْمًا ، وَذَهَبَ كَعَادَتِهِ إِلَى جَنَّتَيْهِ يَسْتَرْوِحُ - كَمَا اعْتَادَ - النَّسِيمَ ،
وَيَتَفَيَّأُ ظِلَالِ الْكُرُومِ ؛ فَمَا رَآهُ إِلَّا أَنْ رَأَاهُمَا أَطْلَالًا بَالِيَةً ، وَرَسُومًا عَافِيَةً ،
وَنَبْتًا مَصُوحًا ^(٤) ، وَعَرُوشًا مَحْطُمَةً ، وَأَعْوَادًا مَلْقَاةً .

جَفَّ حَلْقُهُ ، وَغَضَّ بِرَيْقِهِ ، وَتَسَاقَطَتْ خَوَافِيهِ وَقَوَادِمُهُ ؛ ثُمَّ ذَلَّتْ
أَخَادِعُهُ ^(٥) ، وَلَانَ بَعْدَ جَمَاحِهِ ، وَدَانَ بَعْدَ طِمَاحِهِ ، وَأَخَذَ يَقْلِبُ كَفِيهِ حَسْرَةً عَلَى
مَا أَنْفَقَ ، وَيَقُولُ : ﴿ يَا لَيْتَنِي لَيْسَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ .

(١) النَّوَاءُ : سَقُوطُ نَجْمٍ مِنَ الْمَنَازِلِ فِي الْمَغْرِبِ مَعَ الْفَجْرِ وَطُلُوعِ آخِرِ مِنَ الْمَشْرِقِ
يُقَابِلُهُ مِنْ سَاعَتِهِ فِي كُلِّ ثَلَاثَةِ عَشْرِ يَوْمًا ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَصْنِفُ الْأَمْطَارَ وَالرِّيَّاحَ وَالْحَرَّ
وَالْبَرْدَ إِلَى السَّاقَطِ مِنْهَا (٢) الْعَصَفُ : الْوَرَقُ الْجَدَافُ .

(٣) الْأَنْوَقُ : طَائِرٌ يَخْفَى بَيْضُهُ فَلَا يَكَادُ يَظْفَرُ بِهِ أَحَدٌ (٤) مَصُوحًا : يَابِسًا .

(٥) ذَلَّتْ أَخَادِعُهُ : اسْتَكْثَانَ .

أصحاب الجنة (*)

تنفس الصباح ؛ وهبت نسائمه هينة ناعمة ؛ وأقبل الشيخ ^(١) وثيد الخطو ،
مبهور ^(٢) النفس ، أحنت ظهره السنون ، وألان قناته الإصباح والإمساء ، ولم
يكد حاجب الشمس يبدو حتى كان يدُق بعصاه باب حديقته في ضروان ^(٣) .

وكانت حديقة الشيخ جنة دائية القطوف ، فواحة الزهر ، قد رقت حواشيها ،
وتألق واشيها ، وجرى الماء في جداولها عذبا سلسالا ، وتنقل النسيم بين خمائنها
بليلا دانيا ، وعلى بساطها نشر الربيع حلله ومطارفه ، وحاك أزهاره وأنواره ؛
وفيما وراء ذلك أشجار موقرة بالثمار ، وبقلّ وأعنان وزرع ونخيل ، صنوان وغير
صنوان ؛ فغدت مُتعة الناظر ، ونزهة الخاطر ، واتخذها الناسُ مثابة وأُمنّا ، لهم
تحت أشجارها ظلٌّ ومَقِيل ، وبين أفيائها سمر وحديث .

ودار الشيخ في جنباتها ، وتنقل بين زرابيها وأنماطها ؛ فنشق من شذا
الآزاهير ، وامتألت عينه بداني الثمار ، وأصغت أذناه إلى تغريد البلابل وتطريب
الآطيّار ؛ ثم ذهب إلى مُصلاه فسجد شاكرًا لله أنعمه ، راغبًا إليه أن يحنّبه
طغيان الغنى ، وأن يُنثّيه عن فتنة الدنيا ووسوسة الشيطان .

وتلك كانت عادة الشيخ مُصَبِّح ^(٤) كل نهار ، ثم يتعاقب الجديدان ^(٥) ،
وتتوالى عشياتٌ وأصائل ، حتى يرى الجنة قد آتت أكلها ، وأذن حصادها ؛
فيدعو البستاني وأعوانه ، ويعملون المناجل ، ويقطفون الثمار ؛ ثم يفيد إليه

(*) سورة القلم : ١٧ - ٣٣

(١) ذكر ابن كثير أنه من بني إسرائيل . (٢) البهر : تتابع النفس . (٣) من

قرى اليمن . (٤) مصبح النهار : صباح النهار . (٥) الجديدان : الليل والنهار .

جماعاتُ الفقراء على ماعودهم من كل عام ، فيعطونهم نصيبهم وافرا ؛ هذا يملأ مِكتَلَه ، وذلك يحمل في ثيابه ، ولهم بعد ذلك ما أخطأه المنجل ، وما تركه الحاصد ، وما تناثر بين الأشجار رزقا حلالا طيباً ؛ وجرى على هذا في كل عام .

لم يُطق أبناء الشيخ صبراً : أن رأوا مال أبيهم موزعا بين الفقراء ، وبستانه مستباحاً للمساكين ، وأنهم والعافين والسائلين سواء ؛ بل ربما كان هؤلاء أحسن منهم حالا ، وأكثر بالجنة استمتاعاً .

قال قائل منهم : إنك يا أبي بما تنفق على الفقراء وتعطى ، وما تخصصهم به من يذل ورفد ، لتبخسنا حقنا ، وتضيق علينا في رزقنا .

وقال غيره : وإنك يا أبت لو مَضيت في شأنك هذا فإنك سوف لا تُبقي مالا ولا تشبها ، وسوف لا تخلف ضرعاً ولا ثمرا ؛ وسنغدو بعدك فقراء نمد الأيدي ونتكفف الناس .

وهمَّ ثالث بالكلام ، فأشار إليه بالصمت ، وأدار عينيه في وجوه الجميع وقال : ما أراكم إلا خاطئين في الوهم والتقدير ؛ ما هذا المال الذي تريدون أن تتحكموا فيه وتستأثروا به ! ليس المال مالى أو مالكم ؛ وهذا البستان ليس فى حوزتى أو حوزتكم ؛ إنما هو مالُ الله مَكَّننى فيه وآمنى عليه ، على أن أنفقه فى أَكْرَم وجوهه وأنفعها لخالقه ؛ فللفقراء والمساكين حقُّهم ، ولأبناء السبيل والعافين نصيبُهم ، وللطيور والبهائم طعامُها ، وما فَضَّل بعد ذلك فهو لى ولكم ؛ ذلك ما فعلته وعَوَّدته الفقراء وأنفدت فيه حكم الله ، والمال بهذا يزكو ^(١) ، وعلى هذا النحو من الإنفاق يزيد ، وتلك خطة درجت عليها شاباتا طيريرا ^(٢) ، والتزمتها رجلا كهلا ؛ فكيف بى أن أتركها اليوم شيخاً همَّافيا !

(١) يزكو : يزيد . (٢) يقال : طر شاربه ؛ أى نبت .

على رسلكم^(١) ، فها أنتم أولاء ترون شَرى قد اشتبه ، وجسمى قد نحل ،
وعودى قد كوى . والأسقام قد أخذت سبيلها إلى ، وإن ألثت إلا قليلا حتى ألقى
الله ، وإنكم سترثون البستان والمال والنَّعم والشاء ، وأنتم بين خطتين : إن أنفقتم فإن
الله وَعَد مُنْفَقا خلفاً ، وإن بخلتم فإن الله أَنْذَرُ مُبْسِكا تلفاً ، وله فيكم أمر هو بالغه .

ولم يمكث الشيخ طويلا حتى لَزِمته العلة ، وألحَّ عليه السقم ؛ ثم لفظ آخر
أنفاسه ، وفرغ من شؤون الناس والحياة .

ومضت الأيام سراعاً ، وتهايت الحديقة للجنس ، ودنت أثمارها للقطوف ،
واستشرف الفقراء لنصيبيهم في الثمر : دأبهم في كل عام .

واجتمع الأبناء يديرون الرأي ، ويهدئون شأنهم للحصيد ؛ قال قائلهم : لم يمد
بعد اليوم في البستان حق لسائل أو فقير ، ولم تصبح الخائل مأوى لقاصد أو ابن
سبيل ؛ ولكل نصيبه يثمره إذا شاء ، ويخزن منه ما يشاء . إننا لو فعلنا ذلك فإن
شأننا سيعلو ، ومالنا سيزيد .

قال أوسطهم - وكان أقرب إلى أبيه نحيزة^(٢) وجيلة ؛ وأدنى إلى الخير واصطناع
الجميل : إنكم تقدمون على أمر تظنون خيراً لكم ، ولكنه يحوى الشر في طياته ؛
وتحسبونه نفعاً لكم ، ولكنه سيقضى على بستانكم من جذوره . إنكم لو حرمت
الفقراء ، وعطلتم حق المساكين ، لا تأمنون منهم شراً واعتداءً ، ويوشك - لو فعلتم -
أن يعلنوها ثورةً وعدواناً ؛ امنحوهم حقهم ، واذهبوا مذْهب أيكم في إرضائهم ؛
وما فضل بعد ذلك فإن الله ينميه ، ويبارك فيه .

ولكنهم صاحوا في وجهه : لا تقترح شيئاً فيما لا تملك ، وكُفَّ عن نصائحك ،
ولن تجد منا إلا آذاناً صماء !

قال : أما إذ رأيتم ألا تسمعوا لقولى ، أو ترغبوا فى نصيحى ، فعليكم بالصلاة فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وقد تردكم إلى الحق ، وتعطف قلوبكم إلى الفقراء ؛ ولكنهم ما استمعوا ولا أجابوا .

ويَتَوَّأ أمرهم عشاء أن يقوموا فى عَمَايَةِ (١) الصبح ، وقيل أن ينبلج عمومُ النهار ، ويفارق النوم مضاجع الفقراء ، ويعمدوا إلى الحديقة يقطفون ثمارها ، ويوزعون فيما بينهم أنصباءهم منها ، وَ ﴿ أَقْسَمُوا لِيَصْرُ مِنْهَا (٢) مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَشْنُونَ ﴾ .

وعلم الله سوء نيتهم ، ودخيلة نفوسهم ، وما انعقد عليه رأيهم من حرمان المسكين ، وأكل نصيب السائل والمحروم ، فأرسل إلى جنتهم طائفا (٣) قلع بُنْتَا ، وأسقط ثمرها ، وجفف أوراقها وأعوادها .

وطلع عليهم النار وهم على أسوار الحديقة يتساءلون : أهذه جنتنا ، وقد تركناها بالأمس مُورِقَةً الشجر ، جارية الماء ، فوَاحَةِ الزهر ، دانية القطوف ! ما نظن أن هذه حديقتنا ، وإننا لضالون .

قال أوسطهم : بل هى جنتكم حُرِّمَتْ منها قبل أن يحرم الفقير ، وجوزيتم بأسوأ ما يجزى لِحِزِّ شَيْخٍ ؟ ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ . قَالُوا : سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْهُمْ ، قَالُوا : يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ .

ولكن مَضَى قدر ، وبقي أسف ، وليذوقوا عاقبة كيدهم . ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ، وَلَئِنَّ ذَابَّ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

(١) عَمَايَةِ الصبح : أوله . (٢) ليصر منها : ليقطعها . (٣) الطائف : البلاء .

أيوب (*)

تشقق الحديث بين ملائكة الله عن الخلق وعبادتهم ، ومعصيتهم أو طاعتهم ؛ قال قائل منهم : ما على الأرض اليوم خيرٌ من أيوب ؛ إنه مؤمن قانت ، ساجد صابد ، بسط الله في رزقه ، وأنساً ^(١) في أجله ، وفي ماله حق معلوم للسائل والمحروم ؛ وأيامه عبادة لربه ، وشكرٌ لنعمائه ، وعبادته حجة على الأغنياء والمترفين من خلقه ؛ فكلهم ظاهراً قوله ، وصدق دعواه .

سمع إبليس قائلتهم ، ولم يكن محجوباً عنهم ، أو بعيداً عن ساحتهم ، فسأه أن يكونَ رجل في الأرض يعبدُ الله كما يعبدُه أيوب ، وهمته في الأرض إغوائه للصالح وإفسادُ المؤمنين ، ووسوسة للطائع المذعن ؛ تخفّ إليه يغويه أو يضلّه ، فوجده امرأ يُمَرِّح في مطارف النعمة ، ويجول في حقول الثراء ، ولكنه لم يُبَيِّطْهُ الغنى ، ولم يغوه المال ، فهو أبداً لاهجٌ بذكر ربه ، بَرٌّ بأهله ، حَرِيْبٌ عاطف على عبيده وخدمه ، يُطْعِمُ الجائع ، ويكسو العارى ، ويفك العاني ^(٢) ، ويبسط وجهه للعاني ^(٣) ؛ ثم هو يرد الظالم ، ويعلم الجاهل ، وينشر العلم والمعرفة بين الناس .

فحاول أن يقترب من قلبه ، أو يوسوس إليه وراء أذنه ، وأن يُزَيِّنَ له الدنيا ومجاليها ، وأن يزهد في العبادة وما فيها ، ولكنه وجد أذناً صمّاً عن الخنا ، وقلبا أغلف عن الهوى ؛ وجده من عباد الله المخلصين ، الذين ليس له عليهم سلطان ؛ فكثرته ما رأى ، وحزبه ما لقي من أيوب ، ثم رجع إلى الله ، ووقف منه الموقف الذي كان يقفه منه من قبل أن يطرده من رحمته ، ويقصيه عن سُدَّتِهِ ، وقال :

(*) ص : ٤١ - ٤٤ . الانبياء ٨٣ و ٨٤ . الانعام ٨٤

(١) أنساً : آخر . (٢) العاني : الأسير . (٣) العاني : طالب العطاء .

يأرب : عبدك أيوب الذى يعبدك ويقدرُك ، ويهتِفُ قلبه بذكرك ، ويلهج لسانه بتسبيحك ، ما يعبدك تطوعاً من نفسه ، ولا نافلة من عنده ، إنما يعبدك ثمناً لما منحتَه من مال وبنين ، وما أسبغته عليه من ثروة وعقار ، وطعماً فى أن تُبقى له ماله ، وتحفظَ له دنياه : ألوف من الغنم والإبل ، ومئات من الأتُن والبقر ، وعديد من الفدادين ^(١) والعبيد ، وبنون وبنات ، وأرض عريضة ، وحقول خصيبة . أليست هذه النعم جديرةً بأن تعينه على شكرك ، وأن تحمله على عبادتك ؛ خشية أن يمسه الزوال ، أو يصيبها الفناء ! فعبادته مشوبة بالرغبة والرغبة ، مشربة بالخوف والطمع . انزع منه هذه النعمة ؛ وجرده من هذه الثراء ؛ فإنك تراه وقد خرّس لسانه عن ذكرك ، وأعرض قلبه عن طاعتك .

قال الله تعالى : إن أيوبَ عبد مؤمن خالص الإيمان ، لا يعبدنى إلا لما يراه من حق العباداة ؛ ولا يذكرنى إلا لما يعرفه من حق الذكر ؛ ذكر وعبادة مجردان عن حب الدنيا ، بريئان من المطامع والأغراض .

ولكن ، ليكون أيوب قتبساً وهاجاً فى الإيمان ، ومثلاً عالياً فى الصبر واليقين - قد أبحثك ماله وعقاره ؛ اجمع لهما جنودك وأعوانك ، وشيعتك وحزبك ، وافعلوا بهما ما تريدون ، ثم انظروا إلى ما تنتهون .

فنكص إبليس على أعقابيه ، وراح يجمع الشياطين من شيعته وأوليائه ، وأوحى إليهم أن الله قد رخص له فى مال أيوب ، يذهب به ويفنيه ، وأنه يطمع فى أوليائه أن يصنع كل منهم فى الإهلاك نصيبه ، ليعود أيوب مجرداً من ماله ؛ ثم يرجع بعد ذلك سليماً من إيمانه .

(١) الفدادين : جمع فدان ، والفدان : الثور أو الثوران يقرنان للحرث بينهما .

فانطلقت الشياطين ، وفعلت أفاعيلها ؛ حتى أتت على الغنم والإبل ، والآتن ،
والعبيد ، والناطق والصامت ، والأخضر واليابس ؛ وأصبح بعدها أيوب فارغ
اليدين صفر الراحتين .

أما إبليس فتمثل لأيوب رجلاً هماً^(١) حكيماً مجرباً . وقال له : إن النار قد
أنت على ثروتك من قنواعدها ، وقد هلك الزرع والضرع ، وذهب المال
والنَّسَب ؛ ووقف الناس أمام هذا واجهين مبهوتين ؛ من قائل يقول : إن أيوب
ما كان إلا في غرور من عبادته ، وضلال من زكاته وصلاته . وآخر يقول : لو أن
الله استطاع دفع شر وجلب خير لكان أيوب أولى بذلك وأجدر . ومن آخر
يقول : إن الله لم يفعل ما أراد إلا ليثبت به عدوه ، أو يفتح فيه صديقه .

وظن بما ألقاه من خبير فاجع ، ونبأ مروع ، أنه سيزحزح من إيمانه . أو
يفسد من جنانه ؛ ولكن أيوب كان أقوى إيماناً وأشدَّ إزعاجاً ، وأعمراً بالتقوى
قلباً ، وأحكم ما يكون رأياً ولُبّاً . قال : عارية لله استردها ، ووديعة كانت عندنا
فأخذها ؛ نعمنا بها دهرآ ؛ فالحمد لله على ما أنعم ؛ وسلبنا إياها اليوم ؛ فله الحمد
مُعْطياً وسالماً ، راضياً وساخطاً ، نافعاً وضاراً ، هو مالك الملك ، يؤتي الملك من
يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ؛ ثم خر لله
ساجداً وترك إبليس خزيان ينظر !

ولكن إبليس رجع إلى الله يحاول أن يحوِّك للشر ثوباً جديداً ، ويذسج
للإغواء رداءً قشيباً ، وقال : يارب ؛ إن أيوب وإن كان لم يقابل النعمة إلا بالحمد ،
والمصيبة إلا بالصبر ، فليس ذلك إلا اعتداداً بمن يعتز بهم من أولاد ، وأنه يطمع

أن يشتد بهم ظهره ، ويشتد عضده ، فيرد إليه ما ذهب من ماله ، ويرجع ما فقد من ثروته وعقاره ؛ وإن سلطتني على أولاده أفعل بهم ما يكره ؛ فأنا موقن أن أيوب سيصير أشد ما يكون كفراً وجحوداً ، وأعظم ما أرجو منه جهلاً وعناداً ؛ فلا أشد من فتنة الولد ، ولا أحفظ للنفس من الفجعة فيهم .

فأجاب الله قائلاً : لقد سلطتك على ولده . ولكنك سوف لا تنقص ذرة من إيمانه ، أو تذهب بقطرة من صبره وعزمه .

انصرف إبليس ، ودعا إليه شيعته وحزبه ، وذهبوا إلى حيث يقيم ولد أيوب في قصر كمشيد ، بين نعمة ضافية ، وبلهنية من العيش سابغة ؛ فزلزل قصرهم ، حتى تصدع بنيانه ، ووقعت حيطانه ، وأصيبوا جميعهم ، وفنوا عن آخرهم .

ولما بلغ إبليس ما أراد ، ذهب إلى أيوب متمثلاً في رجل ينعم ؛ وقال له : لو رأيت أولادك اليوم قتلى مضرّجين ؛ هذا مجروح ، وذاك مشدوخ ، لعلمت أن الله لم يكافئك بعبادتك ، ولم يرعك حق رعايتك .

فاستعبر وبكى ، ولكنه قال : الله أعطى ، والله أخذ ، فله الحمد مُعطيّاً وسالماً ، ساخطاً وراضياً ، نافعاً وضاراً ؛ ثم خر لله ساجداً . وترك إبليس يكاد يتميّز من الغيظ ، ويتمزّع من الحنق .

ثم رجع إبليس إلى الله يقول : يارب ؛ لقد ذهب المال عن أيوب . وفنى الولد ؛ ولكنه لا يزال في عافية من بدنه ، وصحة من جسمه ؛ وإنه ليعبدك ، أملاً في أن يعود المال ويردّ الولد ، ولكن سلطتني على جسمه ، ورخص لي في أن أنال من عافيته ؛ وأنا زعيم أنه لو مسه الداء ، وأنهم السقيم ، وأدنفه المرض أن

يُهمل عبادتك ، ويخلع ثوب طاعتك ، ويشغل بأسقامه عن ذكرك .

فأراد الله أن يجعل من أيوب عبداً مؤمناً ، صابراً شاكراً ، تكون قصته عبرةً للصائين ، وعزاءً للكرويين ، وسأوى للرضى والمجروحين ، وليكون أيوب على الدهر المعلم الأول للصبر ، والمثل العالى فى الإيمان ، ويرفع فى الدنيا ذكره ، ويُعلّى فى الآخرة مقامه - فقال إبليس : لقد سلطتك على جسده ، ولكن حذار أن تقترب من رُوحه ولسانه ، وعقله وجنانه ، فإن فيها سرّاً إيمانه ، ومظهر دينه وعرفانه .

فذهب إبليس فى كيدِهِ ، ونفخ فى أيوب ، فاستحال سقيماً مريضاً ، مُذنباً عليلاً ؛ ولكنه ما ازداد إلا إيماناً ، وما اذرع إلا صبراً وحزماً ؛ وكلما ألحَّ عليه الداء ، وتخوّنه ^(١) السقم ازداد شكره واذعانه ؛ وتقوّى إيمانه ويقينه .

ومرت الأيام ، وتحدرت الأعوام ، وأيوب لا يزال على شكاته ، حتى هزل جسمه ، وذهب لحمه ، وأصبح منقوفاً ^(٢) الوجه ، شاحب اللون ، لا يَقْرُء على فراشه من الألم ؛ ففزع عنه الصديق ، وجانبه الرفيق ، ورغبت عنه شيعته ومن حوله ، إلا زوجه الرءوم العطوف ؛ فإنها تحنّنت عليه ما وسع قلبها الحنان ، وعُنيّت به ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، ورقت عليه بجناحيها ، وبسطت له أكناف قلبها ، وما شككت إلا هموماً تُساورها من آلامه ، ومخاوف تحذرُها على حياته ؛ ولكنها ظلت أيام مرضه حامدة راضية ، مؤمنة محتسبة .

أما إبليس فقد أعياه أمر أيوب ، وشق عليه ما رآه من إيمانه ويقينه ، وأهمه

(١) تخونه السقم : أصابه (٢) منقوف الوجه : ضامره .

ما صادف من الإخفاق ؛ فجمع أعوانه مرة أخرى ، وشكوا إليهم ما امتنع عليه من أيوب ، وما يستلزم به من إيمان وصبر ، بعد أن سلط على ماله وولده ، فلم يزد إلا إيماناً وشكراً ، وبعد أن سلط على جسده فمسا فتر لسانه عن ذكر الله ، وما تزعزع قلبه عن الإيمان بالله .

فقالوا له : أين مكرُك وحيلُك ، وتسلطُك في الوسوسة ، وحسن تأتُّيك في الإغواء ! بطل كل ذلك في أيوب !

فقال أحدهم : لقد أخرجت آدم أبا البشر من الجنة ، فمن أين أتيتَه ؟ قال : أتيتَه من قبل امرأته ، فقال : فشأنك في أيوب من قبل امرأته ، قال : أصبتم الرأي ، ولم تجاوزوا الحق . وانطلق إلى امرأته ، وهي في بعض شأنها مع أيوب ، وتمثل لها رجلاً ، وقال : أين زوجك ؟ قالت : هو هذا ، عميداً وقيداً^(١) ، يتضور من الحمى ، ويتقلب مما ألح عليه من الداء ، لاهو ميت فينعى ، ولا هو حي فيرجى .

فلما سمع قولها طمع في إغوائها ؛ فأخذ يذكِّرها بما كان لزوجها في صدر شبابه ، وغضاضة إهابه من صفة وعافية ، ونعمة ضافية ؛ فأعادت لها الذكرى الأشجان ، وأثارت لديها كوا من الأحزان ؛ ثم أخذ يدركها الضجر ، وينساب إلى قلبها اليأس .

وذهبت إلى أيوب ، وقالت : حتى متى يعذبك ربك ! أين المال ؟ أين العيال ؟ أين الصديق ؟ أين الرفيق ؟ أين شبابك الذاهب ؟ أين عزك القديم ؟ قال : لقد سؤل لك الشيطانُ أمراً ؟ أتراك تبكين على عزِّ فات ، وولد مات ! فقالت : هلا دعوت الله أن يكشفَ حزنك ، ويُزيحَ بلواك ! قال : كم مكثت في الرخاء ؟

(١) عميداً : ضعيفاً . وقيداً : مشرفاً على الموت .

قالت . ثمانين . قال : كم لبثتُ في البلاءِ ! قالت : سبع سنين .

قال : أَسْتَحْي أَن أُطْلَبَ مِن اللَّهِ رَفْعَ بِلَائِي ، وَمَا قَضَيْتُ فِيهِ مَدَّةَ رِخَائِي ! !
ولكن يَخِيلُ لِي أَنَّهُ قَدْ بَدَأَ يُضْعِفُ إِيمَانَكَ ، وَيَضِيقُ بِقِضَاءِ اللَّهِ قَلْبُكَ ؛ وَلَئِنْ
بَرِئْتُ وَأَتَتَّنِي الْقُوَّةُ لِأَضْرِبَكَ مِائَةَ سَوَاطٍ ؛ وَحَرَامٌ بَعْدَ الْيَوْمِ أَنْ أَكَلَ مِنْ يَدَيْكَ
طَعَامًا أَوْ شَرَبًا ، أَوْ أَكْفَلَكَ أَمْرًا أَوْ عَنَاءً ؛ فَاعْزِ بِعَنِي ، حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا
كَانَ مَفْعُولًا .

ولَمَّا رَأَى أَيُّوبُ أَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ وَحِيدًا فَرِيدًا ، وَقَدْ اشْتَدَّتْ آلامُهُ ، وَتَضَاعَفَتْ
أَسْقَامُهُ ، فَرَزَعَ إِلَى اللَّهِ ؛ لَا مُتَسَخِّطًا وَلَا مُتَبَرِّمًا ؛ بَلْ دَاعِيًا مُتَحَنِّنًا ، وَقَالَ : يَا رَبِّ ، إِنِّي
مَسْنَى الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . وَإِلَى هَذِهِ السَّاعَةِ كَانَ أَيُّوبُ قَدْ بَلَغَ غَايَةَ الْإِيمَانِ ؛
وَصَدَّقَ لَوْسُوسَةُ الشَّيْطَانِ ، وَأَدْرَاعَ بَصِيرِ عَجِيبٍ ، وَأَحْتَمَلَ هَمًّا تَنَوَّعَ بِهِ الْجِبَالُ ، وَبَلَغَ
مَا أَرَادَ اللَّهُ لَهُ : مَنْ أَنْ يَكُونَ مِثْلًا عَالِيًا لِلصَّبْرِ ، وَرَسُولًا مِنْ رِسْلِ الْإِيمَانِ ؛ فَاسْتَجَابَ
اللَّهُ دُعَاءَهُ ، وَأَصَاخَ لَشَكْوَاهُ ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ : أَنْ أَرْكُضَ بِرِجْلِكَ يَنْفَجِرُ لَكَ نَبْعُ الْمَاءِ ،
فَاشْرَبْ مِنْهُ وَاغْتَسِلْ بِهِ ، تَعُودَ إِلَيْكَ صِحَّتُكَ ، وَتُرْجَعْ إِلَيْكَ قُوَّتُكَ ؛ فَمَا شَرِبَ وَاغْتَسَلَ
حَتَّى انْدَمَلَتْ قُرُوحُهُ ، وَبَرِئَتْ جِرُوحُهُ ؛ وَصَحَّ جَسْمُهُ ؛ وَصَالِحَ بَدَنُهُ ، وَاسْتَسَلَّ (١)
عَنْهُ الْمَرَضُ ، وَعَادَ أَكْمَلَ مَا يُرَى صِحَّةً وَعَافِيَةً .

وَكَانَتْ زَوْجُهُ قَدْ رَقَّ قَلْبُهَا لَهُ ؛ وَحَدِثَتْ عَلَيْهِ ، وَلَمْ تَطَاوِعْهَا نَفْسُهَا السَّكْرِيْمَةُ
أَنْ تَتْرَكَ وَشَأْنَهُ ، وَقَدْ لَزِمَتْهُ مِنْ أَوَّلِ مَرَضِهِ ، وَكَانَتْ مِنْ قَبْلِ قَدْ شَارَكَتَهُ فِي
نِعْمَائِهِ ، فَرَجَعَتْ إِلَيْهِ تَعَاوُدَ إِصْلَاحِ شَأْنِهِ ، وَالْقِيَامَ بِأَمْرِهِ ؛ فَرَأَتْ عَجَبًا : رَأَتْ

(١) نَسَلَ هُنَا الْمَرَضُ : ذَهَبَ عَنْهُ .

شباباً مكتمل الشباب ، غضَّ الإهاب ، مكتنز اللحم ، وافر المنَّة والقوَّة ؛ فأنكرته
 بادئَ الرأي ، ولكنها ما عرفتَه حتى عانقته ، وحمدت الله على ما رَدَّ إليه من صحَّة
 وعافية ، وهو أوفى ما يكون إيماناً و يقيناً .

ثم أوحى الله إليه أن تُخذ حُزْمَةٌ من القشِّ ، واضرب بها زوجك ضرباً
 خفيفاً رقيقاً ؛ رُخصةً لك في يمينك ، ورحمةً بهذه المخلصة المؤمنة التي احتملتك
 في مرضك وشاركتك في آلامك ؛ وجازاه الله على صبره فردَّ عليه ماله ، ورزقه
 ولداً أضعاف ولده ؛ إذ كان أيوب مثالَ العبد المؤمن الأواب (١) .

(١) أواب : ما قبل بنفسه على الله تعالى .

في نينوى ، وتحت ظلال الأصنام ، وبين حناديس الجهل والشرك ، أشعل
يونس قَبَسَ الإيمان ، وحمل علم التوحيد ، وأهاب بقومه الجاهلين : أن اَرْبُؤا
بعقولكم عن عبادة الأصنام ، وكزموا جباهكم أن تسجد لهذه الأوثان ، وتبصروا
في أنفسكم ، وأنعموا النظر فيما حولكم وما يحيط بكم ، تجدوا أن وراء هذا الكون
البديع إلهاً كبيراً ، فرداً صمداً ، جديراً بأن يختص بالعبادة ، ويُقصد وحده
بالتقديس ؛ أرسلني هدايةً لكم ، ورحمة بكم ؛ لأدلكم عليه ، وأرشدكم إليه ؛ إذ
كان الجهل قد ران على قلوبكم فلم تتبصروا ، وغشى على بصائركم فلم تتدبروا .

فدُهِش القوم أن سمعوا قولاً لم يألوه ، وحديثاً عن إله لم يعرفوه ، وكبر
عليهم أن يروا واحداً كان منهم فخرج عليهم ، ورجلا من عامتهم ينصب نفسه
رسولاً إليهم ، وهادياً لهم .

قالوا : ما هذا القول الذي تهذبه ، والبهتان الذي تدعوا إليه ؟ هذه آلهة عبدها
آباؤنا من قبل ؛ ونعيدُها نحن اليوم ، وما الذي حدث في الكون أو ظهر من
الأحداث ، حتى نترك هذا الدين الذي نعتقده ، ونستريح إلى دين أبدعته
واخترعته ، وجئت تدعوا إليه ، وتجاهد فيه .

قال : يا قوم ؛ ارفعوا عن عيونكم غشاوة التقليد ، ومنقوا عن عقولكم نسيج
الأوهام ، وفكروا شيئاً ، وتدبروا قليلاً ؛ أهذه الأوثان التي تتوجهون إليها في
صباحكم ومساءلكم ، وتعتمدون عليها في قضاء حاجاتكم أو دفع الشر عنكم ،

تجلبب لكم نفعاً ، أو تستطيع أن تدفع عنكم شرّاً ! أهي قادرة على أن تخلق شيئاً ، أو تحيي ميتاً ، أو تشفي مريضاً ، أو ترد ضالاً ! أهي تستطيع دفع الشر عنها لو أردته بها ، أو تقيم نفسها لو حطمتها وهشمتها !

ثم مالكم تعرضون عن هذا الدين الذي أدعوكم إليه ! وهو يأمركم بما فيه صلاح أموركم ، واستقامة أحوالكم ، وتقويم جماعتكم ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويبيغضكم في الظلم ، ويحبب إليكم العدل والسلام ، وينشر فيما بينكم الأمان والاطمئنان ؛ ثم هو يحثكم على العطف على المسكين ، والحدب على الفقير ، وإطعام الجائع ، وفكّ العاني ؛ مما فيه صلاح الحال ، واستقامة الأعمال .

فما ظفر منهم إلا بجواب الجاهلين ، وما جادلوه إلا بسفسطة المتعنتين ؛ قالوا : ما أنت إلا بشر مثلنا . وواحد منا ، ولا سبيل إلى نفوسنا أن نسير في هديك ، أو نذعن لدعوتك ، فكفكف من غربك ، وأقصر من قولك ، ودون ما ترجو غايات بعيدة ، وحجج قائمة .

قال : لقد دعوتكم بالهودة واللين ، وجادلتكم بالتي هي أحسن ؛ فإذا كانت دعوتي تصل إلى قرارة نفوسكم ، كان الخير الذي أرجوه ، والإيمان الذي أبتغيه ، وإلا فإني أنذركم عذاباً واقعاً ، وبلاءً نازلاً ، وهلاكاً قريباً ، ترون طلائعه ، وتتقدم إليكم دلائله .

قالوا : يا يونس ، ما نحن بمستجيبيين لدعوتك ، ولا خائفين من وعيدك ، فأنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .

ولم يطيق يونس صبراً ؛ بل ضاق بهم ذرعاً ، وقطع الرجاء فيهم قبل مطاولتهم ، وهت الحبل لهم ، فرحل عنهم مغاضباً لهم ، يائساً من إيمانهم ، نافضاً الكف منهم ؛

إذ دعاهم فلم يؤمنوا ، وبصّرهم فلم يتدبروا ، وجادلهم فلم يستمعوا ، وحسب أن الدعوة مقصورة على ما فعل ، وظن أنه يكفي لإبلاغها ما كان .

ولعله لو كان قد أطل مدته ، واستمر في نشر دعوته ، لوجد فيهم مَنْ يؤمن ويستجيب ، ولوجد فيهم من يستغفر ويُنيب ، ولكنه رحل ليلقى من الله قضاءً ويتلقى جزاء ...

ولم يكده يبعُد يونس قليلاً عن نينوى ، حتى وافقت أهلها نُذُر العذاب ، واقتربت منهم طلائع الهلاك ، اغبرّ الجوُّ حولهم ، ثم تغيرت ألوانهم ، وتشيّات^(١) وجوههم ؛ فداخلهم القلق ، وساورهم الخوف ، وعلموا أن دعوة يونس حق ، وإنذاره صدق ، وأن العذاب لا بُدَّ بهم واقع ، وأنه سيصيدهم ما كانوا قد سمعوه عن عاد وثمود وقوم نوح .

ولكنه وقع في نفوسهم أن يلجئوا إلى إله يونس فيؤمنوا ، ويتوبوا إليه ويستغفروا ؛ فخرجوا إلى شعاف^(٢) الجبال ، وبطون الصحراء ، شاكين متضرعين باكين متوسلين ، وفرقوا بين الأمهات وأطفالها ، والإبل وفُصلانها ، والبقر وأولادها ، والغنم وحملانها ؛ ثم عوّك الجميع ؛ فصاحت الأمهات ، ورغبت^(٣) الإبل ، وخارت البقر ، وثغت^(٤) الغنم ؛ وكانت ساعةً بسط الله عليهم بعدها جناح رحمته ، ورفع عنهم سحابِ نِقْمَتِهِ ، وتقبّل منهم التوبة والإنابة ؛ إذ كانوا مخلصين في توبتهم ، صادقين في إيمانهم ، ورد عنهم العقاب ، وحبس العذاب ، ورجعوا إلى دورهم آمنين مؤمنين ، وودّوا لو يعود إليهم يونس ؛ ليعيش بينهم رسولاً ونبيّاً ، ومعلماً وإماماً .

(١) تشيّات : تشوّهت .
(٢) شعاف : جمع شعفة ، وهي رأس الجبل .
(٣) الرغاء : صوت الإبل .
(٤) الغنم : صوت الغنم .

ولكنه - وقد فارقهم ، وترك ديارهم - أخذ يضرب في الأرض ويُغِذَّ (١) في السير ، حتى انتهى إلى البحر ؛ وهناك وجد جماعة يُعْبِرون ، فسألهم أن يصحبوه معهم ، ويحملوه في سفينتهم ؛ فقبلوه على ارتياح ، وأنزلوه بينهم منزلاً كريماً ، ومقاماً عزيزاً ؛ إذ كان يظهر في وجهه الكرم والسماح ، وتحدث عُزَّته عن تقوى وصلاح ؛ ولكنهم ما ابتعدوا عن الشاطئ ، وجاوزوا البر ، حتى هاجت الأمواج ، واصطلمت على السفينة الأعاصير ؛ وتوقع الركاب سوء المصير ؛ فزاغت الأبصار ، وانخلعت القلوب ، ورجفت القوائم ؛ ولم يجدوا طريقاً لنجاتهم إلا أن يتخففوا ؛ فاشتوروا ما يصنعون ؛ ثم اتفقوا على الاقتراع ؛ فسأهم (٢) الجميع ؛ ووقع السهم على يونس ؛ ولكنهم ضنوا به على البحر ؛ تكريماً لشأنه ، وعرفاناً بمكانه ؛ فعادوا للمساهمة ، وعاد السهم على يونس ؛ فضنوا به أيضاً ؛ وعادوا للمساهمة فعاد السهم عليه !

فعلم يونس أن من وراء ذلك سرّاً ، وأن لله في ذلك تدبيراً ؛ وأدرك خطيئته ، وما كان من تركه لقومه قبل أن يُؤذَنَ له في الهجرة ، أو يستخير الله في الرحيل ؛ فألقى بنفسه في اليم ، وأسلم نفسه للأمواج ، يتقلب بين طياتها ، ويتخبط في ظلماتها .

وأوحى الله إلى الحوت أن يبتلعه ، وأن يَطْوِيَهُ في بطنه ؛ ولكن على ألا يأكل لحمه ، ولا يهشم عظمه ؛ فما هو إلا نبي كريم ، تأول فلم يُصب ؛ وعجل ثم ندم ؛ وأنه وديعة عنده ، يؤديها حينما يأذن له الله .

وقع يونس في بطن الحوت ؛ والحوت يشق الأمواج ، ويهوى إلى الأعماق ،

(١) يغذ في السير : يسرع . (٢) سألهموا : اقترعوا .

فى ظلمات متضاعفة ، وحنادس ^(١) متعاقبة : فضايق صدره ، واعتلج كمشه ،
وفزع إلى الله غياث الملهوف ، وملجأ المكروب ، وواسع الرحمة ، وقابل التوبة ،
وغافر الذنب : ﴿ فَتَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي
كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

فاستجاب الله الدعاء ، وأوحى إلى الحوت فى الماء : ألقِ بضيفك فى العراء :
فقد أوفى على الغاية ، ونال ما قُدِّرَ له من جزاء : فألقاه على الشاطئ سقيماً هزيراً ،
مُدْناً عليلاً ، وتلقته رحمة الله فأنبئت عليه شجرة من يقطين ^(٢) . طعيم بشورها ،
واستظل بورقها ، ودبَّتْ إليه العافية ، وظهرت فيه تباشير الحياة .

ولما استوى على سوقه ، ورجع إلى سابق عهده ، أوحى الله إليه : أن ارجع
إلى بلدك ، وموطن أصرتك وعشيرتك : فإنهم آمنوا فنفذهم الإيمان ، ونبذوا
الأصنام والأوثان ، وإنهم الآن يتحسسون مكانك ، ويترقبون مجيئك .

وعاد يونس إلى قريته ، وما راعه إلا أنه خلفهم وليس فيهم إلا من هو
عاكف على الأصنام . وعاد إليهم وما فيهم إلا السنة تلهج بذكر الرحمن .

(١) الحنادس : جمع حندس ، وهى الظلمة .

(٢) اليقطين : نبات لا ساق له .

(*)

زكريا ويحيى

تقدّمت بذكرّيّا السنون ؛ وهو الآن مُشتهب^(١) الرأس ، واهن العظم ، معوج القناة ، لا يستطيع من المشى إلا بمقدار أن يذهب إلى الهيكل يتعهد مُشؤونه ويُلقى مواعيظه ، ثم يتنفسك ويتألّه^(٢) ، ويعود في أعقاب يومه يقضى ظلام الليل في بيت يحوى زوجته وهي عجوز مثله ، قد اشتعل الرأس منها شيباً ، ولا يستطيع من العمل إلا بمقدار أن يذهب إلى حانوته ساعة من نهار ؛ فإن أصاب بعض مال مسحّ دمنّة البائس ، وقضى حاجة السائل ، ثم رجع إلى داره فارغاً إلا من فضل الله ، صامتاً إلا عن ذكر الله .

ولكنه حتى هذه السنة التي أشرف فيها على التسعين ، لم يُرزق طفلاً ، ولم يُشمر ولدًا ، يتخذه سبيلاً يربطه بالحياة ، ويصل ما بينه وبين الرجود ، فكان يدخل البيت حزيناً ، كاسف البال ، قليل الرجاء ... ثم هو عما قريب يطوى صحيفّة أيامه ، ويمضى إلى حمامه ؛ فمن الذي يقوم على وراثته حكمته ، والاضطلاع بأمانته ؟ وهؤلاء مواليه وبنو عمومته أشرار ، لا بد لهم من وازع ، وسوائهم مطلقة يُعوزهم الراعى الرادع ؛ ولو مُخلّوا ونفوسهم فإنهم يمحّثون الشريعة ، وينشرون الفساد ، ويُغيّرون معالم الكتاب .

ظلمت هذه الخواطر تحيزٌ في نفسه ، وتضطرب بين لفائف صدره ، ولكنه كان صابراً متحملاً متجملاً ؛ إلا من زفرات كان يلفظها كلها جنّاً عليه الليل ، وأتات كان يُصعّدها كلها احتواءه الظلام .

(٥) مريم : ٢ - ١٥ . (١) الشهية في الألوان : البياض الغالب على السواد .

(٢) يتألّه : يتعبد .

ذلك قضاء الله فمن أجدر بالنبى من أن يتلقاه بالارتياح ؟ وتلك حكمته ، فمن أحق من زكريا بأن يقابلها بما تستحقه من الإذعان ؟ فلعلّ من وراء ذلك حكمة لا يعلمها ، ولعل الله يؤجل ذلك لغاية هو يجهلها ؛ وله الحمد لله على ما أنعم ، ومننا الصبر على ما أراد .

ويذهب زكريا إلى الهيكل يوما كعادته ، ويصلى ويتنفس ، ويعبد ويتعبد ، ثم يدخل على مريم محرابها ، فإذا هى غارقة فى تفكيرها ، ذاهبة فى صلاتها ؛ ثم يرى أمامها شيئاً يذهله ؛ ويشير سؤاله : هذه فاكهة أمامها ؛ عجباً ! تلك فاكهة الصيف ولكننا نحن فى الشتاء ؛ ثم من أين دخلت إليها ؛ إنها من يوم أن تنازع مع القراء فى شأنها ؛ وفاز سهمه بكفالتها ؛ لا زالت حبيسة فى محرابها ، محجوبة عن أترابها ؛ حتى إن أمها من يوم أن أودعتها الهيكل وفاءً بنذرهما ، وتقربا إلى ربها ، لم تسع يوماً إلى لقاءها ؛ فمن أين لها هذا الرزق العجيب ! وكيف اتفق لها هذا الأمر الغريب !

ليسألنّها ويستكنّه أمرها ؛ فقال : يا مريم ، أنى لك هذا ! قالت : هو من عند الله ، يصبح الصباح ؛ فأرى رزقى حاضراً ، ويمسى المساء فأرى رزقى حاضراً ؛ على أننى ما سعت لهذا الرزق ، ولا سألت الله ذلك الخير ، ولكنه يأتينى عفواً ، وأجده أمامى سهلاً ؛ ومالك تدهش وتعجب ، ومالك تؤخذ وتُشثّده ! أليس الله يرزق من يشاء بغير حساب !

عند ذلك أدركت زكريا حال جديدة ؛ ودخل فى تأمل عميق ؛ فلقد أثارت فى نفسه هذه الفتاة الكريمة ؛ وتلك الربانية (١) المقربة الحنين إلى الولد ؛ والرغبة

(١) الربانية : المتألّهة العارفة بالله .

فى البنين ! حقاً إنه قد وهنَ منه العظم ، ورقَّ الجلد ، وبلغ به الكبرُ ، ولم يعد فيه للولد مطمح ؛ وامرأته العجوز العاقر ليس فى نفسها للذئسل رجاء ؛ ولكن أليس الله - الذى اختص مريم بالكرامة ، وحبها بالنعمة ، ورزقها الفسكهة الغريبة ، تأتيها كل يوم فى غير أوانها - بقادر على أن يرزقه ولداً ، وإن كانت امرأته عاقراً ، وإن كان قد أصبح شيخافانياً ! ليدعُ الله ، فما هو بيأس من استجابة دعواه !

وبسط زكريا يديه متوسلاً ، وهمس بصوته داعياً : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ . وزكريا كان أكرمَ على الله من أن يردَّ دعوته ، وأعز عليه من أن يخيب رجاءه ؛ فإنه ما مكث طويلاً حتى نادته الملائكة - وهو قائم يصلى فى المحراب : يا زكريا ؛ إن الله يُبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبلُ سمياً .

وسمع زكريا النداء ؛ فشده وتجب ؛ وحاشاه أن يكون غافلاً عن قدرة الله ، أو يائساً من استجابة دعواه ؛ ولكن أدركه ما يدرك المؤمن وجدرجاءه ، والسائل العافى وجد حاجته ؛ ثم عاد فسأل الله : كيف يرزقه طفلاً ، وقد أصبح شيخافانياً ؛ وامرأته عجوز عاقر ، كما سأل إبراهيم ربه من قبله ؛ كيف يحيى الله الموتى ؟ وكيف يُبعث الناس يوم النشور ؟ وما كانا بسؤالهما جاحدين ، ولكن ليزداد قلبهما اطمئناناً .

وقالت الملائكة : أليس الله - الذى خلقك من قبل ولم تك شيئاً - بقادر على أن يرزقك الولد ، وإن كنت فى أعقاب أيامك ، وأطراف حياتك ؟

سأل زكريا ربه أن يجعل له علامة تتقدم هذه العناية ، وتدل على وقوعها ؛

فأجابه الله : إن آيتك أن تعجز عن خطاب الناس بحصر يعتري لسانك ثلاثة أيام ، وإن أردت الكلام فلا تستطيعه إلا إشارة أو زمراً .

ورزقه الله على الكبر يحيى : غلاماً زكياً : فأحكم الله عقله ، واستنبأه صبيها ، ثم عشق العباداة حتى أصبح منهوكة الجسم ، نحيل الظل ، متضمّر^(١) الوجه ، معروق العظام^(٢) ، واشتهر بالعلم ، حتى أحصى مسائل التوراة واستجلى غوامضها ؛ وأحاط بأصولها وفروعها ، وأضحى فيصل أحكامها ، وقاضى مبعوثها ؛ وعرف بين الناس أنه جرىء في الحق ، شديد على الباطل ، لا يخشى في الله لومة لائم ، ولا هولة عات ظالم .

نقلوا إليه يوماً أن هيرودوس حاكم فلسطين ، قد هوى هيروديا بنت أخيه ؛ إذ كانت بين عينيه بارة الشكل ، فتأنه المحاسن ، جميلة التكوين ؛ وأنه قد عزم على زواجها ، والدخول بها ؛ وظاهرته على ذلك أمها ، وذوو قرباها ؛ فأعلن يحيى أن ذاك زواج باطل لا تقره شريعة ، وتأباه رُوح الكتاب ، وقال : إني لا أعترف به ، وأجهـر باستنكاره .

وشاع رأيه في المدينة ، وفي القصور ، وفي الخدور ، وفي أماكن اللهو ، وفي مواطن العبادة ؛ وبلغ هيروديا ما جهر به يحيى ، وما اشتهر به بين الناس ؛ فسخطت عليه في نفسها ، وأضمرت الحسيسة^(٣) ، وأبطنت الغيل ؛ ثم استحالت غيظها إلى حزن وكمد ، وهمٍّ وأسى ، وخافت أن تذهب هذه القالةُ برجائها المعسول ، وربما صرفت عمّتها عن الزواج ؛ ولكنها عزمّت على أن تستعين

(١) يقال : تضمر وجهه ، إذا انضمت جلده هزالاً .

(٢) من قولهم : عرق العظم : إذا أكل ما عليه من اللحم (٣) الحسيسة : العداوة .

بحسبها وجمالها ، فلعل جمالها يُنسيها غرضها ، ويحقق غايتها ؛ فتجمّلت ما استطاعت
أن تتجمّل ، وعُنيّت بزینتها ما قدر لها أن تعني ، ودخلت على عمها قسيمةً وسيمةً ،
حسنة الشارة ، جميلة الهيئة ، فاقْتَنَصَ بجبائل فنتتها ، واختُلب بعذوبة منطقها ، ثم
سألها : أى أمنية تتمنين ؟ قولى فأنا رهنٌ لإشارتك ، قيدٌ بكلمتك !

قالت : إن رضى الملك فليست أبغى إلا رأس يحيى بن زكريا ، ذلك الذى سَمِعَ
بالمك وبى فى كل مكان ، وغمزه فى كل ناد ، إن رضى الملك بذلك فأنى قريرة العين ،
هادئة البال ، منقوعة الغليل .

فأجاب لداعى الهوى ، وأصاخ لكلمة الجمال ، وأصمَّ عن نداء الضمير وهتاف
الوجدان ؛ وما هى إلا ساعات حتى كان رأس يحيى بين يديها ، فشفت غلها ، وأطفأت
وقدة غيظها ، ولكنها استنزلت لعنة الله عليها وعلى بنى إسرائيل .

مريم (٢)

لم تُرزق أئمةا بولد ؛ لأنها كانت عاقراً ؛ وطالما تمسّته ؛ لتُمتنع نفسها بمراه ،
وتقرّ عيناً بطلعته ؛ وكلما رأت طائراً يُطعم قَرْنه ، أو سيدة تحمل طفلها ، اشتدت
رَغبتها فيه ، وأحسّت زيادة الميل إليه ؛ ولقد عانت في ذلك مثل ما تُعاني المرأة
حينما تجِد نفسها قد حرمت الطفل الذي هو سلوتها في وحشتها ، وسميرها في وحدتها ،
والذي تبسّم به حياتها ، وتهون به مصاعبها وأوصابها (١) .

وأقضى ذلك مضجّعها ، وودّت لو بذلت أغلى ما تملك ، ثم تنظر ، فترى ولدها
يرنو إليها بنظره ، ويُقبل عليها بوجهه ؛ فتفرغ عليه حنانها ، وتغمره بعطفها ،
وتبذل له من نفسها ما يريح جسمه ، وينمي جسده ، ويسمو بروحه ، حتى يشب
فيصير ملء سمع الأرض وبصرها .

وقد تكون أمضت الأيام ، بل السنين ، ترقب تحقّق هذا الرجاء ، وتنتظر
نوال هذه الأمنية ؛ وقاست فيها المتاعب ؛ وذوقت مرارة اليأس ؛ وقد تكون أيضاً
غبطت الشجرة المثمرة ، والمرأة الولود .

وأنا أراها في ذلك قد لبث نداء جبلتها ، وطاوعت غريزتها ؛ فأحلى أمانى المرأة
أن تجد ولدها بجانبها ، وترى طفلها يمرأى منها ؛ حتى لقد نرى ذلك في البنات
الصغيرات ؛ فهنّ يدلّان العرائس ، ويُناغين الدُمى .

التجأت إلى ربّ السموات والأرض ، وتوسلت إليه في خضوع وخشوع ،

(*) آل عمران ٣٣ - ٤٧ ، النساء ١٥٦ ، مريم ١٦ - ٢٤ ، الأنبياء ٩١ ، التحريم ١٢
(١) الأوصاب : الأمراض .

وَنذرت له إن أنالها أمنيته ، وحقق رجاءها ، ورزقها ولداً ، فتصدق به على بيت المقدس ، فيكون خادماً له ، وسادناً^(١) فيه . وأخذت العهد على نفسها ألا تستخدمه في شيء ، أو تشغله بأمر ، بل هو لخدمة البيت محرراً ، ولسدائته مخلصاً .

أليس ذلك دليلاً على أنها لا تبغى الخلف إلا لإشباع رغبتها ، واستقرار نفسها ! فهي لا تريد أن يكون عائلاً لها ، أو عضداً تشد به أزرها ؛ بل ترجوه وتأمله ، حتى إذا تحقق الرجاء ، واستجيب الدعاء ، وهبته لله ، وحررت له لخدمة بيته ؛ ويكفيها أنها ولدت ، ليطمئن قلبها ، ويشيع السرور في فؤادها .

أجاب الله دعاءها ، وآتاها مسؤلها ؛ فشعرت بالجنين يتحرك بين أحشائها ، فاحضرت عودها ، وأشرقَت الدنيا في عينيها ، وفارقها عبوسها ، وافترت ثغرها ، وأصبحت مَرحة مُقبلة على الحياة بصدر منشرح ، تجلس إلى زوجها ، تحدّثه عما يجول بنفسها ، وما تقدره لولدها ؛ وهو يستمع إليها مبتهجا ، ويصغى إلى شهي حديثها مغتبطاً ، وغمرتَهما نشوة من السرور ، أنستهما ما قاسيا في الحياة من ألم ، ومسحت ما فاضت به عيونهما من شئون^(٢) .

وبينما هي سابحة في أحلامها وآمالها ، تُعدُّ للولود عدته ، وترجو الحياة من أجله ، قلب لها الدهر ظهر المجن ، فبدَّ لها سرورها جزناً ، وغير فرحها ثرحاً ؛ إذ مات زوجها عمران ، فاشتدَّ حزنها عليه ، وفاضت دموعها غزيرة لفقده ، وقد كانت تمنى لو أبقاها الله ، حتى ينعم برؤية فكدة كبده ، ويتملى بقرعة عينه ، وبقطيف جناة بذره ؛ ولكن قضاء الله حم ، ولا راد لقضائه .

صارت وحيدة مهبط الجناح عابسة الوجه ، وكلما تقدمت بها الأيام اختلط
حزنها بأملها ، وأحست آلامها تكثر ، ورأت صرخ آلامها ينهار ؛ ولكن رجاء
في الله عمر به قلبها ، وشعاعاً من الأمل فيها تحمل بين جنبيها ، كانا يخففان ما بها
من لوعة وأسى ، ويسريان عنها ما كانت تجد من حزن ووحشة .

هي لها مثل ما يهب للنساء عند الوضع ، ووضع ، وإذا المولود أتى ؛ ولما
عرفت ذلك تحسرت على ما كان من خيبة رجائها ، وعكس تقديرها ، وتحزنت ^(١)
إلى ربها ؛ إذ كانت ترجو أن تلد ذكراً تهبه لبيت المقدس ، وتقفه على خدمته ،
تقرباً إلى الله ، وشكراً على نعمته .

ولكن المولود أتى ، والبنات لا يصلحن لذلك ، فغشيتها سحابة من الحزن ،
وغمرت موجة من اليأس ، ثم سميتها مريم ^(٢) ، وطلبت إلى الله أن يعصمها بعنايته ،
وأن يكلائها برعايته ، وأن يجعل فعلها مطابقاً لاسمها ، وأن يعيذها ^(٣) وذريتها
من الشيطان الرجيم .

ألا ترى الآن قلباً محطماً ، ونفساً تحقها الحزن ، وامرأة توالى عليها المحن
حتى لتكاد تضيق بها ، عاشت جل أيامها ، وزهرة حياتها كثيفة كاسفة البال ،
لأنها لم ترزق الولد ، فلما انفرج كربها ، وانقشعت غممتها ، وسمع الله دعاءها ،
واستشعرت الجنين في أحشائها عداً عليها الدهر ، فاختطففت المنية زوجها ؛ وقد
كانت تتمنى أن يهب لها الله ولداً ، لتجعله مخلصاً لخدمته ، فولدت أتى ؛ فزاد
حزنها ، واشتد كربها !

(١) يقال فلان يقرأ بالتحزين : إذا أرق صوته . (٢) مريم : معناها العابدة .

(٣) يعيذها : يخلصها .

ولكنها انطوت على همّها ، والتجأت إلى ربها ؛ فرحم الله ضعفها ، واستجاب دعاءها ، وقبّل هبتها ؛ وأتم نعمته عليها ، بأن رضى أن تكون ابنتها وفاءً للنذر ، وأخبرها بأنه أعلم بما وضعت ، وبقدر ما وهبت .

حينئذ سرّى عنها ، وعلمت أن الله قد اختصها بإكرامه ، وأفردتها بنعمته ؛ فلفستها في خرقة ، وحملتها إلى بيت المقدس ، وقدمتها إلى الأحيار ، ودفعها إليهم قائلة : دونكم هذه البنت فإنى قد نذرتها لخدمة البيت ، وتركته وانصرفت .

لترك هذه الأم التي فقدت بالأمس زوجها ، وأودعت اليوم فائدة كبدها بين يدي سدنة البيت وخدمه ؛ ولتصورها استسلمت لقضاء الله ، ورضيت بما قدره لها ، واطمأن قلبها لقبول بنتها بقبول حسن ، وإيثارها بهذه المكرمة دون غيرها من نساء العالمين .

ولنتخيل أيضاً أنها قد دفعها الخنوّ ، وحرّكتها عوامل الشفقة على بنتها ، فذهبت إلى بيت المقدس ؛ تستفسر - من بُد - عن حالها ، وتتعرف خبرها ، حتى إذا اطمأنت عليها قضت راجعة ؛ تحمد الله على أن قبّل قربانها ، وأسبغ نعمته عليها .

ولنتتبّع الآن حال هذه البنت التي حلت ضيفاً على أهل هذا البيت المقدس ؛ خففوا إليها سراعاً ، وتنازعوا في كفالتها ، كل يريد أن يكون المدبر لشؤونها ، والقائم على تربيته ؛ لأنها بنت إمامهم ، وسليّة صاحب قربانهم .

وكان أشدهم حذباً عليها ، وأكثرهم رغبة في كفالتها زكريا ، فقال لهم : أنازوج خالتها ؛ فأعطوني إياها ، وخصّوني بالعناية بأمرها ؛ فأنا أقربكم رحماً إليها ، وأوثقكم صلة بها .

اشتد النزاع ، وكثر الجدل ، وطال الحوار ، واسترسل كلٌ يدلى بحجته ، ويبين فضله على غيره ، ويطلب في إلحاح وعنف أن يستأثر بها ، ويختص بكفالتها ؛ ولم تجتمع كلمتهم على تسليمها لأحد ؛ لأن كلا منهم كان يرجو الزلنى ^(١) إلى ربه .

وقد كان زكريا يرى نفسه أحق بهذا الفضل ، وأولى من غيره بذلك الشأن ؛ وبعد ما لمسوا استحالة اتفاقهم ، وأحسوا افتراق شملهم ، أعلنوا أنهم لن يخضعوا لرأيه ، أو يؤثروه على أنفسهم ، حتى يقترحوا عليها ؛ فرضى زكريا بذلك حكماً بينه وبينهم ، وانطلقوا جميعاً إلى نهر ، فالتقوا فيه أقلامهم ^(٢) ؛ فارتفع قلم زكريا فوق الماء ، ورسبت أقلامهم ؛ فانصاعوا لرأيه ، وخضعوا لإرادته ، وسلموها إليه ، فتكفلها ، وصار وليها ، والقائم بتربيتها .

أراد زكريا أن يمهّد سبيل الراحة لتلك التي ألقى الله إليه مقاليد أمورها ، ودفعه حب الاستئثار إلى أن ينأى بها عن الناس ، ويُبعدّها عن ضوضائهم ، ويخص نفسه بخدمتها ، ويحرّم على غيره الدخول إليها ؛ فبنى لها غرفة عالية في بيت المقدس ، لا سبيل إليها إلا بالصعود في سلم .

وكان دائماً يتفقد شؤونها ، ويتردد عليها في محرابها ؛ ليطمئن على حالها ، ويمهّد لها سبيل عيشها .

ولاريب أنه كان قهر النفس بكفالتها ، وأنه لذلك عُنى براحتها ، وتوفير أسباب السعادة لها ؛ واستمر على ذلك حتى رأى يوماً شيئاً عجب له ؛ بل شديدهً وتحير في أمره :

(١) الزلنى : القربة والمنولة . (٢) الأقلام : سهام الاقتراع .

ذلك أنه لما دخل عليها زكريا المحراب^(١) وجد عندها رِزْقاً ، وَعَهْدُهُ بِهَا
ألا يدخل إليها أحد ، أو يطرق باب حجرتها طارق ؛ ولم يحمل هو إليها مثل هذا
الرزق ، أو يعلم شخصاً قد أدخله عليها ؛ وكثر تفكيره في الأمر ، ومال إلى
الوقوف على سره .

لم يستطع تعليل ذلك ؛ فحاول الوقوف على ذلك السر العجيب ، وطرق لذلك
أبواباً عدة فلم يوفق ، وأشك كل عليه الأمر والتوأس ، فدخل إليها ، وقال : يا مريم ،
أتى لك هذا الذى لا يشبه أرزاق الدنيا ، وهو آت فى غير حينه ، والأبواب
مغلقة عليك ، ولا سبيل للدخول إليك ؟

فقالت : إنه من عند الله ؛ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

هناك عظم تقديره لها ، واشتد حُبُّه عليها ، وعلم أن الله قد اختصها بمنزلة
دونها منازلُ الناس ، وأنه قد اصطفاهَا على نساء العالمين .

وقد أثارت فى نفسه تلك المكرمات التى أجزاها الله على يدها ، كامنَ الرغبة
فى أن يهب الله له ولداً من صلبه .

وليس من شك فى أنه الآن قد جاوز السن التى يُرزق فيها الرجال بالأولاد ،
وأن زوجته قد يئست من ذلك ، ولم يعد لها أمل فيه ، ولكن رحمة الله واسعة ،
وقدرته لا يعجزها شيء فى السموات ولا فى الأرض ، وهو يعلم ذلك ويعرفه .
لذلك اتجه إلى فاطر السموات والأرض ، وناداه نداءً خفياً ، وتمنى أن يُسبغ عليه
هذه النعمة ، وأن يحقق له تلك الرغبة ، وقال^(٢) : ﴿ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى
وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً . وَلَمْ أَكُنْ بِدَعَائِكَ رَبِّ شَقِيحاً . وَإِنِّى خِفْتُ

(١) المحراب : المصلى .

(٢) سورة مريم ٢ - ١٥ .

المَوَالِي (١) مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ أَمْرَأَتِي عَاقِرًا ، فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا .
يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ؛ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا . فاستجاب الله
دعائه ؛ وآتاه سؤله ؛ وقال : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ
نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ .

نمت مريم وترعرعت ؛ وشببت واستدت ساعدها (٢) ؛ وعمر قلبها بالتقوى
والصلاح ؛ ومكنت بالبيت تعبد الله الذي يرسل إليها رزقها رَغَدًا ؛ وأخلصت في
القيام بصدانة البيت وخدمته حتى صارت مَضْرِبَ الأمثال .

(١) كان مواليه عصبته إخوته وبنو عمه ، شرار بني إسرائيل . يخافهم على الدين أن
يغيروه ويبدلوه وألا يحسنوا الخلافة على أمتهم ، فطلب عقبا من صلبه صالحا يقتدى به فيه
لأحياء الدين (الكشاف ٢ - ٢) .
(٢) استدت : اشتدت وقوى .

عيسى الوليد

في يومٍ ما اعتكفت مريم كعادتها ، تصلي لله وتعبد ، فاضطربت نفسها فجأة ، وداخلتها رهبة لم تعهدها من قبل ، وظهر أمامها ملكٌ من السماء ، وقد تمثل لها بشراً سوياً ؛ لتأنس به ، ولاتنفر منه ؛ فحاولت الهروب ، واستعازت بالله إذ ظنته معتدياً أثماً ، وفاجراً زنياً^(١) ، وهي التقية المؤمنة ، العفيفة الطاهرة ؛ ولكنه أعاد إليها طمأنينتها ، وسكن روعها ، ثم أخذ يتحدث إليها قائلاً : ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً^(٢) 》 .

فغشيتها سحابة من الحزن ، وطافت بها موجةٌ من الأسى ، ولكن هؤل الموقف وشدة لم يعقدا لسانها ، بل استجمعت شارد قوتها ، وخرجت من صمتها ، وحاجته قائلة : ﴿ أننى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً 》 .

﴿ قال : كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منّا ، وكان أمراً مقضياً 》 . ثم مضى واختفى .

جلست حائرة تفكر فيما سمعته ، وأوجست في نفسها خيفة ؛ ولاشك أنها تخيلت ما سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد من غير أن يكون لها بعل ، وأنها

(٥) مريم ١٦ - ٢٤ ، البقرة ٨٧ ، آل عمران ٤٥ - ٦٠ ، النساء ١٥٦ - ١٥٩ ، ١٧١ و ١٧٢ ، المائدة ١٧ و ٤٦ و ٧٢ و ٧٥ ، التوبة ٣٠ و ٣١ ، المؤمنون ٥٠ ، الزخرف ٥٧ - ٦٥ الصف ٦ و ١٤ ، المائدة ١٠٩ - ١٢٠ ، الحديد ٢٦ و ٢٧ ، التوبة ١١١ .

(١) الزنيم : اللئيم المعروف بلؤه أو شره .
(٢) زكياً : صالحاً . (٣) بعل : زوج .

قد أفرعتها هذه الأفكار ، وصيرتها قلقة مضطربة ؛ إذ قد بدت تفسطن إلى الريبة التي سوف تخامر قلوب الناس ، والشكوك التي ستخالج نفوسهم ؛ فأصبحت تحب العزلة ، وتميل إلى الانفراد ، واستحوذ عليها الحزن ، وغلب عليها الخوف ، وصارت دائمة التفكير في ذلك السر الرهيب الذي أغلق عليه داخل أحشائها .

مرت أشهر ، وهي تقاسى الآلام النفسية المبرحة ، وتعاورها الأحزان ، وتنابها الوسوس ، وتمضى أكثر أوقاتها منفردة كئيبه ، لا يهنأ لها عيش ، ولا يطيب لها طعام ولا شراب ؛ وكثيراً ما كانت ترى شاردة الفكر ، موزعة النفس ، لا تصفى إلى حديث ، ولا تعنى بأمر .

حلت تلك الفتاة المثقلة بالهموم في « الناصرة » ، منبتها ومسقط رأسها ، وأقامت في بيت ريفي ، خلا من كل بهجة ورؤاء ؛ وقد تكون اتخذت هذا البيت جنة لها تتستر فيه عن أعين الناس ، وتختفي به عن أنظار الرقباء ، وأظنها كانت تنأى عن الاختلاط بقومها ، والاتصال بعشيرتها متظاهرة بالتعب والإعياء ، خوفاً من أن يفض مكنون سرها ، ويكشف مستور أمرها ، فتلوك الألسنة اسمها ، ويتحدث الناس في شأنها ؛ وكلما تقدمت بها الأيام زاد همها ، وكثر حزنها ؛ فسيظهر ما تحرص الآن على أن تخفيه ، ويشيع ما تحاول أن تستره !

رحماك يارب ! ما هذا الذي يخبئه لها القدر ، وما تكتنه لها الليالي ! إنها من أسرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، لم يكن أبوها أمراً سوءاً^(١) ، وما كانت أمها بغياً ؛ فكيف تلوك الألسنة الحديث في عرضها ؟ وبماذا تدفع عن نفسها تلك التهمة التي سترمى بها ! حقاً إنه أمر ترتعد له الفرائص ، ويشيب من هوله

الولدان . أيزعمون أنها فقدت أثمنَ ما تحرص عليه الفتاة ، ويقولون : إنها أودت بكرامة أهلها ، ووسمت أسرتها بما يثلم شرفها ، وينزِلها من عليائها ، ويُنصق بالرَّغام (١) أنفها ! إن ذلك لعظيم ! كلُّ ذلك كان أو سيكون مع أنها لم ترتكب إثماً ، ولم تقترب ذنباً ، وهي بَرَاءة (٢) من كل ما يجول بنفوسهم ، وأبعد ما تكون عما يمرُّ بخواطِرهم .

وهل تستطيع ، وهي في هذا الحراج والضيق ، إلا أن تستسلم لقضاء الله ، وتنتظر ما يأتي به القدر ، وتكشيه الأيام !

وليس من شك في أن ما درجت عليه من عبادة الله وتقواه خفف عنها بعض ما كانت تعانيه ، وجعلها تترقب لضيقها فرجاً ، ولنفسها الفسحة سكوناً وأماناً ؛ أو لم يُنبئها المَلَكُ أنها ستلد من يكلمُ الناس في المهد ! أليس ذلك كافياً لرد كيد الناس ، وأوضح برهان على براءتها وطهرها !

قد كان ذلك سألوتها ، وأملها الذي تتعلق به ، وترجو الخلاص من طريقه . اقتربت ساعة الوضع ، وأحست ألمَ المخاض (٣) ؛ وخرجت من القرية فأجاءها (٤) المخاض إلى جذع نخلة يابسة ؛ وهي وحيدة منفردة بلا يد شفيقة تسددها وتساعدها ، وتخفف آلامها وتعالجها ؛ هناك قاست تلك الأم العذراء آلام الوضع ؛ وفي الفضاء الواسع ولدت الطفل .

آلمتها تلك الوحدة ، وحز في نفسها رؤية تلك الثمرة ؛ فنظرت إلى الطفل في حسرة واكتئاب ، وجعلت تتمنى لو ضمها القبر ، وفارقت هذا العالم قبل أن تصير أمّاً من غير أن تزوج ؛ فقالت : ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا ﴾ .

(١) الرغام : التراب (٢) براء : بريئة (٣) المخاض : وجع الولادة .

(٤) فأجاءها : فالجأها .

هي الآن لا تدري ماذا تفعل؛ سقط في يدها ، وتحيرت في أمرها ، واشتد حزنها ،
وغلى مرّ جل غيظها ، وجلست حائقة ساخطة ؛ ولكنها ما لبثت أن سمعت صوتاً
يرنّ صداه في أذنها ؛ فبتد مخاوفها ، وكفكف دموعها ، وناداه من تحتها : ﴿ ألا
تحنّني قد جعل ربك تحنّك سرّياً ^(١) ﴾ ، يجرى ماؤه في تلك البقعة الجرداء .
﴿ وهزّئ إليك بمجدع النخلة تساقط ^(٢) عليك رطباً جنيئاً ﴾ فكُلي منه ليعيد
إليك بعض ما فقدت من قوة ، واشربي وقرّئي عينا ، واطمئني قلباً ، بما ترين من
قدرة الله التي اخضرّ بها جذع النخلة اليابسة ، وطبّي نفساً بما حبّاك الله من جريان
الماء في تلك البقعة المقفرة .

قد كانت تلك المعجزة - بلا شك - أقوى دليل على براءتها ، وأسطع برهان على
طهرها ؛ وقد كانت آية بينة تردّ بها قذف القاذفين ، وعيب العائنين ؛ ولكنها
إنما تدفع التهمة ، وتقيم بها الحجة على من يحاشجونها في هذا المكان الذي أجاها
المخاض إليه ، وهي تريدُ الجواب الذي تجيب به لـوامها ، والزارين ^(٣) عليها ،
والمعيّرين لها ، وهم الذين سيستقبلونها في القرية ، ويسألونها بالسنة حداد ؛ لذلك
لم تتبدد مخاوفها ، ولم تنقشع سخابة حزنها .

وكان ذلك المولود الصغير ، قد أطلعّه الله على سبب حيرتها ، وكشف له عن
دخيلة نفسها ؛ فكفاهها الكلام بما يبرئها ، وأخذ على نفسه الجواب عما يوجّه إليها ،
فقال : ﴿ فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن
أكلم اليوم إنسيّاً ﴾ .

(١) السرّ : الجدول . (٢) تساقط : تسقط .

(٣) الزارين . العائنين .

اطمأنت نفسها ، وعاد إليها ما عَزَبَ ^(١) من لها ، واستجمعت قوتها ، ورجعت إلى القرية ، وأتت به قومها تحمله ؛ وسرعان ما شاع أمرها ، وعُرفَ خبرها ؛ فسرّحوا في عرضها ، وتحدثوا في طهرها ، وأخذ بعضهم يوجه اللوم إليها ، ويشتم في تأنيبها وتقريعها ، ويُذكّرها بشرف أسرتها ، وكرم محبتها ^(٢) ، فقالوا : ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ^(٣) . يَا أَخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ .

لم تنفرج شفاتها ، وعقدت الحياءُ لسانها ، والتزمت الصمت ، وأبت السلام ، وقالت : إني نذرتُ للرحمنِ صَوْمًا ، فلن أتكلّم بكلمة أو أوردَ سؤالًا . وإن أردتم الوقوف على جليّة الأمر فيها هو ذا - وأشارت إلى الغلام - أن كلّموه ! فعجبوا من أمرها ؛ وسخروا من إشارتها ، وقالوا : ﴿ كَيْفَ مُنْكِم مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ .

ولكن الله أنطق لسان ذلك الصغير ، وأطلق الصوت من تلك اللّهة التي لما يكتمل تسكوينها بعد ، وحرك تلك الشفاه التي لما تهتد إلى موضع الأثناء ! فالتفت موجّها إليهم الخطاب في وضوح وبيان ؛ ولكنه لم يتحدث إليهم فيما وجهوه إلى أمه من لَوْم ، أو يجادلهم في تهمتهم التي ألصقوها بتلك البارة الطاهرة ، بل قال : ﴿ إني عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .

أُتراه بعد هذا في حاجة إلى دليل يَمَحَقُ باطلهم ، أو يبرهان يبيّن كذبهم !

(١) عزب : بعد وغاب . (٢) محبتها : أصلها . (٣) فرياً : جديداً منكراً .

ألم ينطقه الله بالحكمة ، ويُعِدّه للنبوة ، وهو لم يزل في المهد صبياً ، وفي حجر أمه طفلاً ؟ قد كان هذا آيةً على براءتها ، ومعجزة دالة على طهرها ؛ إذ القدرة التي أنطقته بالحكمة في هذه السن لا تعجز عن خلق مثله من غير أب ؛ فبكملة منه يُخلق ؛ فلا يكفُّوا إذاً عن لومهم ، وليتجنبوا الخوض في عرَضها ، وإشغال الفتنة حولها .

ولا نظن إلا أن هذا الصوت قد بهّـرهم ، وتلك الآية أخرجت ألسنتهم ، وأن هذه الحكمة من طفل في مَهْدِهِ قد ذاع أمرها في القرية ، وانتشر خبرها في هذه الحيلة ^(١) ، وصارت حديث الناس في دورهم ، ومجال القول في أُنديتهم ؛ فأكبروا من شأن هذا الوليد ، وبدلوا بظنهم السيِّئ يقيناً ببراءتها ، وعلموا أن هذا الصبي ليس كصُبية القرية ؛ بل سيكون له شأنٌ خطير ، وخطب جليل .

وليس لك أن تتصور أن هذا هو ما اعتقده الناس جميعاً ؛ فحال أن تجتمع كلمتهم على شيء ؛ بل إنى لأرى بعضهم قد ظنه حديثَ خرافة ، أو حسبه شيئاً ابتدعه أهلها ؛ رغبة منهم في إظهار براءتها وسُتْرِ فعلتها ، وحجاً في قطع السنة السوء التي طار سُواظها يُبلسهم ويؤذيهم ؛ ولا شك أن هؤلاء الذين لم تقَرع أسماعهم بالحجة ، ولم يمح شكهم البرهان الواضح كانوا قِلَّةً ، وكانوا من الجهالة بحيث لا ينصاعون للحق ، ولا تبدد وساوسهم الحجة البالغة ، والآية البينة ؛ فلم تستسغ عقولهم أن الله الذي يُمسك السموات والأرض أن تزولا ، ويده ملكوتهما - قادر على أن يخلق إنساناً بكلمة منه ، وأن ربهم الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون يستطيع أن يخالف المنهج الذي أليفوه ، والطريق الذي اعتادوه .

وخلق هذا شأنهم أجدرُ بأن تنبذهم نبذ النواة ، وأولى ألا تقيم لكلامهم وزناً ، ولا لرأيهم قدراً ، ولعل حقداً يشب^(١) في صدورهم ، وغلاتم كن من نفوسهم ؛ فأعمى أبصارهم ، وطبع على قلوبهم ؛ لذلك نراها لم تحتفل^(٢) بتلك الفئة القليلة الظالمة ولم تُعن بتلك الجماعة المكابرة ، وأقامت في القرية تُعنى بطفلها ، وترجى وليدها ، قريرة النفس ، منسرحة الصدر ؛ لأنها تعلم أن الله سوف يكلؤه برعايته ، ويحفظه بعنايته ، حتى يؤدى رسالته .

نبوة عيسى (*)

نشأ عيسى كما ينشأ كثير من الأطفال ، وشب كما يشب جل البنين ، إلا أنه قد ظهرت بوادرُ فضله ، وبدأت مظاهر نبوته ؛ فهو إذ يلعب مع لِداته ، ويلهو مع أقرانه ، ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ؛ وهو إذ يذهب إلى معلم القرية ، ويجلس إليه ، لا ينهج منهج غيره ، ولا يسلك سبيل أنداده ؛ بل تراه يستمع إلى حديثه في جده واهتمام ، ويُصغى إلى درسه في شوق ولطف ، ثم هو لا يعلمه شيئاً إلا بدَره^(٣) إليه ، وساء له عنه ، فلا تغيب عنه شاردة ، ولا تنبو عن ذهنه مسألة .

ثم يرحل إلى بيت المقدس مع أمه ، ولم تعد^(٤) سنه الثانية عشرة من عمره ؛ فلا يبهره ما يرى من جماعات مختلفة ، وألوان من الناس متباينة ، ولا يفتنه ما يقع عليه بصره من مشاهد رائعة ، ومظاهر خلابة ساحرة ، ولم تلته تلك المدينة

(١) لشب : علق . (٢) لم تحتفل : لم تبال وتهتم .

(*) آل عمران ٤٩ - ٥١ . (٣) بدر إليه : استبق إليه .

(٤) لم تعد : لم تجاوز .

بزيفها ، أُوْزِغُ بصره من زخرفها ، وهو في هذه السن التي هي في مجرى العادة لا توحى إلا بالعَبَث ، ولا تدفع إلا إلى اللهو ؛ ولكنه يُغْضَى عن كل ذلك ، ويلقى بنفسه في ميدان العلم ؛ يستقي من مَوْرَدِهِ ، ويرتوى من مَسْبِلِهِ ؛ ويلزم حلقة الدرس ؛ يصغى لمن اتخذوا لأنفسهم سميت العلماء ، وهم يُزْخَرُونَ للناس أحاديثهم .

ولما اندمج في جماعتهم ، واحتوته حلقتهم ، أنصت إلى حديث الكهنة كما ينصت الناس ، واستمع إلى آرائهم كما يستمعون ؛ فوجد القوم يؤمنون بكل قول ، ويصدقون كل حديث ، وهم جميعاً ينصتون كأنّ على رؤوسهم الطير ؛ فلم يلبث أن انبرى من بينهم متسائلاً ، وانتضى سيف الحق مقاتلاً ؛ فنقم بعض الناس منه جرأته ، وأنكروا عليه مسأله ؛ وضاق العلماء به ذرعاً ، وأوسعوه تأنيباً ؛ إذا لم يعهدوا قبله أن يجترأ أحد على جدالهم ، أو يُقَدِّم سامع على البحث في قولهم .

ولكنه لم يعبأ بما كاثروا له ، ولم يصرفه ما قابلوه به ؛ بل استمر يُمْتَطِرهم بأسئلته ، ويسد المسالك أمامهم بمحاجته .

وأنساه ذلك طعامه ، وألهاه عن شرابه ، وانتظرت أمّه أو بنته ^(١) ، ولكنه لم يرجع ؛ فبحث عنه في كل مكان تظنه يهواه ، وفشت عنه في كل كمال تحسبه يروده ، ولكنها عادت يائسة من لقاءه ، ورجعت غير آملة في العثور عليه .

ولما أعيأها البحث ظنته قد رجع مع بعض أقاربه ، أو سافر به بعض أهل بلده ، فعادت إلى قريتها ، وهي تحسب أنه قد سبقها إليها ، وسألت عنه فلم تجده ، وحاولت أن تقف على خبره ، وتسمع نبأه ، ولكنها لم تجد صدى لصوتها ، ولا أثراً لندائها ؛ ففعلت راجعة إلى بيت المقدس ، تعيد الكرة في

سؤالها ، وتطلب المزيد من بحثها .

ولم تترك في هذه المرة مكاناً إلا دخلته ، أو باباً إلا ولجته ؛ وبينما هي مجدّة في بحثها ، وقعت عليه عيناها ، وقد اندمج في زُمرّة العلماء ، وزجّ بنفسه في لجة الباحثين ، وهو يكثر معهم الحوار ، ويتناول عليهم في الجدل ؛ فدهشت لمآرات ، وأزعجها ما شاهدت ، ودعته إليها ، وساءلته عما ألهاه عنها ، وأنبته لفعلته ، وعنّفَتْه لغيابه ، ولامته على أنه قد اتعبها في البحث عنه ، وأضناها في السؤال عن مكانه ؛ فأجابها بأنه قد استهوته مُناقشة الحكماء ، ومناقلة العلماء .

ثم سار مع أمّه ، ورجع إلى الناصرة ^(١) .

ولما بلغ الثلاثين من عمره هبط عليه الرُّوح الأمين ، فكان ذلك بدءَ الرسالة ، وفاتحة النبوة ؛ ثم تَلَسَّسَ من ربه الكتاب الذي جاء مصداقاً لما بين يديه من التوراة ؛ فأخذ يؤذّن في الناس برسالاته ، ويدعوهم إلى متابعتة ، ويسعى في أن يرد اليهود عن زَيغِهِم ، ويصدِّمهم عن ضلالهم ؛ فقد انحرفوا عن الطريق القويمّة ؛ وحرّفوا شريعة موسى السمحة ، وجعلوا همهم جَمْعَ المال ؛ فصاروا يحرقّون الفقراء والمحتاجين على أن يقدموا للهيكَل ما استطاعوا من ذنور ، ويؤثروه بما ملكت أيماهم من هَبّات ؛ ليسيل النضار ^(٢) ، إلى جيوبهم ، ويتدفق الذهب في خزائهم ؛ وإن كان مَنْ يحرقّ ضونهم في أمْس الحاجة إلى المال ؛ يعولون به آباءهم ، ويربون منه أبناءهم ، ويمسكون به رمقهم ^(٣) ، ويسترون به أجسادهم . وكان من اليهود طائفة أنكروا القيامة ، واستبعدوا الحشر ، وكذبوا

(١) الناصرة : البلدة التي نشأ بها . (٢) النضار : الذهب .

(٣) رمقهم : حياتهم .

بالحساب والعقاب ، وطائفة غيرهم ألهمهم الحياة الدنيا ، وانغمسوا في ملاذها ، وأقبلوا على شهواتها ، يستسرون بها ، ويتسترون عن أعين الناس وهم يقتربونها ، يُراءون الناس ؛ ليوقعوهم في مخالبتهم ويبتزوا أموالهم .

هذه كانت الحال عندما بزغ نجم عيسى ، وأشرقت شمسُه ، وبعثه الله ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، فلم يترك سبيلا لهدايتهم إلا سلكه ، ولا بابا إلا طرقة ؛ يحاول أن ينتشلهم من هذه الوهدة ، ويخلصهم من تلك الحمأة .

وشعر رجال الدين بالتيار يجرفهم ، وأحسوا بالخطر يدكسهم ؛ فهاهو ذاعيسى ينكر عليهم انغماسهم في الشهوات ، وتهالكهم على اللذات ، وتسابقهم إلى جمع المال ؛ ثم هو يفضح أسرارهم ، وينشر بين الناس مخازيهم ؛ فأجمعوا أمرهم بينهم على مناوآته أينما حلّ ، وتكذيبه حيثما ذهب .

ولكنه لم يبال جمعهم ، ولم تتلذذ مناوآتهم ؛ بل صمد في سبيل الحق ، وثبت لدعوة الصدق ، وصار متنقلا بين القرى يزيف آراءهم ، ويفند أقوالهم ؛ فطالبوه بما يؤيد رسالته ، ويثبت دعوته ، ويدلهم على نبوته ؛ فأيده الله بالمعجزة الباهرة ، وآزره بالآية البينة ؛ فصار يخلق من الطين كهيئة الطير ، فينفخ فيه فيكون طيرا يأذن الله ، ويرى الأكنه^(١) والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله^(٢) .

ولا شك أن ذلك أمر لا يستطيع أحد أن يعالجه ، ولا يقدر بشر أن يأتي به إلا بتأييد من الله ، وكنصر من عنده ؛ ولكنهم مع قيام حجته ، ووضوح آيته ، تمادوا في طغيانهم ، وثبتوا على ضلالهم ، وقال الذين كفروا منهم : إن هذا إلا سحر مبين .

(١) الأكنه : الذي ولد أعمى .

(٢) آل عمران ٤٩ .

ثم وجدت دعوته آذاناً صاغية ، وقلوباً واعية عند كثير ممن لم تفتنهم زخارف الدنيا ، ولم تمتد أعينهم إلى متاعها ، ودفعته الحماسة لدينه ، إلى أن ينقض على رجال الدين في جحورهم ، ويقترحم عليهم حصنهم ؛ فرحل إلى بيت المقدس ، واختار يوم عيدهم ، ووقت اجتماعهم ، وعرض دعوته على الوافدين من شتى القرى ، والنازحين من مختلف المدن ؛ فالتف الناس حوله ، وتفتحت قلوبهم لحديثه ، وكثر أنصاره ، وانتشر أتباعه .

فأثار ذلك حفيظة^(١) الكهنة ، وحرك كامن غيظهم ، ودفعهم إلى التفكير فيما يريهم منه ، ويكفيهم شره ؛ ولكنهم لم يستطيعوا أن يمشوه بأذى ، أو ينالوه بضرر ؛ فقد وعد الله بحفظه ، وأيده بنصره ، ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ .

المائدة(*)

خرج عيسى يحبب البلاد ، ويجول في القرى ؛ يدعو إلى دين الله ، ويؤذن في الناس برسالته ، ويحاول أن يقوِّض صروح الظلم ، ويطمس معالم الشرك ؛ ومعه الحواريون^(٢) ، يشدون أزره ، ويشتد بهم عضده ، ويقاسمون سروره ، ويخففون عنه أحزانه ؛ ويحتملون معه وعشاء السفر ، وشطاف العيش ؛ ويحولون بينه وبين أعين الرقباء الذين يتبعون ظله أينما سار ، ويطاردونه حيثما حل ؛ فقد كان عيسى من أسرة قلَّ أعوانها ، وعز نصرائها ، وخمدت جذوة

(١) الحفيظة : الغضب . (*) المائدة ١١٢ - ١١٥ .

(٢) الحواريون : خالصاء عيسى وأنصاره .

العصبية فيها ؛ وللعصبية أثرها في دفع المعتدين ، ورد كيد الظالمين ؛ ألم يقل قوم
 'شعيب لنبيهم : ﴿ مَا تَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا
 رَحْمَتُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝١١ ﴾ .

أقاموا بقريّة ، وارتحلوا إلى أخرى ، وتلبّثوا بثلاثة ، وحطّوا رحالهم بغيرها ،
 وهكذا حتى أدّت بهم خاتمة المطاف يوماً إلى مفاضة ، مترامية الأطراف ، قد
 أجذبت أرضها ، وأقفرت جنباتها ، وهناك طوّوا^(٢) من الجوع ، وجفّت منهم
 الخلق ، ووهنت قوّتهم ، وفقرت عزيمتهم ، واشتدّ بهم الكلال والإعياء ، فزّلوا
 على غير ماء وطعام ، وجلسوا يتبادلون الحديث في شؤونهم ، ويقولون وجوه
 الرأى في أمرهم ، علّهم يهتدون إلى خير الطرق لبثّ دعوتهم ، ومغالبة الصعاب التي
 تعترضهم ، والنجاة من الأعداء الذين يترصدونهم ؛ وكان عيسى يحيي آمالهم ،
 ويشجّع عزيمتهم ، ويخفف آلامهم ، ويواسي المكتئب منهم ، ثم لا يفتأ يبين لهم
 ما استغلّاق عليهم فهمه ، ويوضح ما أنبهم أمامهم أمره .

وهؤلاء الحواريون - وإن كانوا قد شهدوا برسالة وآمنوا بنبوته ، واجتمعوا
 تحت رايته ، واستماتوا في سبيل نصرته - لا يزالون في حاجة إلى أن يزدادوا يقيناً
 إلى يقينهم ، وإيماناً إلى إيمانهم .

وجاشت تلك الرغبة في نفوسهم ، فلم يلبثوا أن كشفوا لعيسى عما اختلج
 في صدورهم ، فقالوا : يا عيسى ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة
 من السماء ؟

لم يكن ذلك منهم شكّاً في قدرة الله ، أو طعناً في نبوة عيسى ، فحاشاهم أن
 يكونوا من الشاكّين في قدرة الله ، أو المرتابين فيها بعد أن آمنوا بالله وبرسوله ،

وقالوا لعيسى : آمنا واشهد بأننا مسلمون ، أسلمنا لك قيادتنا ، وألقينا إليك مقاليدنا .

وقوم هذا شأنهم لا يسلك الشك سبيلا إلى نفوسهم ؛ وإنما سألوا تلك الآية - كما سأل إبراهيم ربه من قبل ، إذ قال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى . قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ﴾ (١) .

قال لهم عيسى . وقد عجب من أمرهم ، وخاف عاقبة سؤالهم : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، واحذروا أن تقتربوا أمثال هذه المعجزات ، لئلا تكون فتنة لكم ، وسبباً في فساد أمركم ، أو لم ترَوا ما تطمئن به نفوسكم ، ويزيل كل شك تحسونه في قلوبكم !

إن ذلك قد ينبئ عن عناد ومكابرة ؛ فمالكم تقتربون هذا الإثم ، وترتكبون ذلك الجرم ، وتطلبون تلك المعجزة بعد أن رأيتم ما أجرى الله على يدي ، من إبراء الأكفمة (٢) والأبرص ، ثم ما شاهدتم من إحياء الموتى بإذن الله ؟ فهل انتابكم الشك ، وداخلكم الريب ، وتسرب إلى نفوسكم الظن ، بعد أن رأيتم من الآيات ما يمحق كل باطل ، ويمحو كل شك ؟ يا قوم ، دعوا هذا اللجاج ، واركعوا تلك الوسواس إن كنتم مؤمنين .

هذهوا من روعه ، وسكنوا من جأشه ، وأبانوا له عن حقيقة الأمر وجليلته ، فقالوا : قد كنا صادقين في إيماننا ، مخلصين في إسلامنا ، وليسنا منكركين لآياتك ، أو شاكين في رسالتك ، وما زلنا مُقرِّين بنبوتك ، مؤمنين بدعوتك ؛ وما دفعنا إلى انتهاج هذه الطريق ، وحملنا إلى اختيار تلك الآية ، واقترح هذه المعجزة

(١) البقرة ٢٦٠ .

(٢) الأكمة : الذي ولد أعمى .

إلا أن لها فضلا ومزية ؛ فنجن نريد أن نأكل منها ^(١) ، ألم ترنا وقد سخوت منا البطون ، وأصبحنا لا نجد ما يمسك رمقنا ، ويخفف من سغبنا ^(٢) !

على أننا قد علمنا قدرة الله بالدليل ، وشاهدنا آثاره بالبرهان ، وعرفنا آياته بقراءة مصحف الكون ، فأما به ، وصدقنا برسالاته ؛ فإذا جئتنا بتلك المعجزة اطمأنت قلوبنا ، وازداد يقيننا ، وثبت إيماننا .

ولتعلم أننا على يقين من أن معجزاتك تشفى أمراض القلوب ، وتستأصل بذور الشك ، وقد سبق أن أيدت لنا نبوتك ، وعلمنا بها صدق دعوتك ، فلن ترى منا شكاً ، وإن تجد انتقاضاً ، وإنما سألنا هذه الآية ليزداد الدليل وضوحاً ، والقلب اطمئناناً ، والجنان ثبوتاً .

حنانيك ! فإننا نعلم أنك قد صدقتنا ، واستمددت وحيك من ربنا ، وأن الله مؤيدك بنصره ، مُسبغ عليك نعمته ؛ ولكن معجزاتك السابقة كانت أرضية ، وهذه الآية التي نطلبها سماوية ؛ سنرى بها أعظم مما رأينا وأعجب مما شاهدنا ، فإذا أتيت بها كنا لها مُذيعين ، ونخبرها شاهدين ؛ فيكثر تابعوك ، ويزداد المؤمنون بك .

ولما رأى عيسى منهم إصراراً على طلبها ، والحافاً ^(٣) في سؤالها ، وعلم أنهم لا يقصدون إلى عنت ؛ ولا يدفعهم إليها شك أو عناد ، وتبين له صحة قصدهم وصواب غرضهم ، دعا الله تعالى فقال : اللهم يا مالك الملك ، ومدبر السموات والأرض ، ومتولى شؤون خلقك ، ومسئير أمور عبادك ﴿ أنزل علينا مائدة

(١) قال بعض المفسرين : إنهم كانوا صائمين ، ولذلك قالوا : نريد أن نأكل منها . وتطمئن قلوبنا بأن الله قبل صيامنا .

(٢) السغب : الجوع . (٣) الحافاً : إصراراً .

مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١٥٨﴾ .

أجاب الله دعاءه ، وسمع ضراعه ، فقال : إني منزلها عليكم ؛ ليزدادوا إيماناً بك وثقة بنبوتك ؛ ولكن ليعلموا أن هذه الآية تُلزِمهم الحجة ، وتوحى إليهم بالبرهان الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ فمن يكفر بعد منهم فإني أعذُّبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين .

أنزل الله عليهم مائدةً من السماء ، فاضت بالرزق السابغ ، والخير الوافر ، إنجازاً لوعده ، وتأيداً لنبيه ، واستجابة لدعوته ، وخشى عيسى الفتنة إذ رآها ؛ فدعا الله أن يجعلها رحمة لهم ، ونعمة عليهم ؛ وسأل ربه أن يهديهم إلى الإيمان الثابت والطريق القويم ؛ ثم قال لهم : ها هي ذى المائدة قد أنزلها الله عليكم ، فكلُّوا مما سألتكم ، واشكروا له ، يزدكم من فضله .

طعموا منها ما شاءوا ، وقزت بذلك أعينهم ، وقوى إيمانهم ؛ ثم تحدث الناس بتلك المعجزة الباهرة ، والآية البينة ؛ فأمن خلق كثير ، وازداد المؤمنون يقيناً في الإيمان وثباتاً عليه .

النهاية (*)

كان عيسى جاداً في رسالته ، غير متوان في دعوته ؛ ينكر على اليهود ما درجوا عليه من النظم التي درت عليهم الأموال الطائلة ، وجعلتهم في بسطة من العيش وسعة ، ويعيب عليهم أن تستعبدهم دولة الألفاظ ، وتأسيرهم ظواهر

الشريعة ، وَيَنْتَهِى عَلَيْهِمْ أَنْ يَطْمِسُوا مَعَالِمَ الدِّينِ ، وَيَبْعَدُوا عَنْ صِرَاطِهِ السَّوِيَّ ، وَيُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ لَا يُؤَاتِمُ رُوحَ دِينِهِمْ ، وَلَا يُوَافِقُ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ رَبُّهُمْ .

وَلَمْ يَثْنِهِ عَنْ مُنَاوَأَتِهِمْ مَا أَعْلَنُوا مِنْ حُرُوبٍ ، وَمَا أَلْبَسُوا مِنْ جُمُوعٍ ، وَمَا بَشَّرُوا مِنْ عِيُونٍ .

حتى إذا قَهَرَتِ الْبَيِّنَاتُ أَلْبَابَهُمْ ، وَبَهَرَتِ الْآيَاتُ بَصَائِرَهُمْ ، وَتَخَصَّصَ^(١) نُورُ الْحَقِّ حُجَّتَهُمْ ، لَمْ تَجِدْ عَقُولَهُمْ سَبِيلًا إِلَى دَفْعِ حَقِّهِ ، أَوْ طَرِيقًا إِلَى مَغَالِبَتِهِ وَصَدِّهِ ، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ كَذَّبُوهُ بِأَفْوَاهِهِمْ وَبِالْسِّنِّتِ ، بَغْيًا وَعَدَاوَةً ، وَحَسَدًا وَلِجَاجَةً ؛ يَخَافُونَ أَنْ تَبِيدَ دَوْلَتُهُمْ ، وَتُمِيدَ عُرُوشُهُمْ ، وَتُطَوَّسَ صَخِيفَةُ سُلْطَانِهِمْ .

وَكَثُرَ مَعَ ذَلِكَ أَتْبَاعُهُ وَأَنْصَارُهُ ؛ وَإِنْ كَانُوا مِنْ طَبَقَاتِ دُنْيَا ، وَأَخْلَاطِ جَاهِلَةٍ .

حَاوَلَ الْيَهُودُ أَنْ يَخَفِّفُوا مِنْ أَثَرِ دَعْوَتِهِ ، أَوْ يَمُوتَهُوا عَلَى النَّاسِ أَمْرَهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ؛ فَقَدْ كَانَ كَالْفَلَكِ الدَّائِرِ ، وَالنَّجْمِ السَّائِرِ ، يُدَوِّى صَوْتَهُ بِالْدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَيَنْقِمُ عَلَى الْيَهُودِ حَيْثُمَا حَلَّ .

بَلْ كَانَ يَحْتَمِلُ أَحْلَامَهُمْ ، وَيَفْتَنُ مَذَاهِبَهُمْ ، حَتَّى غَضِبُوا عَلَيْهِ ؛ وَضَافُوا ذُرْعًا بِهِ ؛ فَصَوَّرُوهُ لِرِجَالِ السِّيَاسَةِ مُؤَلِّبًا لِلْجُمُوعِ ، مَثِيرًا لِلْفِتَنِ ، مُتَطَلِّعًا لِلْمَلِكِ ، لِيَنْضُمَّ هَؤُلَاءُ تَحْتَ لَوَائِهِمْ فِي مَعَادَاتِهِ ، وَفِي ذَلِكَ شِفَاءٌ لِنَفْسِهِمْ ، وَتَحْقِيقٌ لِمَا لَهُمْ .

وَعِيسَى عَلَى كُلِّ حَالٍ وَحِيدٌ فَرِيدٌ ؛ لَيْسَتْ لَهُ عَصَبِيَّةٌ تَحْمِيهِ ، وَلَا قَبِيلَةٌ تَوَازَرُهُ وَتَنْصُرُهُ ؛ وَلَكِنَّهُ لَا يَحْفَلُ بِغَضَبِ هَؤُلَاءِ ، وَلَا يَرْهَبُ عَنَّتِ أُولَئِكَ ؛ فَقَدْ تَكَفَّلَ اللَّهُ بِحِفْظِهِ ، وَرَعَاهُ بِقُدْرَتِهِ ، وَطَهَّرَهُ مِنَ الْكَافِرِينَ بِدَعْوَتِهِ ، وَعَصَمَهُ

من الجاحدين برسالته ، ووعده أن يُجِبط مكرهم ، ويرد كيدهم في نحسهم .

هال اليهود ما رأوا من تأليب الناس عليهم ، وانصرافهم عنهم ، وخيَّلت لهم نفوسهم أن عيسى قد تستطير بسببه الفتنة ، وتكاد تشبُّ من بين أنصاره الثورة ، مع أنه قد جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة ، ولكن أين هم منها ، وقد بدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دارَ البوار ، واستبدلوا بدين الله ما ينمى ثروتهم ، ويغدق الخير عليهم ، ويُبقي السلطان في أيديهم ، وزمام الشعب في حوزتهم .

ولما يئسوا من مقاومته ، وعجزوا عن صد تيار دعوته - وقد كاد يحرفهم ويمحو أثرهم - بثوا السيون والأرصاء له في كل طريق ، ينفثون سموم الدسائس ، ويحيكون له خيوط العدا ، ويذيعون أنه ساحر ، وأن ما يُظهر من معجزات ، وما يدعى من آيات إنما يملئه عليه الشيطان ؛ وأنه لا ينحون نحوهم ، ولا يقتفي أثرهم ، فلا يكفَّ عن أعمال الدنيا في يوم السبت ، وهو يوم عيدهم وعبادتهم ، ثم رموه بالبعد عن دينهم ، والكفر بنبيهم ، والمرُّوق من عقائدهم .

ولكن ذلك لم يخفيت من صوته ، ولم يثنه عن عزمه ؛ بل دأب في دعوته ، واستمر يؤذِّن برسالته ، وهم يخالون كل كلمة سَهْما ، ويحسون لكل همسة وقعا ، فلا كت الألسنة الحديث في شأنهم ، وابتدأت الجماعات تنفض من حولهم ، وخاف هؤلاء أن ينضب معين ثروتهم ، وتنقطع موارد أرزاقهم . فقاتلوا وجوه الرأي ، ثم أجمعوا أمرهم بينهم على أن يبدوا أصل الداء ، ويستأصلوا شأفته ؛ وبيتوا له الشر ، ودبروا القتل ، حتى لا يتألب الناس عليهم ، وينتقضوا على سلطانهم .

وما كان أجهلهم بدين الله ، وأبعدهم عن صراطه . حين هموا بقتل نبيٍّ يؤمن بكتابهم ، ويقر دينهم ، وهو لم يحترم جرما إلا دَعَوْتهم إلى التزام حدود الله ،

وَنَبَذَ الْمَآثِمَ وَالذُّنُوبَ ؛ وَلَمْ يَقْتَرِفْ إِثْمًا إِلَّا أَنَّهُ رَغِبَ فِي أَنْ يَرُدَّهُمْ إِلَى حَقِيقَةِ الدِّينِ ،
وَدَعَاهُمْ إِلَى حَسَنِ الْقِيَامِ بِهِ ، وَحَثَّهُمْ عَلَى الْإِخْلَاصِ لَهُ .

عَقَدُوا الْعَزْمَ عَلَى قَتْلِهِ ، وَلَكِنْ أَنَّى لَهُمْ ذَلِكَ ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مَكَانَهُ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ
بَحَثُوا عَنْهُ بِأَنْفُسِهِمْ لِأَعْيَانِهِمُ الْبَحْثَ ، بَلْ لَرَجَعُوا بِالْحَسْرَةِ وَبَاءُوا بِالْخِيبَةِ ، إِذَنْ
فَلْيَلْجِئُوا إِلَى الْوَعُودِ السَّكَاذِبَةِ ، وَالْأَمَانِ الْمَعْسُولَةِ ، يَبْذُلُونَهَا لِمَنْ يَأْتِيهِمْ بِهِ ، وَلَيْسَ كُنُوسُهَا
إِلَى الْعَيُونِ يَبْشُرُونَهَا حَوْلَهُ ، وَإِلَى الْأَمْوَالِ يَغْدِقُونَهَا عَلَى مَنْ يَدُلُّهُمْ عَلَيْهِ ؛ وَأَخِيرًا
إِلَى الْوَالِي يُثِيرُونَ غَضَبَهُ ، وَيُوْهَمُونَهُ أَنَّ فِي دَعْوَةِ عِيسَى زَوَالًا لِمُلْكِ قَيْصَرَ ،
وَتَقْوِيضًا لِسُلْطَانِهِ .

وَاجْتَمَعَ رِجَالُ الدِّينِ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ يَحْمِلُونَ الرَّأْيَ فِي أَمْرِ عِيسَى ، لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ
إِلَى مَكَانِهِ ؛ فَيُثَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنْهُ ، وَيَشْفُوا غُلُوبَهُمْ ، وَيَدْرِكُوا وَتَرَهُمْ .

وَيَنْبَغِي لَهُمْ فِي اجْتِمَاعِهِمْ - وَقَدْ ضَاقَتْ بِهِمُ السُّبُلُ ؛ وَتَمَلَّسَتْ لَهُمُ الْحُزْنُ وَالْيَأْسُ ،
وَحَارُوا فِي أَمْرِهِمْ ، وَخَافُوا أَنْ تَضْمَحَلَّ دَوْلَتُهُمْ وَتَزُولَ عُرُوشُهُمْ ؛ وَيَنْصَرِفَ النَّاسُ
عَنْهُمْ - وَيَنْبَغِي لَهُمْ فِي هَذَا الْحُزْنِ الشَّامِلِ ، وَذَلِكَ الْيَأْسِ الْقَاتِلِ ، دَأْفٌ إِلَى الْحَارِسِ ")
رَجُلٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ ؛ يَقْدُمُ رَجُلًا وَيُؤَخِّرُ أُخْرَى ، وَأَسْرَإِلِيهِ فِي خَوْفٍ وَحَذَرٍ ، أَنْ
لَدَيْهِ أَمْرًا يَرِيدُ أَنْ يُفْضِيَ بِهِ إِلَى الْمُجْتَمِعِينَ .

وَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِمْ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَسْتَنْبِئُونَهُ عَنْ حَاجَتِهِ ، وَيَسْأَلُونَهُ عَنْ سَبَبِ
تَقَدُّمِهِ ؛ فَأَفْضَى إِلَيْهِمْ بِمَا سَكَّنَ اضْطِرَابَهُمْ ، وَأَذْهَبَ خَوْفَهُمْ ، وَأَدْخَلَ السَّكِينَةَ
إِلَى قُلُوبِهِمْ ؛ وَحَدَّثَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا أَهْمَّتْهُ خُرُوجُ عِيسَى عَنْ دِينِهِمْ ، وَأَقْضَى مَضْجَعَهُ
لِإِنْكَارِهِ نَظْمَهُمْ ، وَأَقْدَى عَيْنِيهِ أَنْ يَرَى النَّاسَ يَلْتَفُونَ حَوْلَهُ ، وَيُؤِيدُونَ دَعْوَتَهُ ،

ثم أبدى - في حذر واضطراب - رغبته في أن يدلهم عليه ، ويعترفهم بمكانه ليريحهم من مصدر كمدهم ، فيصفو عيشهم بعد كآبهم ، ويستقر حالهم بعد قلقها .

وما كاد يتم كلامه حتى تنفّسوا الصعداء ، وطفحت وجوههم بالبشر ، وأقبلوا عليه يمشونه الأمانى ، ويديسّون له واسع الآمال ؛ فاطمأن إلى حديثهم ، وطابت نفسه بمحسول كلامهم ، ولعلّه كان كذلك يشفى غلاًّ تشب في صدره ، أو حقداً يحلق في قلبه .

ذهبوا به إلى الوالى ، فقص عليه القصص ، وخبره بمكنون أمر عيسى ، فابتعث مع ذلك الشيخ جنداً يأتون بعيسى ، ليقضوا فيه أمرهم ، وينفذوا حكمهم . وكان عيسى حينذاك قد عليم ما يخفى القوم ، وما بيّتوا له من شر ، وانتهى إليه ما أجمعوا أمرهم عليه ، وعرف أن عيون الكهنة تترصده ، ورجال السلطان يحدّثون في البحث عنه ؛ فأخذ ينتقل من مكان إلى مكان ، يختفى حيناً ويظهر آنأ ، وهو لا ينى عن بثّ دعوته ، ولا يقصر في إعلان رسالته ، ولا يفتأ يحضّ على التمسك بحبل الله ، ويدعو إلى البعد عن المنكرات والآثام ، وتلاميذه لا يفارقون ظله ، ولا يناون عنه .

وآوى معهم يوماً إلى بستان يسكنون إليه ليلتهم ، وظنوا أنهم بمناجاة عن العيون ، وإن يهتدى إلى مكانهم الباحثون ؛ ولكنهم كانوا واهمين ؛ إذ لم يكذبهم الليل ، ويستترهم الظلام ، حتى تهتدى الباحثون إلى مكانه ، وعثروا عليه في مخبئه ، فأصبح عيسى وتلاميذه بين أيديهم .

ولما رأى التلاميذ ما كاد يحق بهم وبصاحبهم تركوا نصرته ، وانفضوا من حوله ، وولوا هارين .

أما عيسى فما كان الله ليسلمه إلى أعدائه ، وهو يجاهد في سبيل إعلاء دينه ، وقد أتته بالمعجزات ، وآزره بالبينات ، ووعد بنصره على أعدائه ، ونجّاه من كيد الكائدين .

في هذه الساعة الرهيبة الفاصلة ، تجلت قدرة الله ، وامتدت إليه يد العناية ؛ فأخفاه الله عن أعين الناظرين ، ووقع تحت بصرتهم رجل شديد الشبه به ، وما لبثوا أن حسبوه هو فانقضوا عليه ، وأخذوا بتلابيبه ؛ فتمسكته الدهشة ، وعقد لسانه الخوف ؛ فلم يستطع الدفاع عن نفسه ، ولا الإعلان عن حقيقة أمره ؛ بل استسلم خائفا مذعوراً ؛ ولا غرّوا فالجماعات وقت انفعالها واضطرابها لا تتحرى ولا تستكينه الأمور ؛ بل سبيلها التسرع والاندفاع ، والاكتفاء بما يشبه الدلائل والبرهان ، بلا روية ولا إمعان .

ذاك الرجل هو يهوذا الذي دأبهم عليه ، فردّ الله كيده في نحره ، وجازاه على خيائته ومكره .

فاستاقوه إلى ساحة صلب فيها بين الصخب والضجيج ، والفرح والتهليل ، وهم يزعمون أنهم قتلوا عيسى . ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ، وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ؛ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ .

(*) ذوالقرنين

فَسَلَّ ذُو الْقَرْنَيْنِ إِلَى الْمَغْرِبِ غَازِيًا فَاتَّحَا ، مُحَارِبًا مُجَاهِدًا ؛ لَا يَصَادَفُ فِي طَرِيقِهِ حَزَنًا ^(١) إِلَّا سَلَكَه ، وَلَا عَالِيًا إِلَّا ظَهَرَهُ ، وَلَا عَدُوًّا إِلَّا كَسَّرَ سِلَاحَهُ ، وَقَصَّ جَنَاحَهُ ؛ لَا يُبَالِي فِي الْجِهَادِ الْحَزَّ وَلَا الْقَرَّ ، وَلَا السَّهْلَ وَلَا الْوَعْرَ ؛ إِذْ كَانَ اللَّهُ قَدْ مَكَّنَ لَهُ فِي أَرْضِهِ ، وَرَزَقَهُ الطَّاعَةَ وَالْإِنْقِيَادَ فِي جُنْدِهِ ، وَآتَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي تَوْطِيدِهِ مَلَكَ سَبَبًا ، وَمَنْعَهُ فِي الْقِتَالِ حِطًّا سَعِيدًا وَفَتْحًا مُبِينًا .

وَمَا زَالَ فِي طَرِيقِهِ يَسِيرُ وَيَسْرَى ؛ حَتَّى إِذَا تَنَهَّى إِلَى عَيْنِ اخْتِلَاطِ مَأْوَاهَا وَطِينُهَا ، فَتَرَامَى لَهُ أَنَّ الشَّمْسَ تَغْرُبُ فِيهَا ، وَتَخْتَفِي وَرَاءَهَا ؛ وَظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ هَذِهِ الْعَيْنِ مَكَانٌ لِلْغَزْوِ ، وَلَا سَبِيلٌ لِلْجِهَادِ ؛ وَلَكِنَّهُ رَأَى عِنْدَهَا قَوْمًا هَالَهُ كُفْرُهُمْ ، وَكَبُرَ عَلَيْهِ ظُلْمُهُمْ وَطُغْيَانُهُمْ ؛ إِذْ كَانُوا قَدْ عَثَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَأَكْثَرُوا الْفُسَادَ ، وَسَفَكُوا الدَّمَاءَ ؛ اسْتِجَابَةً لِلشَّيْطَانِ ، وَجَرِيًّا وَرَاءَ نَوَازِعِ النُّفُوسِ ، فَاسْتَخَارَ اللَّهَ فِي أَمْرِهِمْ ، وَمَا يَصْنَعُ بِهِمْ ، فَخَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ سَبِيلَيْنِ يَخْتَارُ إِحْدَاهُمَا ، وَيَسْلُكُ مَا يَرِيدُ مِنْهُمَا ؛ إِمَّا أَنْ يَذِيقَهُمُ الْقَتْلَ وَيُوقِعَ بِهِمُ النِّكَالَ ، جَزَاءَ كُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ ، وَإِمَّا أَنْ يُمَهِّلَهُمْ وَيَدْعُوهُمْ ، وَلَعَلَّ مِنْهُمْ مَنْ يَهْتَدِي ، أَوْ يَرْتَدِعُ وَيَرْعُو . فَاخْتَارَ ذُو الْقَرْنَيْنِ الْإِمْهَالَ عَلَى الْقَتْلِ ، وَالْحُسْنَى عَلَى الْإِثْمَانِ ^(٢) ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكِرًا . وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَاعْمَلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى ، وَنَسْقُوبُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) ؛ وَأَقَامَ فِيهِمْ

(*) الكهف ٨٣ - ٩٨ .

(١) الحزن - بالفتح : المرتفع من الأرض .

(٢) يقال : أئتمن فلان في الأرض قتلا ، إذا أكثر .

مدّة ، ضربَ على يد الظالم ، ونصرَ المظلوم ، وأخذ بيدَ الضعيف ، وأقام عمودَ العدل ، ونشرَ لواءَ الإصلاح .

ثمّ بدّأ له أن يثني عنانَ عزمه إلى الشرق ، فسار غازياً مجاهداً ، منصوراً موفقاً ، حسنَ الطالع مظفراً ، حتى انتهى في سيره إلى غاية العمران في الأرض . وهناك وجد أقواماً تطالع الشمس عليهم ، ولكن ليس لهم بيوت تستريحهم ، أو أشجارٌ تظليلهم ، ولعاهم كانوا على حال من الفوضى ، ونصيب من الجهل ... فبسط على بلادهم لواءَ حكمه ، وأضاء عليهم بنور علمه ورأيه ، وخلفهم إلى الشمال غازياً مجاهداً مظفراً منصوراً ، حتى انتهى إلى بلاد بين جبليين ، يسكنها أقوم لا تكاد تعرف لغاتهم ، أو يفهم في الحديث مرماهم ، ولكنهم قد جاوروا يأجوج ومأجوج ؛ وهم قوم في الأرض مُفسدون ، وأوزاع من الخلق ضالون مضلون .

وما إن رأوا ذا القرنين ملكاً قوى البأس ، شديد المراس ، واسع السلطان ، كثير الأعوان ، حتى فزعوا إليه أن يقيم سدّاً بينهم وبين جيرانهم ، يفصل بلادهم ويحول دون عدوانهم ، إذ كان يأجوج ومأجوجُ قوماً قد ركب الشر في نفوسهم جبلّة ، وامتزج الفساد بين جوانبهم خلقة ، السيف لا يمكنه أن يردّ عنهم ، والنصح محال أن ينفعهم ، وشرطوا على أنفسهم نوّاً يدفعونه إليه ، وأموالاً يضعونها بين يديه .

ولكن ذا القرنين — بما طبعه الله على الخير ، وما فطره على الصلاح ، وما أعطاه الله من كنوز الأرض وخيراتها — أجابهم إلى سؤالهم ، وردّ عطاءهم ، وقال لهم : ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ . ثم طلب إليهم أن يُعينوه

على ما يفعل ، ويساعده على ما يصنع ؛ فحشدوا له الحديد والنحاس ، والخشب والفحم ، فوضع بين الجبلين قطع الحديد ، وحاطها بالفحم والخشب ، ثم أوقد النار ، وأفرغ عليه ذائب النحاس ، واستوى كل ذلك بين الجبلين سداً منيعاً قائماً ، ما استطاعت أجوج ومأجوج أن تظهره (١) لملاسته ، أو تنقبه لمئاته ؛ وأراح الله منهم شعباً كان يشكو من أذاهم ، ويألم من عدوانهم .

أما ذو القرنين فإنه لما رأى السد منيعاً حصيناً هتف من قرارة نفسه قائلاً : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي . فَإِذَا سَجَاءٌ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ (٢) ، وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ .

(١) تظهره : تملو عليه . (٢) الدكاء : الأرض المستوية .

أَصْحَابُ الْكَهْفِ (*)

خرج أهل أفسوس (١) في يوم عيدهم ، يحتفلون بأوثانهم ، ويتقربون لأصنامهم ، ولكنّ شاباً من أشرافهم ، وأكرم بيوتهم ؛ لم تطمئن نفسه إلى ما رأى ، ولم يسترح عقله إلى الآلهة التي يعبدون ؛ فشكّ وارتاب ، واضطرب تفكيره وتحير . ثم انسلّ من بين جموعهم ، وخرج مخفياً من صفوفهم ، حتى انتهى إلى شجرة جالس إليها ، ساهما مطرقاً ، مرتاباً متحيراً .

وما لبث أن تهادى إليه آخر ، ممن ذهب مذمّبه في شكّه وحيرته . واضطرابه وارتبابه ، ومن أشبهه في شرف عُصره ، وكرم نجله ، ثم آخر وآخر ، حتى انتهى عدّهم إلى سبعة ، وما أسرع ما تعارفست أرواحهم ، وتماثقت آراؤهم ، وألفت بينهم فكرة واحدة ؛ وإن لم يكن بينهم نسب جامع ، أو رحم مائة . وأعلنوا لأنفسهم شكّهم وارتبابهم ، وإنكارهم لآلهة أقوامهم ؛ ثم جالوا في رحاب الكون ببصائرهم النافذة ، وفطرهم السليمة ، حتى ضاءت نفوسهم بنور التوحيد ، وهدوا إلى منشى الخلق وسر الوجود ، واستراحوا إلى هذا الدين واطمأنوا إليه ، واتفقوا على أن يكتُمُوهُ بين جوانحهم ، ويستروه في أعماق نفوسهم ؛ إذ كان الملك وثيقاً معنأ في الوثنية ، مشركاً ظهيرا للمشرّكين .

وظل كل واحد يخوض فيما يخوض فيه القوم ، ويضطرب فيما يضطرب فيه الناس ، حتى إذا ما خلا بنفسه ، واجتمع مع قلبه ، أتبّجه إلى الله عابداً مُصلياً ، ومنزهاً ومقدّساً ، حتى إذا كانت إحدى ليالي اجتماعهم ، وانتظام عقديهم ، قال

(*) سورة الكهف ٩ - ٢٦ . (١) أفسوس : بلاد بشفور طرسوس .

أحدُهم في صوت خفيض ، وحذر مريب : لقد سمعت يارفاقُ بالأمس خبراً لو صدق راويهِ - ولا إخاله إلا صادقاً - فإن فيه إفسادَ ديننا ، أو ذهابَ حياتنا ؛ سمعت أن الملك قد علم بأمرنا ، وافتضحَ عنده عقيدتنا وديننا ، فثار ثأرُهُ ، وهاج هائجُهُ ، وتوعدنا شرّاً إن لم نصباً ^(١) عن هذا الدين الذي أشرَبته نفوسنا ، وانسجم مع عقولنا وتفكيرنا ؛ وإنه يوشك أن يطالع علينا الغد ؛ فإذا جميعنا في حضرته ، وبين وعده ووعيده ، وسيفه ونِيطه ^(٢) ؛ فتدبروا أمركم ، واحزموا رأيكم .

قال الثاني : هذا خبر كنت سمعت به من قبل فسيبته من إرجاف المرجفين ، وتأويل الجاهلين ؛ ولكن يظهر أنه استفاض وذاع ، حتى دل على صدقه ، أو إمكان وقوعه ؛ وما أرى إلا أن تثبت على ديننا ، ونصمد لاضطهادٍ يراد بنا ؛ ومحال أن نرجع إلى هذه التماثيل التي يعبدونها ، بعد أن عرفنا فسادها وبطلانها ؛ ولسنا براجعين عن عبادة الله ، ومع مطلع شمس كل يوم دليلٌ على وجوده ، وفي كل سُبُحَة من سُبُحات التفكير شاهد على عظمتِهِ .

وصدقت الإشاعات ، وصحت الأخبار ، وانتظم جمهورُهم أمام الملك ؛ بعد أن انتزعوا من منازلهم ، وأخذوا من بين أهليهم .

قال لهم : لقد حاولتم سِترَ أمر فلم تفلحوا ، وجاهدتم في كتمان دين ولكنكم لم تنجحوا ؛ وقد انتهى إلى مُعْجَرِكُمْ ^(٣) ومُجْجَرُكُمْ ، وخبرُكم وخبرُكم . ووصل إلى أنكم صَبَأْتُمْ عن دين الملك والرعية ، إلى دين لا أدري كيف هبط عليكم ، أو وصل عليه إليكم . وقد كان يهون على أن أترككم تهيمون في دينكم ، وأن ألق

(١) نصباً : نرجع (٢) النيطع : الجملاد يوضع عليه القتيل .

(٣) معجركم ومججركم : ما أبدىتم وما أخفيتم .

جبلكم على غاربكم ؛ لولا أنى علمت أنكم من أشراف قومكم ، ومن أوساط عشائركم ، وتوشك العامة — لو علمت بأمركم — أن ترد شريعتكم ، وتدخل دينكم ، وتثقل^(١) طريقكم ، وفى ذلك ما فيه من إفساد الملك ، وانتقاض جبل الأمان .

ولست بمُعجِّل لكم العذاب ، أو مُوقع عليكم العقاب ، حتى تفكروا فيما أنتم مُقديمون عليه ؛ فإما رجوعٌ إلى ملتنا وإذعان لما فيه الناس ، وإما أن يرى الرأى فإذا أمامه رؤوس ملقاة ، وأشلاء ممزقة ، ودماءٌ منكم تسيل .

وربط الله على قلوبهم ، وأيدهم فى إيمانهم ؛ فقالوا : أيها الملك ، إن هذا الدين لم ندخل فيه مقلدين ، ولم نعتنقه مُكرهين ، ولم نَسِرْ فيه جاهلين ، دعئنا إليه الفطرة فلبئنا ، وأضاء لنا العقل وفى ضوئه سرنا ؛ هو الله الأحد ، لن ندعو من دونه إلهاً ؛ أما قومنا هؤلاء فقد هبّدوا أصنامهم جاهلين مقلدين ، لم يأتوا عليها بسلطان ، ولم يدُلّوا عليها ببرهان ؛ هذا ما انتهى إليه علمنا ورأينا ، فأقض ما أنت قاض .

قال الملك : اذهبوا اليوم على أن تأتونى فى الغد أنظر فى أمركم ، وأفصل فى قضيتكم .

وخلصوا إلى أنفسهم يشتورون فيما يفعلون ، ويُحِيلون قِداحَ الرأى كيف يصنعون ؛ قال واحد منهم : أما وقد عرّف الملك أمرنا فلا مقام لنا بين وعده ووعيده ، وإطاعه وتهديده ، ولَسَفِرٌ بديننا إلى ذلك الكهف من الجبل ، فإنه قد يكون على ظلامه وضيقه ، أفسح صدرأ ، وأطيب مكاناً من هذه الأرض

(١) تثقيل طريقكم : تثعبها .

الوسيلة التي لا نستطيع أن نعبد الله فيها كما نريد ، وأن نجهر بديننا كما نعتقد ؛
ولا قرار في مكان مُراد فيه على دين لا نطمئن إليه ، ولا كرامة في وطن نُفهر فيه
على رأى لا نعتقده .

وأصبحوا جميعاً يحملون زادهم ، مفارقين أوطانهم ، مهاجرين بدينهم ؛ ولمحهم
كلبٌ في الطريق ، فسار في إثرهم ، وتعلق بهم ، فلم يروا بأساً في أن يوافقهم ؛
يصحبهم أو يحرسهم .

وما زالوا في سيرهم حتى انتهوا إلى الكهف ؛ وهناك وجدوا ثماراً فأكلوا ،
وماءً فشربوا ؛ ثم اضطجعوا قليلاً ليبرّدوا أقدامهم ، ويعيدوا ما ذهب من
عافيتهم في أثناء سيرهم ، ولكنهم ما عتَموا أن أحسوا إغفاءة خفيفة ، داعبت
جفونهم ، ثم أسلمت رموسهم إلى الأرض في نوم عميق .

وتعاقب ليلٌ إثر نهار ، ومضى عام وراء عام ، والفستية راقدون ، والنوم
مضروب على آذانهم ، والكسرى معقود بأجفانهم ، لا تزججهم زَجْجَة الرياح ،
ولا يوقظهم قصف الرعود ، تطلع الشمس فتتفد إلى الكهف من كوّته ، فتمنحه
الضوء والحرارة ، ولكن أشعتها لا تصل إليهم ، وتغرب فتميل وتبتعد ؛ تحقيقاً
لما أراد الله من حفظ أجسادهم وبقاء جثثهم ، ولواطلع مطلع عليهم لرآهم يتقلبون
مرة ذات اليمين وأخرى ذات الشمال ، وقد تغيّرت حالهم ، يبعثون الرعب فيمن
يراهم ، والهول فيمن يطلع عليهم .

ودخلت سنة تسع وثلاثمائة منذ نومهم ، انتهوا بعدها ، وهم لا يكادون
يُمسكون نفوسهم من الجوع ، أو يحسون أعضاءهم من التعب ، ظانين أن

الزمن لم يمض بهم ، وأن بحجة التاريخ واقفة عند كهفهم .

قال واحد منهم يسأل : 'يُخَيَّلُ' إلى أن ساعات طويلة رقدناها ، فما تظنون يا رفاق ؟

وقال الثاني : ربما نكون قد لبثنا يوما ، فإن هذا الجوع الذي نُحسُّه . والتعب الذي نشعر به لَيُؤْذِنُ بما أظن .

وقال الثالث : نحن رقدنا في الصباح ، وهذه الشمس لم تَطْفُلْ ^(١) ؛ فما أظن إلا أننا قد لبثنا بعضا من يوم .

وقال الرابع : دعونا من تساؤلكم ؛ فالله أعلم بما لبثتم ، ولكنني أحس الجوع شديداً ، كَأَنِّي لم أَطْعَمَ منذ ليل ، فليذهب واحد منكم إلى المدينة يلتمس لنا طعاماً ، وليكن حذرا لئلا ، فطينا أرباباً ، حتى لا يعرفه أحد ، ولا يفيطن إليه إنسان ؛ إنهم لو ظهروا علينا ، وعرفوا مكاننا ، يقتلوننا أو يفتنوننا في ديننا .

فخرج إلى المدينة واحد منهم يلتمس الطعام ، وهو خائف حذر ، ودخل أفسوس ، وما راعه إلا تغييراً في معالمها ، وانقلاب في مبانيها : هذه خرائب أضحت قصورا ، وتلك قصور أمست خرائب وأطلالا ، وتلك وجوه لم يعرفها ، وصور لم يالفها :

أما الديار فإنها كديارهم وأرى رجال الحى غير رجاله

وتحيرت نظراته ، وكثرت لفتاته ، وظهر الاضطراب في مشيته ، والرجوم في حيرته ، وألح عليه الاضطراب ، وتتابع الوجوم ، حتى لفت الناس إليه .

قال له أحدهم : أغريب أنت عن هذا البلد ؟ وفيم تتأمل ؟ وعمّ تبحث ؟

(١) لم تطفل : لم تدن للغروب .

قال : لست غريباً ، ولكنني أبحث عن طعام أشتريه ، فلا أرى مكان بيعه ؛ وأخذ الرجل بيده حتى انتهى به إلى صاحب طعام ، وأخرج صاحب الكهف دراهمه ، ونقدها التاجر ، وما راعه إلا أن رأى نقوداً ضربت من نحو أكثر من ثلاثمائة عام ، فحسب أنه عشر على كنز ، وأن من وراء دراهمه دراهم كثيرة ، وأموال عظيمة ؛ فاجتمع الناس من حوله ، ودلّفوا إليه من كل مكان :

فقال : يا قوم ، ليس الأمر كما زعمتم ، وليست هذه النقود كما توهمتم ، وإنما هي دراهم قد وقعت لي في بعض معاملات مع الناس بالأمس ، وأنا أشتري بها طعامي اليوم ، فما يدعوكم إلى الدهشة ؟ وما يدفعكم للافتراء على بما تظنون ! ثم هم بالعودة ؛ خشية أن يفتضح أمره ، أو تظهر حقيقة حاله ؛ ولكنهم عادوا فرفقوا به وتلاطفوا معه في القول ، وحاوروه في الحديث ، وما كان أشدّ ذهولهم حينما علموا أنه أحد الفتيّة الأشراف ، الذين هربوا من تسع وثلاثمائة سنة من ملكهم الجائر الكافر ، وأنهم هم الذين - فيما سمعوا - تطلّبهم الملك فلم يظفر بهم ، ونشدهم فلم يهتد إليهم ، وما كان أشدّ خوف الرجل حينما علم أنهم فطنوا لأمره ، وعرفوا قصته ؛ فخاف على نفسه وإخوانه ؛ وهمّ بالهروب .

قال أحدهم : لا تُرعَ يا هذا ، إن الملك الذي تخافه قد مات من نحو ثلاثمائة عام ، وإن الملك الذي يجلس الآن مؤمن بالله كما تؤمنون ، وأما أنت فأين بقية صحبك ؟

فأدرك الرجل حقيقة حاله ، وعرف تلك الفسّوجة من التاريخ التي تفصل بينه وبين الناس ، فهو الآن لا يعدو أن يكون شبّاحاً يمشي ، أو ظلالاً يتحرك ؛ ثم قال لمن يحدثه ، دعوني أذهب إلى صهي في الكهف ، أحسّتهم عن شأني وشأنهم ، فربما يكون قد طال انتظارهم واشتدّ قلقهم .

وسمع الملك بأمرهم ، فخف إلى لقائهم ، وسعى إلى كهفهم ، فرأى فيهم قوما أحياءً
تُشرق بالحياة وجوههم ، وتجرى الدماء في عروقهم ؛ فصالحهم وعانقهم ، ودعاهم
إلى قصره ، والإقامة في داره ، فقالوا : وما نبغى بالحياة ، وقد مات الحفيد والولد ،
وعفت الدار والسكن ، وانقطع ما بيننا وبين الحياة من أسباب ؛ ثم توجهوا إلى الله
طالبين أن يختارهم لجواره ، وأن يشملهم برحمته ، وما هو إلا ارتداد الطرف
حتى وقعوا أجساداً لا حياة فيها .

أما القوم فقالوا : لعل الله أعثرنا عليهم ، لنعلم أن وعد الله حق ، والبحث
صدق ، والساعة آتية لا ريب فيها ؛ ثم تنازعوا أمرهم بينهم ، ﴿ فقالوا آبنوا عليهم ﴾
بُذِيَانَا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قال الذين غلبوا على أمرهم لَنَسْتَخَذَنَّ عليهم
مَسْجِدًا .

(*) أصحاب الأُخُدُودِ (*)

صَنْعَاءُ^(١) قد لفحت الشمس بسهامها المحيطة ، ومستتتها الصحراء بأوارها المتسعر ، ولهذا أقفرت شوارعها ، وسكنت حركتها ، وختلت من الناس ؛ إلا رجلاً ظهر فجأة من الشمال ؛ وكأنه قادم من الصحراء ، وقد جاوز الأرباض والحدود ، واتخذ سبيله نحو قصر الملك ذي نُوَاس .

كان كل ما فيه يبعث على الشك والارتياب : وجهه يعلوه الوجوم ، وعينان تختلج فيهما الحيرة ، وخطوات مضطربة غير مطمئنة ؛ وكأن بين جنبه سرًا يريد أن يفضي به ، أو أمراً جليلاً قدم من أجله ؛ إلا أن حارس القصر لم يدعه يستمر في اضطرابه ؛ بل سأله ما قدومه في هذه الساعة التي ألزم فيها الحرّ الناس الدور ، وسكن فيها الإنسان والحيوان ، والطير والنبات ؟

قال الرجل : أتيت في أمر جليل الخطر ، عظيم المقدار ، أكاشف به ذا نُوَاس . قال الحارس : إن الملك في شغل عن لقاءك ، ولقاء غيرك من السُّطَرَّاق والوافدين ، وإن يكن انتهى من قتل ذي الشَّنَاتِر ، وتوطيد الملك في صَنْعَاء ، وإرجاع اليهودية في الين إلى ما كانت عليه في عهد تَبَع ؛ إلا أنه يعدّ العدة ، ويهيئ الرحلة لغزوة بعيدة في الأرض تلتطم الشرق والغرب ، والسهل والجبل ؛ وقد أقسم يميناً غليظة ألا يقرّ له جنب على وساد ، ولا يغمض له جفن على نوم هادئ ، حتى يرى اليهودية ديناً شاملاً ، وحكم التوراة في الأرض نافذاً ؛ وهو حينما تَصَيِّفُ^(٢) الشمس للغروب ، وحينما تخف وطأة الحر - يخرج إلى هذه الحديقة من

(*) البروج . (١) صَنْعَاء : مدينة بالين . (٢) تَصَيِّفُ : تميل .

القصر ، ويجمع إليه الأذواء والأقبال ^(١) ، والأشراف والقواد ، الذين تألفهم لطاعته ، وأرادهم على دينه ؛ فيشاورهم في الأمر ، ويهيئون جميعاً سبل الغزو والجهاد .

قال الرجل : إننى لم أبعد شيئاً عما فيه الملك ، وإنى ما قدمت عليه إلا فى أمر له صلة بهذا الدين الذى كسُِّلَّ سيفه فى سبيله ، ويريد أن يحمل الناس على اتباعه ؛ ولو أنك حدثته بما قدمت له فإنى لأرتاب فى أنه سيدعونى إليه : ولا أشك فى أنه سيهتم لهذا الشأن ، وسيكون منه موضع تفكير وتدبير .

ثم أوى إلى زاوية من زوايا القصر ، ريثما تخف وطأة الحر ، وينزل الملك ليأخذ مع من يحبىء إليه فيما يهمهم من شؤون .

وخرج ذو نواس من مخدعه ، وأخذ سبيله إلى مكانه من حديقته ، واجتمعت حوله حاشيته ؛ وقبل أن يخوضوا فى الحديث جاء الحاجب يقول : إن رجلاً قدم اليوم من نجران ^(٢) للقاء الملك ، وإنه - فيما يزعم - يريد أن يُفَضِّلَ إلى الملك بأمر دين جديد ، يخشى منه على اليهودية .

قال ذو نواس : دين جديد ! على بالرجل من فورك ، وجاء الرجل فقال : أيها الملك المتوج ! نعيم مساؤك ، ودائم لك سلطانك ، ولئيمتك الظفر بأعدائك ، ولئيمي لك الله هداية وتوفيقاً فيما تريد ؛ جئتك يا مولاي لا طالباً رفداً ، ولا مُستعدياً بك على مظلوم ؛ ولكن حدثاً بنجران قد وقع ، وإنه إن لم يُتدارك أمره ، فإنه يوشك أن يمتد إلى غيرها من البلدان ، وربما امتد إلى اليمن ، وربما جاوزها إلى غيرها من أصقاع الأرض .

(١) الأذواء والأقبال : موكب اليمن . (٢) نجران : إقليم باليمن من ناحية مكة .

فقال ذو نواس : قد رَوَّعَتْنِي بِأَخْبَارِكَ ، وَشَغَلْتَ بَالِي بِحَدِيثِكَ ؛ فَهَاتِ لِي أَجْمَلَاتٍ تَفْصِيلاً ، وَلِمَا لَوَّحْتَ بِهِ بَيَاناً وَتَبْيِيناً .

قال الرجل : إنه منذ أيام قد دخل على نجران دين جديد يدعونه النصرانية ، ويُبشرون له باسم عيسى المسيح : فأما الوثنيون من أهلها فقد ارتاحت قلوبهم إليه ، وتغلغل في نفوسهم ، ودخلوا فيه أفواجا ؛ وأما اليهود ففريق منهم صبأ عن دينه ، ودخل فيما دخل فيه الوثنيون ، وفريق ظل على اليهودية ، ولكنه مُمتحن بالأذى ، مُبتلى بالكيد ، وإن لم يتدارك الملك اليهودية بنجران فإنه يوشك أن يمتحى ظلها ، ويعضو رُسمها ، وينتهى تاريخها .

فاستوى ذو نواس في جلوسه ؛ وكأنه قد غص بريقه ، وقال : كيف دخل هذا الدين نجران ! وكيف مُمكن له في هذه الأرض ! وكيف استطاع أن يصل إلى القلوب على قرُب عهده وحادثة ميلاده ! زدني إيضاحاً .

قال الرجل : قد وفد على نجران فيمن يفد عليها من الأرقاء رجлан ؛ أحدهما رومي واسمه فيميون ، والآخر عربي واسمه صالح ، أما فيميون فاشترى رجل من الوثنيين عبادة النخلة ، فوجده كريماً منسهما ، يحول في عُزته ماءً التقوى ، ويفوح من خلائقه عَرَفُ الصلاح ؛ فكان يعمل له عامّة يومه ، لا يعرف الكلال ولا الشكوى ، فاذا كان المساء أوى إلى حجرة أفرد لها ليصلي فيها .

وطلع عليه سيده يوماً فوجده يصلي ، والحجرة مضيئة من غير مراج ! فعجب منه وسأله عن دينه ، وهل يؤدي عبادةً أخرى لغير هذه النخلة التي يعبدونها ، ويستلهمون أسرارها ؟ قال : إنما أعبد الله مالك الملك ومدبّر الخلق ، ومصدر الوجود ، ذاك الذي أرشد المسيح إلى وجوده ، ودلّ على قدرته ؛ وأما هذه النخلة فإنها لا تملك ضراً ولا نفعاً ؛ بل لا تستطيع جلب خير لها ، ولا دفع شر يُراد

بها ، ولوشئت لدعوت الله أن يرسل عليها ريحاً تجففها ، أو ناراً تحرقها : فربما فعل ، وربما استجاب .

قال له سيده : أو تستطيع ؟ قال فيميون : أتؤمن بالنصرانية لو فعلت ؟ قال : نعم . فصلى فيميون - فيما يزعم أصحابه ومريدوه - ودعا الله فأرسل على نخلة سيده ريحاً جففتها وألقتها . فعند ذلك آمن الرجل ، وشاعت هذه القالة في نجران ، ودخل الناس في النصرانية أفواجا ولست ترى الآن في هذه الأرض إلا من دخل ، أو هو سيدخل في هذا الدين .

قال ذو نواس : وهل بقي عندك فضل من حديث ؟ قال الرجل : لو شئت لحديثك ما يتناقله أهل نجران عن فيميون ، لتعلم مبلغ حبهم لدينه ، وتعلقهم بذاته . قال ذو نواس : هات كل ما عندك ، فإنك قد شغلت بالي بحديث هذا الدين وأمر هذا الرجل .

قال : زعم رفيقه صالح - من تاريخه معه - أنه بينما كان يعمل في قرية من قرى الشام إذ بصُرَ بفيميون سائراً في إحدى طرقاتها ، فشهد عليه علام التقوى ، وتحدثت معارفه عن عقل راجح : فأحبه وعلق به ، وتبعه أنى ذهب من حيث لم يشعره بذلك ، حتى خرج في يوم من أيام الآحاد إلى الصحراء يصلى ، وبينما هو في صلاته أقبل نحوه تنين فاغر فاه ! فدعر صالح وارتاع وصاح : يا فيميون ، احذر التنين فإنه مقبل نحرك ؛ ولكن فيميون أقبل على صلاته ، وما أقرب منه التنين حتى مات ! عند ذلك ظهر صالح ، واستأذنه أن يرافقه ويأنس به ، فأذن له ، وما زالا ينتقلان من قرية إلى قرية ، وفيميون يظهر من كراماته وعجائبه ، وما زاد صالحاً فيه حباً ، وبه تعلقاً ؛ حتى كانا بإحدى البوادي إذ طلع عليهما بعضُ العرب ، وأخذوهما أسيرين ، ثم باعوهما في

نجران ، وكان من أمر فيمميون ماسمعت .

وما انتهى الرجل من حديثه ، حتى ثارت حفيظة ^(١) ذى نواس ، واضطربت نار الغضب في صدره ، أن يظهر في نجران دين غير اليهودية ، أو يعلو فيها حكم لغير التوراة ؛ وحلف لا يغمد سيفاً ، ولا تسكن منه ثائرة ، حتى ينسكل بأهل نجران ، أو يرجعوا إلى اليهودية مذعنين .

وخرج ذو نواس من صنعاء بجيش يملأ أقطار الأرض قاصداً نجران ، فلما وصل إليها ضرب من حولها نطاقاً ؛ فارتاع أهلها وذهلوا ؛ ولكنه قبل أن يبدأهم بعذاب أو ينالهم بمكره جمع سادتهم ، وأصحاب الزعامة فيهم ، وقال : إني قد رأيت — كرمًا وتفضلاً — قبل أن يستحرف فيكم القتل ، ويعمل فيكم السيف ، وينالكم الأذى — أن أختيركم بين اليهودية ، ديني اليوم ودين تبع من قبل ، وبين ما اعتنقتموه من دين جديد . ولست بصانع لكم العذاب حتى تفكروا ، ولا بمُعمل فيكم السيف حتى تتدبروا .

فقالوا : إنما النصرانية دين أشربته نفوسنا ؛ ودخل فيما بين شغاف قلوبنا ، ومالنا عنه محيص ولا معدل ، وسواء علينا أوسعت لنا في الأجل ، أم عجلت لنا بالموت !

فلما رأى إصراراً وعناداً ، وتمسكا بالنصرانية واعتصاماً ، أمر بشق أخدود ^(٢) في الأرض ، وأحضر وقوداً وخطباً ؛ ثم أشعلوا النار ، وبعثوا الدخان ، وأخذوا النصراني يلقونهم في لها ، لم يعفوا شيخاًهما ، ولا امرأة عجوزاً ، ولا طفلاً رضيعاً ، حتى خلت نجران من النصراني ، ولم يبق بها غير اليهود .

(١) الحفيظة : الغضب . (٢) الأخدود : الشق الكبير في الأرض .

سبل العلم (*)

قامت دولة سبأ على أطلال الدولة المعينية باليمن ، وخلفتها في لغتها وعاداتها ، واقتبست منها حضارتها ومدنيتها ، وتدرجت من الإمارة البسيطة ، إلى الدولة المحدودة ، إلى الملك الواسع العريض . وأسسوا القصور الشاحنة بصراً واح (١) ، ثم انتقلوا منها إلى مأرب ، واتخذوها حاضرة لهم ، حيث أخصب لهم العيش ، وطابت الحياة ، وتقلبوا في أعطاف النعيم .

كانت اليمن بلاداً مُستفيضة الرقعة ، ذات أودية عريضة ، وتربة خصيبة ؛ ولكنها كانت شحيحة بالماء ، مقفرة من الأنهار ، إلا وابلاً (٢) من المطر يتحدر من سفوح الجبال ، ثم يمضي قدماً إلى الصحراء ولا يلوى على شيء ، حتى يأخذ سبيله إلى باطن الأرض ، فلا يلبث إلا كما يلبث الطيف ، أو تقيم سخابة الصيف ؛ فأجأتهم الحاجة إلى أن يبتدعوا أمراً يتوقَّون به هذه السيول ؛ ثم ينتفعون بها ، فهُدوا إلى طريقة السدود والحواجز ؛ يقيمونها بين الأودية ، ويصطنعون التارق الهندسية التي تسهل الانتفاع بما تخلفه وراءها من مياه .

كثرت هذه السدود ، وتعددت تلك الحواجز ، بكثرة الأودية وتعدد الجبال ، حتى جاوز عددها المئات ؛ ولكن سد مأرب كان أقواها وأمتنها ، وأجداها وأنفعها . تقع مدينة مأرب في نهاية واد فسيح يتجه إلى الجنوب ؛ ثم يقصر أمدّه ، وتضيق رقعته رويداً رويداً ، حتى يكون أضيق ما يكون ، ثم يمتد حتى يلتقي بمجرى السيول المتحدرة من جبال السراة .

(٥) سبأ ١٥ - ٢٠ (١) صرواح : مدينة ذات حصون باليمن (٢) الوابل : المطر الكثير .

ففي هذا الوادى أقام الملوك الصَّيِّد^(١) من سبباً سداً عريضاً منيعاً حصيناً ، قويا
مكيناً ؛ وجعلوا على جانبيه مصارفَ بطرق هندسية منتظمة ، هيأت لهذا الوادى
أن يصبح بفضل ما احتجزوه من الماء أرضاً خصيبة ، فيها زروع نضرة ، وحدائق
ذات بهجة ، ونطقت تلك الحجارة الصماء بألفاظ من الأشجار مورقة ، وأساليب
من الأزهار مُعجبة ، واستحالت رمال الصحراء بسطا هندسية خضراء ، تجري
فيها القنوات الملتوية ، وتصدح فوق خمائلها الشجارير^(٢) المغنية ، إلى الأثمار
الدانية القطوف ، والأزهار المعجبة الألوان .

كانت المرأة تسير على سطح هذه الحدائق حاملة مكنتلها^(٣) فوق رأسها ، فلا
تمضى في السير غلوة ، حتى يكون قد امتلأ المكنتل من الثمر المتساقط من شجره ..
واتسعت لديهم النعمة ، وفاض عندهم الخير ، واشتغل جماعة منهم بالتجارة والرحلة ،
فكانوا يسيرون إلى القرى التى بارك الله فيها من الحجاز والشام آمنين مطمئنين ،
لا يسرون مرحلة أو مرحلتين حتى يكون الله قد هبأ لهم مكانا يُبردون فيه
أقدامهم ، ويريحون أبدانهم ، ويتبلغون بطيب الزاد ، وعذب الماء ؛ وهم فيما بين
ذلك آمنون مطمئنون ، نعمة تظاهر نعمة ، وفضل من الله يعقب فضلا . ﴿ بَلَدَةٌ
طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ .

فكانوا مُخْلِقاء أن يشكروا لله نعمته ، وأن يحمده على ما أطعمهم من جوع ،
وآمنهم من خوف ، ولكنهم جَرَّوْا في عِنان بعض مَنْ سبقتهم من الأمم ، وساروا
في درجهم ، وتقيَّلوا طريقَتهم ومذهبهم ؛ فكفروا بالنعمة ، وبالغوا في البطر

(١) الصيِّد : جمع أصيد ، وهو الملك العظيم المتكبر .

(٢) الشجارير : جمع شجور ، وهو نوع من الطيور .

(٣) المكنتل : وعاء من خوص .

والآثـرة^(١) ، حتى أرسل الله فيهم أنبياء نصحوهم ، فأعرضوا ، وهداة مرشدين حاولوا إصلاحهم ، فوضعوا أصابعهم في آذانهم واستكبروا ، ثم انصرفوا عن العمل ، وشغلوا عن العمران ، فأراد الله أن يذيقهم وبال أمرهم ، وأن يريهم عاقبة كفرانهم ، ليكونوا عبرة لغيرهم ، ومثلاً لمن يأتي من بعدهم ، وعقوبة قاسية لمن تحدّثه نفسه أن يسلك طريقهم ، ويفعل فعلتهم .

فقدّم السدّ ، وتقوّض البناء ، ولم يستطع أن يحجز السيول المتدفقة ، والأواذي المتلاطمة ، وانطلقت المياه الحبيسة في شعاب الوادي ، وبين الغياض ؛ ففرق الزرع ، وهلك الضرع ، وتقوّض البناء ، وعاد الوادي كما كان في صحراء مقفرة صامتة مجدبة ، لانبات فيها سوى أشجار لا تثمر إلا كل مُرٍّ بشع ، وأثل لا غناء فيه ، وشيء من سدّر^(٢) قليل ، وهربت العصافير والبلابل ، وخلفها اليوم يصيح فوق الخرائب العفاية ، والغربان تنعق في ذرى الأشجار الجافة ؛ أما الأهلون فإنهم لما رأوا أن معين رزقهم قد غاض ، ونبع نحسهم قد فاض ، لم يطيقوا صبراً على أن يقيموا في صحراء كانت بالأمس جناناً ، وخرائب قطنوها قصوراً ، ففارقوا أوطانهم على الكُره منهم ، ونزحوا عن ديارهم بقلب محرور ، وعين عبّرى ، ثم تفرقوا في شتى البلاد ؛ فأنحازت غسّان إلى الشام ، وأنمار إلى يثرب ، وجذام إلى تهامة ، والأزد إلى عمان ، ومزّقوا كل ممزق ؛ حتى صار أمرهم حديثاً يتنقل ، وحكايات تُروى ، وأحاديث تتداول .

كانوا في نعمة سابغة فلم يحفظوها ، وثياب من العز ضافية فلم يصونوها ؛ فجزاهم الله بما كفروا ، ﴿ وَهَلْ يُجَازِي إِلَّا الْكَفُور ﴾ .

(*) أصحاب القيل

ملك ذو نواس بلاد اليمن ؛ وهى تلك البلاد التى تكثر خيراتها ، وتفيض بالأرزاق أرجاؤها ؛ ولما قبض على ناصية الملك فيها ^(١) نقسم من سلفه لانغماسه فى اللذات ، وجنوحه إلى دواعى الشهوات ؛ وأنكر عليه ميله إلى الإثم ، وإغراقه فى الفحش ؛ فأنبا ذلك هن نفس تطمح إلى الزهد فى الدنيا ، وتميل إلى النأى عن المآثم والفجور ، وتحب البعد عن مباحج الحياة وزخرفها ، وترغب فى إصلاح النفوس ، وبث روح الدين فى الرعية . وقد كان منه بعد ذلك ما صدق هذا الحدس ، وأكّد هذا الظن .

مرّ ذو نواس يوماً يشرب مجتازاً ، وقد كان أهلها ممن استجابوا لداعى اليهودية ، وأُشربت نفوسهم حبّها ، وتأصلت فى قلوبهم مبادئها ، واتخذها دعاة اليهود منبراً لدعوتهم ، ومعقلاً لدياتهم ، وانتشرت فيها معابدهم ، وصارت وكرّاً لمبشريهم ، وعشاً لدعاتهم ؛ وسرعان ما هرعوا إليه يلقون إليه شيئاً من مبادئ اليهودية ، ويبسطون له ما عرفوا من ميزاتها وفضائلها ؛ علّهم يجدون منه عضداً لهم ، ومساعداً على نشر دينهم ؛ فصادف هذا الدين هوى فى نفسه ، ورغبة كانت كامنة فى فؤاده ؛ فأحبّه وجاهر بالدعوة إليه ، ونصب نفسه داعياً له ونصيراً ؛ ثم دعا العرب جميعاً إلى مشايعته فيه ، والدخول فى زمرته ، واشتد فى عقاب من خالفه ؛ فأطاعه كثير من العرب ، بعضهم يخاف بطشه وقوّته ، وقليل منهم انخرط فى سلك هذا الدين بعد أن رآه يُصلح نفسه ، ويوافق هواه ؛ وشاع أمر ذى نواس ، وعظمت شوكته ، وخاف الناس بأسه ، فدخلوا فى هذا الدين أفواجا .

(١) نقم منه : عابه وكرهه أشد الكراهة لسوء فعله .

ولكن أهل نجران قد تفتّحت قلوبهم لدين جديد : وهو الدين المسيحى ؛
فدّوه بأنفسهم ، واختلط بقلوبهم ، فكانوا خارجين على دولته ، ومتحدّين لعقيدته .

ووفد إلى ذى نواس من يُشير عليهم ، ويُغريه بهم ، عليه يهدم ذلك الصّرح الذى
امتنع عليه دخوله ، ويفتح هذا الحصن الذى أعياءه ولّوجه ، ويمحو هذا الدين
الذى يوشك أن يمحى به ظل اليهودية ، ويسفو رسمها ، وينتهى تاريخها .

فاستجاب لهذا الدعاء ، واندفع وراء هذه الغواية ، وخرج إلى أهل نجران
يدعوهم إلى تبذ دينهم ، ويأمرهم بالأخذ بدينه ، والدخول فى زُمرة أشياعه وأتباعه ؛
فأتوا الانحراف عن دينهم ، وأصروا على امتناعهم ، ولم تُترهم عزته ، أو تُلين
قناتهم صولته ؛ فعزّ عليه أن يجد لهم مناوئا ، والدينه مخالفا ؛ فحفر لهم حفرة أضرم
النار فيها ، ثم أذن فيهم مؤذنه : إن هذه جزاء لمن لم يدخل فى دينه ، وهى
عقاب لمن يصرّ على مخالفته ، فلم يثنهم أوارها ، أو ترغ أبصارهم من وهجها ؛ بل
استمسكوا بدينهم ، وتشبّثوا بعقيدتهم ؛ فرماهم فى الأخدود ، وصبّ أجسادهم
وقوداً للنار ، جزاء عنادهم ومخالفتهم .

* * *

فرّ رجل من هؤلاء الذين اصطلوا بتلك النار ، فمضى حتى أتى قيصر ملك الروم ،
فاستنصره على ذى نواس وجنوده ، وأخبره بما كان منهم ، فقال له : بعدت
بلادك منا ، ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة ؛ فإنه على هذا الدين ، وهو أقرب
إلى بلادك .

وكتب إليه يأمره بنصره ، والطلب بثأره ؛ فقدم بلاد الحبشة بكتاب قيصر ،
وشكا إلى النجاشى ما حلّ بقومه من الهلاك والدمار ، وأسمعه أنين القتلى ، وغوْث
الشهداء ، ونعى إليه رجال المسيحية والحامين ذمارها .

وعزّ على النجاشي أن يخبر ضوء الدين المسيحي في هذا البلد ، وتنطفي شعاعته
في ذلك المعقل ؛ فصمّم على الثأر من ذلك الذي أراق دماءهم ، واستباح أموالهم ،
وأهلك زروعهم ؛ وجهّز جيشاً كثر عدده ، وتوافرت معدّته ، وبعث به إلى اليمن
يغزو ملكها ، وينتقم من أهلها .

ولما التقى الجمعان ، واشتبك الخصمان ، تابعت الهزائم على ذي نواس
وأصحابه ، وأخيراً أسلمت اليمن إلى النجاشي قيادها ، وألقت إليه بزمامها ؛ وبذلك
أصبحت بلاد اليمن ولاية تابعة للحبشة .

ثم صار أبرهة والياً على الحبشة ؛ فأراد أن يعيد إلى الدين المسيحي شأنه ،
ويرجع إليه قوّته ؛ ولما رأى الناس جميعاً يقصدون مكة ، يحجون بيتها الحرام
وكعبتها المقدسة ، فكر في أن يغتصب ذلك الإكليل الذي ازيّنت به قريش ؛
وأراد أن يصرف الناس عن مكة وبيتها ، ويجذب قلوب الناس نحو بلاده ،
ويستميلهم إلى دينه ؛ فبنى كنيسة بهمنعاء^(١) ، وزيّنها بما يهر الأبصار ، ويأخذ
بالألباب ، ومعنى بزخرفتها غاية العناية ، وجلب لها من فاخر الأثاث وشمين الرياش
ما خيل إليه أنه صارف العرب وصارف أهل مكة أنفسهم إليه ؛ ولكنه رأى أن العرب
لا تتجه إلا إلى البيت العتيق ، ورأى أهل اليمن أنفسهم يدعون البيت الذي بناه ،
وينصرفون إلى مكة ؛ واشتد غيظ العرب ، واشتعلت نيران الحقد في نفوسهم ، إذ رأوا
لبيتهم مناوئاً ، ولموائل أصنامهم عدواً ؛ فعمدوا إلى تحقير بيته ، والخط من قدره ؛
فأحدث فيه رجل من كنانة ليلاً !

ولما علم أبرهة بذلك اشتد غضبه ، وغلى مرجل غيظه ، وأقسم ليند من الكعبة ، وليزيلن بيت إبراهيم إسماعيل ، وليشارن لبيته من العرب ؛ حتى ينصرفوا عن كعبتهم ، ويولثوا وجوههم نحو بيته .

تهيباً للحرب ، وقاد المحافل تنقذ منها الأفيال ، وسار نحو مكة ليهدم بيت العرب ، الذى هو موئل حجيجهم ومعدن آمالهم ، ومكان اجتماعهم .

ولما سمع العرب بذلك النبأ عز عليهم أن يقدم رجل حبشى على هدم بيت حجهم ومقام آلهتهم ؛ فهب رجل من أشراف اليمن يدعى ذا نهر ، فاستنفر قومه ، واستنار حميتهم ؛ ودعا أهل وطنه وغيرهم من العرب لمقاتلة أبرهة ، وصدّه عن عزمه ؛ ولكنه لم يستطع مقاومته ، ولم يصمد للقائه ، فهزم ومن التفّ حوله ، وأخذ أسيرا .

ولكن هل كان هذا مما يثنى غيره عن مقاتلة أبرهة ، ويقعد العرب عن محاربتة ؟ لا ، فإن كثيراً من العرب قد دفعتهم الغيرة على بيتهم ، والحمية لنصرة دينهم إلى مناوأة أبرهة ومقاتلته ؛ ولكنهم جميعاً رجعوا بالهزيمة ، وباءوا بالخيبة .

سار أبرهة نحو مكة بعد أن أزيّنت رأسه بتاج النصر ، وتحلى صدره بوسام الفوز ، وخضعت له قبائل العرب ، وسعت إليه وفود القبائل ، مُتقدّم له الطاعة ، وتظهر له الخضوع ، ويسعى أمام جيوشه منهم من يدُلّهُ على الطريق ، ويرشده إلى آمن السبل . خرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمّس^(١) ؛ ولما استقرّ به وبجيشه المقام بعث أبرهة رجلاً من جنده ، فساق إليه أموال أهل تهامة من قریش

(١) موضع بطريق الطائف ، فيه قبر أبى رغال دليل أبرهة .

وغيرهم ، واستاق من بينها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ صاحبُ السَّقَاية (١) ، وشریفُ قومه ، وسيدُ عشيرته ؛ فهَمَّت قريش وَمَن معهم من أهل مكة بقتال أبرهة ، ولكنهم رأوا أن لا طاقة لهم به ، فاستكانوا لما نالهم من أبرهة ، واحتملوا العَظِيم الذي لحقهم منه .

وبينما هم في هذا الضَّيق الذي شملهم ، وذلك الحزن الذي تخالَج في نفوسهم ، وفد إليهم رجل من رجال أبرهة ، يسأل عن سيد مكة ، وصاحب السلطان فيها . فأَتى به إلى عبد المطلب بن هاشم ، فلما مثل بين يديه قال له : إن الملك يقول : إني لم آتِ لحربكم ، وإنما جئتُ لهدم هذا البيت ؛ فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي في دمائكم ، فإن هو لم يُردْ حربي فأَتني به .

فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا به طاقة . قال الرسول : فانطلقْ معي إليه ، فإنه أمرني أن آتيه بك . فسار معه عبد المطلب ومعه بعض أبنائه وغيرهم من كبراء مكة وأصحاب الرأي فيها ، حتى وصلوا إلى معسكره .

ولما دخل عبد المطلب عليه قيل : إنه سيد قريش ، الذي يطعم الناس في السهل ، والوحوش في الجبل ؛ وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً وسيماً ، تعلوه الهيبة ويحفشه الوقار ، فلما رآه أبرهة أكرَم وفادته ؛ وأجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير مُلكه ؛ فجلس على بساطه ، وأجلسه معه إلى جنبه ؛ ثم أقبل عليه يستفسره عن طلبته ، فطلب إليه ردَّ ما اغتصبت جيوشه من إبله . فقال أبرهة : قد كنتُ أعجبتني حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتني . أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك ،

(١) في الحديث : د كل مأثرة من مأثر الجاهلية تحت قدمي إلا سقاية الحاج وسدانة البيت . وسقاية الحاج : هي ما كانت قريش تسقيه الحاج من الزبيب المنبوذ في الماء .

قد جئت لأهدمه ، لا تكلمنى فيه ! قال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه . قال أبرهة : ما كان ليمتنع منى . قال عبد المطلب : أنت وذاك ! ثم أسرع أبرهة إلى إرضائه ، وردّ عليه أذواده ^(١) ، وعرض وفد مكة على أبرهة أن يرجع عن هدم الكعبة ؛ على أن ينزلوا له عن ثلث ثروة تهامة ؛ ولكنه أبى الإصغاء إلى أى حديث فى هذا الشأن ، ورفض أن يقبل أى فدية ؛ فانصرفوا وقد أتمهم الأمر ، وأفزعهم الخطب ، وعادوا إلى مكة يجرّون أذيال الخيبة .

ونصح لهم عبد المطلب أن يخرجوا إلى شعاب الجبل ، إبقاء على نفوسهم ، وحفظاً لأرواحهم ، وتخوفاً عليهم من تمرّة الهزيمة ؛ وكانت ليلة ليلاء ، تلك التى فكّر فيها القوم فى هجر بلدهم ، وفيما هو نازل بها وبهم ، فاشتدّ الهرج والمرج ، وتعالى الضجيج والعيول ؛ وكنت ترى الناس وقد اكتظت بهم شُوف ^(٢) الجبل ، وضائق بهم شوارع المدينة ، وكنت تسمع رُغاء الإبل ، وثُغَاء الغنم ، وعيول النساء ، وبكاء الأطفال .

وخرج عبد المطلب من بين تلك الجماعات النازحة ، وذهب ومعه نفر من قريش إلى البيت ، وأمسك بحلقة باب الكعبة ، وجعل يدعو ويدعون ، يستنصرون الله على أبرهة وجنده ، ويضرعون إليه أن يمنع بيته ، ويحمى كعبته ؛ ثم انطلق ومن معه من قريش ، حتى صعدوا فى الجبل ، ومسكوا ينتظرون ما يفعل هذا الطاغية بمكة إذا دخلها !

وتخلّست مكة منهم ، وآن لأبرهة أن يوجّه جيشه ليهدم البيت ؛ فتهياً لدخول

(١) الذود من الإبل : ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وجمعه أذواد .

(٢) شعفة كل شئ : أعلاه ، وشعفة الجبل : رأسه ، والجمع شعوف .

مكة ، وجهز فيلده ، وعيبي^(١) جيشه ؛ ولكن الله أرسل عليهم أسراباً من الطير ، تحمل في مناقيرها حجارة رمتهم بها ؛ فهشمت رؤوسهم ، ومنقت لحومهم ، وجعلتهم جثثاً هامدة ، وأشلاء ممزقة .

وأصاب أبرهة شيء مما أصاب جنده ؛ فأخذ الرّوع ، وداخله الفزع . فأمر من بقي معه بالعودة إلى اليمن ، بعد أن قُتِلَ عدد عظيم من جنده ، وتشبّثت شملته ، وتفرق جمعه ، وبلغ صنعاء ، وقد وهنت قوّته ، ثم لحق بمن مات من جيشه .

وبذلك حفظ الله لقربش بيتها وأبقى لها زعامتها ، وزاد هذا الحادث العجيب في مكانة مكة ، وجعل أهلها يحتفظون بتلك المسكنة الرفيعة ، ويترّبصون لكل من يحاول الانتقاص منها أو الاعتداء عليها .

وقد كان ذلك إرهاباً لنبوّة محمد ، الذي تفرّغ من هذه الأرومة الطيبة ، ونشأ في ظل هذا البيت العتيق ؛ وعُدّ هذا الحادث من أعجب الحوادث ؛ لأن الله ردّ أصحاب الفيل على أعقابهم خاسرين ؛ فأرّخ العرب بعامه^(٢) ، وتحدثوا بوقوعه ، وصار ذكرى لهم ، وحديث أبنائهم .

(١) عبي الجيش : هيأه للحرب . (٢) كان ذلك سنة ٥٧٠ م .

بلال (*)

دلفَ الرجل إلى أمية بن خلف ، وهو في مجلسه من ناديه في قريش ، وقال له : أو ما بلغك الخبر ! قال أمية : وما كان ! قال : لقد شهدتُ عبدك بلالا يختلف إلى محمد في قافلة النهار أحياناً ، وفي ظلام الليل آناً ، وهو خائف في مشيته ، يبدو عليه الحذر في لفتته ؛ ولقد يخيل إلىّ فيما توسمته في وجهه ، واستقرّ أته من حالته ، أنه دخل فيما يدعو إليه محمد ، وانخرط فيما تهاوى فيه كثير من قومنا في هذا الدين .

قال أمية لمحدثه : أحقّاً ما تقول ! وعلى بينة أنت بما تروى ! قال الرجل : نعم ، ولهذا نفضتُ عليك الخبر ، وأفضيت إليك بما أرى ؛ لتَهْذِبَ هذا العبد ، وتقضى على هذه الفتنة ، التي توشك أن يندلع لها بين الموالى ، وقد أخذت سبيلها بين الأشراف .

انفتل أمية من مجلسه إلى داره ، وإن قلبه ليحترق من الغيظ ، وهو يُعد لبلال الشرّ والمكروه .

وجاءه بلال ، ووقف بين يديه يضطرب ويرتعد : أن رأى الشرّ يلعب في عينيه ، ونار الغيظ تكاد تخرج أوارها من بين جنبيه . قال له أمية : ما هذا الذي بلغني عنك ، وتراى إلى من أمرك ! أحق ما يقال إنك تختلف إلى محمد تحت رواق من الظلام ، أو ستار من قافلة النهار ، وإنك آمنت بدعوته ، واستجبت إلى أوهامه وضلاله ، كافراً باللات والعزى ، صابئاً عن آلهة قريش والعرب ؟

قال بلال : أما إذ وصل إليك علمي ، وانتهى إليك إسلامي ، فإني لا أكتملك
أني قد جئتُ محمدًا فآمنتُ برسالته ، وصدَّقته فيما يدعو إليه ؛ ولا عليّ بعد أن
حدثتك أن يعلم الناس جميعاً أمرى .

قال أمية : أو ما علمت أنك مملوك في يميني ، وعبد رقيق كبقية متاعى ، وأنى من
يوم أن اشتريتك إنما اشتريت جسمك وعقلك ، وتملكت روحك وجوارحك ،
وأنة لا قدرة لعقلك أن يعتقد ما يشاء ، ولا لتفكيرك أن يذهب أنى شاء ! فما هذا
الذى تجاوز به حدك ، وتخرج به على دين سيدك !

قال بلال : أما إني عبدك وأسيرك ، وخادمك ومولاك ، فهذا ما لا أنكره عليك ،
ولو أمرتني بقطع واد مُسبّع في جوف الظلام لفعلت ، أو كلفتني حمل الأحجار في
رمضاء الظهيرة لما شكوت ؛ أما عقلي وفكري ، وعقيدتي وإيماني ، فهذا الذى
لا يقع تحت سلطانك ، ولا يدخل في حوزتك ولا إمكانك ، وما يضيرك من إيماني
وإسلامي ؟ وما يهمك في أن أملك عقلي وتفكيري ، ما دمت قائماً على خدمتك ،
حافظاً لعهدك !

قال أمية - وقد ثار ثأره ، وهاج هأججه : لست أيها العبد إلا مملوكاً لي من
مَفْرِق^(١) رأسك إلى أخمص^(٢) قدمك ، وفيما بين ذلك من عقلك وتفكيرك ،
حتى خليجات قلبك ، وخطرات نفسك ، وهمسات لسانك ؛ لا تملك من كل ذلك
شيئاً . وسأذيقك من ألوان العذاب ، وضروب النكال ، حتى أستل ما تعتقده
من قلبك ، وأمزق نسيج ما تنوهم بين ألفاف صدرك ؛ ثم هجم عليه مَغِيظاً
محتاجاً ، عزيزاً قادراً ، غليظ الكيد ، شديد الوطأة ؛ وشد وثاقه ، وقيد يديه

(١) المَفْرِق : وسط الرأس .

(٢) الأَخْمَص : ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض .

ورجليه ، ودفع به إلى الصبيان في بَطْحَاء^(١) مكة يتلَّهون به ، ويقذفونه كالكرة ،
ويدفعونه كسَقَطِ المتساع .

وعاد أمية في أعقاب يومه إلى بلال يشهد تمصرع الإيمان في قلبه ، ويرى مبلغ
العذاب من نفسه وجسمه ؛ ولكن ماذا عسى أن يبلغ العذاب من نفس أسلمت
لله ، ووجهت وجهها لله ؟ وما القيدُ والأغلال ، وما الكيد والنكال بجانب حلاوة
الإيمان التي ذاقها ، ونعمة الإسلام الذي ينعم قلبه بها !

قال له : كيف وجدت العذاب يا بلال ؟ أخيراً لك ما أنت فيه من ثم وبلاء ، أم
عودة إلى اللات والعزى ، وكفر بما جاء به محمد ، وما يزعمه من دين ؟ فنظر إليه نظرة
جمع فيها كل ما تطويه نفسه من احتمال للعذاب ، واستعداد للبلاء ، واحتقار لما
يوقعه به أمية من تعذيب وإيذاء ؛ وكأنه يقول له : قد تملك السوط تنال به
جسمي ، والحبل تغلُّ به عنقي ورجلي ؛ بل لك السهم الذي تستطيع أن تسدده
إلى نحري ، والسيف تضرب به عنقي ؛ أما أن تملك عقلي وقلبي ، وتحتكم في ديني
وعقيدتي ، فهذا الذي لا يستطيع أن يناله بطشك ، والذروة التي لا يستطيع أن
ترتقيها بقوتك وسلطانك .

ثم مازاد بعد نظرته على أن قال : « أحد أحد » ؛ إعلاناً لسيده بأنه سيعزل على
توحيده وإيمانه ، وعقيدته وإذعانه ، وإن ترادفت عليه ضروب المحن ، واستقبلته
صنوف البلاء .

وطلعت الشمس في اليوم الثاني قوية ملتجة ، وانبسطت أشعتها على الصحراء ؛
فاستوقد أديمها ، واضطرم بالنار إهابها ، وجاء أمية ببلال ، فأضجعه على الرَّمضاء^(٢) .

(١) البطحاء : مؤنث الأبطح ، وهو مسبل واسع فيه دقاق الحصى .

(٢) الرمض : شدة وقع الشمس على الأرض ، والأرض رمضاء .

وأتى بصخرة عاتية فأراحها على صدره ، وظل بلال بين رَمضاء ملتهبة ، وصخرة ثقيلة قاسية ، وفيما بين ذلك الشمس تقذفه بسهامها ، والرياح تُزجى إليه غبارها ؛ ولكن كل هذا وبلال لم يُغيّر حرفاً من الكلمة التي أصبحت شعاره وعقيدته ، وعُنوان إسلامه وإيمانه : « أحد أحد » ، هو الله الذي أعبدته وأتوجه إليه ، وهو الذي أقصده وأعتمد عليه ، لا يضيرني هذا العذاب ، ولا يزعجني عن الإيمان به هذا العقاب .

« أحد أحد » ، هو الله وحده الذي أستدفع به البلوى ، وألتجئ إليه في المحنة الكبرى ، وإن ضاقت منافذ الأمل ، ورثت حبال الرجاء .

« أحد أحد » ، هو الله وحده الذي بعث محمداً رسولاً ، ومرشداً أميناً ، ومن نعماءه على أن كنت من تابعيه ، ومن مُحِبِّيه ومريديه ، وكفاء لهذه النعمى سأصبر على هذا البلاء . وأصمد لذلك القضاء .

ثم ما زالت الأيام تتوالى وتتتابع ، وألوان العذاب على بلال تترادف ، وأمية ما يزداد إلّا غيظاً وحقدًا ، وما يلقي من بلال إلّا صبراً واحتساباً ، حتى كان أبو بكر يمشى يوماً في بعض شعاب مكة ، فإذا بلال يئنُّ من آلامه ، ويتلوّى في محنته ، وأمية واقف أمامه في كبره وجهله وظلمه وعسفه ، ينظر إليه وكأنه قد شفي من غيظه ؛ أو أطفأ وقدة من الحقد بين جنبيه ! فأدركت أبا بكر الرحمة ، وتحركت في نفسه بنات العطف والشفقة ، فقال لأمية : حتام تترك هذا المسكين غرضاً لعذابك ، وهدفاً لبلائك ! وما حظك من هذا الآن تسمعه ، ومن هذه الدموع قبعها من مآقيها ؛ أي جرم اقترفه ! وأي إثم ارتكبه ؟

قال أمية - في صلفه وغروره ، ومُحِبِّيه وخيلائه : هذا عبيد ، ومِلك يميني ،

أعذبه كيف أشاء ؛ وأُطلقه متى أشاء . وما أوقعه في بلائه ، وجز عليه أسباب شقائه ، إلا أنت وصاحبك ! وإذا كنت مشفقاً به ، وحديباً عليه ، فدونك اشتريه ، وخلّصه مما هو فيه ، أما ما دام هذا العبد في ملكي ، فلن أرفع عنه العذاب ، حتى يعود إلى اللات والعزى .

وانتهزها أبو بكر فرصة يخلص بها بلالاً من محنته ، ويرفع عنه عذاب سيده ؛ فقال لأمية : قد اشتريته منك ، وليس لك عليه الآن من سبيل ، وأما أنت يا بلال فقد اعتقتك حسبةً لله وامتجاراً .

فهذا أمية وهذا أبو بكر ؛ هذا مؤمن وذاك كافر ، وهذا بر وذاك فاجر ؛ وقد سجل الله عاقبتهم ، وفصل في أمرهما : ﴿ فَأَنْذَرْتَكُمْ تَارًا تَلَّظَى ۖ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۖ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۖ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۖ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۖ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۖ وَلَسَوْفَ يَرَى ۖ ﴾ . وشتان ما بين الرجلين ، ويا بُعد ما بين العاقبتين .

الإسراء (*)

أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةً في منزل أم هانئ ، بعد أن فرغ من شؤون الناس ، وصلى العشاء الآخرة ؛ حتى إذا ما كاد النهار ينسلخ من إهاب الليل ، وتفتحت الأعين على تباشير الصباح ، اهيب به أن يستيقظ للصلاة فنفض ، ودعا بالوضوء (١) فتوضأ ، وحضرت الصلاة-فصلى ، ثم دعا إليه أم هانئ ليحدثها ؛ إذ هو صلى الله عليه وسلم قد شهد الليلة أمراً عظيماً ، ورأى مشهداً عجيباً ، وقد اختصه الله بفضله ، وآثره بشرف ؛ ما يعلم أنه قد حياه أحداً من قبله ، أويتاح لأحد من بعده ، ولا تمعدل عن الإفشاء به ، والتحدث عنه .

وجاءت إليه أم هانئ - وهي بنت عمه أبي طالب ، ومن شيعته وأنصاره ، ومن مؤازريه وأعوانه - فقال لها : يا أم هانئ ؛ لقد صليت معكم العشاء الآخرة ، كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين . وأعلنها أنه خارج الآن ليلقي قريشاً ويخبرهم بما رأى ، ويقص عليهم ما شاهد ، تحدثا بالنعمة ، وإعلانا لقدرة الله .

كانت أم هانئ مؤمنةً قوية الإيمان ، مسلمة آكد الإسلام ؛ ولهذا لم يخامرها شك في صدق ما رأى ، ولم يداخلها ريب في صحة ما روى ، ولكنها عرفت قريشاً : مكبرهم وإيذاءهم ، وشاهدت قومها : كيدهم وتكذيبهم ؛ فخافت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكيد والتكذيب ، وأشفقت عليه من الأذى والاستهزاء ، فأخذت بطرف رداءه ، وتعلقت به من ثوبه ، وقالت :

(*) سورة الإسراء . (١) الوضوء (بالفتح) : الماء الذي يتوضأ به .

لأنى أذكرك الله يابن عمى ، أن تأتى قوماً يكذبون رسالتك ، وينكرون مقالتك ؛ فأخاف أن يسطوا بك ؛ وتمنت من وراء توسلها ، وأملت من وراء تعلقها ، أن يكتم حديثه ، وأن يحفظ ما رأى بين طيات صدره ؛ حذراً وعظفاً ، وخوفاً وإشفاقاً . ولكنه صلى الله عليه وسلم يحتمل رسالة البشرية كلها : حاضرها ومستقبلها ؛ فكيف السبيل به إلى الخوف ! ويتنزل إليه أمر عظيم فكيف يحوطه بالكتمان ! إنه لا يخاف الكيد والأذى ، ولا يخشى الاستهزاء والتكذيب ؛ ولهذا جذب رداءه ، وجمع عزمه وخرج .

ذهب رسول الله غير هيّاب يحدث قريشا ، ولكن أم هانىء تضاعف همها ، وزاد وجلها ؛ فدعت إليها تبعة - وكانت جاريتها وموضع سرها وثقتها - وقالت : انطلق خلف رسول الله ، واسمعى ما يقول ، وتعالى بعد ذلك حديثي بما سيكون . وذهبت تبعة تقص أثر الرسول ، ثم عادت إلى سيدتها ، وقالت : لقد أدركت رسول الله فى الحطيم ، بين الكعبة والحجر الأسود ، وما أن رآه أبو جهل حتى ابتدره قائلاً - مستهزئاً كعادته ، متعنتاً كدأبه : هل كان من شيء ؟ فقال رسول الله : نعم ، أسرى بى الليلة . قال : إلى أين ؟ قال رسول الله : إلى بيت المقدس . قال له : ثم أصبحت بين ظهراي ندينا ! قال رسول الله : نعم ؛ فعاد أبو جهل وقال : أرأيت إن دعوت قومك أن تحدّثهم بما حدّثتنى ؟ قال رسول الله : نعم . وانطلق أبو جهل يعدو كالثور ، وينادى : يا معشر بني كعب بن لؤى .

قالت أم هانىء : اجلسى يا تبعة ، ثم أتمى الحديث ، فما أرى إلا أنه سيطول . وجلست تبعة ، واستأنفت الحديث ، وقالت : وما راعنى إلا القوم ينثالون من كل

تأحية ، وينسلون من كل حذب ؛ يقدمهم أبو جهل حتى أحاطوا برسول الله من كل جانب ، وطلب أبو جهل أن يخبرهم الرسول بما رأى ، وحسب أنه سيغيّر من قائلته ، أو يبدل من خبره ؛ فقال رسول الله : إني أُسرىّ بي إلى بيت المقدس ، فنُشر لي رهط من الأنبياء ، منهم إبراهيم وموسى وعيسى ، وصليت بهم وكنيتهم .

قال أبو جهل - مُعِيناً في هزئه ومكره : إن كنت قد رأيتم فصفهم ، قال رسول الله : أما عيسى ففوق الرُّبْعَة ودون الطويل ، تعلوه حمرة كأنما يتحادر عن لحيته الجمان ، وأما موسى فضخم آدم ^(١) طويل كأنه من رجال شُوءة ، وأما إبراهيم فإنه والله لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ، ولا صاحبكم أشبه به منه .

ثم عادوا فطلبوا منه آية تدل على صدق ذلك ، فقال : آية ذلك أني مررت بعير ^(٢) بني فلان بوادي كذا وكذا ، فأنفرتهم حسّ الدابة ، فندّ لهم بعير ، فدللتهم عليه وأنا مُوجّهٌ إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان ^(٣) مررت بعير بني فلان ، فوجدت القوم نياماً ، ولهم إناء فيه ماء ، وقد غَطُّوا عليه بشيء ، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ، ثم غَطَّيته كما كان ؛ وآية ذلك أن عيرهم تصوب الآن من ثنية التنعيم البيضاء ، يقدمها جمل أورق ^(٤) ، عليه غرارتان : إحداهما سوداء والأخرى برقاء ^(٥) .

وابتدروا إلى الثنية ، فوجدوا العير كما ذكر الرسول ، يقدمها جمل أورق كما أخبر .
قالت أم هاني : هيه يابغة ، وماذا كان من أمر القوم بعد هذه الآيات البينات ؟

(١) آدم : أسود . (٢) العير : الإبل تحمل الميرة . (٣) ضجنان : جبل بمكة

(٤) الأورق من الإبل : مافي لونه بياض إلى سواد . (٥) برقاء : كل شيء اجتمع

فيه سواد وبياض .

قالت : لقد رأيتم لَوَّاءَ رؤوسهم ، وغمزوا بعيونهم : ثم صاحوا منكرين بملء حناجرهم . وقد اجترأ المطعم بن عدى ، فقال : كان أمرك قبل اليوم أمرا يسيرا ، فإذا بك اليوم تعجب وتغرب ! نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس ، نصعد شهرآ ، وننحدر شهرآ ، وأنت تزعم أنك أتيت في ليلة واحدة ! واللوات والعزى لا أصدقك ، ولقد أشهد أنك كاذب .

وما وصلت نبعة في الحديث إلى هذا المقدار ، حتى علت وجه أم هاني سجادة من الهم ، وتحيّرت في عينيها دمة من الإشفاق .

ولكن نبعة استأنفت حديثها وقالت : أما أبو بكر فإنه نطق من فوره ، وقال لرسول الله : أشهد أنك صادق . فقال له المطعم بن عدى : أتصدق أنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يصبح ! قال أبو بكر : نعم ، إني لأصدقّه فيما هو أبعد من ذلك ، أنا أصدقّه في خبر السماء في غدوّه ورواحه ، أفأكذبه في إكرام الله له بأن ينقله مسيرة شهر ؟ وتبع المسلمون أبا بكر ؛ ولكن والأسفاه ! لقد ارتدّ نفر قليل منهم ، لم تتسع عقولهم لأن تدرك قدرة الله ، ولم تستروح قلوبهم لما اختص به رسول الله .

قالت أم هاني : لا بأس على دين رسول الله من هؤلاء النفر الذين ارتدّوا ؛ فلعلّ من الخير أن يبتعدوا عن صفوف المسلمين ، ويمحوا من صحيفة المؤمنين ؛ إذ لا خير للمسلمين في ضعيف متردد ، ولا نفع لهم في مذبذب مضطرب .

الحجّة (*)

قالت الأوس : إن الحرب قد ضرّستنا ؛ وألقت بصدرها علينا ، وهؤلاء بنو عمنّا الخزرج قد ألّبوا اليهود علينا ؛ ليشتد بهم أزرهم في القتال ؛ فالتسوا لنا عليهم حلفاء عند بعض قبائل العرب .

وكانت الأوس والخزرج ^(١) قبيلتان تنحدران عن أصل واحد ، وتقيمان في المدينة ، ولكنّ نار الحرب ما كانت بينهما تنطفئ ، ولا ثورة الخلاف تهدأ ؛ وما زال ما بينهما يشتد ؛ حتى كان يوم « بُعاث » ^(٢) ، ففنى فيه رؤساء القبائل ، وزعماء العشائر ؛ ثم وقعت بينهما هُدنة حالفت الخزرج فيها اليهود ، وأخذت الأوس تلتئم مع الحلفاء عند العرب .

وفصل عن المدينة رهط من الأوس : أبو الحيسر ، وإياس بن معاذ ، وآخرون ؛ وولّوا وجوههم نحو مكة يلتئمسون الحلف عند قريش على بني عمهم من الخزرج ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرف موسماً يقام ، أو جمعاً يحتشد ، أو نفرأ يفد ، إلا أذاع فيهم دعوته ، ونشر رسالته ، لا يبالي الكيد ولا الأذى ، ولا الصّد ولا الإعراض ؛ فلهداية البشرية يدعو ، وفي سبيل الله ما يلقى .

وسمع بهؤلاء الرهط ؛ فاتاهم وجلس إليهم ، وقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم له ؟ فقالوا له : وما ذاك ؟ قال : أنا رسول الله ، بعثني إلى العباد ،

(*) الأنفال : ٣١ .

(١) هما الأوس والخزرج : ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو ... من كهلان سبأ ، ملوك اليمن . (٢) يوم بُعاث : من أيام العرب المشهورة بين الأوس والخزرج ، وبُعاث موضع قرب المدينة .

أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل على الكتاب : وتلا عليهم القرآن ، ثم ذكر الإسلام ؛ فقال إياس - وكان غلاماً حدثاً : أى قوم ؛ هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الحيسر حَفْنَةً من البَطْحَاء فضرب بها وجه إياس ، وقال : دعنا منك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا ! فصمت إياس ، وقام رسول الله ، وانصرف القوم .

* * *

وفي الموسم من هذا العام وفد على مكة نَفَرٌ من الخزرج ، ولقيهم رسول الله ، فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : من موالى يهود ^(١) ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلبكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

فقال بعضهم لبعض : يا قوم ؛ تَعَلَّمُوا ^(٢) والله إنه للَنَّبِيِّ الذى توعدكم به اليهود ، فلا يَسْبِرُ قَتْلَكُمْ إليه ؛ ثم أجابوه فيما دعا إليه ، وصدّقوه فيما بآخ ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قومَ بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرضُ عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعز منك . ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة ؛ وهناك دعوا قومهم إلى الإسلام ، فلتقى في نفوسهم الكريمة قبولا ، ومن سُويِدَ آه قلوبهم استثناسا ؛ وفشا بينهم الإسلام ، ولم تبق دارٌ من دُور الأنصار إلا وفيها ذِكْرٌ لرسول الله .

(١) موالى اليهود : أحلافهم . (٢) تعلّموا : اعلّموا .

واستبشر صلى الله عليه وسلم بإيمانهم ، وفرح بإسلامهم ، واتسعت أمانه
 رُقعةُ الأمل ، وامتدت خيوط الرجاء ؛ فهؤلاء قريش ما فتئوا يسفّهون رأيه ،
 ويحولون دون قصده ، وهم ما برحوا أيضاً يتقعدون لأنصاره كل مرّة صد ، ويؤذونهم
 في كل مكان ، ثم هو صلى الله عليه وسلم قد عرض نفسه على القبائل ، وأعلن
 دعوته في العشائر ، أعلنها في ثقيف وكنّدة ، وفي بني عامر وبني حنيفة ، فلم يكونوا
 خيراً من قريش رأياً ، ولا أقلّ منهم صدّاً وإعراضاً . أما هؤلاء القوم من
 الخزرج فلم يجدوا عُسراً في إيمانهم ، ولم يلق جهداً في إقناعهم ؛ لأنهم آمنوا مخلصين ،
 وهدوا مطمئنين ، ومن يدرى ! لعلمهم يكونون من أنصاره وأعوانه ، ومن
 شيعته وخلصائه .

ومضى عام ، وترقب رسول الله الموسم : موسم الحجيج ، وإذا اثنا عشر
 يفتدون مُسْلمين : اثنان من الأوس ، وعشرة من الخزرج ، وأعلنوا للرسول
 إسلامهم ، ومدّ يده الكريمة لبَيْعَتِهِمْ ، فبايعوه وعاهدوه ألا يشركوا بالله شيئاً
 ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا بيهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ،
 ولا يعصوا الله في معروف . فإن وفّوا فلهم الجنة ، وإن عَشَوْا من ذلك شيئاً
 فأمرهم إلى الله ، إن شاء عذب ، وإن شاء غفر . ثم عاهدهم على كتمان أمرهم عن
 قريش ، ووعدهم اللقاء في العام المقبل .

وأرسل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير ؛ يفتقّهم في الدين ،
 ويقرّئهم القرآن ، ويعلمهم قواعد الإسلام .

وعادوا إلى المدينة ونور الله يضيء بين جوانحهم ، وسمات الإسلام
 تملو وجوههم .

ومضت الأيام ، ودعوة الرسول تصادف في نفوسهم مكاناً خصبياً ، وصدرآ رحيباً ، وذهبت من نفوسهم الأحقاد ، وذابت الأضغان ، وصفت منهم القلوب ؛ حتى كان العام المقبل ، فوفد على المدينة - فيمن وفد عليها - سبعون رجلاً وامرأتان من 'مسلمى الخزرج والأوس' ؛ وعلم الرسول بقدمهم ، فواعدهم العقبه (١) من أوسط أيام التشريق (٢) .

ولما كان الموعد ، ومضى من الليل 'ثلاثه' ، خرجوا من رحالهم مستخفين ، يتسألون تسائل القطا ؛ حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبه ، ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو وإن كان لا يزال على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له .

قال العباس : يامعشر الخزرج (٣) ، إن محمداً منا حيث قد عابتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ؛ فهو في عزة من قومه ، ومنتعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللاحاق بكم ؛ فإن كنتم ترون أنكم مسلوه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه . فإنه في عزة ومنتعة من قومه وبلده .

فقالوا له ؛ قد سمعنا ماقلت ، فتكلم يا رسول الله ، نفذ لنفسك ولربك ماأحببت . فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم .

فقام البراء بن معرور وقال : نعم ! فوالذي بعثك بالحق لنمنعنك مما تمنع منه ذرارينا . فبايعنا يا رسول الله ؛ فنحن والله أبناء الحروب ، ورثناها كابراً عن كابر .

(١) العقبه : منزل في طريق مكة . (٢) أيام التشريق : من أيام الحج : ينحر فيها اللحم ويشرق ؛ أى يقدد . (٣) العرب يسمون هذا الحى من الأنصار : الخزرج خزرجها وأوسها .

وقال العباس بن عباد : يامعشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ! قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود ^(١) من الناس ؛ فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة ، وذهبت أشرافكم قتلا أسلتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة . قالوا : ابسط يدك نبايعك ، ثم بايعوه .

واعترض أبو الهيثم ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين اليهود حبالا وإننا قاطعوها ؛ فهل حسيت إن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم ^(٢) . أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . ثم قال لهم : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيبا . ولما انتخبوا نقباءهم قال لهم : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ، وأنا كفيل على قومي .

وشاع في مكة أمر البيعة ، وعلمت قريش بظهور الإسلام في المدينة ، فاضطرب حبلهم ، وزاد غيظهم ، واشتدت الحفيظة في صدورهم ، ثم ضاعفوا الأذى بالمسلمين ، وأخذوا يوقعون عليهم ضرب المِحن ، ويَهْبِشُون فوق رؤوسهم ألوان العذاب : من تنكيل واستهزاء ، إلى سخرية وإيذاء ، وفيما هم بين ذلك مضيق عليهم في العبادة ، مضطهدون فيما يعتقدون ؛ فساءت حالهم ، وكثرت

(١) يريد بالأحمر والأسود الناس جميعا . (٢) كأنه العرب تقول عند عقد الحلف والجوار : دمي دمك ، وهدمي هدمك . يعني ما هدمت من الدماء أهدمه أنا .

أحزانهم ، ورأى رسول الله ما هم عليه من محنة وفننة : فأذن لهم بالهجرة إلى المدينة ، وقال لهم : إن الله جعل لكم إخواناً وداراً آمناً بها . فاستجابوا لله وللرسول ، وهاجروا إلى المدينة أرسالا ، ونزحوا إليها جماعات ووحدانا ، تاركين — ابتغاء مرضاة الله — ديارهم وأوطانهم ، وأولادهم وأموالهم .

وما عليهم لو هاجروا ! أليسوا قد امتحنوا بأنكى ألوان الأذى ، وفُتنوا بأشد صنوف الآلام ! أولم يضيق عليهم في العبادة ، وتسد عليهم منافذ الطرقات ؛ فاضطروا للزوم الدور أحيانا ، والهجرة إلى الحبشة أحيانا !

وذلك رسول الله — وهو أكرم من طلعت عليه شمس ، وأفضل من أظلمت سماء — ألم يضع واحد منهم الثوب في عنقه حتى كاد يميتته خنقا ، ألم يحمل واحد منهم الحجر ليشج به رأسه ، ولولا أن عناية الله لاحظته لأرداه قتيلا !

هذه مكة وقد أصبحت دارَ بلاء وعذاب ؛ فما المقام على دار الهوان — وهم العرب أباة الضيم والإذلال ! وهم المسلمون — والإسلام دين العزة والمنعة والحرية والكرامة !

ثم هو الإسلام دين عام شامل ، ليس دين مكة وحدها ، وليس دين قريش وحدها ؛ بل هو دين البشر كلهم : حاضرم ومستقبلهم ، ودين الخلق أجمعين : عربهم وعجمهم ، وأسودهم وأحمرهم ، من تلك الساعة التي هتف فيها محمد داعيا ، إلى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات .

وإذن فليخرج هؤلاء المسلمون مهاجرين إلى المدينة يضربون أحسن الأمثال ، يُلقنون درسا على من يُضطهد في عقيدته من يأتي بعدهم من الأجيال . وكذلك خرجوا ؛ واستقبلهم الأنصار بالمدينة ، ولقوا فيها أهلا بأهل ، وجيرانا بجيران .

عَلِمَ رجال قريش خروج المسلمين إلى المدينة : فَسَقَطَ في أيديهم ، ورأوا أنهم إن لم يتدبروا في أمورهم ، وينظروا في عَدَمِهم ، فإن أمر محمد غالب ، وشأنهم في ذهاب ؛ فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون ويتدبرون ، ويبرمون وينقضون ؛ وكذلك كانوا يفعلون حين يَحْزُبُهم الأمر ، وتشتهيه عليهم الآراء . واجتمع أشرافهم وبهائمهم ^(١) ، ورؤسائهم وخطاريهم . ثم قام واحد منهم ، فقال :

لقد جمعناكم اليوم لئدلى كل واحد منكم برأيه في محمد ، فهو كما علمتم قد ظهر أمره واتضح ، وقد جاوز مكة ، وامتد إلى يثرب ، وربما امتد إلى غيرها من البلدان . واعلموا قبل أن تتشققوا بالآراء أنا قد فتناه بأنواع الأذى ، فوجدناه صابراً جليداً ، وأنا بلونا أصحابه بصنوف المحن فوجدناهم صامدين أقوياء . ولقد ارتاحت نفوسنا حينما علمنا ما لقيه من خذلان عند بني حنيفة ، ومن كيد وأذى في ثقيف ، ومن تكذيب عند غيرهما من أحياء العرب ؛ بل تنفسنا الصعداء حين مات أبو طالب ، ذلك الذي يؤويه وينصره ، ويحميه ويخفّره ^(٢) ، ولكن واأسفاه ! لقد وجد اليوم عند الخزرج عضداً ونصيراً ، وولياً وظهيراً ، بل لقد أصبحوا بعد دعوته فيهم إخواناً وكانوا أعداء ، وأقوياء وقد كانوا متخاذلين ضعفاء ، وذهبت من صدورهم الإحسان ، وامتحت الأحقاد ؛ وليت المصيبة وقفت عند هذا الحد ، ولم تجاوز ذلك المقدار ! فها هم أولاء أصحابه قد هرعوا إليهم ، واتشالوا عليهم ، غير مباليين أوطانهم أوديارهم ، ولا عابئين بأموالهم ولا أولادهم ، وأكبر الظن أن محمداً سيلحق بهم ، وإذن تكون المصيبة

(١) البهائيل : جمع بهلول ، وهو السيد الجامع لكل خير (٢) يخفّره : يحميه .

أشد ، ويكون الخطب أنكى ؛ وما تأمنون أن يثب علينا بهم ، فيسقط الأمر من أيدينا ، وتعود الدائرة علينا .

قال أبو البختري بن هشام : احبسوه في الحديد ، وغلقوا عليه الأبواب ، حتى يصيبه ما أصاب غيره من الشعراء .

قالوا له : ليس هذا برأى ، وقد علمتم أصحابه ، وجههم له ، وتعلقهم به ، وإنه ليوشك — لو علموا — أن يكاثرونا ، ويطلقوه من أيدينا ، فلا نكون قد صنعنا شيئاً .

وقال أبو الأسود ربيعة بن عمرو : نخرجه من بين أظهرنا ، وننفيه من بلادنا ؛ فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع !

قالوا : والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ! والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه ، حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم ، حتى يطأكم بهم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد . أديروا فيه رأيا غير هذا !

وقال أبو جهل بن هشام : والله إن لي فيه رأيا ، ما أراكم وقعتم عليه بعد ؛ قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة قتي ، شابا جليداً ، نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل قتي منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمد هؤلاء إليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، ثم يرضوا منا بالعقل فنعقل لهم ^(١) . فصفقوا لرأيه ، واستراحوا لقوله ، وتفرقوا على ذلك .

وكان أبو بكر رجلاً رضى القلب ، سخرى النفس ، حلوا الشماثل ؛ أحب رسول الله من كل قلبه ، وآثره على خاصة نفسه ، وود لو يُفدّيه بروحه وماله ؛ وعرف رسول الله فيه هذه الصفات ؛ فقرّبه إليه ، وأدناه منه ، وسماه صديقاً ، ودعاه من النار عتيقاً .

وأذن رسول الله للمسلمين بالهجرة إلا أبا بكر ، فإنه كلما استأذنه في الرحيل ، واستشاره في الذهاب إلى المدينة يستبقيه ، ويقول له : لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحباً ؛ فيطمئن أبو بكر ، ويود لو يكون الرسول صاحبَه في هجرته ، ورفيقه في سفرته ؛ ولهذا اشترى راحلتين أعدتهما ليوم رحيل .

ويوم أن اجتمعت قريش في دار تدوتها ، وأعدت مكرها ، وهيات كيدها ، أوحى الله إلى رسوله : إن القوم قد أجمعوا لك كيذا ، وبئتوا لك مكرا ، ولكن الله عاصمك من كيدهم ، وحافظك من مكرهم ؛ فخذ عزمك للسفر ، وهي نفسك للرحيل إلى المدينة .

فتوجه الرسول من ساعته لأبي بكر ، وقال له : يا أبا بكر ؛ إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة . فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ، فقال رسول الله : الصحبة ؛ وواعده العتمة ^(١) ، وفرح أبو بكر ، وراح يهيئ الراحلتين .

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى داره ، وهو عالم أن القوم سيحيطون به ، وفي أيديهم سلاحيهم ، وبين جوانبهم كيدهم ومكرهم ؛ وجاء القوم ، وتربصوا ينتظرون خروج رسول الله ؛ ولكنه لم يعبأ بجمعهم ، ولم يبال كيدهم ؛ لأن الله وعده

(١) العتمة : ثلث الليل الأول .

العصمة ، ومنّاه النجاة ؛ وما انتصف الليل حتى خرج عليهم بعد أن أمر علياً أن ينام في فراشه ، وأن يتسجى ببردته ، وألقى الله عليهم النوم فناموا ، وخرج رسول الله فلم ينتبهوا . ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

وذهب رسول الله إلى دار أبي بكر . وخرجامن تنوخة^(١) هناك ، وسارا حتى بلغا غار ثور^(٢) ؛ وهناك كُنا فيه .

أما القوم الذين ظلوا يترقبون خروج الرسول ليقتلوه ، فقد كشف لهم الصباح أنهم إنما باتوا يحرسون على بن أبي طالب ، لا محمد بن عبد الله ! وعندئذ ذِعروا ومهرعوا إلى أشرافهم ؛ وهؤلاء أدركتهم الحيرة ، وعلام الوجوم ، وذهب أبوجهل إلى منزل أبي بكر ، وسأل أسماء بنته : أين أبوك ؟ فقالت له : لأدرى ، فلطمها على وجهها ، ثم خرج مع قومه يقتفون الأثر ، حتى وصلوا إلى الغار !

ولكن الله ردهم على أعقابهم ، وخذلمهم في كيدهم ؛ إذ بان لهم أنه غار مهجور ، وأنه مكان لم تطأه قدم منذ أزمان !

ثم عادوا إلى مكة ، وجعلوا لمن يدل على محمد مائة ناقة ، وعرض سراقته الكفاني لهذا الأمر ، وأعد نفسه لتلك الغاية ، على أن يوفوا له بالشرط ، ويأخذ النياق إذا دّهم عليه .

ومكث رسول الله وصاحبه في الغار ثلاثة أيام ، يمر عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر بالأغنام في أعقاب اليوم ، فيحتلبان ويأكلان . ويأتي لهما عبدالله بن أبي بكر بالأخبار حتى سكن الطالب ، وغفل عنهما الناس .

(١) التنوخة : كوة تؤدي الضوء إلى البيت .

(٢) ثور : جبل بمكة فيه الغار .

وجاءهما عبد الله بن الأريّقط بالراحلتين ، وخرجا متوجهين إلى المدينة ، وأبو بكر لا يفتأ يذكر الطلب فيتلفت خلفه ، ويخاف الرصد فيتلفت أمامه ، حتى أدركها سُرّاقة ؛ وما اقترب منهما حتى عثر به فرسه ، وساخت قوائمه في الأرض ؛ ثم ثار من حوله الدخان والإعصار ؛ فأدرك سُرّاقة أن محمدا رسول الله ممنوع منه ؛ ولهذا استغاث واستنصر ؛ على ألا يخبر قريشا بشيء مما رأى ، فدعا له الرسول ، وعاد سُرّاقة ولم يقل لقومه شيئا .

* * *

ونعود إلى المسلمين من أهل المدينة ؛ فاذا بهم يخرجون إلى ظاهر البلد كل يوم ، من ساعة أن علموا بخروجه عن مكة ؛ لا يعودون إلى منازلهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال ، إلى أن كان يومٌ سفعتهم الشمس ، وتحزقت منهم الأقدام ؛ فرجعوا إلى منازلهم ، وما راعهم إلا صائح يهتف ^(١) بهم : إن محمدا قد جاء ؛ فخرجوا إليه مهرولين ، وإذا به ورفيقه أبو بكر يتفيضان ظلال النخيل ، فأحلوه في قلوبهم ، وحاطوه بنفوسهم ؛ ونزل على بني عمرو بن عوف ، وأقام فيهم أياما ، وأسس المسجد بقُبَاء ^(٢) .

ثم خرج بناقته ، وقد وضع لها زمامها ، وكلما مرت بقوم تهافتوا عليها ، وقالوا للرسول : هلم يارسول الله إلينا ، إلى العدد والعدة والمنعة ، ولكن رسول الله يقول : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . وما زالت تسير حتى إذا أتته دار مالك بن النجار ، بركت على باب المسجد ، وهو يومئذ مربد تمر ^(٣)

(١) يهتف بهم : يصيح مناديا (٢) قباء : بئر بالمدينة ، ثم عرفت القرية بها ، وهي مساكن بني عمرو بن عوف (٣) مربد تمر : مكان يجمع فيه التمر ويرص .

لسهل وسهيل ابني رافع بن عمرو ، وهما يقيمان في حجر أسعد بن زُرارة ، ثم سارت
ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ، حتى بركت على باب أبي أيوب الأنصاري ،
فقال عليه السلام : هاهنا المنزل إن شاء الله ، ﴿ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ
خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ . فاحتمل أبو أيوب رحله ، ووضعه في منزله ، وجاء أسعد بن
زرارة ، فأخذ بزمام ناقته . فكانت عنده .

ثم دعا مَنْ جاء من مكة ، وسماهم مهاجرين ، ومن أسلم من أهل المدينة وسماهم
أنصارا ، وآخى بينهم ، وجمعهم على المحجة الواضحة ، والصراط المستقيم ؛ ثم بدأ
يستأنف الدعوة إلى الله بعزم جديد .

(*)

بدر

١

ما كاد يستقر أمرُ المهاجرين بالمدينة حتى عقدت أوامر المحبة بينهم وبين الأنصار ، فعاشوا بها إخواناً متآلفين ، وجيراناً متعاونين ؛ غير أنهم لم ينسوا ما حاق بهم من إيذاء خصومهم بمكة ؛ وما برحوا يتطلعون إلى نشر دينهم ، ويستشرفون إلى وطنهم ، ويهيمون بوادهم الذي فيه نشئوا ، ومن مائه شربوا ، ومن هوائه تنفسوا ، وفيه أبنائهم وأقاربهم ، وخصولتهم وعمومتهم ، وطريفهم وتليدهم .

ورأى هؤلاء - الذين اضطروا إلى الجلاء عن مكة بسبب ما عانوا من الاضطهاد ، ومالاقوا من الأذى - أن لا بد من التعرض لتجارة قريش : في ذهابها أوجوعها ، حتى يحس هؤلاء قوتهم ، ويشعروا بياسهم ؛ وحينئذ يخافون على تجارتهم أن تبور ، وقوافلهم أن ينقطع بها الطريق ؛ فيزول ما بينهم وبين المهاجرين من إحسان ، ويصفو ما بينهم من كدر ، وينفصح المجال أمام المسلمين لنشر دينهم ، والدعوة إلى عقيدتهم .

في السنة الثانية من الهجرة ، بعث ^(١) رسول الله عبد الله بن جحش ، ومعه جماعة من المهاجرين ، ودفع إليه كتاباً ، وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره ، فيمضي لما أمره الله به ، ولا يستكره أحداً من أصحابه .

ويمضي عبد الله في طريقه ، وهو لا يعرف له وجهة ، ولا يقصد إربة ^(٢) ؛ ولكنه يندفع في سيره ، طوعاً ولأمر الله ، وتنفيذاً لإشارته ؛ ثقة بالله ، واطمئناناً إلى رأى رسوله .

(*) سورة البقرة ٢١٧ و ٢١٨ ، الأنفال ٥ وما بعدها .

(١) هذه هي سرية عبد الله بن جحش . (٢) الإربة : الحاجة .

سار يومين كاملين ، ثم فتح الكتاب ، فإذا فيه : « إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة^(١) بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً ، وتعلم^(٢) لنا من أخبارهم . »

وأعلن في أصحابه أمر الرسول ، وقال لهم : أمرني رسول الله أن أمضي إلى نخلة ؛ أرصد بها قريشاً ، حتى آتية منهم بخبر ؛ وقد نهاني أن أستكره منكم أحداً ، فمن كان منكم يريد الشهادة ، ويرغب فيها فليطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ؛ فأما أنا فماض لأمر رسول الله .

فاستجابوا لدعوته ، واستعدوا لمعاونته ، وساروا جميعاً نحو غرضهم الأسمى ؛ تدفعهم الثقة بالله ورسوله ، وتحذوهم عناية الله ، وتشد من أزرهم قوته ، ولكن اثنين منهم ضلّ منهما بعير ، كانا يتعقبانه^(٣) ، فتخلفا في طلبه ، فأسرتهما قريش .

ومضى عبد الله وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة ، ومرت به عير^(٤) لقريش تحمل تجارة لهم ، وما إن رأوه حتى فزعوا لتلك المفاجأة ، ودهشوا لهذه المقابلة ، وتشاور أصحاب عبد الله فيما بينهم ؛ فقال قائل منهم : والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن المسجد الحرام ، فليمتنعن منكم به ، ولئن قتلتموهن لتقتلنهم في الشهر الحرام .

فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم ؛ وخافوا أن يقاتلوهم ؛ ولكنهم ما لبثوا أن أقدموا على الاشتباك معهم ، وأجمعوا أخذ ما يحملون من مال ونشَب .

التقى الخصمان ، فرمى وأقْدُ بن عبد التيمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، وأسِرَ عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ، وأفاء الله على المسلمين ما كانوا يحملون من أموال ، وخلص لهم ما جمعوا من تجارة .

(١) نخلة : موضع (٢) تعلم : اعلم (٣) يتعقبانه : يركبانه واحداً بعد الآخر .

(٤) العير : الإبل التي تحمل الميرة .

أقبل عبدُ الله بن جَحْش وأصحابه بالعير وبالأسيرين ، حتى قدموا بهما على رسول الله في المدينة ، فلما رأهم ، وعلم أنه قد التقى الفريقان ، فانهزم المشركون وفاز المسلمون بالغلبة والنصر ، قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام !

ووقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً ، حتى يفصل الله في أمرهما بحكم ، ويقضى في شأنهما بوحى .

وسقط في أيدي القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وثارَت ثائرة قريش حين علموا بالتعرض لتجارتهم ، وإيذاء قومهم ، وقالوا : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا الأموال ، وأسروا الرجال .

ولكن الله أنزل على هؤلاء المجاهدين رحمته ، وأظلمهم بعطفه ورعايته ، وأوحى إلى نبيه الكريم : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ^(١) ﴾ .

فلما نزل هذا القرآن ، وفرّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفَق ^(٢) ، سرّى عن أصحاب هذه السّرية ، وانقضت غياهب الحزن عن تلك الفئة المقاتلة ، وقبض رسول الله العير والأسيرين .

ثم بعثت إليه قريش ، تطلب منه فداء أسيريهما ، ولكنه أبى إلا أن يكون ذلك برّد صاحبيه اللذين أسروهما ، وقال : لا فداء حتى يقدم صاحبانا ؛ فإننا نخشاكم عليهما ؛ فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم .

فنزّلوا على رَأْيِهِ ، واستسلموا لشرطه ، وردّوا إليه أسيريه ، وأتم الله نعمته على المسلمين ، وأنجز لهم وعده ؛ إذ أيّدهم بنصره .

أما عبدالله بن جحش وأصحابه ، فما تجلّى عنهم ما كانوا فيه من الحزن ، وانقشع ما غمرهم من اليأس ، حتّى طمعوا فى الأجر ، وتطلّعوا إلى الثواب ، فقالوا : يا رسول الله ، أنطمع أن تكون لنا غزوة ، نُعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله فى شأنهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

بذلك انجابت أحزانهم ، واطمأنت قلوبهم ، وشاع السرور فى نفوسهم ، إذ غمّرتهم نعمة الله ، وأظلتهم رحمته .

كانت هذه السرية مفترق طرق فى سياسة الإسلام ، وأول دِعاة استقر بها نظامه ، وقام عليها عماده ؛ فيها أُجيب المشركون على تساؤلهم عن القتال فى الشهر الحرام بأنه كبير ؛ ولكن هناكهما هو أكبر منه ، وهو الصدّ عن سبيل الله ، وردّ المسلمين عن دينهم بالوعد والوعيد ، والخوف والتهديد ؛ والكفر بالله ؛ وإخراج أهل المسجد الحرام منه . وهذا هو ما ارتكبه المشركون ، وما اقترفه أعداء المسلمين ، لذلك شرع بعد ذلك قتال من يصدّون عن دين الله ، ويفتنون الناس عن عقيدتهم التى رسخت فى نفوسهم ، وتمكنت من قلوبهم .

٣

شعرت قريش بالخط من كرامتها وعزتها ، والنيل من بأسها وقوّتها ، إذاً غير على أموالها ؛ وُقّتل أبناؤها ، وأسر رجالها .

لذلك حاولوا إثارة شبه الجزيرة كلها على محمد وأصحابه : أن قاتلوا فى الشهر

الحرام ، حتى لقد أُيقِنَ المسلمون أن لم يبق في مصانعتهم أو الاتفاق معهم رجاء .
وكان يوم أخبر فيه النبي المسلمين أن أبا سفيان بن حرب قد أقبل من الشام
في غير لقريش ، فيها أموالهم وتجاريتهم ، ونَدَبَهم إليها ، وقال لهم : هذه غير
لقريش فاخرجوا إليها لعل الله يُنْفِضَ كُموها (١) .

نخف بعضهم ، وثقل بعضهم ؛ لأنهم ما كانوا يظنون أن رسول الله يلقى حرباً .
أما أبو سفيان فقد كان يتحسس الأخبار ، ويتسمع الأنباء ، ويسأل من
لَقِيَ من الأعراب ؛ تخوفاً على تجارته ، وحرصاً على أمواله ، فأصاب خبراً
من بعض الركبان : أن محمداً قد استنفر (٢) أصحابه لك ولعيرك ؛ نخاف العاقبة ،
وحذر الأمر ، وأراد أن يأخذ للأمر عدته ، فاستأجر ضَمْضَمَ بن عمرو
الغفاري وأرسله إلى مكة ؛ وأمره أن يأتي قريشاً ، فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم
أن محمداً قد عرض له في أصحابه .



قال العباس بن عبد المطلب — ولقد لقي الوليد بن عتبة بمكة : إن عاتكة قد
رأت رؤيا أفزعتها ، ولما قصتها عليّ تخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة .
قال الوليد : وماذا رأت ؟ قال : رأت راكباً أقبل على بعيره حتى وقف بالأبطح ،
ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يا لُغَدْر (٣) لمصارعكم في ثلاث ! ثم دخل المسجد
والناس يتبعونه . فبينما هم حوله مَـثَل (٤) به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ :
ألا انفروا يا لُغَدْر في ثلاث ! ثم مَـثَل به بعيره على رأس أبي قُبَيْس (٥) ، فصرخ

(١) أنفله إياه : أعطاه نفلاً وغنماً (٢) استنفر أصحابه : طلب منهم النصرة .

(٣) غدر : إذا نقض العهد ، ويقال رجل غادر ، وغدر . وأكثر ما يستعمل هذا

النداء في الشتم ، يقال : يا غدر ، ويقال في الجمع : يا لُغَدْر . (٤) مثل : قام منتصباً .

(٥) أبو قبيس : جبل بمكة .

بمشلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ترفضت ^(١) فما بقي بيت من بيوت مكة ، ولا دار إلا دخلها منها فلاة ^(٢) .

ها هي ذى رؤياها ، فاکتم منى ما أحدثك به .

ولكن الوليد حدث أباه بها ، وفشا أمرها ، حتى أصبحت حديث قريش في انديتها ، ومشار الجدال في مجالسها .

وغدا العباس يطوف بالبيت ، وأبو جهل في رهط ^(٣) من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة أخته ، فلما رآه أبو جهل قال : يا أبا الفضل ، إذا فرغت من طوافك ، فأقبل إلينا .

فلما فرغ جلس معهم ، فقال له : يا بني عبد المطلب ، متى حدثت فيكم هذه النبئة ؟ قال العباس : وما ذاك ؟ قال : تلك الرؤيا التي رأتها عاتكة . قال : مارأت ؟ قال أبو جهل : يا بني عبد المطلب ، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تنبأ نساؤكم ! قد زعمت عاتكة في رؤياها أن راكباً قال انفروا في ثلاث . فسنتربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ما تقول ، وإلا كنتم أكذب أهل بيت في العرب .

فأنكر العباس أن تكون قد رأت شيئاً ، ثم افترقوا .

وأمسى المساء فلم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتت العباس ، وصحن به ، فقلن له : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناول

(١) ترفض الشيء : إذا تكسر (٢) الفلاة : الكسرة .

(٣) الرهط : مادون العشرة من الرجال ، والمراد : الجماعة .

تسألكم وأنت تسمع ! ثم لم يكن عندك غيره لشيء مما سمعت !

قال العباس : قد والله فعلتُ ، ما كان مني إليه من كبير ، وإيمُ الحق لا تعرضن له ، فإن عاد لأَكْفِيكَنَّه .

وغدا إلى المسجد في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وهو حديد مُغْضَبٌ^(١) ، يرى أنه قد فاتته أمر يجب أن يُدْرِكَه ، ودخل المسجد ، فرأى أبا جهل ومشى نحوه يعترض له ليعودَ لبعض ما قال ، فيقع به .

ولكنه رأى أبا جهل يتَّجه نحو باب المسجد ؛ فظنه قد فَرِقَ^(٢) منه أن يشاتمَه . ولكنه كان قد سمع صوتاً لم يسمعه ، ورنَّ في أذنه صدى لم يعهده ، فشغل به ، وخرج إليه .

٥

كان ضَمْضَمُ بن عمرو الغفاري رسولُ أبي سفيان قد وصل إلى مكة ، ووقف على راحلته ، وقد جدَّع أنف بعيره ، وحولَّ رَحْلَه ، وشق قميصه من قُبُل ومن دُبُر ، وجعل يصيح : يامعشر قريش ؛ اللطيمة^(٣) اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان قد عَرَضَ لها محمد في أصحابه ، ولا أرى أن تدركوها ؛ الغوث الغوث ! وشغل الناس بهذا الأمر ، واجتمعوا يُجِيلُونَ قِداحَ الرأي ؛ ثم أجمعوا على أن يتجهزوا سراعاً ، فكانوا بين رجلين : إما خارج ، وإما باعث مكانه رجلاً ، وأوعبت^(٤) قريش ، فلم يتخلف من أشرافها أحد ، إلا أبا هب ، فقد بعث مكانه من استأجره بأربعة آلاف درهم ، كانت ديناً عليه .

(١) رجلٌ حديدٌ : يكون في اللبس والفهم والغضب . (٢) فرق : خاف .

(٣) اللطيمة : المال والتجارة . (٤) أوعب : جمع .

ولما أجمعوا سيرهم ، وفرغوا من جهازهم ذكروا ما كان بينهم وبين كِنانة من لَحْن ، وما وقع بينهما من حروب ، وقال قائل منهم : إننا نخشى أن يأتونا من خلفنا . وكاد ذلك يثنيهم ، ويقعد بهم عن الخروج ؛ ولكن سُرَاقَةَ بن مالك - وكان من أشرف كِنانة - قال ؛ أنا لكم جار من أن تأتيكم كِنانة من خلفكم بشيء تكرهونه .

إذ ذاك رجحت كَفَّةُ رأى الدعاة إلى الخروج ، ولم يبق بمكة متخلف قادر على القتال .

٦

أما محمد فقد خرج ^(١) من المدينة وأمامه رَايتان سوداوان : إحداهما مع علي بن أبي طالب ، والأخرى مع الأنصار .

وسار أصحابه يتعاقبون في الإبل ^(٢) ، حتى إذا لقي رجلاً من الأعراب سأله عن الناس ، فلم يجدْ عنده خبراً ، فواصلوا السير والشرى حتى إذا كانوا قريباً من الصفراء ^(٣) بعث رسول الله من يتحسس أخبار أبي سفيان بن حرب ، وسار حتى كان بذِفران ^(٤) نزل به ، فأتته العيون تخبره أن قريشاً قد سارت إلى أبي سفيان ، ليمنعوا عيره .

استشار النبي أصحابه فيما عرض لهم من أمر قريش ؛ فقد تغير وجه الأمر ، وصار أمام عدوٍ لا بد أن يلتحم معه في حرب ، ويشتبك معه في قتال !

قام المقداد بن عمرو ، فقال : يا رسول الله ، امض لما أمرك الله ، فنحن معك

(١) هذه هي بدر الكبرى (٢) يتعاقبون الإبل : يختلفون عليها ؛ أي يركبونها واحداً بعد واحد . (٣) الصفراء : قرية بين جبليين . (٤) ذفران : واد قرب الصفراء .

والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ؛ فوالذى بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد ^(١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلىغه . فقال له النبي خيرا ، ودعا له به .

ثم قال : أشيروا على أيها الناس - وإنما يريد الأنصار ؛ فقال سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ! قال : أجل . قال : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا في الحرب ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ؛ ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ؛ فسر بنا ، واستمدّ العون والتوفيق من الله .

وما إن أتم كلامه ؛ وانتهى من حديثه ، حتى أشرق وجهُ الرسول ، وشاع السرور في نفسه ، ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ^(٢) ؛ والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ! وارتحلوا حتى نزلوا قريبا من بدر .

وبعث النبي بعض أصحابه إلى ماء بدر ^(٣) يتحسسون أخبارهم ، فأصابوا رجلين يستقيان لقريش ، فأتوا بهما وسألوهما : إلى أين يذهبان ؟ وإلى أى قبيلة ينتسبان ؟ وأى غرض يقصدان ؟ فقالا : نحن سقاة قریش بعثونا نستقيهم من

(١) برك الغماد : موضع باليمن . أو أقصى ممرور الأرض (٢) إحدى الطائفتين : العير أو قریش (٣) بدر : ماء على ثمانية وعشرين فرسخا من المدينة في طريق مكة وقد نزلت قریش بالعدوة القصوى من الوادى خلف العققل . والقليب بدر : هو في العدوة الدنيا .

الماء ؛ ففكره القوم خبرهما ، وقد رجوا أن يكونا لأبي سفيان ، فانهالوا عليهما ضرباً ، وأشبعوهما لطماً ، فلما أذلقوهما ^(١) قالوا : نحن لأبي سفيان ، فتركوهما .

ولما رأى النبي ما كان من أصحابه - وقد كان يصلي - أقبل عليهم ، يقول : إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإن كذباكم تركتموهما ! صدقاً والله إنهما لقريش .

ثم آتفت إليهما يقول : أخبراني عن قريش ؛ قالوا : هم والله وراء هذا الكعيب الذي ترى بالعدوة ^(٢) القصوى ، فقال رسول الله : كم القوم ؟ قالوا : كثير . قال : ما عدتُهم ؟ قالوا : لا ندرى . قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالوا : يوماً تسعاً ، ويوماً عشرة .

فقال الرسول لأصحابه : القوم فيما بين التسعمائة والألف ، ثم أقبل على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها .

V

هذا أبو سفيان قد تقدم عيره حذراً من أن يفاجئه أصحاب محمد ، ولما علم بمكانهم ، وأفضت إليه عيونه بمستور أمرهم ، رجع إلى أصحابه سريعاً ، وغير وجهه سيره ، وجانب الطريق بعيره ، وترك بدراً يساراً ، وانطلق حتى أفلت من محمد وأصحابه ، واستخلص عيره من بين أظفارهم .

ولما رأى أنه قد استخلص عيره ، وأحرز تجارتَه ، ونجا بأمواله ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم ، لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، وقد نجوت بها ؛ فارجعوا .

فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نردَّ بدراً فنقيم ثلاثاً ، فننحر الجزر ،

(١) أذلقوهما : أضغفوهما . (٢) العدو : شط الوادي .

وَنُطْعِمُ وَنُسْقِي الْخَرَّ ، وَتَعَزُّفُ عَلَيْنَا الْقِيَانُ ، وَنَسْمَعُ بِنَا الْعَرَبِ وَبِمَسِيرِنَا
وَجَمْعِنَا ؛ فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا بَعْدَهَا ؛ فَاْمَضُوا .

ولكن الأخنس بن شريق عارض رأيه ، ونقض حجته ، وقال لبني زُهرة -
وكان حليفًا لهم : يا بني زهرة ؛ قد نجت أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم ، وإنما نفرتم
لتمنعوه وماله فارجعوا ، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة ^(١)
لا ما يقول هذا .

وقد كان الأخنس فيهم مطاعا ؛ فلم يشهدوا زهرى واحد ، ومضت قريش حتى
نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي .

وأُسفر الصباح ، والمسلمون في انتظار مرور العير بهم ، فإذا الأخبار تصلهم
أن أبا سفيان قد فاتهم ، وأن مقاتلة قريش هم الذين مايزالون على مقربة منهم ،
فدَوَى في نفوس جماعة منهم الأمل الذي كانوا ينعمون به ، وجادل بعضهم النبي ،
كي يعودوا إلى المدينة ، ولا يلقوا القوم الذين جاءوا من مكة لقتالهم ؛ فأنزل
الله عليهم : ﴿ وَإِذْ ^(٢) يَبْعِدُكُمْ اللَّهُ لِأَحَدَى الطَّائِفَتَيْنِ ^(٣) أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ
غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ
دَائِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

فأجمع المسلمون أن يَضُمُّدُوا للعدو إذا اشتبكوا معه في القتال ، وبادروا
إلى ماء بدر ، وبعث الله السماء ^(٤) ، فأصاب الوادي ماء ، لَدَدَ لهم الأرض ، ولم
يمنعهم عن السير ، وأصاب قريشاً منها ماء ، فلم يقدروا أن يرتحلوا معه . وخرج

(١) الضيعة : العقار والأرض المغلة وتجارة الرجل . (٢) الانفال ٧ .

(٣) الطائفتان : العير والنفير ، وغير ذات الشوكة : العير . والشوكة كانت في النفير

لعددهم وعدتهم ؛ (٤) السماء : المطر .

رسولُ الله ، حتى إذا جاء أدنى ماء من بَدْر نزل به .



استقر بهم المقام ، فقال الحباب بن المنذر : يا رسول الله ؛ أرايت هذا المنزل
أَمْزَلاً أَنْزَلَهُ اللهُ لَنَا أن نَتَقَدِّمَهُ ، ولا نَتَأَخَّرَ عَنْهُ ، أم هو الرأى
والحربُ والمَكِيدَةُ ؟

قال النبي : بل هو الرأى والجهاد . قال : يا رسول الله ؛ ليس هذا بمنزل ، فأنهض
بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فننزله ، ثم نغور^(١) ماسواه من القلب^(٢) ،
ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون . فقال
رسول الله : لقد أشرت .

فساروا حتى إذا أتوا أدنى ماء من القوم نزلوا عليه ، ثم أمر بالقلب
فغُورَت ، ثم بنوا حوضاً وملئوه ماء .

* * *

بنوا الحوض ، وأخذوا عُدتهم للقتال ، وبينما هم يتحدثون ويتشاورون تقدم
سعدُ بن معاذ قائلاً : يا بني الله ؛ ألا نبني لك عريشاً^(٣) تكون فيه ، ونعد عندك
ركائبك ؛ ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله ، وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما
أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ؛ فلحققت بمن وراءنا من قومنا ،
فقد تخلف عنك أقوام — يا بني الله — ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك
تلقى حرباً ماتخلفوا عنك ، ي منعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك .

فأثنى رسول الله على سعد ودعاه له بخير ، ثم بنى العريش للنبي ، حتى إذا لم

(١) لغور : نردم حتى يهضب الماء (٢) القلب : جمع قليب : البئر العادية القديمة .

(٣) عريشاً : خيمة من خشب .

يكن النصر في جانبه وجانب أصحابه ، لم يقع في يد عدوه ، واستطاع اللحاق بأصحابه في يثرب ، يؤذن فيهم بدعوته ، وينشر بين غيرهم من أبناء العرب دينه .

٩

ونزلت قريش منازل القتال ، ثم بعثوا مَنْ يقصّ لهم خبر المسلمين ، وجاء راعدهم يُنبئهم بأن أصحاب محمد ثلثمائة أو يزيدون أو ينقصون ، وليس لهم كمين ولا مورد ، ولكنهم مع ذلك قوم لا ملجأ لهم إلا سيوفهم ، ولا منعة لهم إلا إيمانهم الثابت ، ويقينهم المكين .

وداخل العرب قلوبهم ، وخاف بعض ذوى الحكمة منهم أن يقتل المسلمون كثرتهم ، فلا تبقى لمكة مكاتها ؛ فقام عتبة بن ربيعة ، وقال : يامعشر قريش ؛ إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته ! فارجعوا وخلصوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك لم نتعرض لما تكرهون .

وبلغت أبا جهل مقالته ؛ فاستشاط غيظاً ، وذكر القوم بما بينهم وبين المسلمين من إحن ، وما فشا بينهم من عداوة ، وما وقع من دماء ؛ فأجمل ذلك القتال ، وتزاحف الناس ، والتقى الجمعان .

١٠

ورأى رسول الله كثرة أعدائه ، ووفرة عدتهم ، فخرج إلى أصحابه يشدد من عزمهم ، ويعدل صفوفهم ، ويأمرهم ألا يحملوا عليهم حتى يأمرهم ، وقال لهم :
(٢١ - قصص القرآن)

إن اكتنفكم القوم فانضحوهم^(١) عنكم بالنبل .

وعاد إلى العريش معه أبو بكر ، وهو أشد ما يكون خوفاً من مصير أصحابه ،
وأكثر ما يكون إشفاقاً مما سيؤول إليه أمر الإسلام والمسلمين .

ثم لجأ إلى الله يستمد منه النصر ، ويستنجزه الوعد ، وجعل يضرع إليه
ويقول : « اللهم هذه قریش قد أتت بخيلائها وفخرها ، تحاذك^(٢) وتكذب
رسولك . اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » .
وما زال يدعو ربه ، باسماً يده ، مستقبلاً القبلة ، حتى سقط رداؤه . وجعل
أبو بكر من ورائه يرد على منكبیه رداؤه ويهيب به : يا نبي الله ، بعض مناشدتك
ربك ! فإن الله منجز لك ما وعدك من النصر .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ظلّ فيما هو فيه من ضراعة إلى الله ،
واستغاثة بربه ، حتى أخذته سنة ، رأى خلالها نصر الله : إذ أوحى إليه :
« يأيها النبي حرّض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون
يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم
قوم لا يفقهون »^(٣) .

فخرج النبي إلى أصحابه يحرضهم على القتال ، فقال : « والذي نفس محمد بيده
لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله
الجنة » . ثم أخذ حفنة من الحصباء^(٤) ، فرمى بها في وجوه القوم ، وقال :
« شامت الوجوه » ، ثم أمر أصحابه ، فقال : شدّوا . فازداد المسلمون قوة ،
وصاحوا مهاتين : أحد أحد !

(١) فضح فلان بالنبل : رماه .

(٢) المحاذة : المعاداة والمخالفة والمنازعة .

(٣) سورة الأنفال ٦٥

(٤) الحصباء : الحصى .

وأمدّهم الله بالملائكة يُدشّنونهم ، ويزدادون بهم يقيناً وإيماناً ؛ ووقف النبي وسط الممعة ، يُقسّوي من عزيمتهم ، ويشدّ من أزرهم ، ويدشّرهم بنصر الله لهم .

١١

ازداد المسلمون قوة بتحريض النبي لهم ، ووقوفه بين صفوفهم ، وأمدّهم الله بملائكته ؛ فأكثروا في قريش القتل والسّبي ، وخاضوا وطيس المعركة ؛ فشار النّقع ^(١) ، وامتأّ الجوّ بالغبار ، وجعلت هام ^(٢) قريش تطير من أجسادها .

ورأى بلال أمية بن خلف يتخبط في صفوف المقاتلين ، ويسير وسط هؤلاء المشركين ، وقد كان يغريه بمكة أن يترك الإسلام ، فيخرجه إلى رمضان ^(٣) مكة إذا حميت ، ويضعه على ظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : لا تزال هكذا حتى تفارق دين محمد ، فيقول بلال : أحد أحد !

رآه بلال ، فاقتحمته ^(٤) عينه ، وأقبل نحوه ، وقال : رأس الكفر أمية بن خلف ! لا نجوت إن نجا . وحاول غيره أن يأسره . ولكنه صرخ بأعلى صوته ، وأقبل عليه بسيفه فأرداه قتيلاً .

١٢

وتبدد الغبار . وانجملت المعركة عن جثث هامة ، وأشلاء متناثرة ؛ وولّى أهل مكة الأدبار ، كاسفاً بالهم ، خشعاً من الذل أبصارهم .

وأمر رسول الله بالقتل أن يُطرحوا في القلب ، ووقف عليهم ، فقال : « يا أهل القلب ، بأست العشيرة كنتم لنبيكم : كذبتُموني ، وصدقني الناس ،

(١) النقع : الغبار . (٢) هام : جمع هامة .

(٣) المرض : شدة وقع الشمس على الرمل وغيره ، والارض رمضان (٤) اقتحمه : احتقره

وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتهموني ونصرني الناس ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً » ١

فقال له أصحابه : يا رسول الله ؛ أتنادي قوماً قد جيّفوا (١) ؟ فقال لهم : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ؛ ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني .

* * *

وبينا النبي في حديثه مع قومه في شأن قتلى قريش إذا أبو حذيفة بن عتبة كئيب قد تغير ، فقال : يا أبا حذيفة ، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ؛ ما شككت في أبي ولا في مصرّعه ، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام . فلما رأيت ما أصابه ، وذكّرت مآلات عليه من الكفر ، بعد الذي كنت أرجو له - أحزنت ذلك !

فطمأنه الرسول ، ودعا له بخير .

وانصرف المسلمون إلى الغنائم يجمعونها ، وإلى الأسلاب يضمّون أشتاتها ، وهم بنصر الله فرحون ، ولنعمة شاكرون .

العتب في الفداء (*)

عادت قريش يوم بذّر كسيرة الفؤاد مقصوصة الجناح ، يطأطن الذل هاماتهم ، ويصدع الأسى أكبادهم ، ويأكل الحقد لفائف صدورهم ؛ فقد اشتبكوا مع رسول الله في يوم ثار فيه النّقع ، واشتبك القنا ، وتلاقت الأبطال بالأبطال ، ثم تكشف القتّام ، وتجلّى اليوم عن عشرات القتلى وعشرات الأسرى ؛ دَعِ الغنائم والأسلاب ، والخيل والركاب . ولو أن أولئك القتلى وهؤلاء الأسرى كانوا من عامتهم ودّهمائهم ، أو صغارهم وسوادهم ، لهان الخطب وخفت المصاب ، ولكنهم - ويا بؤس لهم ! فقدوا رؤوسهم وشجعانهم ، وبها يليلهم^(١) وأعلامهم ، فهم اليوم أشد ما يُرَوْن ذلة ، وأعظم ما يكونون مهانة وانكساراً .

أما رسولُ الله - وقد عقد الله له النصر ، واختار له التوفيق - فقد أمر بالقتلى أن تلقى في القليب أجسادهم ، وأن تُوارى بالتراب أشلاؤهم ؛ وعمد إلى الغنائم فقسمها عدلاً ، ووزعها إنصافاً .

وجاء دور الأسرى ؛ ماذا يفعل بهم ؟ وكيف سلوكة معهم ؟ وليس عنده - صلى الله عليه وسلم - فيهم أمر صريح ، أو حكم منبّز ؛ فعمد إلى صحابته يستشيرهم ، ويتعرف الصواب في ضوء آرائهم - وكذلك كان دأبه صلى الله عليه وسلم في كثير مما كان يعرض له من أمور الحرب والجهاد - وإن كان أوفرهم عقلاً ، وأنفذهم في المشكلات رأياً ، وأمضاهم في الحادثات عزمًا - ليضع سُنناً صالحة يستنّها ملوك الأنام ، ومن يكون بيدهم زمام الأمور والأحكام .

(*) الأنفال : ٦٨ وما بعدها .

(١) البهاليل : جمع بهلول ، وهو السيد الجامع لكل خير .

قال لهم : ماتقولون في هؤلاء الأسرى ؟ قال أبو بكر : يا رسول الله . قومك وأهلك ، استبقهم واستأن^(١) بهم ، لعل الله يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك . وقال عمر : يا رسول الله ، أخرجوك وكذبوك ، اضرب أعناقهم ؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وإن الله أغناك عن الفداء .

فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأييهما ، وأصاخ إلى غيرهما . ولكنه دخل مخدعه ، لم يبد رأياً ، ولم يتخذ حكماً . واشتجرت الآراء بين المسلمين ، من قائل يقول : إنه سيأمر بقتلهم ، ومن قائل يقول : إنه سيفك أسرارهم ، وما هو إلا أن طلع عليهم فقال : إن الله ليولين قلوب رجال فيه حتى يكونوا ألين من اللبن ، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة . وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم حين قال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى حين قال : ﴿ إِنْ تَعَذُّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . وإن مثلك يا عمر كمثل نوح حين قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ كَذَّابًا ﴾^(٢) . وإن مثلك يا عمر كمثل موسى حين قال : ﴿ رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ ، وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ . أنتم عالة ، فلا يبقين أحد إلا بفداء أو ضربة عنق .

وشاع في جنابات مكة وبين أندية قريش أن محمداً قد أعلن في الأسرى أنه خيرهم بين القتل والفداء ؛ خففوا سراعا إلى المدينة ، ودفعوا المال ، وفكوا عن أسرارهم الأغلال .

(١) استأنى بفلان : لم يعمله . (٢) ديارا : أحدا .

وما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر هؤلاء الأسرى ، حتى أوحى الله إليه يعاتبه في إشار الفداء على القتل ؛ إذ كان المسلمون - في بدء دولتهم ومطلع ملكهم - حاجتهم إلى إذلال عدوهم بالقتل أشد ؛ ليعظم شأنهم ، ويعلو في الأرض سلطانهم ، وتستقر في نفوس الأعداء هيبتهم ، وتضعف شوكة أعدائهم ، وهم في عنفوان قوتهم وكثرتهم ؛ أما المال فهو نفع عرَضِيٌّ ، ومرتبة ثانية بعد إضعاف العدو بالقتل . على أنه سبحانه وتعالى قد جرت سنته ، واقتضت رحمته وحكمته ألا يؤخذ مجتهدا وإن أخطأ ، ولا مُتَسَاوِلا وإن أضله رائدُ التوفيق ، فقال : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخَنَ ^(١) فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ^(٢) . لَوْلَا كِتَابٌ ^(٣) مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ^(٤) ۝

(١) يشخن في الأرض : يقوى ويشتمد ويغلب . (٢) كتاب : أى حكم .

(٣) روى أنه لما نزلت هذه الآية دخل عمر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال : يا رسول الله ، أخبرني فإن أجد بكاء بكيت ولما تباكيت ، فقال : أبك على أصحابك في أخذهم الفداء ، ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة .

أحد (*)

في السنة الثانية بعد الهجرة ، والصراع قائم بين الكفر والإيمان ، غلب كفار قريش ، ورجع قتلهم^(١) إلى مكة مذموما مدحورا ، بعد أن هزموا يوم بدر ؛ فقتل منهم من قتل ، وأسروا منهم من أسروا .

فهذا أبو سفيان بن حرب زعيمهم يعود الخيـزلـي^(٢) بحزب الشيطان ، وقلوبهم تصطبى نارا ، وتتقد أوارا ، مما أصابهم يوم نصر الله المسلمين ببدر .

وهذا رسول الله الكريم في صحابته يقبل فداء الأسرى ، ويترقق بضعيفتهم ، ويمنّ على فقيرهم ، ومن بين هؤلاء أبو عزة الجمحي يقول : يا رسول الله ، إني فقير وذو عيال وحاجة قد عرقها ؛ فامنن علي . ويفيض كرم الرسول ، فيمن عليه ، ويعطيه مما أفاء الله .

استمرت قريش سنة متعدي سلاحها ، وتؤلب عديدها ، حتى إذا كانت السنة الثالثة بعد الهجرة مشى عبد الله بن ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان ابن أمية ، في رجال من قريش ، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ، يحرضونهم على القتال والأخذ بالشار ، فينادون : يا معشر قريش ؛ إن محمدا قد وتركم ، وقتل خياركم ؛ فأعينونا بهذا المال على حربه ؛ فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا .

يدب هذا النداء في آذان القوم ، فيتبارون في حشد الجنود ، وبذل الأموال ؛ فهذا جبير بن مطعم يقول لغلـامـه : إن قتلت حمزة عم محمد بعـمى قتيل بدر فأنت

(١) آل عمران : ١٢٥ وما بعدها .

(٢) فلهم : ما بقي من جيشهم . (٢) الخيـزلـي : المشى في ثأقل .

طليق : وهذا غيره من طغاة القوم يقدمون أموالهم وعبيدهم وعتادهم للقاء هذا اليوم العظيم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ .

وبهذا وعدهم الله ، ومن أصدق من الله قيلا ، ولقد صدق الله وعده ، ونصر مُجندَه يوم الفتح العظيم .

اجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقودها أبو سفيان ، ومعهم جمعٌ من كِنَانَةٍ وأهل تِهَامَةٍ ؛ وانبثَّ شياطينهم ، ينفّرون المقاتلين لحرب الله ؛ فهذا صفوان بن أمية يقبل على أبي عزة طليق بدر ، فيقول : يا أبا عزة ، إنك أمرؤ شاعر ؛ فأعنتنا بلسانك ، فاخرج معنا ؛ فيرد أبو عزة قائلاً : إن محمداً قد منَّ عليّ فلا أريد أن أظاهر ^(١) عليه ؛ فيقول صفوان : فأعنتنا بنفسك ، فلك عليّ إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي ، ويصيبهنَّ ما أصابهنَّ من عُسر ويسر .

خرج كبار قريش ومعهم نساؤهم ، فهذه هند بنت عتبة زوج أبي سفيان اختشدت في نساء من أشرف قريش ؛ تحمس الجيش ، وتنفر المقاتلين ، وهم يخشون في سيرهم ويوضعون ^(٢) ؛ حتى تستقر رحالهم بجبل أحد ^(٣) مقابل المدينة . وهذا رسول الله الكريم في جمع من صحابته يشاورهم في الأمر ، ويجيل معهم قداح الرأي ^(٤) إذ يقول : فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشرٌ مُقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم . فينطلق عبد الله بن أبي

(١) أظاهر عليه : أعين عليه . (٢) الخبب والإيضاع : نوعان من السير .

(٣) أحد : جبل تلقاء المدينة . (٤) القداح : جمع قدح ، وهو ماله نصيب في الميسر ، والمراد : أنواع التفكير .

ابن سلول محبذا رأى رسول الله . داعياً إلى الأخذ بما يراه ، إلا أن نفرا ممن حبب الله إليهم الاستشهاد في سبيله قالوا : يا رسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أننا جبننا عنهم وضعفنا ؛ فيرد دعوتهم عبد الله بن أبي : أن يا رسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه .

وما زال القوم في أخذ وردٍ حتى قام رسول الله بعد صلاة الجمعة ، فلبس لأمته ^(١) ، وتهيباً للقتال ، فقال القوم : يا رسول الله ، استكرهناك ، وليس لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد . فيقول عليه الصلاة والسلام : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يُقاتل » .

ثم خرج الرسول في ألف من أصحابه بعد أن خلف بالمدينة ابن أم مكتوم يؤم الناس في الصلاة ، حتى إذا كان الجيش بين المدينة وأُحد انخزل عنه عبد الله ابن أبي بن سلول بثلاث الناس ، وهم بنو سُلَيْمَة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس ، متعللاً بأن الرسول قد أطاع غيره وعصاه ، ثم قال : لو نعلم قتالا لا تبعناكم ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس ! ولكن عبد الله بن عمرو اتبعهم يقول : يا قوم ، أذكركم الله ألا تأخذوا قومكم وبنيتكم . ولكنهم ولوا عنه مدبرين ؛ فكان هذا جلاء لسر كشفه رب الأرض والسموات : ﴿ وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لا تبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم - والله أعلم بما يسكتهمون - الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا . قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ . ومضى رسول الله صلى الله عليه

وسلم حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي إلى الجبل ، ثم جعل ظهره وعسكره إلى الجبل ، وقال : لا يُقاتِلَ أحد منكم حتى تأمر مرة بالقتال .

وتعباً رسول الله للقتال ، وهو في سبعمئة رجل ؛ وتعباً قريش ، وهم ثلاثة آلاف رجل ومعهم مائتا فارس ، جاءلين على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل .

قام الرسول ممسكاً سيفاً ، فقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقال أبو دجانة : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : أن تضرب به العدو حتى ينحني ، قال : أنا آخذه يا رسول الله بحقه . فأعطاه إياه ، فلما أخذ السيف من يد الرسول أخرج عصا به له فعصب بها رأسه ، وجعل يتبخر بين الصفين ، فقال الرسول عليه السلام حينما رآه : إنها لمشية يُبغضُها الله إلا في مثل هذا الموطن .

وهذا أبو سفيان يتقدم إلى أصحاب اللواء من بني عبد الدار ، يحرضهم على القتال ويقول :

يا بني عبد الدار : إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر ، فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا . فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه .

فهموا به وتوعدوه وقالوا : نحن نسلم إليك لواءنا ! ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع !

وهذه هند بنت عتبة في النسوة اللاتي احتشدن معها ، أخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال محرضات على القتال .

التحمت المرقعة ، واستعر القتال ؛ وحميت الحرب ، وأبو دجانة يقاتل بسيف الرسول . ويدنا هو في كفاحه وجلاده إذا يأنسان يحرض الناس ،

ويدفعهم دفعا شديدا إلى قتال المسلمين ، فصمد له أبودجانة ، حتى إذا حمل السيف ، فسلكه على رأسه ولول واتحجب ، وضجَّ وصخب ، فإذا هي هند بنت عتبة ؛ فأكرم أبو دجانة سيف الرسول أن يضرب به امرأة .

وهذا وحشى الحبشى يتحسّن الفرص ؛ لينفذ إلى قتل حمزة حتى يعتق ، فإذا به يراه صائحا كالجلل الأورق ^(١) ، فيقدم عليه وحشى ، فيطعننه بحربته ، فينخر صريحا شهيدا في سبيل الله .

اشتد القتال يوم أحد ، وجلس الرسول تحت راية الأنصار ، يقوى عزم المسلمين ، ويربط على قلوبهم بالصبر والتقوى ، ويحذّرهم الخيانة ؛ فلا يتركون مراكزهم ، ولا يغترّون بيوادر النصر ، ولا يؤخذون ببريق من متاع الحياة ، ولا يحرصون على جمع الغنائم ، وتعقب المشركين طمعا في زينة الحياة .

أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، حتى أزالوا المشركين عن عسكرهم ؛ وكانت الهزيمة منهم قاب قوسين أو أدنى ، وولى الكفار الأدبار ؛ إلا أن نزوة من النزوات الشيطانية ، وهفوة ما زال تعترى النفس الإنسانية ، صرفت جموع المسلمين عن متابعة النصر ، وموالاة المشركين حتى النهاية ، وأنستهم نصيح نبيهم . وقد كان في آخرهم يدعوهم : « إلى عباد الله ، إلى عباد الله ! » ، فانصرفوا عنه ، وانكبوا على الغنائم ، وانخذلوا عن مواقفهم ، وعصوا أمر الرسول : ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم آلتى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ﴾ .

وقع هذا بعد أن كان النصر معقودا لوائه للمسلمين ، وكان لواء الكفار مع غلام لأبي طلحة ، فقاتل حتى قطعت يداه ، ثم أخذه ب صدره وبرك عليه ؛ فأسرعت

(١) الأورق : ما في لونه بياض إلى سواد .

عليه عمرة بنت علقمة الحارثية ورفعته : فلاذت به قریش واجتمعت تحت ظلاله .

تراجع المسلمون ، وخضدت شوكتهم ، وغشيتهم فتور وضعف ، وداخل قلوبهم
الهم ، وشغلوا عن ذكر الله ، فرجع عليهم القوم ، وكان اليوم يوم بلاء وتمحيص ،
أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة ، حتى خلاص العدو إلى رسول الله
عليه الصلاة والسلام : فأصيبت ربايته ، وشج وجهه ، وكلت شفته .

ثم شاع أن محمداً قد قُتل : فاضطرب أمر المسلمين ، وانفرط عقدهم ، ﴿ وما محمد
إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسلُ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ،
ومن ينقلب على عقبيه فإن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين ﴾ . وما كان
لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يُرد ثواب الدنيا نُؤته منها
ومن يُرد ثواب الآخرة نُؤته منها وسنجزي الشاكرين ﴾ .

ثم أبصر كعب بن مالك الرسول ، وعيناه تزدهران تحت مغفره (١) : فنادى
بأعلى صوته : يامعشر المسلمين : أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فلما عرف المسلمون الرسول نهضوا به : ونهض معهم نحو الشعب ، ومعه أبو بكر
وعمر وعلي وطلحة بن عبد الله ، والزبير بن العوام ، ورهط من المسلمين ، فأدركه
أبي بن خلف ، وهو يقول : أين محمد ؟ لانبجوتُ إن نجا ! فقال القوم : يا رسول
الله ، أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال الرسول : دعوه ، فلما دنا تناول الرسول عليه
السلام حربة ضرب بها عنقه : فكانت سبباً في موته .

ثم قدّم عليٌّ للرسول ماءً ، فغسل دمه ، ثم أصابه عليه السلام ضعف ، فكان
يصلى من قعود .

(١) المغفر : حلقة يتقنع بها المتسلح .

وقفت رحى الحرب بين المسلمين والكفار في أحد ، وقد هزم المسلمون فيها ، واستشهد منهم سبعون من الأخيار الباهرين ، بعد أن لمسوا النصر بأيديهم ، ولكن هكذا قدر الله وهو خير الحاكمين ، ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم ﴾ (١) بإذنه حتى إذا فشلت وتنازعت في الأمر ، وعصيت من بعد ما أراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ؛ ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين ، إذ تصيدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غمًّا بغمًّا لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله بخير بما تعملون ، ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفةً منكم وطائفةً قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ، قل لو كنتم في يوتيكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلي الله ما في صدوركم ، وليلمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور .

انتهت الموقعة ، وأراد أبو سفيان بن حرب الانصراف ، فأشرف على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته : إن الحرب سجال ؛ يوم بيوم ! فقال الرسول : قم يا عمر فأجبه ، فقال : الله أعلى وأجل ؛ لا سواء ! قتلنا في الجنة وقتلناكم في النار . فلما أجاب عمر قال له أبو سفيان : هلم إلى يا عمر . فقال الرسول لعمر : ائته ؛ فانظر ما شأنه ، فجاءه : فقال أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمداً ؟

قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن .

ولما انصرف أبو سفيان بعث الرسولُ علياً أن يخرج في آثار القوم : فإن جَنَّبُوا الخيل ، وامتنطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل ، وساقوا الإبل - فهم يريدون المدينة : والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ، ثم لا نأجز بهم .

ولكن أبو سفيان وقومه رجعوا إلى مكة بعد أن مثل المشركون بكثير من قتلى المسلمين ، فكانت نساؤهم يَحْدُ عَنْ الْأَنْوْفِ ، ويقطعن الأذان ، ويتخذن منها قلائد ؛ وَبَقَرَتْ^(١) هند بطن حمزة عمَّ رسول الله عليه السلام ، ثم أخذت كبده ، وجعلت تلوكها ؛ فلم تسخها فلفظتها ، وقد أمر رسول الله بحمزة فسُجِّيَ^(٢) ببردة ، ثم صلى عليه ، ثم أتى بالقتلى إلى جانب حمزة ، فصلى عليهم اثنتين وسبعين صلاة ، ثم أمر بدفنهم جميعاً . ثم خرج عليه السلام في أثر العدو واللواء معقوداً لم يُحَلِّ ، حتى وصل حمراء الأسد ، على ثمانية أميال من المدينة : ليُرهب قريشا ، وليعلموا أن قوة الله لا تغلب ولا تقف .

فلما علم بذلك أبو سفيان وأصحابه فتَّ في عضدهم ، فمضوا سراعا إلى مكة ، ينتظرون بطش محمد في كل حين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آثَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ إِنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّكُمْ تَمْلِكُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نَمْلِكُ لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

بنو النضير (*)

من أين أقبلت يا عمرو؟ وما ذلك الأمر الذي يتخالج بين عينيك ! ليُخيل إلى
أنك فعلت عظيماً ، وأنك تحمل في طيات صدرك شيئاً كبيراً !

قال عمرو بن أمية الضمريّ فاتك الجاهلية وفارس الإسلام : أجل ! لقد
أصبت ما في نفسي ولم تبعد ، صادفت في طريق إلى المدينة غرة من رجلين من بني
عامر فقتلتهم ، ورؤيت الثرى بدمائهما ؛ ولعلّي أكون قد أطفأت وقدة غيظ
تتسعّر في صدور المسلمين ، مما أصاب فينا بنو عامر يوم بئر معونة ^(١) !

قال محدّثه : يا بؤس لما صنعت ! ويا خرق ما رأيت ! لقد فعلت شراً من حيث
حسبت أنك أردت الخير ؛ وركبت مركباً حراماً من حيث أردت الثأر ؛ إنك بما
فعلت قد أوطأت المسلمين العشوة ^(٢) ، وأردّتهم على الحسك ^(٣) والسعدان ؛ ذاك
العامريّان اللذان قتلتهم ، وحسبت أنك أدركت الثأر فيهما ، إن هما إلا رجلان
معهما من رسول الله عهدٌ وجوار ، ولهما حرمة وذمام . انطلق إليه تجد عنده
الخبر اليقين .

وأدرك عمرو أنه قد ضلّ فيما أراد ، وأنه ارتكب خطأ فيما فعل ؛ تخاف عاقبة
أمره ، وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خائفاً يترقب .

قال : يا رسول الله ؛ لقد قتلتُ العامريّين اللذين صادفاني في طريق إلى المدينة ،
وحسبت أنّي أصبت فيهما من بني عامر ثأراً . وما نفض على الرسول هذا الخبر

(٥) سورة الحشر ٣ وما بعدها .

(١) بئر معونة : في طريق المصعد من المدينة إلى مكة . (٢) العشوة : ركوب الأمر
على غير بيان . (٣) الحسك والسعدان : من النبت ذى الشوك .

حتى رآه قد تربّد وجهه ، وانعقدت سحابة من الهم بين عينيه ، وقال : لقد قتلت قتيلين لأدينيهما (١) .

ولكن رسول الله في ضنك من المال ، وخصاصة من العيش ، فإذا يفعل أودية القتل عاجلة لا تحمل النسيئة ، والدم الفائر لا ينفع في تسكينه التسويف !

ليذهب إلى بني النضير ؛ إنهم حلفاؤه ومعاهدوه ؛ ولقد عقد معهم يوم حضر إلى المدينة عقدا ، ألا يحاربهم ولا يحاربوه ، وألا يؤذيهم ولا يؤذوه ، وإنهم بعد ذلك حلفاء بني عامر ، فليس ما يمنع أن يستعين بهم على دفع دية القتيلين .

ودعا رسول الله نفرا من صحابته ، وذهبوا حيث يقيم بنو النضير في أطراف المدينة .

* * *

وقال حبي بن أخطب زعيم بني النضير : ذلك محمد مُقِيلٌ في بعض صحبه ، ولأمر ما قدم ، ولأمر ما وطئت قدماء هذه الديار . لنهض جميعاً للقائه ، ولنتعرف ما وراء قدومه .

وقاموا إليه هاشين باشين ، وحيوه معظمين ! وإن قلوبهم لتتسحبن على المكر والكيد ، وإن أنفاسهم لتتصاعد بالغيط والحنق .

قال حبي : خير ما جاء بك يا محمد ! لقيت أهلا ! ومكانا سهلا ، قال الرسول : لقد قتل واحد من المسلمين اثنين من بني عامر ، حسب أنه أصاب فيهما عدوا ، وأدرك ثارا ، ولكنهما كانا معنا في حلف ، ولهما ذمام ، وقد جئناكم نستعين بمالككم على دية هذين القتيلين ، بما بيننا من حلف وعهد .

(١) أدينيهما : أدفع ديتهما .

* * *

قال حُجَيِّ بنُ أَخْطَب : لك ما تريد يا محمد ؛ وهونا ما أردت ! استرح إلى هذا المكان ، وأنظرنا قليلا ، حتى نجمع المال ، ونأتى بما تريد .

وجلس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى جدار ، وجلس معه عَجَبَةُ انتظارا لما وعدوا ؛ أمّا هُمُ فسرعان ما ألّف الشرُّ بين جموعهم داخل الدور ، وسرعان ما أقبل بعضهم على بعض يتذامرون ويتآمرون : كيف لا يفتريكون بمحمد ، وهو بين أظهرهم ، حاضر في رحابهم ؟ ها هو ذا قد مكن لهم من نفسه ؛ وهياً لهم الفتك به ، ليس معه مَنْ ينصره ، ولا يوجد حوله مَنْ يعصمه ، إلا نفر ضعافا ، عُزْلا من السلاح . قالوا : لئن قتلتموه لتستريحنَّ ، وتستريح العرب من هَمِّ ناصب ، وبلاء واقع ، ولئن أفلت منكم اليوم فلن تظهروا عليه أبدا . . . مَنْ منكم ينتدب لقتله ، ويتطوع للتشكيل به ؟

قال عمرو بن جحاش : أنا بذلك زعيم ، دعوني أقتله ، وأشفي غيظكم منه . وانطلق يعدّ صخرة يرّضخه^(١) بها ؛ وتسلق الجدار ، وأعدّ الحجر ، ولكنه نظر فإذا برسول الله انصرف ؛ وخذل الله الكيد والمكر .

* * *

وعاد رسول الله إلى أصحابه ، فأعلن فيهم أن بني النضير قد غدروا ونكثوا ؛ وأنهم قد أرادوا له قتلا وبه شرًّا ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إليه بسوء نيتهم وخبث دُخيلتهم ، لنالَ منهم شرٌّ وكيد ، والمسلمون بعد ذلك في حلٍّ من عهدهم ، ولا جُناح عليهم في حربهم ، إذ لم يعد أمان لجوارهم ، ولا عهد لميثاقهم . وانتدب صلى الله عليه وسلم محمد بن سلمة ، لينذرهم الخروج من ديارهم .

(١) يرضخه : يرميه .

والجلاء عن أوطانهم ، وإلا عوجلوا بالحرب ، ووقع عليهم النكال .

وذهب إليهم محمد بن سامة ، ونادى فيهم : يا بني النضير ؛ قد علمنا مكركم وغدركم ، وأطلع الله رسوله على مؤامرتكم ، وقد قدرنا موافقتكم وإيمانكم ، فلا بقاء لكم بعد اليوم في ديارنا ، ولا نأمنكم على رجالنا ، فارحلوا عن هذه الديار سالمين بأنفسكم ، موفورين في حياتكم ؛ ولكم أسوة في إخوانكم بني قيسقاع .

وأدرك بنو النضير حرج موقفهم ، وعاقبة فعلاتهم ، وكادوا يصيخون للقول ، ويستمعون للنذير ، ويتهيئون للخروج ، لولا أن قبيض الله لهم عبدالله بن أبي (١) الذي قال لهم : لا تخرجوا من دياركم ، وإليكم والجلاء عن أوطانكم ، وإنا سنكون في حزبكم ، ومن أنصاركم ، ﴿ لَنْ أَخْرُجَنَّهُمْ مِنْكُمْ وَلَا نَطْغِيْكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِنْ قُلُوْا تَلْمِزْهُمْ لِنَنْصُرَنَكُمْ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ لَهُمْ لَكَذِبُونَ ﴾ .

وعلم رسول الله كفرهم عنادهم قتها الحربهم ، ونهض لقتالهم ، وحاصرهم ليالي ؛ فلم يفتحوا له بابا ، ولم يلقوا إليه يدا ؛ ولكنهم ما رأوا المسلمين يقطعون النخيل ، ويتهيئون للغارة حتى خار عودهم ، وانخذلت قواهم ، والتجشوا إلى الرسول يسألونه أن يُجِلِّيَهُمْ ؛ ويكف عن دماهم ، على ألا يأخذوا من أموالهم إلا ما حملت جملهم .

وأجابهم رسول الله إلى طلبهم ، واحتملوا إثم غدرهم ومكرهم ، فتركوا الديار ورحلوا عن الأوطان : ﴿ وَمَنْ تَكْتَفِإِمَّا يَنْكَثْ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ . ﴿ وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

(*)

الاحزاب

حُيَّيْ بن أخطب زعيم بني النضير ، وعظيم من عظماء اليهود ، وهو الآن منبوذ طريد ، منفي شريد ، يقيم في أرض خيبر ، مهيض الجناح ، مُعْمَد السلاح ، ذليل الرأس ، وَقِيد ما بين الجوانح ^(١) .

ومذُ أجلاه رسول الله مع قومه عن المدينة ؛ جزاءً وفاقاً لما ارتكبوه من نكث في العهد ، وحنث في اليمين لا يزال عليه حنيقاً ، مُوْغِر الصدر ، ملتاع الفؤاد ، يتربص به الدوائر ؛ ويتوقع للمسلمين غائلة السوء ، ويودّ لو انتصر الكافرون ، وتخاذل المسلمون ، ويودّ لو يهلك رسول الله بالمدينة فيستطيع أن يعود إلى وطنه ، وأن ترجع إليه في قومه سابق زعامته ، ولكنه - لعثار جدّه ولما كتبه الله له أن يموت بغيبه - لا يسقط في أذنه إلا ما يكرهه من نصرة المسلمين وهزيمة الكافرين ، فيغصّ بريقه ، ويتسعر في غيبه ، ويتأوه من آلام الحقد والحسد كما يتأوه السليم .

وصاحبُ الثأر لا يسكت عن وِتره ^(٢) ، والمنفي أبداً يحن إلى وطنه ، ثم هو يتعلق بالثرث البالي من الآمال ، ويجرى وراء ما يدهن له الوهم من معسول الخيال .

ولقد أصبح حُيَّيٌّ يوماً على زعم زخرفه له الشيطان ، وهم زينته له خوادع الآمال : أن يجمع إليه نفرا من قومه ممن جلوا عن أوطانهم ، وأكل الحقد قلوبهم ، ويُحْزَبُوا ^(٣) على محمد أعداءه ؛ فهم كثر ، ويؤلّثوا عليه القبائل جميعاً ؛

(٥) سورة الاحزاب ١٠ وما بعدها . (١) وقيد ما بين الجوانح : كسير القلب .

(٢) الوتر : الثأر ، (٣) يحزبون : يجمعون الأحزاب والجماعات .

فهم منه على وتر ؛ ومن يدرى ؟ لعل محمداً تذهب دولته ، وتسكن حركته ، ويعود أمرهم من الزعامة والعزة كما كان .

وجمع إليه مُحَيِّي على هذا الزعم سلام بن الحَقِيق^(١) ، وكنانة بن الربيع ؛ وهما من بني النضير ، وهوذة بن قيس ، وأبا عمار ؛ وهما من وائل ، ونفرا غير هؤلاء من ذهب مذهبهم ، وانطلقوا إلى قريش .

قالت لهم قريش : يا معشرَ يهود ؛ دعونا مما جثتم فيه الآن ، وأخبرونا عما نسألكم عنه ، إنكم أهل الكتاب الأول ، وإليكم ينتهى علم ماختلف فيه ، وقد أصبحنا فى أمرنا مع محمد على ريبة ، ومن ديننا فى شك ؛ فماذا ترون ؟ أديننا خير أم دينه ؟ وآلهتنا حق أم إلهه ؟

قالوا لهم : أنتم فى شك من دينكم ، وفى ريب من عقائدكم ! تالله إن دينكم للحقّ ، وإن دين محمد للخرافة ، وإن آلهتكم لهى التى تضرّ وتنفع ، وتعطى وتمنع ، وإن إلهه لا يدفع شرّاً ، ولا يجلب خيراً ؛ فحذار أن يدخل الشك إلى نفوسكم ، أو يجرى الظن إلى عقائدكم ؛ فلا تتقاعسوا عن مناهضته ، ولا تعدلوا عن محاربتة ، وسنجمع عليه معكم القبائل ، وندعو العرب : سنحرض غطفان ، ونهيب بأشجع ، وندعو بني قريظة . وباتحادكم مع هؤلاء وهؤلاء لا تدعون شأن محمد يرتفع أبداً .

ثم ذهبوا إلى غطفان وحرّضوهم ، فوجدوا للتحريض عندهم مرّعاة خصيبا ، وذهبوا إلى أشجع فوجدوا عندهم صدرا رحيبا ، ثم انطلقوا بعد ذلك إلى بني قريظة .

(١) قتله عبدالله بن عتيق بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت بنو قُريظة تُساكن رسول الله بالمدينة على عهد بينهم وبينه : ألا يحاربهم ولا يحاربوه ، وأن يُهادنهم ويهادنوه ، وأن يكونوا بعد ذلك على غيرهم أحلافاً . وظلوا قائمين على العهد ، حافظين لليثاق ، حتى وفد عليهم حُحيّ بن أخطب ومعاونوه . وسمع بمجيئهم كعب بن أسد القُرظيّ - وكان رئيسهم - فقال لقومه : لم يقصدكم هؤلاء إلا لشرٍّ ؛ غلّغوا أبوابكم ، وصمّوا آذانكم ، فوالله ما يدفعونكم لخير أبداً .

وغلّغوا الأبواب ، وجاء حُحيّ ، وقال : ويحك يا كعب ! افتح لي ، فما أنا إلا ابن عمك ، وعلى عقيدتك ؛ ولقد جئتُك فيما أرجو أن يكون فيه صلاحك وصلاح قومك جميعاً .

قال كعب : إنك لأشأمُ الطَّلعة ، متَّهم النصيحة ، مزور في الكلام . لقد عاهدتُ محمداً فلم أر منه إلا سلباً وأمناً وإلا صدقاً ووفاء ، ونحن - بنو قريظة - نعيش اليوم في سلم من الأحقاد والأضغان ، وفي مأمن من المكائد والحروب .

قال حُحيّ : إن محمداً - وإن عاهدك - ليس على دينك . وإن صانعك فهو على بُغض من جوارك ، ويودّ لو أجلاك . ولقد جئتُك بعزّ الدهر ، وبهزيمة محمد على الأيام . هذه قريش بقادتها وساداتها ، ما زلتُ بها حتى جئتُ بها تحارب محمداً ؛ وهي الآن بمجتمع الأسيال في طريقها إلى المدينة . وهذه غطفان ، وهؤلاء أشجع في طريقهم إلى المدينة ، وإنهم في حملتهم لصادقون ، وإنهم من نُصرتهم لوائقون .

قال كعب : جئتني والله بذل الدهر ، وخيبة الرجاء ، وبجَهام^(١) قد هراق^(٢)

(١) الجَهام : السحاب لا ماء فيه (٢) هراق : لغة في أراق .

ماءه ، فهو يُرْعِدُ وَيُبرِّقُ ليس فيه شيء ، دَعْنِي من حرب محمد ، فما أنا بناقض العهد ، ولا حاثٍ في الميثاق .

ولكن حَيًّا مازال بكعب يزور له الغدر ، ويزخرف له الفجور ، حتى لانت عريكته ، ونقض العهد ، وخرج بقومه لقتال المسلمين !

ووفدت الأخبار على رسول الله : أن قريشا قد جمعت جموعها ، وظاهرتها غطفان ، وتابعتها أشجع ، وأنهم جميعا قد خرجوا لغزو المسلمين بالمدينة .

فتلقى رسول الله هذه الأخبار بحزمه وعزمه ، وإيمانه وبقينه ؛ وأمر المسلمين بحفر خندق حول المدينة .

وبينا المسلمون يتهيئون لصدة قريش وتمن حالفهم ، إذ بوأفد آخر يُلقى إلى رسول الله : أن بني قريظة قد نكثت عهودها ، ونقضت وعودها ، وأنهم حسبوها فرصة ، وتخلوها نبرة ، يطعنون من ورائها المسلمين .

وعلم المسلمون بما هم عليه ، وبما وقعوا فيه : من تحزب الأحزاب عليهم ، وإحاطة العدو بهم من فوقهم ، ومن أسفل منهم ؛ فزاغت أبصارهم ، وكهلت قلوبهم ، وعظم أمامهم الكرب ، واشتد البلاء ، وأخذوا يظنون بالله الظنون . أما المؤمنون لحسبوا أن هذه محنة الله ؛ وأنها امتحان لهم ، وابتلاء لمقدار جهادهم ؛ فهم يخافون الزلل ، ويخشون ضعف الاحتمال . وأما المنافقون فقد قالت طائفة منهم : لقد كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر ، وإن أحدنا لا يملك أن يذهب الآن لقضاء الحاجة : ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

وهمت طائفة بالفرار ، وإيقاع الضعف في صفوف المسلمين ؛ وجاءت

تستأذن رسول الله كذبا ونفاقا ، وختلا وخداعا ؛ يقولون : ﴿ إِن يُؤْتِنَا عَوْرَةً ^(١) وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۖ

ووقف رسول الله بين أعداء من الأمام ، وأعداء من الظهر ، وأعداء في الصفوف :

ولو كان همًّا واحدا لا تقيته ولكنه همٌّ وثان وثالث !

* * *

وفي هذا الليل الحالك من الفرق والفرع ؛ وفي ذلك العشير ^(٢) المنعقد من الخوف والهلع ، ساق الله إلى المسلمين "نعيم بن مسعود" — وهو رجل من رجال غطفان — وقال : يا رسول الله ؛ إني قد أسليت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فرني بما شئت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت فينا رجل واحد ، نخذل عنا إن استطعت ؛ فإن الحرب خدعة .

وذهب نعيم أعزل من سلاحه ، مفردا عن قومه ، ولكن بما وهبه الله من قبس الإيمان ، وما نفخ فيه من روح اليقين ؛ كان يحمل عزيمة أمضى من السيف ، وهمة أثبت من الطود ؛ ذهب لا يحمل سيفاً ، ولا يتنكب قوساً ؛ ولكنه يرجو — بما رخص له رسول الله من خداع ، وبما أباح له من نسج خيوط الدهاء — أن ينال من الأعداء مالا ينال بالسيوف ؛ ويصيب فيهم مالا تصيبه السهام .

ذهب إلى بني قريظة — وكان نديما لهم في الجاهلية — وقال لهم : يا بني قريظة ، لقد عرفتم ودي إليكم ، وحبّي لخاصتكم وعامتكم . قالوا : صدقت ، لست عندنا بمثّهم . قال : إن قريشا وغطفان ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونسأؤكم ؛ لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد

(١) العورة في الشعر والحرب : أسرى يخاف منه . (٢) العشير : الغبار .

جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونسأؤهم بغيره ؛
فإن رأوها نُهزة ^(١) أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، واخلتوا بينكم
وبين الرجل ، ولا طاقة لكم به إذا تحلا بكم .

قالوا : وما الرأي ؛ وقد عاهدناهم على أن نحارب معهم ، ونسلك في عداوة محمد
سبيلهم ؟ قال : أن تأخذوا رُهْناً من أشرافهم ، يكونون بأيديكم حتى مُتناجزوه ؛
وبذلك تكفلون صدقهم ونصرتهم .
قالوا : لقد أشرتَ بالرأى .

وتركهم نعيم بعد أن بثّ خديعته فيهم ، وذهب إلى قريش فقال لهم : لقد
عليتم ودى لكم وُبغضى محمداً ، ولقد بلغنى أمرٌ قد رأيت حقاً أن أبلغكم إياه ؛
نصحا لكم ، وخشية عليكم ، فاكتموه عني ؛ تعالَوا أن بنى قريظة قد ندموا على
ما صنعوا بينهم وبين محمد ، ولقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك
أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وخطفان رجالا من أشرافهم ، فنعطيكهم
فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم ؛
أن نعم ؛ فإن بعثوا إليكم يلتمسون رُهْناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم أحداً .

ثم تركهم وذهب إلى خطفان ، وحدثهم بمثل ما حدثت قريشا ، وانخدعوا له كما
انخدعت قريش ، وترك نعيم الجمع ينظر ما يكون .

وفي ليلة السبت من شوال أوفدت قريش وخطفان عكرمة بن أبي جهل في نفر
منهم إلى بنى قريظة يستنفرونهم للقتال .

قال عكرمة لرؤسائهم : إنا لسنا بدارٍ مقام ، قد هلك الخُفّ والحافر ؛ فأغدُوا للقتال ، حتى نناجزَ محمداً ، ونفرغ مما بيننا وبينه ، فقالوا له : إن اليوم يوم سبت لا نعمل فيه شيئاً ، ولو فعلنا لعاد الخُزْى والخذلان علينا ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تُعطونا رُهنًا من رجالكم يسكونون بأيدينا حتى نناجز محمداً ، فإننا نخشى إن ضرَّ سَتُّكم الحرب ، واشتد عليكم القتال أن تتشَمَّروا ^(١) لبلادكم ، وتركونا ومحمداً ، ولا طاقة لنا بقتاله .

ورجعوا إلى قريش و غطفان ، وحدثوهم بما قالت بنو قريظة ، فقالوا : والله إن ما حدثكم به نعيم بن مسعود لخلقٌ . وعادت الرسل إلى بني قريظة ، وقالوا لهم : والله لا ندفع إليكم من رجالنا أحداً ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا .

فقالت بنو قريظة ، حين انتهت إليها الرسل بهذا : والله ؛ إن ما ذكره نعيم لحق ؛ وحينئذ وقع التخاذل في صفوف الأحزاب ، ودب الرعب في قلوبهم .

أما قريش فقد بعث الله عليهم الريح في ليل شاتٍ ؛ فكفَّأت قُدُورهم ، وطرحت آيتهم ، وزادت في تخاذلهم ، وقفلوا إلى مكة راجعين مذعورين : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

ورجع رسول الله إلى الذين ظاهروا قريشاً و غطفان من بني قريظة ، فوجدهم أيضاً قد قذف الله في قلوبهم الرعب ، وأوقع عليهم الفزع ، فانتقم منهم ، وأنزلهم من حصونهم وصياصيهم ^(٢) ، ثم عاقب رجالهم بالقتل ونساءهم بالسبي والأسر ، وأورث الله المؤمنين أرضهم وديارهم ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

(١) نشمر للأمر : تهيأ وجتد . (٢) الصياصى : الحصون .

قصة الافك (*)

ضرب الليل رواقه على الصحراء وكساها رداءً من السكون ، فصارت قطعة سوداء مظلمة ، لا يكاد السارى فيها يرى رفيقه ، وهى فضاءً هادئاً ، حتى لتكاد الأذن تسمع ديب الدابة ، وحركة النملة إذ تسير .

ويظهر فيها بدوى مُلتف فى رداءه ، يُعَمِّلُ (١) الناقة ، ويجهد فى السير ، وكأنه مطلوب هارب ، أو طالب مجتد . . .

وكان صفوان بن المعطل السُّلَميّ قد تخلف لبعض حاجته عن جيش الرسول ، وهو عائد من غزو بنى المصطلق إلى المدينة ؛ وهو الآن يطلب القوم ليلحقهم ، ويقفوا أثرهم ليسير معهم ، ولكنه يلمح فى سيره شخصاً ملتفّاً فى ثيابه ، مطوياً على نفسه ، وهو غارق فى نومه ، وكأنه ذاهب فى أحلامه ؛ فنزل عن ناقته ، واتجه صوبه ؛ يمشى على أطرافه ، خشية أن يفزعه أو يخيفه .

وما كان أشدّ ذهوله ، وأعظم دهشته ، حينما تبين الشخص ، فإذا هو عائشة (٢) أم المؤمنين ؛ مغرقة فى نومها ، ملتفة فى ثوبها ، فى هذا المهمة القفر ، والظلام الحالك ، ولم يستطع أن يملك صيحته ، أو يكتم دهشته ، فصاح : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ظعينة (٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فاستيقظت عائشة مذعورة على ترجيعه وصوته ، وخمرت (٤) وجهها بجلبابها . فقال لها : ما خطبك يرحمك الله ! فما استطاعت أن تردّ عليه جواباً ، حياءً وخجلاً ، ثم قدم إليها راحلته فركبتها ،

(*) سورة النور ١١ - ١٢ (١) يعمل الناقة : يجهدا فى السير (٢) كان صفوان قد رآها قبل أن يضرب الحجاب . (٣) الظعينة : المرأة مادامت فى الهودج . (٤) خمرت وجهها : وضعت عليه الحمار .

وأخذ هو بزمامها ، وانطلق يطلب رسول الله ، وظلَّ طريقَه ما التفت إليها ولا حدثته نفسه بحديثها ، حتى أدرك القوم مُعَرَّسين ^(١) في الظهيرة .

وسأله رسول الله : ما خطبها ؟ وفيما تخلفها ؟ قالت : سمعتُك ليلة الأُمس تؤذَن القوم بالرحيل ، فذهبتُ لقضاء بعض شأني ، ولما عدت إلى رحلي تفقدت عقدي فإذا هو قد انسل من عنقي ؛ فذهبت في طلبه ، ولما عدت وجدت القوم قد ارتحلوا ، ما فيهم داع ولا مجيب ، فتلففت في ثيابي . ولزمت مكان رحلي ، لعلمكم إذ تفقدوني فلا تجدوني تعودون في طلبي . ثم ضرب الله على أذني فَنمت ، وما استيقظت إلا على صوت صفوان .

وصدَّقتها رسول الله في حديثها ، ولم يخالطه الشك في أمرها ؛ إذ هي عائشة بنت أبي بكر في شرف منبتها ، وطهارة عرقها ، وهي هي عائشة زوج رسول الله في عفة أديعها ، وكرم دِخلتها ^(٢) .

حصان رزان ما تُزَنُّ بريئة ^(٣) وتصيحُ غرثي من لحوم الغوافل ^(٤)
عقيلة حتى من لؤي بن غالب كرام المساعي مجدهم غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها ^(٥) وطهرها من كل سوء وباطل

أما عصابة الكذب وجماعة السوء فإنهم ما رأوا عائشة يقود راحلتها صفوان مقبلين من الصحراء ، حتى أخذوا يتخزَّصون الكذب ، ويقعون في شرف عائشة ، ويتمونها في صفوان .

قال عبد الله بن أبي حنينا رأهما : والله ما نجت منه ، ولا نجا منها ؛ وفشت هذه القالة بين الناس ، وتبع مسطحُ ابن أبي ؛ وتبعهما حسَّان وزيد بن رفاعه

(١) معرَّسين : مقيمين . (٢) الدخلة : الطوية . (٣) زن : تهم .
(٤) غرثي : جاعة . (٥) خيمها : سجنيتها .

وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ ؛ ثُمَّ أَخَذُوا يَهْمِضُونَ^(١) فِي الْقَوْلِ وَيَزِيدُونَ ، حَتَّى بَلَغَ الْخَبْرُ رَسُولَ اللَّهِ ، وَسَقَطَ فِي أُذُنِي أَبِي بَكْرٍ ، وَتَحَدَّثَ بِهِ الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ ، وَالْدَانِي وَالْبَعِيدُ .

وظَلَّ الْقَوْمُ فِي هَرْجِهِمْ وَمَرْجِهِمْ ، وَاتِّهَامِهِمْ وَدِفَاعِهِمْ ، وَشَكْهِمْ وَيَقِينِهِمْ ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ كُلُّ هَذَا وَعَائِشَةُ لَا تَعْرِفُ شَيْئًا مِمَّا فِي نَفْسِ الْقَوْمِ ، وَلَمْ يَقَعْ لَهَا كَلِمَةٌ مِمَّا خَاضَ فِيهِ النَّاسُ ، وَلَكِنَّهَا حِينَ ذَهَبَتْ إِلَى بَيْتِهَا تَخَوَّنَتْهَا^(٢) الْحَمَى ، وَمَسَّهَا الْمَرَضُ ؛ فَلَزِمَتْ الْفَرَاشَ ، وَتَلَمَّسَتْ الشِّفَاءَ ، وَتَرَقَّبَتْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - كَمَا اعْتَادَتْ - قَلْبًا عَطُوفًا ، وَرَحْمَةً مَبْسُوطَةً الْجَنَاحَ ، فَمَا ظَفَرَتْ مِنْهُ إِلَّا بِنَظَرَةٍ خَاطِفَةٍ وَسُؤَالِ قَصِيرٍ ؛ « كَيْفَ تَيْكُمُ ؟ لَا يَزِيدُ عَلَيَّ ذَلِكَ ؛ فَأَهْمَتُهَا وَأَكْرَبَهَا ، وَزَادَ مِنْ سَقَمِهَا ، وَضَاعَفَ مِنْ عِلَّتِهَا ؛ مَا بَالُ رَسُولِ اللَّهِ لَا يَرْتَقِي لِحَالَهَا ، وَلَا يَرِثِي لِمَرْضِهَا ، وَلَا يَحْفِلُ بِشَأْنِهَا ؟ ذَلِكَ مَا لَا تَعْرِفُهُ عَائِشَةُ ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَرْبِطَ فِيهِ عِلَّةٌ بِمَعْلُولٍ ، أَوْ سَبَبٌ بِمُسَبَّبٍ ؛ وَلِهَذَا اسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللَّهِ لَتَذْهَبَ إِلَى بَيْتِ أَبِيهَا ، لَعَلَّ فِي الْبَعْدِ مَا يَثِيرُ حَنَانَهُ ، وَيَعْطِفُ مِنْ قَلْبِهِ .

وَأُذِنَ لَهَا ، وَقَضَتْ فِي بَيْتِ أَبِيهَا بَضْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً ؛ تَعَانَى الْمَرَضُ وَتَحْتَمَلُ الدَّاءَ ، حَتَّى أَبْلَتْ مِنْ مَرَضِهَا وَاسْتَفَاقَتْ مِنْ عِلَّتِهَا .

وَخَرَجَتْ يَوْمًا إِلَى فَسْحِ الْمَدِينَةِ وَمَعَهَا أُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رَهْمٍ ، وَإِنْهُمَا لَيَمَشِيَانِ إِذْ عَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطَاطِهَا^(٣) فَقَالَتْ : تَعِسَ مِسْطَحُ ! قَالَتْ عَائِشَةُ : بئس - لَعَمْرُ اللَّهِ - مَا قَلْتَ لِرَجُلٍ شَهِدَ بِدِرَا ! قَالَتْ لَهَا : أَوْ مَا بَلَغَكَ الْخَبْرُ يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ : وَمَا الْخَبْرُ ؟ فَخَدَّثَتْهَا بِمَا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْإِفْكِ ، وَمَا تَقَوَّلَ بِهِ مِسْطَحٌ وَحَسَانٌ ، وَمَا أَذَاعَهُ ابْنُ أَبِي ، وَمَا تَزِيدَتْ فِيهِ حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ ..

(١) يَهْمِضُونَ : يَفِيضُونَ . (٢) تَخَوَّنَتْهَا الْحَمَى : أَضْعَفَتْهَا . (٣) الْمِرْطَاطُ : كِسَاءُ مَنْ صَوَّفَ أَوْ خَزَّ .

قالت عائشة : أوكان هذا ؟ قالت أم مسطح : نعم والله كان ؛ قالت عائشة : هيا بنا نعود ؛ وانكفأت إلى البيت تبكي ما ترقأ لها دمة ، ولا تسكن منها لوعة ، ثم قالت : يا أمّاه ، يغفرُ الله لك ؛ تحدث الناس بما تحدثوا به ، ولا تذكرين من ذلك شيئاً ؛ قالت : أى بنية ، خفّضى عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ولها ضرائر ، إلا أكثرن عليها .

ومضى شهر ورسول الله فى حيرة من أمرها ، وريب من قضيتها ؛ يتطلع إلى الوحى ، ويتشوّف إلى الرؤيا ، عله يجد فيهما مخرجاً من أمره ، وسكوناً من حيرته ، وكشفاً لشبهته ؛ ولكن لم ينزل الوحى ، ولم تُتّح له الرؤيا - فرأى أن يستفتى ويستشير ؛ فسأل زينب بنت جحش - وكانت ضرتها ، وتزوّجها فى مكاتها - فقالت : أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمتُ عليها إلا خيراً . وسأل أسامة بن زيد ، فقال : أهلك يا رسول الله ؛ وما علمنا إلا خيراً . وسأل على بن أبى طالب فقال : سل بريرة جاريتها تصدقك الخبر . وجاءت بريرة ؛ فقال لها الرسول : هل رأيت شيئاً يريبك ؟ فقالت : لا والذى بعثك بالحق ؛ ما رأيت منها أمراً أغمّصه (٢) عليها قط ، أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن العجين ، فتأتى الدواجن فتأكله .

وفرغ رسول الله من استشارة من استشار ، ولم ير فى حديثهم شيئاً يزيّن (٣) عائشة أو يغمّصها ، فخرج إلى الناس مغضباً ، وقال : أيها الناس ؛ ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ، ويقولون عليهم غير الحق ؛ والله ما علمت منهم إلا خيراً ، وقد ذكروا رجلاً ما علمت منه إلا خيراً ، وما يدخل بيتنا من بيوتى إلا وهو معى ؛

(١) أحمى سمعى وبصرى : امنعهما من أن أسب لاهما ما لم يدركا .

(٢) غمّصه : عابه . (٣) يزيّن : يتهمها .

ثم ذهب إلى عائشة في منزل أبيها ، فوجدها تبكي ؛ ووجد امرأة من الأنصار تبكي معها ، وعندها أبواها ؛ فسلم عليها ، وقال : يا عائشة ؛ إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فاتق الله ؛ فإن كنت قارفت^(١) سو ما مما يقول الناس ، فتوبني إلى الله ؛ فإن الله يقبل التوبة عن عباده . ولكنها لم تستطع جواباً . ثم التفتت إلى أبيها ، وقالت : أجب عنى رسول الله ، فقال : والله ما أدري ما أقول . فالتفتت إلى أمها وقالت : أجبني عنى رسول الله ، فقالت : والله ما أدري ما أقول .

ولما لم تر من أبويها قولاً ينفع عنها ، أو دفاعاً يمزق خيوط الشك التي نسيجت حولها قالت : والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في هذه الأيام ، ثم استعبرت ، وقالت : والله لا أتوب إلى الله بما ذكرت أبداً ، والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس - والله يعلم أنى منه لـه بريئة - لأقولن ما لم يكن ؛ ولئن أنكرت ما يقول الناس لا تصدقوني . ثم أجهشت بالبكاء ، والتمست أن تذكر اسم يعقوب فغاب عنها ، فقالت : ولكنى أقول لكم كما قال أبو يوسف : ﴿ فحسب رجلاً رجلاً والله المستعان على ما تصفون ﴾ .

فأطرق رسول الله ، ووجم أبو بكر ، وتنهت أم رومان^(٢) ، وبينما هم على هذه الحال إذ تغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشاه حين نزول الوحي ، فسجى بثوبه ، ووضع وسادة تحت رأسه ، وعند ذلك علمت عائشة أن الوحي سيفصل في أمرها ، وسيزيح الشك عن قضيتها ؛ فترقت ربيطة الجاش ساكنة الجوارح ، إذ كانت عارفة بنفسها ، واثقة من نزاهتها ، وطهارة ذيلها . أما أبواها فإنهما ما أحسا رسول الله يتلقى الوحي ، حتى انمأ^(٣) قلبهما من الفزع ، وكادت تترابيل أعضائهما من الجزع ؛ أن يأتى الوحي بتصديق ما قال الناس .

(١) قارفت : ارتكبت . (٢) أم رومان : أم عائشة . (٣) انمأ : ذاب .

ثم سرى عن رسول الله ، وإن قطرات العرق لتتحدّر من جبينه مثل الجمان ، وقال : أبشري يا عائشة ، لقد أنزل الله برامتك في قرآن يتلى بين الناس ، ثم أخذ يقرأ (١) :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا : هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسَّتِيسِ وَتَقُولُونَ بَأْأَوْا مِنْكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَهُوفٌ رَحِيمٌ . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ، وَلَسَكُنَّ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

المنافقون (*)

ظهرت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فغزيت المشاعر وشقت القلوب ، وتغلغلت في قرارة النفوس ، وأطرد سبيلها في الأرجاء ، وانتشر أمرها في كل مكان .
لكن ثلاثة من صنوف الأعداء أخذوا يقاومونها ، ويتوقعون النكايه بها ، والكيد لها ، خوفاً على زعامتهم ، أو حرصاً على رياستهم ، أو حسداً من عند أنفسهم : مشركو قريش بمكة ، واليهود بالمدينة ، والمنافقون بين الإسلام والكفر .
أما المشركون فقد أعلنوا كفرهم صريحاً ، وأبدوا عداوتهم جهاراً ، وأقاموها حرباً لا تنطفئ تجذوتها ، ولا تسكن وقدسها . وأما اليهود بالمدينة فإنهم ما كادوا يرون رسول الله بين ظهراتهم حتى نفسوا عليه رسالته ، وحسدوه نعمته ، وأنكروا زعامته ، وسلكوا سبيل أشباههم من كفار قريش ، كفرا وعنادا وحربا وعداء .

فأصبح رسول الله - من بين هؤلاء وهؤلاء - على المحجة الواضحة ، والعداوة الصريحة ، يحاربهم أحيانا ، ويعاهدهم أحيانا ، وهو فيما بين ذلك يرجو أن يغلبهم أو يفتيهم إلى الإسلام والإذعان .

وأما المنافقون فقد كانوا قوما من الأنصار أبناء عمومة ، أبطنوا الكفر وأضروا العداء . ثم أعلنوا الإسلام وتظاهروا بالمحبة الصافية ، وانتحلوا الإخاء المصنفق^(١) ، واصطنعوا الود المنخول ، وإن قلوبهم لتضطوى على المرض والحقد ، والغدر والمكر : زعموا أن سيوفهم مع المسلمين ، صدقوا ، ولكن قلوبهم كانت مع الكفار ، وزعموا

(*) سورة المنافقين . (١) الإخاء المصنفق : الصافي .

أنهم خالصون خثيرون ، كذبوا ! هم جبناء أخساء أشرار ، ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ .

لم يقولوا كلمة الإسلام في صدق فينتظموا في عقد الأنصار ، ولم يعلنوا الكفر واضحاً فيُجرى عليهم الرسول حكم الكفار : مذبذبين بين ذلك ؛ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ولهذا كانوا أشد ضرراً ، وأبلغ في الأذى أثراً ؛ إذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان في استطاعته إلا أن يكتفى بظاهرهم ، ويكفل إلى الله ما في سرائرهم ، وكان ظاهرهم السلم والإسلام ، وباطنهم الكفر والكفران ؛ وظلوا على هذا شوكة في جنب المسلمين ، وقذرى في العيون ، وقرحة في الأكباد ، حتى كان يوم بنى المصطلق ؛ وعلى ماء المريسيع^(١) ، إذ هتك الله أستارهم ، وكشف مخبئات ضمائرهم ، ودمغهم بآياته ، وأظهر زائفهم بكلماته .

بعد أن فرغ رسول الله من أمر بنى المصطلق ، وردت واردة من الناس تستقي الماء ، وتذود الخيل والإبل حول ماء يسئونه المريسيع ؛ وازدحم الشرب^(٢) وتدافعت الدواب ، وضاق المكان ، وتلاقى على الماء جهجاه بن مسعود الغفارى ، أجير عمر بن الخطاب - وكان يقود فرسه - وسنان بن مسعود الجهنى ، حليف بنى عوف من الخزرج ، ووقع بينهما ما أثار الشر ، وأضرم الغيظ ، وهاج البغضاء ، فنادى الغفارى : يا للهاجرين ! ونادى الجهنى : يا للأنصار ! ودعوا إلى جاهلية قضى عليها الإسلام ، وأهابا بعصبة مُنتنة عفى عليها القرآن .

اثنان من عداد المسلمين اقتتلا : واحد من المهاجرين وواحد من الأنصار ، وشجر بينهما عدا ، فما شأن المهاجرين ، وما شأن الأنصار ! وقد أصبحوا بنعمة الله

(١) المريسيع : ماء لبنى خزاعة . (٢) الشرب : جماعة من الشاربين .

إخواننا ، وأحبابنا وأعواننا ، يد على مَنْ سواهم ، وأمرُهم جميع على من عداهم ،
ودّهم غيرُ مُتهم ، والعهد بينهم غيرُ مُضاع .

ولكن ما أسرع ما وجدتْ هذه القالة عند المنافقين رواجاً ، وفي قلوب
المرتدين استئناساً وقبولاً .

وكان عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس الكفر ، وكبش الضلال ، وزعيم جماعة
المنافقين : فما سمعها حتى هَشَّ لها وبشَّ ، ثم راح ينفثُ لها سموم مكره ، ويعلم
مكنون غيظه ، ويفصح عن مخبّات حقدّه : وجمع رَهْطاً من قومه بمن لف لفّه ،
ونهب سبيله : وقال لهم : ما رأيتم كال يوم مذلة ! أو قد فعلوها ! نافثرونا في ديارنا ،
وكاثرونا في بلادنا : مانحن والمهاجرون إلا كما قال الأول : سَمْنُ كلبك يا كلك ! أما
والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعرُ منها الأذل ، هذا ما فعلتم بأنفسكم ،
وصنعتم لأقوامكم !

أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم ، ونزحوا لغير بلادكم ؛
أو لاتروُن إلى أنفسكم ، جعلتم منكم دون محمد أغراضاً للنبايا ، وأهدافاً للرزايا ،
وطلائع للخيول ، ثم عدتم بالولد اليتيم والطفل اللطيم ^(١) ! يا قوم : لو أردتم الخير
لأنفسكم لاتنفقوا على هؤلاء المهاجرين حتى ينفضوا ، ولاتلاقوهم بوجه حتى يظعنوا .

وكان حاضراً مجلسه زيد بن أرقم ، قى حديث السنّ ، حسن الإسلام ، شديد
الحب للرسول ، شديد الغيرة على جمع كلمة المسلمين : فقام إليه غير عابٍ بزعامته ،
أو هيّاب لمكانته ، وقال : أنت والله الذليل القليل ، المبغض في قومك . التمشّوه
في عشيرتك ، ومحمد إنما هو في عز من الرحمن ، وقوة من المسلمين .

(١) اللطيم : من يموت أبواه .

ثم قام من فوره إلى رسول الله ، ونفض عليه ما قال عبد الله ؛ فظهرت الكراهية في وجه رسول الله ؛ واختلج الهم بين عينيه ، أن رأى قَرْن الفتنه بين المسلمين يطلُّع ؛ وأصبح الشيطان تلعب ، ونار الشر تسرى وتدب .

قال الحاضرون من شيوخ الخزرج : يا رسول الله ؛ شيخنا وكبيرنا ، لا تصدق عليه كلام غلام ؛ عسى أن يكون قد وهم ، فتلاقت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زيد بن أرقم وقال له : لعلك غضبت عليه ! قال : لا . قال : فلعله أخطأ سموك . قال : لا . قال : فلعله شَبَّه عليك . قال : لا .

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي ، وقال له : أنت صاحب الكلام الذي بلغني ؟ فقال - في غير تحفظ ولا استحياء : والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك ، وإن زيدا لكاذب ! وهكذا حلف كاذباً ، واتخذ يمين الله 'جنة وشعارا ، والله يعلم إنه لكاذب ! ومعارفُه تتحدث بأنه كاذب .

وقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، مُرِّمُ بقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكيف يا عمر ! إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ! ولكن أذن بالرحيل .

وارتحل الناس في ساعة مبكرة ، لم يكن رسول الله يرتحل فيها ، وذلك ليشغل الناس عن الفتنة ، ويصدhem عن دعوى الجاهلية ، وإذا كان رسول الله في طريقه لقيه أسيد بن الحضير ، فدهش أن رأى القوم قد ارتحلوا في ساعة مبكرة ، وقال : يابى الله ؛ والله لقد رحلت في ساعة مبكرة ما كنت تروح في مثلها ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ! قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبي ، قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعرض منها الأذل . قال أسيد : فأنت يا رسول الله - والله - تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل ؛ وأنت العزيز ؛ ثم قال : أرفق به يا رسول الله ؛ فوالله لقد جاءنا الله بك

وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوّجوه ، وإنه الآن ليرى أنك قد استلبت منه ملكا ، ونزعت منه رياسته ؛ وهو أبدا من الحسد في همّ ناصب ، وقلب حائق .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في تسيره حتى انتهى إلى المدينة ، وما استقر فيها حتى نزل عليه : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ أَنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تَعَجَّبَكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَءٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ ، قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَلَّا يَؤُفَكُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّارُهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْزُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

فتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين ، ثم قرب إليه زيدا ، وعرك أذنه ؛ وقال له : وفّت أذنك يا غلام ، إن الله قد صدّقك وكذّب المنافقين .

أما عبد الله فقد اعترضه ابنه خارج المدينة - وكان مسلماً خالص الإسلام - وقال له : وراءك ! والله لا تدخلها حتى تشهد على نفسك بالذلة وبالعزة لله وللرسول والمؤمنين . ولكن رسول الله قال : جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا ، وأمره أن يُخْلِصَ سبيله ؛ علّاه أن يتوب .

نبأ الفاسق (*)

غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بني المصطلق ، وقتل في الغزو مَنْ قُتِلَ منهم ؛ ثم أَصْهر إليهم وتركهم بعد ذلك مسلمين ؛ ولما رجع إلى المدينة أُرسل إليهم الوليد ابن عُقبَة ليأخذ الصدقات من أغنيائهم فيردّها إلى فقرائهم . ولما سمعوا بقدومه تهيّئوا لاستقباله ، وخرجوا للاحتفاء به ، وكان بين الوليد وبين بني المصطلق لَحَن قديمة ، وغلّ موروث ، فحسب أنهم إنما خرجوا يريدون به شرا ، ويبغون به كيدا ؛ فرجع إلى رسول الله يزعم أن القوم قد ارتدّوا عن الإسلام ، وامتنعوا عن إيتاء الزكاة ؛ وأنهم وقعوا في الجحلي والخطيئة العظمى .

فغضب الرسول ، وغضب لغضبه المسلمون ، ثم تهيّأ لغزوهم ، وردّهم على أعقابهم ؛ ولكنّ الخبر سرّى إلى بني المصطلق ، وهم برآء مما رماهم به الوليد ، بعيدون عما وصل من أمرهم إلى الرسول ؛ إذ ما برحوا مسلمين حقّا ، قائمين على قواعد الإسلام صدقا . ثم ألتفوا وفدهم ، فذهب إلى الرسول ، فألفاه متهيّئا للغزو ، متحفزا للسير .

قالوا : يا رسول الله ، سمعنا برسولك حين بعثته ، فخرجنا إليه لنكرمه ، ونؤدّي إليه ما عندنا من الصدقة ؛ فانشمر ^(١) راجعا ، ثم بلغنا أنه زعم إليك أنا خرجنا إليه لنقتله ؛ وأنا ارتددنا عن الإسلام ؛ وامتنعنا عن الزكاة ؛ ولكننا ما كفرنا بالله منذ آمنّا ، ولا انسلخنا عن الإسلام منذ دخلنا فيه .

(*) سورة الحجرات ، آية ٧ وما بعدها . (١) انشمر : جد في الرجوع .

فوقف رسول الله بين خبر الوليد وخبرهم لا يقضى بأمر ، ولا يفصل بحكم
حتى نزل عليه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا
قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ
اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ۗ ۝ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ
الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ
أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝ ۙ

الفتح (*)

الرؤيا

انتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم من نومه على طبع مرتاح ، وصدر مشروح ، وعزم نشيط ، ثم دعا إليه بطانته وصحبه ، فأوه جميعا بارق الأسارير^(١) ، طلق المحيا^(٢) ، واضح البشر والسرور . ترى ما وراء هذه النفس الراضية ؟ وما وراء ذلك الوجه المتهلل ؟ لعل هناك خبرا بهيجا ، أو نبأ عظيما .

وما اطمأن بهم المكان ، وامتلأت بهم رحبة المسجد ، حتى أفضى إليهم برؤيا ضاءت لها نفوسهم ، واهتزت منها مشاعرهم ، وغردت خواطر آمالهم : ﴿ لَسَدُ خَلَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ . فاشدوا عزمكم للسفر ، وخذوا أهبتكم للرحيل ، ولست كن غايتكم العمرة والطواف ، ولا يفوتنكم أن تصحبوا البُدن ، وتُشعروا^(٣) الهدى^(٤) ؛ تكرما للبيت العتيق . واعتلنت هذه الرؤيا في كل مكان ، وتُنوَقَل ذِكْرُهَا في كل واد ، وإذا المسلمون يُقبِل بعضهم على بعض مهتئين ، فرحين مستبشرين . أليست هذه هي رؤيا الرسول ؟ وما رأى صلى الله عليه وسلم في حياته رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح وضوحا ، ومثل الشمس المتألقة بيانا وظهورا . . أليس هذا خبره ؟ وهم قد عهدوه صادقا إذا أخبر ، غير ملبس في قوله إذا بلغ ، إذن هم قد أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من بلدهم الكريم ، ووطنهم الحبيب ؛ مهوى الفؤاد ، وجمع الأصرّة

(*) سورة الفتح . (١) الأسارير : محاسن الوجه . (٢) المحيا : الوجه .

(٣) أشعر الهدى : أهله ، وهو أن يشق جلده ، أو يطعنه حتى يظهر الدم .

(٤) الهدى : ما يهدي إلى البيت من النعم .

والأنداد ، وإذن هم عما قريب سيَشْمُونَ هذه التربة ، وينشقون عبق هذا الوطن العزيز . وهم أيضاً في رؤيا نبينهم الصادق الأمين ، سيطوفون بالبيت ، ويستلمون الركن ، ويسعون بين الصفا والمروة ، ويضعون أقدامهم حيث وضعها أبوههم إسماعيل وجدهم إبراهيم . وَمَنْ يَدْرِ ؟ لعل الله بعد ذلك يرغم أنف قريش ويُذِلَّ أبنائها ، ويقهر حميَّها ؛ ويظهر كلمة التوحيد بين مكة والمسجد الحرام .

وتنفس الصباح من اليوم الثاني ، وهبّت نسائمه حلوة عذبة ، تُدَاعِبُ آمال قوم يسوقون بُدْنًا تسيل بأعناقها السطاح ، وظهرت تباشيره مشرقة لمساعة ، تبعث في عزائمهم النشاط والارتياح ، شملهم جميع ، وأمرهم حازم ، وشعبهم ملتئم ، لم يفرق لفيفهم هؤلاء الذين استنصر لهم الرسول ، فقالوا : ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ ، ولم يصدع صغائرهم هؤلاء الذين راحوا يغمزون الرسول ، ويشيعون قالة السوء بين الناس : ﴿ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ ؛ بل ساروا آمنين مطمئنين ؛ يسوقهم الأمل ، ويدفعهم الإيمان ، ويحصِّد^(١) عزائمهم اليقين .

ولكنهم ما بلغوا منتصف الطريق حتى سمعوا بشراً الخزاعي يتحدث الرسول : أي رسول الله ، لقد دلفت - كما أمرتني - إلى قريش ، أُنْدَسُ^(٢) أسرارها ، وأتعرّف أخبارها ، وما راعني إلا أن أخبر مسيرك قد ترامي إليهم ، وحديث رؤياك قد هبط عليهم ، ولا أدري كيف وقع عليهم الخبر ، ولا كيف استنشوا حديث الرؤيا !

هيه يا بشر ! وبماذا قابلوا هذا الخبر ؟ وماذا أعدوا للقاء ؟ قال بشر : لأنهم

(١) يحصد عزائمهم : يقويها . (٢) أُنْدَسُ : أنسقط الأسرار .

يا رسول الله قد خرجوا ومعهم العوذ المطافيل^(١) ، ولبسوا جلود النور ، وعاهدوا أنفسهم ألا تدخل عليهم مكة أبداً . وهذا خالد بن الوليد ، وهو من يعقدونه بهمتهم^(٢) ، وفارس حلبتهم ، قد خرج يستقبلك بخيله ، ولعله الآن في كراع الغميم^(٣) .

فأرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم زفرة من قرارة نفسه ، ثم قال : يا ويح قريش ! قد أكلتهم الحرب ، وماذا عليهم لو دخلوا يدي و بين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ! وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . . . فما تظن قريش ؟ والله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثنى الله به ، حتى يظهرني الله أو تنفرد عني هذه السالفة^(٤) ، وماذا يريد خالد ؟ نحن ما خرجنا مقاتلين ولا محاربين ، بل خرجنا مسلمين مواعدين ، وما ذاك يوم اشتباك القنا ، ولا تقابل الأقران . من يخرج بنا إلى طريق غير طريقهم ، ويدفع بنا إلى مكان بعيد عن عيونهم وطلائعهم ؟

فتقدم رجل^(٥) من أسلم - وكان بصيرا بالطرق : مستدقاتها ومنعرجاتها ، عليا بمنحنياتها وليساتها - ثم أمسك بخطام القصواء^(٦) ، وأحزن بها في مكان وعر

(١) العوذ المطافيل : النياق معها أولادها .

(٢) البهمة : الشجاع الذي لا يعرف من أين أتى .

(٣) كراع الغميم : موضع على ثلاثة أميال من عسفان .

(٤) السالفة : صفحة الحق ، وانفرادها كفاية عن القتل .

(٥) هو ناجية بن جندب الأسلمي .

(٦) القصواء : ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وطريق صعب ، وما زال بالقوم يُجهدهم ويُضنيهم حتى أفضى بها وبهم إلى طريق سهل فسيح .

وساروا وبين جوانحهم قلوب ترصد آمالا ، وفي رؤوسهم عيون تشيم رجاء ؛ والرسول يُحيي هذا الأمل ، ويُضاعف هذا الرجاء ؛ ولكنهم فجأة لمحوا أن ناقة الرسول امتنعت عن السير ، ووقفت في عرض الطريق ، عجبوا لماذا وقفت الناقة ؟ أشيئ ثنى الرسول عن عزمه ، أم أوحى إليه بأن يغير وجهه ؟ لا ، لكن هو ذا الرسول يدفع الناقة للقيام فلا تقوم ، ويستنهضها للسير فتمنع ، إذن فقد خلأت ^(١) القُصواء ، وما أسرع ما انتشرت هذه القالة ، واضطربت الألسنة ، حتى دارت بين القوم ، ثم عليها رسول الله فقال : « واقع ما خلأت وما هو لها بخلق ، وإنما لدلول مطواع ، ولكن حبسها حابس الغيل عن مكة . وإن وراء ذلك لشيئا ، وإن في وقوفها لسرا » ، والذي نفسى بيده لا تسألني قريش خطة يُعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها . وأدرك رسول الله أنه مصروف عن السير ، مُوحى إليه بالتريث والتلبث ^(٢) ؛ فأمر القوم أن يتربصوا مكانا فسيحا ، ويلتمسوا مناخا رحيبا ؛ فكانت الحديبية . وفيها أناخوا جماهم ، ونصبوا خيامهم ، وأقاموا العُصوى ^(٣) والأعلام .

رجل يُلمح في الظلام ، ويضرب برجليه في الطريق ؛ انتظروا قليلا فإنه قادم إلينا ، وأغلب الظن أنه يقصدنا .

(١) خلأت : امتنعت عن السير . (٢) التلبث : الانتظار .

(٣) العُصوى : جمع صوة . وهي حجر يكون علامة في الطريق .

هذا بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي . لا بأس بقدمه ، إنه من خِزاعة ، وهي من علمناها صدقا وولاء ، وإخلاصا ووفاء ، وإن كان قادما من مكة فإنه سيصدقنا الخبر ، وَيَقْبِضُنَا أمر قريش .

ولما توسط بُدَيْل جمعهم ، تهافتوا على حديثه من كل ناحية ، وسقطت عليه الأسئلة من كل جانب ؛ من أين ؟ وإلى أين يا بُدَيْل ؟ هل من مُغزبةٍ خبر ؟ ^(١) إن كنتَ قادما من مكة فما حالُ قريش ؟ وكيف استعدادها للقاء ؟ وما شأنُ خالد خرج ثم عاد ؟

قال بُدَيْل : كفوا عن تساؤلكم ، وخفضوا من لجاجكم ؛ لستُ مجيبا عن سؤال ، ولا مطارحا بكلام ، حتى ينتهي مقامي عند محمد ؛ ثم أخذ سمته إلى خيمة الرسول ، وجلس إليه ينفُضُ خبره ، ويفتح بين يديه عيبة سره .

قال : يا محمد ؛ لقد جئتُك هذه الساعة وقريش لا تعلم من أمري شيئا ، ولكني سمعتُ قولاً خشيتُ عليك من عاقبته ، ورأيتُ شرًّا ودِدْتُ عنك دفعه ، لقد غدوتُ بالأمس - كدأبي - على قريش في متحدّثهم ، فوجدتهم جلوسا ، يخوضون في حديثك ويعيدون ، حديث كله غيظ وسخط ، وكله خنق وحقد ، وإن أنوفهم لتر مع ^(٢) ؛ وإن قلوبهم لتكاد تتمزع ، أن علموا أنك مقبل وصحبك إلى مكة تطأ حصاها ، وتجاوز حماها .

وانتهى بهم الحديث أن أخذوا للحرب مُعدّتهم ، وشدّوا أوتارهم ، وراشوا سهامهم ، وأقسموا جَهْدَ أيمنهم ألا تدخل عليهم مكة أبدا ؛ ثم أشهدوا على أنفسهم اللات والعزى ، ومُهلهم الأعلى .

(١) أي هل من خبر أثبت به من بعيد . (٢) ترمع : تتحرك من الغضب .

وقد خشيتُ عليك أن تؤخذ منهم على غرّة ، أو ينالوك على غفلة ؛ فنخذ لنفسك ولقومك ما تريد .

قال الرسول : إنا يا بُدِيل ما جئنا نتحرف^(١) لقتال ، أو نقصد إلى حرب ؛ ولكننا جئنا للبيت زائرين ، ولحرماته معظمين ، وها أنت ذا ترى السيوف في أعمادها ، والبُدن مُشعّرة ، والقوم معتمرين . إن شئتَ يا بُدِيل فاحمل إليهم نبأنا ؛ وأفصح لهم عن وجوه مقاصدنا . لعل الله يحقن بك الدماء ، ويذيب ضغائن الصدور .

وعاد بُدِيل إلى مكة ، فوجد القوم قد عادوا إلى متحدّتهم ، يخوضون في حديث محمد ويعيدون ؛ هم أقسموا أن يصدوا محمداً ؛ ولكنهم ودّوا لو عاد من غير قتال ؛ وهم أخذوا للحرب عدّتهم ، ولكنهم تمنّوا لو كفّوا جهد الحرب والكفاح ؛ فهم لذلك اجتمعوا ثانية يُجِيلون قداح الرأى ، ويُصرّفون طرق الخلاص ؛ وما علموا أن بُدِيلاً قد وفد على محمد وجاء حتى هرعوا إلى لقائه ، والاستماع لما عنده .

تعال يا بُدِيل ، هات ما عندك من حديث محمد ؛ أرأيت أن محمداً يريد أن يغزونا في دارنا ، ويغضّ من عزتنا ؟ ألم يكفه ما كان من قتل صناديدنا ، وذوى الرأى فينا ! إن ذكريات عُتْبة وشَيْبَة وحنظلة وابن هشام لا تزال أمامنا ؛ وإن دموع الباكيات على ابن وُدّ لا تزال تجري سخينة حارة ، وها هو ذا يحىء اليوم ليعيدها جذعة^(٢) ويُقيمها حرباً ضروساً ، فما عندك ؟ وما ترى ؟

(١) نتحرف : المراد نستعد .

(٢) قال في اللسان : د إذا أطفئت حرب بين قوم ، فقال بعضهم : إن شئتُم أعداها جذعة ، أى أول ما يبتدأ فيها .

قال بُدِيل : إنكم تبعدون في الوهم ، وتُسرفون في الظن ؛ لقد جئتُ محمداً ، وعرفت رَضِيخاً ^(١) من خبره ، ومجملاً من قصده ، ثم إنى حملتُ قولاً ، ورأيت شيئاً ، فإن شئتم بلغتكم ما حملتُ وبصرتكم بما رأيت .

قالوا : هات ما عندك ، وإن لنا وراء قولك قولاً ، وبعد حديثك رأياً .

قال بُدِيل : لقد جئت محمداً واستنباة عن رأيه ، وتحدث إلى عن عزمه ونيتته ؛ إنه لا يريد بكم حرباً ، ولا يبغي عليكم عدواناً ؛ وإنما جاء مُعْتَمِراً ، وللبيت طائفاً ومعظماً ، ولقد أفضى إلى برأى آرتاح إليه طبعي ، ووافق هوّى عندي ؛ وفيه - لو حفظتموه - صلاحُ ذات البين ، وإطفاء لوقدة الأحقاد ، وسَلِّ لسخائم النفوس ؛ أن تخلّوا طريقه للبيت يطوف ويعود ، ثم تهادنوه ويهادنكم ؛ وتركوا شأنه مع العرب ، يظهر عليهم أو يظهرون عليه ، وأنتم بعد ذلك بالخير ؛ تدخلون فيما يدخل فيه الناس ، أو تكونون بنسجة عن قتاله ، وعافية من معاداته ، ولاني لكم فيما أقول مخلص السريرة ، أمين المغيب .

فقالوا - إذ سمعوا رأى بُدِيل - هذا رأى فائل ، ومذهب خادع فاسد ، إن بُدِيلاً يريد أن يوطئنا العِشْوَةَ ^(٢) ، ويشبّه علينا وجوه الرشد ، ويلبس صور السداد ؛ تنصحننا يا بُدِيل أن فغمد سيفنا ، ونطأطى رءوسنا ، وندع السبيل إلى محمد يدخل مكة ونحن صاغرون أذلة ؛ إن في نصحك لريقَ الحية وسمَّ الأساود ؛ ألسنت من خُزاعة وشأنك مع محمد اليوم معروف ، وشأن آبائك مع آبائه مشهور ، ليخرسُ لسانك ، وإياك أن تخوض بعدها في هذا الحديث .

(١) الرضخ : خبر غير موثق به صاحبه .

(٢) أوطأ العِشْوَةَ : حمله على أمر غير رشيد .

قال بديل : شأنكم وما تفعلون ، وغدا تعلمون .

واتجهت عيون القوم إلى أبي سفيان ، زعيم أدوتهم وقائد جماعتهم ؛ يعلمون رأيه ، ويتعرفون ما عنده .

قال أبو سفيان : هذا الحليس بن علقمة ، سيد الأحابيش ^(١) حاضر جمعنا ، وهو حليفنا ، وعليه حق جوارنا ، وفوق ذلك فإن له رأيا يمزق ظلمات الإشكال ، ويطبّق مفاصل الصواب ؛ ليذهب إلى محمد رسولا أميننا ؛ ومبائغا كريما ؛ لعله يصده عن عزمه ، ويحوّله عن قصده ، ولننظر بعد ذلك ما يكون .

ورأى الرسول الحليس مقبلا من بعيد ، فقال : هذا الحليس مقبلا ، يظهر أن قريشا قد أرسلته سفيراً ، وهو من قوم يتأثّون ^(٢) ، فابعثوا الكهذي في وجهه حتى يراه . وما راع الحليس إلا الإبل تسيل من عرض الوادي مشعرة ^(٣) قد أكلت أوبارها من طول ما حبست ، فما استطاع أن يتحدث حتى عاد إلى قريش مغیظاً ، يقول : أيها القوم ، بئس والله ما طاش سهمكم ، وقال رأيكم ، أتصدون عن البيت قوما أثو^١ معتمرين ، وله معظمين ! أتجج إلى البيت جذام وحمير ، ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب وله فيكم شرف ينطّح النجوم ، ولأجداده عز يعلو أجنحة النسور ! هلكت قريش ورب الكعبة ، إن القوم أثو^١ معتمرين ؛ والله ما على البغي عاهدناكم ، ولا على العدوان حالفناكم ، لئن صدّتم محمداً عن البيت لأنفرن^٢ بالأحابيش نفرة رجل واحد .

قالوا : مهلاً يا بن علقمة ؛ وأنظرنا نصنع لأمرنا .

(١) الأحابيش : قوم تحالفوا بينهم على غيرهم ، مارسا حبشي . وحبشي . جبل

(٢) التأله : التعبد والتذلل .

(٣) أشعر الناقة : شق جلدها حتى يظهر الدم ، ليعرف أنها هدى للبيت .

وعلا وجوه القوم وجومٌ ، وغشيتهم حيرة وسكون ؛ ثم أخذوا يديرون
حديثاً ، فيه مرارة وألم ، وفيه حزن وامتناع .

ذلك محمد واقف على ثنّيات مكة ، ويوشك أن يدخلها ؛ حقاً لقد تعاهدنا
على الحرب ، وشحننا عزائمنا للدفاع ، ولكن ما غناء الحرب ؟ وما فائدة الدفاع ؟
إن محمداً يقدم علينا اليوم في قوم حاربناهم ، واشتبكت القنا فيما بيننا وبينهم ؛
فوجدنا فيهم صبرا على القتال ، وجلداً على الاستبسال ، ما فيهم إلا ابنُ كريمة^(١) ،
وما نبعُ حريم ، لقد اخترمت المنية أبطالنا ، وطوّحت الحرب بفتياننا .

ولقد لقيناهم يوم بدر ، فكان يوماً منحوساً أغبراً ، وحسبنا أننا هزمناهم يوم
أحد ، وخضدنا منهم الشوكة ، ولكن ما أسرع ما اندملت القروح ، والتأمت
الصفوف ؛ وعادوا يوم الخندق أشدّ ما يكونون مَنعةً ، وأعظم ما أوتوا نصراً .

وها هم أولاء يعودون اليوم طالبين بعد أن كانوا مطلوبين ، ومهاجمين بعد أن
كانوا مدافعين ، إننا لو دافعناهم فأكبر الظن أن الدائرة علينا ، والهزيمة تأخذ
سبيلها إلينا ، وإن خيلناهم يدخلون البيت فإنما هو عارٌ نَحْصِبُ بهء وسناً ، ومَسْجَةً
نُخْشِ بها وجوه أحسابنا ؛ لا يكون لنا شأن بعدها ؛ إنه لرأى مضطرب ، وحيرة
جائلة ، وأمر لا ندري أشتره آخره أم أوله ؟

ورآهم نعيم بن مسعود يضطربون في حيرتهم ، ويضطربون في أمرهم ،

فأراد أن يُبدلي برأى ، ويصدع بمقول ؛ قال : أى قريش ؛ لقد علمتمونى من أشرف العرب نسبا ، وأبعدهم محتدا ، وأكرمهم أرومةً ونجارا ، ولى فى ثقيف رياسة ، وفى الطائف مُلك ، ثم إني - وإن كنت بعيداً فى الوطن عنكم - من صميمكم ، وأجرى على عرق فى أنسابكم ، وقد استبطنت سوادكم ، وتعرفت دخائلكم ، وفطنت إلى أموركم ، ولقد جربتكم من قبل فما اتهمتونى فى نصيحة ، ولا تعلقتم على بكذبة ؛ وتذكرون أنى استنفرت لكم أهل عكاظ من قبل ، فلما بلّجوا على^(١) جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى ؛ وإن لى عليكم مشورة ورأيا ، وعندى لكم نصحا وبيانا ؛ دعونى أذهب إليه سفيراً عنكم ، ورسولا منكم ، أناقله وأناقله^(٢) ، وأجادله وأصاوله ، فإن جئت إليكم من عنده بخطة فاقبلوا ، واعلموا أنى سأرمى عن قوسكم ، وأصدر عن رأيكم ، وأرجو أن أكون موفقا مجدودا .

فقالوا : إننا يا أخا ثقيف ما اغتمزنا فيك رأيا ، ولا عهدنا عليك كذبا ؛ فاذهب حافظا للأمانة ، مفوضا فيما ترى .

وجاء ابن مسعود إلى الرسول ، فوجده فى هالة من صحبه ، أجلسوه على عرش من قلوبهم ، وحاطوه بسياج من نفوسهم ، ما يأمر بأمر إلا ابتدروا إليه ، وإذا تسكلم خفضوا أصواتهم ، وإذا نظر غضبوا من أطرافهم ، وقد وقرت مهابته فى الصدور ، وارتفعت منزلته فى العيون ؛ فتلجلج فى مشيته ، وتردد فى رسالته ، ولكنه جمع نفسه ، واسترد عازب حليه ، وشق الصفوف ، حتى انتهى إلى الرسول ثم قال : يا محمد ؛ ما هذا الذى جمعت إليه جمعك ، وحشدت إليه جنودك !

(١) بلجوا : أبوا . (٢) المناقضة والمناقلة : المناقشة .

أراك قد جمعت أوشاب الناس^(١) وُزمر القبائل ، ثم غدوت بهم على قومك من قريش ، تحاول أن تذلمهم ، وتنتهك حرمتهم ؛ إنها والله لقريش ، قد علم الناس صدقها عند اللقاء ، وصبرها على اللأواء ، وكفاحها في البأساء ، هم مساعير^(٢) حرب ، وأحلاس^(٣) خيول ، ولقد ترامي إليهم أنك جئت غازيا ديارهم ، قاصدا الكيد بهم ؛ ألا فلتعلم أنهم عاهدوا الآلهة ألا تدخلها عليهم أبدا ؛ وإيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً ، وبقيت وحدك ، فلا أنت تحوَّطت لنفسك ، ولا احتفظت بقومك ؛ فتدبر أى شر أنت قادم عليه ، وأى أمر أنت متصد له !

قال له الرسول : لقد تحدثتُ إلى بديل ، وتحدثت إلى الحليس ؛ إني ما جئت أبغى حرباً ، أو أريد قتالاً ، وإنما جئنا معتمرين ، وللبيت الحرام طائفين ومعظمين ؛ فإن شاءوا خلوا لنا الطريق ، وإلا فإن لنا معهم شأنًا ، نترقب فيه أمر الله .

وعاد ابن مسعود إلى قريش لم يلق نجاحاً ، ولم يصادف فلاحاً ؛ فاستشرفوا لحديثه ، وتطلعوا إلى نهاية سفارته ، كما استشرفوا من قبله لبديل ، وكما استشرفوا للحليس ، ولكنهم كانوا لابن مسعود أكثرَ اطمئناناً ، وأشد استئناساً ، وأطول آمالاً ، وقالوا : هات ما عندك يا ابن مسعود ؛ فلعلك جئت بما يحقن الدماء ، ويحفظ الدماء ، ويحمي البيت ، ويحفظ لقريش مقادها بين العرب .

قال ابن مسعود : اسمعوا يا قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ؛ وفدت على قيصر في ملكه ، وعلى كسرى في عزه ، وعلى النجاشي في عرشه ؛ فوالله ما رأيت

(١) أوشاب الناس : أخلاطهم

(٢) مساعير : جمع مسير ، وهو موفد النار .

(٣) أحلاس الخيول : الملازمون لظهورها . والحلس : كساء رقيق يجعل تحت السرج .

رجلا يعظمه قومه كما يعظم محمدا قومه ، وقد ألقوا إليه بمقاليدهم ، وأمكنوه من قيادهم ، ولأنهم لا يرجعون له قولا ، ولا يردون عليه رأيا ، فرقوا رأيكم ، واقتدحوا زناد عقولكم ، والأمر نهايته بين أيديكم .

فقالوا — وقد أدركتهم الحمية : إن قريشاً جسر لا يعبر ، وكنف لا يوطأ ، وعقبة لا ترتقى ، ودون ما يبغى محمد شيب الغراب ، ومخ النعام !

الصلح

قالت قريش : يظهر أن محمدا صادق العزم ، ماضى العزيمة ؛ وهؤلاء السفراء لم يستطيعوا أن يحيلوه عن قصده ، أو يصرفوه عن عزمه ، أو يخذلوه في رأيه . فقم يا ابن مكرز ، بما عهدناه فيك من شجاعة وحزم ، وما بلواناه فيك من قوة وبأس ، واختر لنفسك نفرا ممن تراه ثبت الجنان ، صادق اللقاء ، رابط الجأش ، ومُطف بعسكر محمد ، فلعلك تكسّر سهامهم ، وتلقى الرعب في صدورهم ، فينكثوا ما أمرؤوا^(١) ، وينقضوا ما غزلوا .

وفي ساعة من الليل ، والظلام قد ضرب الرواق ، وشد الأطناب ، أخذ حفص بن مكرز يطوف بعسكر المسلمين ؛ ولكنه ذعر فجأة . ثم التفت إلى من معه قائلاً : قفوا يارفاق ! من هذا الذي يخفر أصحاب محمد ؟ تبينوه معي ، كأنى به محمد بن مسلمة إنه هو ! أعرفه والله بقامته وسمته ، وبشيتته وعلاماته ، وبجذره ويقظته . احذروه ، فوالله ما هو إلا ليث غاب ، ومسرع حروب ؛ إنه لكالذئب

(١) أمر الحبل : شد فتله .

ينام بإحدى مقلتيه ، وكالأسد الجادر ^(١) إذا كشر عن نابه ؛ فإن فتكه لا يصد ، وعزه لا يرد .

وما علموه ابن مسلمة ، حتى تخبت ^(٢) قلوبهم ، ومشيت الرعدة في مفاصلهم ، وجبن الجريء ، وخار عودُ الشجاع ، وأرهف ابن مسلمة أذنه ، فإذا همسُ كلام ، ووقع أقدام ، من يكون هؤلاء غير قريش ؟ إذن هم قد أبدوا ناجذى الشر ، وصرحوا بالعدوان ؛ وإذن هم يريدون حربا ، ويبغون كيدا .. أيها القوم ؛ سلوا السيوف من أغمادها ، وابعثوا العزائم من رقادها ، فهذه قريش قد برزت بطلائعها ، ونشّرت العزائم ، وأحسّ النفوس ؛ وماهى إلا بجولة ونزال ساعة ؛ حتى وقع القوم أسرى في يد المسلمين .

ولكنه صلى الله عليه وسلم ما جاء يُذكى ضرام حرب ، أو يثير نوازي شر ؛ وإنما جاء معتمراً ؛ وللبيت مطوّفاً ومعظماً ، فقال له وللأسرى ؟ وماله وللقتال ؟ أطلقوا سراح هؤلاء الأسرى ، وفكّوا أصفادهم ، ودعّوهم يرجعوا إلى أوطانهم ، فلعلهم يطعمّون إلى وجعنا ، ويؤمنون بغايتنا ، واذهب أنت يا خراش ^(٣) بعدُ في إثر القوم ، وتعرف ما بنفس قريش ؛ بعد أن أطلقنا أسراهم ، وتجاوزنا عن مساءتهم .

وذهب خراش ورجع ، فقال : يا رسول الله ؛ إن قريشاً ما زالت على تمكرها وحنّيقها ، وما زالت الحفيظة تملأ قلوب عامتها ؛ إنهم أذلوا وفادتي ، وعقروا

(١) الأسد الجادر : المستكن .

(٢) تخب قلبه : كأنه نزع .

(٣) هو خراش بن أمية الخزاعي ، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، وحمله على بعيره يقال له السلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، فحقروا الجمل ، ولولا الأحابيش لقتلوه .

ناقى ، ولولا الأحابيش لأطلوا دى ^(١) .

وسمع هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأطرق ، ولكنه لم يتعكر صفو
حلمه ، ولم تستشر قطة حكمته ، بل قال : سنصابر القوم بالحلم ، ونعالجهم بالصفح ؛
فلعلنا بهذا نستل سخائم صدورهم ، ونزع الغل من قلوبهم ، وربما كان قد هان عليهم
أمر خراش ، واستخفوا بالسفير من خزاعة ، فقم يا بن الخطاب ، فإن فيك رأيا
وعقلا ، ولك في قريش منزلة ومقاما ؛ اذهب إليهم وناضل عن قصدنا ، وشرح
ما غم عليه من أمرنا ، وما لبس من مسألتنا .

قال عمر : أى رسول الله ، سمع لقولك ، وطاعة لأمرك ؛ ولكننى أخاف
هؤلاء القوم على نفسى ، ولا آمنهم على حياتى ، وليس فيهم إلا من يضمركى حسيكة ^(٢) ،
أو يخفى ضغنا وغلا ، وقد نزع عن مكة من كان يشد ظهري من بنى عدى ^(٣) ؛
فليس من يحمينى أو يدفع الشر عني ، ولكن هذا عثمان بن عفان ، لا يزال له فى
مكة من أمية رحم ، ولا يعدم أن يصادف عندهم حاميا ، فهناك معاوية وأبوسفيان ،
وهناك عتبة وأبان ^(٤) ، وحسبه منهم حماة !

وسمع أبان بن سعيد طارقا يقرع الباب ، فخرج فإذا هو عثمان بن عفان ، قال :
مرحباً بك يا بن عمى ؛ كيف جئت فى هذه الساعة وخلفت صاحبك محمدا ؟
قال : لقد قدمت سفيراً عنه ، ورسولا من عنده إلى قريش ، أبين لهم ما خفى

(١) لأطلوا دى : اسفكروا دى . (٢) الحسيكة : الحقد والعداوة .

(٣) بنو عدى : قوم عمر . (٤) أبان بن سعيد بن العاصى .

عليهم من أمره ، وأكشف القناعَ عن قصده ، فلعل الأفهام تتقارب ، والأرواح تتعارف ؛ ولكنني أخاف على نفسي الإيذاء ، وأتوقعُ من قريش المكروه ، فأقبلني في جوارك ، وأدخلني في حماك ، بما بيننا من تعصبٍ مشتبك ، ورحمٍ ماسة .

فَعَدَّاهُ أَبَانٌ عَلَى الرُّسَاءِ مِنْ قَرِيشَ ، وَقَالَ : هَذَا ابْنُ عَمِي عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، وَرَسُولُ مُحَمَّدٍ ، يَحْمِلُ رِسَالَتَهُ ، وَيُرِيدُ أَنْ يَلْقَى إِلَيْكُمْ كَلِمَتَهُ ، ثُمَّ هُوَ فِي جَوَارِي وَحَمَايَ . فَاقْبَلُوا جَوَارَهُ وَلَكِنْ عَلَى مَضَضٍ ، وَاحْتَمَلُوا ظِلَّهُ وَلَكِنْ عَلَى كُرْهِهِ ، ثُمَّ قَالُوا : أَمَا أَنْ يَدْخُلَ مُحَمَّدٌ مَكَّةَ وَيَطُوفَ بِالْبَيْتِ ، فَدُونَ ذَلِكَ عِزَّةٌ تَمْلَأُ نَفْسَنَا ، وَنُخْوَةٌ تَدْوِي فِي جَوَانِحِنَا ، وَلَكِنَّكَ إِنْ أَرَدْتَ أَنْتَ الطَّوَافَ فَدُونِكَ وَمَا تَرِيدُ .

فَتَأَذَّنَ (١) عُثْمَانُ : أَلَا تَطَافُ قَدَمَاهُ الْبَيْتَ مَا دَامَ مُحَمَّدٌ رَسُولَ اللَّهِ مَمْنُوعًا ، وَمَا دَامَ الْمُسْلِمُونَ يُحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ! وَانْطَلَقَ إِلَى الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ مُنِعُوا الْهَجْرَةَ وَهَمَسَ فِي آذَانِهِمْ : إِنْ يَوْمَ الْفَتْحِ قَرِيبٌ ، وَسَاعَةُ الْخُلَاصِ آتِيَةٌ . وَبَلَغَ قَرِيشًا قَوْلُ عُثْمَانَ خُفَافًا الْفِتْنَةَ وَحَبَسُوهُ .

وَبَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ يَرْقُبُ بَرِيدَ النِّجَاحِ ، وَيَاشِمُ مَخَايِلَ الرِّجَالِ ، جَاءَهُ نَبَأٌ أَنَّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ ! وَاسْتَظَارَ هَذَا الْخَبْرُ فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَكُسُومَعَ فِي خِيَامِهِمْ ، فَذُهِلُوا وَوَجَّهُوا ، ثُمَّ ثَارُوا ، وَسَخَطُوا ، ثُمَّ شَمَرُوا عَنْ سِوَاكَهُمْ لِلْقِتَالِ وَاسْتَعَدُّوا ؛ أَمَا رَسُولُ اللَّهِ فَقَدْ وَقَفَتْ آمَالُهُ مِنَ السَّلَامِ عَلَى شِفَا الْيَأْسِ ، وَكَادَتْ تَقْطَعُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ خِيوطُ الرِّجَاءِ ، وَأَعْلَنَ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ لَا بَرَّاحَ مِنْ مَكَانِهِ ؛ حَتَّى يَنَاجِزَ الْقَوْمَ

الحرب ، وجلس إلى شجرة ينظر ما يكون من عزم المسلمين .

جاءه أبو سنان الأسدي ، وقال : أمدد يديك أبايعك يا رسول الله ، قال :
علام تبإيعني يا أبا سنان ؟ قال : على ما في نفسك يا رسول الله ، من تفديّة
لنفس ، وبذل للروح ، وما شئت من صبر واستبسال ، وجلاد وكفاح . . . وتابع
المسلمون أبا سنان ، ورضي الله عنهم ، وعلم ما في قلوبهم ، وأنزل السكينة عليهم ،
ووعدهم فتحاً قريباً .

المسلمون قد استعدّوا للقتال ، وشهروا سيوفهم للحرب ؛ وإنهم لكذلك
إذ رأوا رجلاً يتقدم نفراً . . . من هذا الرجل ؟ ثم أخذوا يديرون فيه الطّرف ،
ويتعرّفون الشّخص . وصاح أحدهم قائلاً : أنا أعرف الأرنب وأُذنيها ^(١) ، ذاك
سهيل بن عمرو ، وانطلق يعدو إلى رسول الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كان سهيل بن عمرو حقّاً فقد أراد
القوم الصّلاح ؛ فإنّي أعرفه كَيْساً حصيفاً ، فطناً ليبيّاً .

وصدق حدّس الرجل في سهيل ، وصدق رأى رسول الله في نية القوم ، فقد
قال سهيل حينما جلس إلى الرسول : يا محمد ؛ إنه قد بلغنا خبر البيعة ؛ جملتها
وتفاريقها ، وإن قريشاً قد استتبّوا ^(٢) عاقبة أمرهم ، وندموا على ما وقع بأيدي
أشرارهم ؛ وعثمان لم يُقتل ، ولكنه حبس ، وما حبس إلا عن حلم طائش ،
ورأى فاتل .

(١) أنا أعرف الأرنب وأذنيها : مثل يضرب في معرفة الشيء .

(٢) استتبّوا الشيء : لم يوافقه .

وقد جئتُ رسولاً من قريش ، رسولَ موادة وسلام ، وُصِّلِح روثام ، علنا
فضيَّق مسافة الخلف ، وُنسَكُن فتوارة النفوس ، وعثمان بعد ذلك بين يديك .

ورسولُ الله لما برح يبغي السلام ، ويريد الوثام ، ويتجنب ما فيه إراقة
الدماء ، ويوجبُ إلى كل ما يعظم حرمة البيت الحرام . . . ألم يرسل لهم بديلاً
وخِراشاً وعثمان في سبيل هذا الصلح ؟ ألم يحدثُ نعيمًا بما لا يدع في نفس متردد
خيطة من الشك ، أو يترك في الأفق غيمة من الريب ؟ وما دامت قريش قد ثابت
إلى رُشدِها ، واستفاقت من سَوَرة مُحَقَّقها ، ومدت يدها للصلح ، وأرسلت رسولها
للسلام ، فتعال يسهل ننتبذ مكاناً نتحدث فيه عن شأن هذا النزاع .

ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهلاً ساعة يتنأثان ^(١) الحديث ،
ويتنافثان الكلام ، ثم طلعا على القوم بما انتهيا إليه : أن يرجع المسلمون بغير
عمرة هذا العام ، فإذا كان العام المقبل جاء النبي وأصحابه إلى مكة ، وقد خلستها
قريش ، فيقيمون فيها ثلاثاً يعتمرون ، وليس معهم من السلاح إلا السيوف في
القُرْب ^(٢) ، وأن تضع الحرب بين الفريقين أوزارها عشر سنين ، ومن جاء إلى
المسلمين من قريش يُرد عليهم ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون رده ، ومن
أراد أن يدخل في عهد قريش أدخل فيه ، ومن أراد أن يدخل في عهد محمد
دخل فيه .

وما علم المسلمون بهذا العهد حتى حَصرتِ صدورهم ^(٣) ، وأقبل بعضهم
على بعض يتساءلون ؛ إذن فلنسنا بمعتمرين هذا العام ! فقد نفذ سهم قريش

(١) نك الخبر : أفشاء . (٢) القرب ، جمع قراب : ما يوضع فيه السيف .

(٣) حصرت صدورهم : ضاقت .

في حلوقنا ، وار تفعت كلمتهم فوق كلمتنا ، ونالوا منا ما يريدون ! كيف نردُّ مَنْ جاءنا مسلماً ، ومن جاءهم منا مرتداً تركناه ! إن هذا لأمر يضطرب فيه رأينا ، ويتيه فيه رشدنا :

أما عمر فقد نبض نابض الغضب في قلبه ، وغلا مرجل الغيظ في صدره ، ولم يلبث أن وقف على أبي بكر . وقال : نشدُّك الله يا أبا بكر ! أليس برسول الله؟ قال : بلى ، قال : أولسنا بالمسلمين؟ قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ! قال : بلى ، قال : فعلام نعطي الدِّينة في ديننا ! فقال أبو بكر : يا عمر : الزم غرزك^(١) ؛ فإني أشهد أنه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ، ولكني أشهدك أيضاً أني منذ الساعة التي رأيتني فيها مسلماً بدار ابن الأرقم ، ما شككت إلا الساعة ، ولا اضطربت في قلبي العقيدة إلا الآن ، وقد تخالجتني الريب ، وأخذت تدب في صدري عقارب الظنون .

قال أبو بكر : لا دواء لما قام بنفسك ، ولا مهدئ لفورة غضبك ، إلا أن تبسط خواج نفسك بين يدي رسول الله ، فدونك هو كلامه ، وما بينك وبينه حجاب . وعمر بن الخطاب طبعه الله سليم الفطرة طاهر السريرة ، نقي الضمير ، لا يبالي أن يجهر بما يعتقد ، وأن يعلن الرأي الذي يراه ، لا يخشى في الحق لومة لائم ، وإن خالف - فيما يظنه الحق - رسول الله ، وبهذه النفس الكريمة الصافية ، وبذلك الإيمان الصادق المتين ، حادث رسول الله ، وقال : ألسنت برسول الله؟ قال : بلى ، قال : أولسنا بالمسلمين؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشركين؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطي الدِّينة في ديننا ! قال رسول الله : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف مره ، ولن يضيعني .

(١) الزم غرزك . أى أمره ونهيهِ .

قال عمر : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ! قال : بلى .
 أفأخبرتكم أنا نأتيه هذا العام ؟ قال : لا ، قال : فإنك آتيه ومطوف به .
 فوجدت هذه الكلمات سبيلا إلى وقدة غيظه فسكتن عنها ، وإلى خواجل الشك من
 نفسه فانزعتهما .

وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهिला ، ودعوا عليهما ليكتب العهد ،
 فأصلح لبيعة دوائه ، وأعد قلبه ، وتهيأ للكتاب .. اكتب . « بسم الله الرحمن الرحيم »
 قال سهيل : هذه فاتحة لا أعرفها ، وعبارة لا أستريح إليها ، ولكن ليكتب :
 « باسمك اللهم » ، فكتب على ، ثم رفع القلم يستوحي عبارة العهد من رسول الله ،
 فقال : اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » : فأمسك سهيل
 بقلم على ، وقال : لا تفعل ، ثم التفت إلى رسول الله ، وقال : لو شهدت أنك
 رسول الله ما قاتلتك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

فقال رسول الله : اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ؛
 اصطالحنا على وضع الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن
 بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء
 قريشا من مع محمد لم يردوه عليه ، وأنه بيننا عيية مكفوفة ^(١) ، وأنه لا إسلال
 ولا إغلال ^(٢) ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن
 أحب أن يدخل في قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن محمدا يرجع عامه هذا فلا يدخل
 مكة : فإذا كان عام قابل خرجت منها قريش ودخلها بأصحابه ، فأقام بها ثلاثا

(١) عيية مكفوفة : أى صدور منظوية على ما فيها لا تبدى عداوة .

(٢) الإسلال : السرقة . والإغلال : الخيانة .

معه سلاح الراكب ، السيوف في القرب » .

وفرغ عليّ من الكتاب ، وشهد عليه رجال من الفريقين ، وقرأه المسلمون ؛
وكانما دفعوا به إلى أمر عظيم ليس لأحد منهم فيه يدان .

وبينما هم في تلك الحيرة إذ بهروا برجل مُنْقَلَبٌ إليهم يرسفُ في الحديد ،
ويئنُ تحت أغلال القيود ... لم يكن هذا الرجل إلا أبا جندل بن سهيل ، جاء صارخا
فزعاً ، مستجيراً بالرسول مستنصراً ، وقال : يا رسول الله ؛ لقد وصلتُ إلى دعوتك
فأسلمتُ ، وبلغني قرآنك فأمنت ، ولكن ما عرفتُ قریشُ أني تصبأتُ عن دينهم ،
ومرقتُ عن آلهتهم ، حتى أوسعوني كيذا وتعذيبا ، وزادوني رهقا وتنكيلا ،
وكم حاولتُ أن أهاجر إليك ، فسدوا في وجهي المسالك ، وكم حاولتُ أن أرحل
عن مكّتهم ، فخالوا بيني وبين ما أريد ، حتى خفتُ أن أفتنَ في ديني ، وأوذى
في نفسي ، وأنت تراني الآن مقيدا مغلولا ؛ فخذني إليك مهاجرا مسلما ، مجاهدا في
سبيل الله مقاتلا .

ورأى سهيلُ ابنه ، وسمع قوله ، فسهم ووجم ، ولكنه قال : يا محمد ؛ لقد
انتهيتُنا من العقد قبل أن يأتيك هذا ، وإذن فليس هناك ما يحول دون أن أرده
إلى مكة ، راضيا أو سائطا ، طائعا أو مكرها . قال رسول الله : صدقتَ ،
ولك ما تريد .

وأخذ سهيلُ أبا جندلَ ولبيبه^(١) بمِخَنَسَقِهِ^(٢) ، وجره من عنقه ، ودفعه
إلى مكة ، فأخذ يصيح : يا معشر المسلمين ؛ أُرَدُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني !
فنفذت هذه الصيحةُ إلى أعماق النفوس ، ولمست قرارة القلوب ، وهزّت

(١) لبيبه : جمع ثيابه عند نحره في الخصومة ثم جره . (٢) المِخَنَق : موضع حبس الخلق .

أوتار الحزن والأسى ؛ ولكن ما يصنع المسلمون ، وذلك قضاء الله ، ورسول الله إنما يصدر عن أمر الله ! على أن رسول الله قد طمأن أبا جندل ؛ وقال : يا أبا جندل ؛ اصبر واحتسب ؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجاً ، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صليحاً ، وأعطيناكم وأعطونا عهداً ، أنا لا نغدر بهم .

ثم صاح صائح في أحياء مكة : مَنْ أراد أن يدخل في عهد أحد الفريقين فليدخل ؛ فتوالت بكروا ودخلت في عهد قريش ، وتوالت خزاعة ودخلت في عهد المسلمين .

ثم نادى المنادى عن رسول الله : لقد قضى الأمر ، وعقد العهد ، فتجسسوا من إحراركم ، وانحسروا وبذنكم ، واحلقوا أو قصصوا شعورك ، ثم شدوا إبلكم للرحيل . والتفت المنادى فإذا نفوس معرضة ، وعزائم مترددة ، وعيون زائغة ، وقلوب حائرة . وصاح الثانية فلم يجيبوا ، ودعا الثالثة فلم يلبوا !!

فانطلق إلى الرسول يحدثه في أمر هذه النفوس التي ما تعودت إلا تلبية الدعاء ، وما عهد فيها استخفاف بالنداء ... فكبر الأمر على الرسول ، ودخل على أم سلمة مطرقاً مهتماً قالت : ما خطبك يا رسول الله ؟ قال : هلك القوم ! دعوتهم للإحلال والحلق والنحر فلم يجيبوا ، قالت : يا رسول الله ؛ إن لهم فيك لأسوة حسنة وقدوة كريمة ، فاخرج إليهم وانحر واحلق ، وما أظن إلا أنهم سيسيروا في نهجك ، ويقولونك في فعلك .

خرج رسول الله إلى الناس ؛ يقول : أما ما أهمكم من العهد ، فإن من ذهب إليهم منّا فلا حاجة لنا به ؛ ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً ؛ وأما البيت

فإنكم إن شاء الله مُطوَّفون به في قابل ، وما فعلتُ ما فعلتُ عن أمرى ، وإنما عن أمر الله ، وهو نصيرى ولن يُضَيِّعنى . ثم دعا الحلاق لخلق ، وعمد إلى البدن فذبح ، وتحلل من الاعتمار .

وما سمع القوم قولَ الرسول ، وما رأوا أفعاله ، حتى لانت عريكتهم ، وثابت إليهم حُلومهم ، وطابت نفوسهم ، وأقبلوا على رؤوسهم مُحَلِّقِينَ ومَقْصِّرِينَ ، ثم تحروا البدن وتحلَّلُوا من الإحرام ، وانكفوا إلى المدينة راجعين ، لم يمسسهم سوء ، ولم يُصابوا بأذى ، ولكنهم مابرحوا عطاشا إلى مكة ، متشوقين إلى البيت ، وهم بين اللهفة وهذا الاشتياق ظلوا ينتظرون قضاء الله .

نقض العهد

وعاد المسلمون إلى المدينة موفورين ، وانقلبوا إلى دورهم آمنين ، ولكنهم لم يطوَّفوا بالبيت كما كانوا يطمحون ، ولم يَنشَقُّوا عبر الوطن كما كانوا يتشوقون ، تغشى وجوههم حيرة ، ويبدو في معارفهم الوجوم .

أجل ! إن رسول الله وعدهم أنهم لا بد داخلون مكة ، طائفون حول البيت ، ووعدوه صدق وقوله حق : « وَمَا يَنْطَقُ عَنْ الْهَوَى » ، وما يبلغ إلا عن روح أمين ؛ ولكن لواعج الشوق إلى البيت ، وتباريح الحنين إلى الوطن ، والرغبة في القتال والجهاد — كل ذلك أقلق نفوسهم وأقض مضاجعهم .

لقد كانوا قبل اليوم أحسن حالا ، وأعز شأنا ، وأقوى سلطانا ؛ أما اليوم فواحرَبَاهُ من جاء إلى المدينة من قريش ، راغبا إلى الإسلام ، زاهدا في عبادة الأصنام ، لا يجد فيها ظلا ولا مقيلا ، ولا يستطيع أن يُنزل فيها رَحْلا ، أو يشتد طُنْبا ؛ فالعهد

الْمَأْخُوذَ يَرْدُهُ إِلَى مَكَّةَ ، وَالْمِيثَاقَ يُرْجِعُهُ كَاسْفًا بَيْنَ الْكُفَّارِ ، وَمَا يَأْمَنُ مِنْ أَنْ يَفْتَنُوهُ
فِي دِينِهِ ، أَوْ يَضَيِّقُوا عَلَيْهِ فِي عِبَادَتِهِ ، أَوْ يَنَالُوا مِنْهُ فِي بَدَنِهِ وَعَاقِبَتِهِ . وَمَنْ ذَهَبَ
إِلَى الْكُفَّارِ مِنْهُ مُرْتَدًّا عَنِ الْإِسْلَامِ ، صَابِئًا عَنْ كَلِمَةِ الْإِيمَانِ ، فَلَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ
سُلْطَانٌ ، وَلَيْسَ لِإِرْجَاعِهِ إِلَيْهِمْ سَبِيلٌ !

ثُمَّ إِنَّهُمْ مَا كَادُوا يَنْسَوْنَ يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ ، حِينَ جَاءَ مُؤْمِنًا يَرُؤُفًا فِي الْقَيْدِ ،
مُسْتَجِيرًا يَطْلُبُ الْمَجِيرَ ، فَلَمْ يَجِدْ مَعِينًا وَلَا مَجِيرًا ، وَلَمْ يَلْقَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ، حَتَّى
هَيَّأَتْ الْأَحْدَاثُ أَمْرًا جَدِيدًا ، مَرَّقَ خِيَوَاطَ النَّسِيَانِ وَجَدَّدَ الْأَسَى ، وَبَعَثَ كَامَنَ
الْآلَامِ ؛ وَالْأَسَى يَبْعَثُ الْأَسَى ، وَبَعِيدُ الْهَمِّ يَنْشُرُ دَانِيَهُ .

ذَاكَ أَبُو بَصِيرٍ قَدِمَ إِلَى الْمَدِينَةِ زَائِعَ الْبَصَرِ ، وَاجْفَا الْقَلْبَ ، مُسْتَطَارَ الْفُؤَادِ ،
وَفِي رَجْلَيْهِ أَثَرُ مَنْ قِيدَ ، وَفِي يَدَيْهِ سِمَةٌ مِنْ غُلٍّ !

قَالُوا : لَا تُرْعِ يَا أَبَا بَصِيرٍ ، وَلِيُفْرَخَ رُؤُوعُكَ ، وَلِيَهْدَأَ بِالْكَ . مَا بَكَ ؟ وَمَا شَانُكَ ؟
وَلَمْ اضْطَرَّ أَبَاكَ ؟ وَفِيمَ قَدُومُكَ ؟

قَالَ أَبُو بَصِيرٍ — وَقَدْ عَادَ إِلَيْهِ الْأَطْمَئِنَانُ ، وَسَكَنَ فِي نَفْسِهِ طَائِرُ الْأَمَانِ :
اسْمَعُوا ، لَقَدْ هَاجَرَ مُحَمَّدٌ عَنْ مَكَّةَ ، وَمَا كَانَ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دَعْوَتِهِ ، وَلَا أَثْقَلَ عَلَى
نَفْسِي مِنْ رِسَالَتِهِ ، وَكُنْتُ أَحْسِبُهُ خَارِجًا عَنْ قَوْمِهِ ، مُتَجَنِّيًا عَلَى عَشِيرَتِهِ ، حَتَّى
أَتَيْتُ فِي مَرَّةٍ فِي إِحْدَى سَبْحَاتِي بِاللَّيْلِ أَنْ سَمِعْتُ رَجُلًا يَتْلُو شَيْئًا مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي
جَاءَ بِهِ ، فَوَجَدْتُ فِي طَبْعِي إِلَيْهِ ارْتِيَا حَا ، وَلَهُ فِي نَفْسِي قَبُولًا ، فَأَسْلَمْتُ وَأَزْمَعْتُ
الْهَجْرَةَ إِلَيْهِ ، وَلَكِنِّي مَا جَهَرْتُ بِإِعْلَانِ مَا اعْتَقَدْتُ ، وَمَا عَرَفُوا مَا اعْتَزَمْتُ حَتَّى
وَضَعُوا فِي رَجْلِي الْقَيْودَ ، وَصَفَّدُونِي تَحْتَ أَعْيُنِ الرِّقَبَاءِ ، وَلَقِيتُ مِنْ صَنُوفِ الْبَلَاءِ
وَالْأَذَى مَا يَنْوِي بِهِ كَاهِلُ الشَّجَاعِ ؛ وَلَكِنِّي فِي سَاعَةِ مِنْ غَفْلَتِهِمْ ، وَاشْتَغَالِهِمْ

بشؤونهم حَطَّمتُ قيدي ، وفككت أسرى ، وفرت بنفسي وديني ، لأشرككم في الخطوة ، وأكون معكم في الجهاد .

قال ذلك أبو بصير ، وحسب أنه قد زالت عنه همومه وأحزانه ، وأقبلت عليه أيامُ دهره ؛ وظن أنه من اليوم سيعبد الله كما يريد ، ويتوجه إليه متى شاء ، وما درى أن هناك عهداً يحول بينه وبين ما يريد .

وأخذ سبيله إلى الرسول ، وقبل أن يتشقق بالحديث وجد اثنين من قريش سبقاه إليه ، كانا قد جاءا في أمر أبي بصير يستعديان عليه الرسول ، ويذكرا أنه العهد والميثاق ، قال أحدهما : يا محمد ؛ ما عرفناك غادرا صغيرا ، فكيف بك كبيرا ، هذا أبو بصير قد أبق^(١) عن ديننا ، وانسلخ عن جمعنا ، وجاءك فازا مسلما ، وقد عاهدناك أن ترد من جاءك منا مسلما ، وتدفع إلينا من التجأ إليك فازا ، وقد أوفدنا قريش لترى مقدار قيامك على العهد ، ورعايتك للميثاق . قال رسول الله : ما نقضتُ العهد ، ولا حنثت في اليمين ، ودونكما الرجل نخذاه ، ولعل الله يجعل له من أمره يسرا وفي دينه فرجا !

ومضى أبو بصير أسيرا بين سمع المسلمين وبصرهم ، يشيعونه بنفوس ملؤها الأسى ، وقلوب حشوها حزن عميق ؛ ولكنه لم يبعد في السير طويلا ، حتى رأوه قادما ؛ قالوا له : أين غريمك ؟ قال : لقد قتلت أحدهما وألجأت ثانيهما إلى الفرار .

ولقد وفيت بذمة الرسول ، وبررت بما قام به من عهد ، ولا على أن أقيم بينكم !

قال رسول الله - وقد بلغه صنيعُ أبي بصير : وَيْلَ أَمَةٍ مَسْعَرُ حَرْبٍ

لو كان معه رجال ، ولكن لابقاء له في المدينة ، فأى أرض يذهب يجد مراغما (١) ،
وفي أى مكان يصلّ يلق الله .

وخرج أبو بصير - كما خرج في المرة الأولى - كاسف البال ، ساهم الطرف ،
ملتاع الفؤاد ، حائرا أين يذهب ! وخلف وراءه - كما خلف في المرة الأولى -
نفوسا ثائرة ، وأفئدة تنطوى على همٍّ طويل .

ومضت أيام ، وتصرّمت شهور ، وكلما تذكر المسلمون ما هم فيه من قريش -
من عهد جائر ، وظلم واقع - سالت نفوسهم أسى ، وصعدت أناتهم حسرة وأسفا ،
حتى هبط عليهم في المدينة قرشى جديد .

قال أحدهم : هذا مسلم فاز ، ومؤمن مستجير ؛ إنه قدم ليجدد الأسى ، ويضع
الإصبع في جرح لا يزال وجميعاً .

وتقدم إليه آخر ، وقال : أمسلمنا جئت ياهذا ؟ إن المدينة ليست بدارك ، ولا
محطا لرحالك ، ولا موضعا لأمانك ، لقد علمت أن بينكم وبين الرسول عهدا ، ألا
يحمى قرشيا مسلم ، وألا يؤوى عنده رجلا منكم ، وإنه لقائم على العهد ، أمين على
الميثاق ، لئن طال مقامك لتوشكن قريش أن ترسل في أثرك ، فلا تستطيع
فكاك ، ولا تملك لنفسك حولا ولا طولا ؛ فخير لك أن تطلب دارا غير المدينة ،
وجمى غير هذا المكان ، ونرجو الله أن يجعل لك فرجا قريبا .

فضحك الرجل وأغرب ، ثم قال : إنكم حزرتم (٢) فأخطأتم ، وتوهمتم
وما صدقتم ، لست مسلما حضرت ، ولا فازا التجأت ، وما ابتغييت عن دين

(١) المارغم : المذهب والمهرب . (٢) الحزر : التقدير :

قومي ديننا ، ولا اتخذت غير مذهبهم مذهبنا ، ولكن جئت محمداً في أمر ، والإفصاح عنه رهين ببلقياه .

قال المسلمون : ما هذا الأمر الذي دفع قريشاً إلى أن ترسل هذا الرسول !
انطلقوا للنظر ما يقول .

ولما دخلوا المسجد وجدوا الرجل يتحدث إلى الرسول بعبارات مطمئنة :
لقد أرسلتني قريش فيما حزبها من أمر أبي بصير ، وما يترصد لها من النكال . لم
يكفه أن قتل غيلة وغدرا رجلا من خير رجالنا ، وفقى من أشجع فرساننا ، حتى
وثب إلى سيف البحر فاتخذته مقراً ، يلجأ إليه كل هارب من قريش ، ويُقيم عنده
كل مسلم لم تنسح لدينسه جنابات مكة ... وما كان يهمننا أمرهم ، أو نعبأ بجمعهم ،
لولا أنهم أقاموا علينا حرباً ، وسأثوا دوننا سيفاً ، وهم لا يسمعون بقافلة منا تذهب
إلى الشام أو ترجع إلى مكة ، حتى يُنْساوِثوها في سيرها ، ويبدلوا أمنها خوفاً ،
ويوسعوا رجالها رعباً وفزعاً ؛ ولسنا نرى - دفعاً لشركهم ، أو رداً لجماعتهم - إلا
أن تعفينا من شرط أخذناه على أنفسنا ، وحسبناه خيراً لجماعتنا ، فإذا هو بلاء
وشر ، وإذا هو محنة وعناء ، فلتضم إليك من جاءك منا مسلماً ، أو خرج عنا فازاً .

وسمع المسلمون هذا العرض من قريش ، فأزاحوا بعض الهم عن نفوسهم ،
وارتاحت - كهوناً ما - ضمائرهم ، وانسلت عنهم بعض همومهم ، وعادوا أخف
أحزاناً ، وأيسر بلبالاً ، وأشدّ اطمئناناً .

ولكن كلما مضى الزمن اشتدّ نزوعهم إلى البيت ، يشوقهم إليه لامع البرق ،
ويهبج حنينهم وافد النسيم . أجل ! إن قريشاً قد وقت بعهدا ، وبرّت بيمينها ،
وأخلت للمسلمين مكة في أيام الحج ، فدخلوها معتمرين ، وطافوا بالبيت
(٢٥ - قصص القرآن)

معظمين ، ولكن هي الإمامة ما أشبهها بالإمامة الطيف ، وزورة ممزوجة بالخوف : يطوفون وعيونهم تتلفت إلى الورا خوف الغدر ، وقلوبهم تنوجس حذر المكر ، ثم هم ممنوعون بعد ذلك أن يسألوا سيفاً ، أو يقيموا عليهم حرباً ، أو يثيروا قتالاً .. لو طال بهم الأمر على هذه الحال ، فأكبر الظن أن همهم سيطول ، وحزنهم سيستمر .

وانفلت فريق منهم يوماً من صلاة العشاء ، والتجئوا إلى سقيفة لهم يسلمون ويتحدثون ؛ أخذوا يتذاكرون سقاط الحديث ، ويتشقق بهم القول في كل مجال ، حتى انتهوا إلى الحديث فيما كان بين خزاعة وبكر من عدا ، وما سال بين هذين الحيين من دماء . قال واحد منهم ، وكان أخبارياً حدث ملوك ^(١) : إن عندي من قديم أخبارهما ، مالمو نفضته عليكم لاجتذب أسماؤكم ، واستهوى ألبابكم ؛ لولا أن التهويم قد ابتدأ يلعب بأجفانكم ، والنوم يأخذ سبيله إليكم .

قالوا : لسنا قائمين إلى فراش ، أو ذاهبين إلى رقاد ، حتى تحدثنا بأخبارك ، وتروى لنا من مكنون روايتك . قال : لقد حدثني أبي فيما كان يحدثنا به في ليالي سمره ، أنه لم يكن بين الحيين في قديم عهدهما إلا صلوات موثقة العرا ، متينة الأسباب ، يزاورون ويصهرون ، ويسافرون ويتجرون ، وكل مرة كانوا أحلاقاً على غيرهما ، وكانوا نصراء على من يعتدى على أحد منهما ، وما زالوا على هذا الخلاط المؤكد ، والود المصنفق ، حتى خرج مالك بن عباد حليف بكر تاجر

(١) حدث ملوك : سمر ملوك .

في أرض خُزاعة ؛ فاعتدى عليه سقيط ^(١) أحرق ، وأرداه قتيلاً ، ومن يومها استوقدت نار الفتنة ، واستطار شرر العداء ، ورتق ما كان من الودة صافياً ، وتغيّر ما كان من القلوب سليماً ، وكَم سعى رجال من كرام العشائر ليستلّوا السخائم فلم يفلحوا ، وكَم تقدّم الوسطاء لإطفاء وقدة النفوس نخابوا . . واستمر الثرى بينهما يابسا ، والجوّ عابساً مظلماً مكفهرًا ، حتى ظهر محمد رسول الله بمكة ، فتلفتت إليه القلوب ، وشغل به الناس .

ولكن عادت العداوة إلى الظهور ، واتخذت سيرتها الأولى في الوجود ، حينما وقع صلح الحديبية ، وحينما دخلت خُزاعة في عهد المسلمين وبكر في عهد قريش ؛ لئيهما بحلفهما على هذا النحو ، قد أثارا كامنَ عداوتهما ، وبعثا راقداً حقدَهما ؛ ومن يدري ماذا تتمخض عنه الأحداث .

وانتهى الرجل من حديثه ، وإذ همّوا بالانصراف سمعوا الكلب يَنْبَحُ طارقاً غريباً ! قالوا : من الطارق الغريب في جُنْح هذا الليل ؟ ليذهب أحدكم فليُنظر ، لعله ضالٌّ يتخبط في الطريق ، أو لعله عابر سبيل يلتبس القرى والشّواء .

وذهب رجل وعاد ، ومعه عمرو بن سالم الخزاعي ، فسلم عمرو ، وجلس تعبان قد أدركه الأين ، ونال منه الشرى في الظلام ؛ وكأنه يحمل على ظهره أثقالاً من الهم ، ويُخفي بين جنبيه داء وجيعاً ماله برّاء .

ما بك يا عمرو ؟ وما وراءك ! لأمر ماجئت إلى المدينة ، ولأمر ما طرقت ببليل ! ما هذا الهم الذي يظهر في سهوم وجهك ، وحيرة أجفانك ، وتقطيع

(١) السقيط : اللاحق .

كلامك ! لَمِنَ غريبات الأصداف ، وعجب التوفيق أن نخوض الليلة في أحاديثكم ، ونتحدث فيما بينكم وبين بكر من عداة مستمر ، وقتال مستحضر .

قال عمرو : إن ما جئتُ فيه الليلة ليس بعيداً عن هذه الحرب وويلاتها ، وليس قصيًّا عن هذه العداوة وما يجرى في سبيلها ؛ لقد بدا لنا في العداوة خطب جديد ، وأضافنا همَّ طريف ، أصابت بكرٌ فينا غرّة مُصْبَحَ يوم عند الوتير ^(١) ؛ فأسالت دماء ، ومزقت أشلاء ، وهممنا أن نأخذ لشأرنا ، وننتقم لقتلنا ، لولا أن قريشاً نقضت العهد ، ورفدت بكرًا بالسلاح ، وأمدتها بالرجال والكراع ^(٢) ؛ فكثُر الجمع ، وغلب العدو ، واستحضرَّ فينا القتال ، ولقد التجأنا إلى الحرم نستجير بحرمه ، ونحتمي إلى جواره ، ولكنهم ما راعوا له مقاماً ، ولا حفظوا فيه جواراً . ولولا من التجأ إلى دار بُدَيْل بن ورقاء لَفَنِي مَنْ بِمَكَّةَ من خِزاعة أجمعين .

* * *

وطلعت الشمس ، وانتشر الخبر مع شعاعها في كل مكان : « أن قريشاً نقضت العهد ، وفجرت في اليمين ، وأعانوا - غدرا - بكرًا على خِزاعة ، ونصروا حليفًا ، على حليف ؛ فدخل الناس إلى المسجد يلتمسون رؤية الرسول ، أو يتعرفون ما عنده من رأى ، فإذا هو جالس وعمرو بن سالم يُنشد بين يديه بصوت متهدج ونَبْرٍ متوجع :

ياربَّ إني ناشدُ مُحَمَّدًا حَلَفَ أَيْبُنَا وَأَيْبُهُ الْأَتْلَدَا

(١) الوتير : ما بين عرفة إلى إدام .

(٢) الكراع : جماعة الخيل .

قد كنتم ولدا ^(١) وكنا والدا ثمّتَ أسلينا فلم تنزع يدا
فانصر هداك الله نصرأ أعتدا ودعُ عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسولُ الله قد تجرّدا إن سيمَ خُسفا وجهه تربدا
في فيلقٍ كالبحر يجرى مزبدا إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكّدا وجعلوا لى فى كدء ^(٢) رَصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذلُّ وأقلُّ عددا
هم يبتوننا بالوتير ^(٣) هُجّدا وقتلونا رُكعا وسجدا
فانصر هداك الله نصرأ أيدا

فقال الرسول : نصرت يا عمرو بن سالم ؛ ثم توجه إلى الله قائلاً : اللهم خذ
العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها .

نصر مدين

لم تدرك قريش خطأها إلا حين تمزقت خيوط الظلام ، وانفلق عمود
الصباح ؛ نصروا بكرأ على خزاعة ؛ وأعانوا حليفاً على حليف ؛ ما أوخم العاقبة
وأسوأ المصير ؛ سيدسّر الخبر مع الشمس ، وينتقل مع الريح ، ويبلغ محمداً أن قريشا
تجرت في يمينها ، وعبثت بعهدا ، وسيلقاها المسلمون ثلّةً ينفذون منها ، وفرصة
ينتهزونها ، وإنهم ما استعدوا الحرب ، ولا تهيّئوا لقتال .

(١) يهير إلى أن عبد مناف أمه من خزاعة .

(٢) كداء : موضع بأعلى مكة .

(٣) الوتير : الموضع الذى وقع فيه غدر قريش بخزاعة .

انتدوا داراً واحداً منهم ، يقاتلون الرأي ، ويتلمسون الخروج ، ويتعرفون المصير ؛ وتشعبت الآراء ، وعلت الأصوات ، واضطربت المذاهب ، ثم انتهوا إلى رأى لعله يحسم الداء ، ويدفع البلاء : أن يذهب أبو سفيان إلى المدينة - وهو شيخ قريش وعظريتها ؛ إليه تومى الأصابع ، وتمتد الأعناق - قبل أن يعتلن الخبر ، وينتشر في الأنحاء ؛ ولّيات محمداً ؛ فيوثق العهد ، ويزيد في المدة ، فلا يجد محمد سبيلاً إلى الغزو ، أو سبباً لنقض العهد .

وسافر أبو سفيان ، وانعقدت عليه الآمال ، والتمعت بروق الرجاء ؛ سافر عن قريش يحمل أعباءها ، ويصلح ما أفسده حمقها . . . وما وصل إلى المدينة حتى رأى حديث بكر وخزاعة قد ملأ الأسماع ، واضطربت به الألسنة ، وانتشر في كل مكان ؛ والمسلمون بعد قد أخرجوا مكنون سخطهم ، ورائشوا نبال غيظهم ، والأمر على غير ما يحب ويرجو . . . فوجم الشيخ ، وارتاع فؤاده ، وتوقع الخطب والمكروه .

والآن ؛ أيعود إلى مكة خائب الرجاء طائش السهم ؟ ولكن فيم كانت مشيخته في قريش وزعامته فيها ؟ أم يجد ليلقي محمداً يبسط عنده العذر ، وينتحل الأسباب ؟ ليُجرب الثانية ، فلعلها أنجح الرأيين وأحسن الطريقتين !

ويذهب أبو سفيان إلى بيت الرسول ، ويقف في ساحته ، حائر الطرف ، مبلبل الرأي ، موزع الفؤاد ، ثم يتحدث إلى بنته أم حبيبة ^(١) أم المؤمنين ، فتغلظ له في القول ، وترده رداً غير كريم ، فيخرج متعثراً في ذيل اليأس ، متلفعاً

(١) أم حبيبة : اسمها رملة ، تزوجها رسول الله ، وقد زوجه إياها خالد بن سعيد بن العاص ، وهما بأرض الحبشة ، وأصدقها النجاشي عن رسول الله أربع مائة دينار .

يَمُزَّر الصَّغَار ، ثم يلتقي بعدُ برسول الله ، فما يصيب عنه إلا سخطا وامتعاضا ، وما يلقى إلا صدًا وإعراضا ، ويرجو الشفاعةَ من أبي بكر ، فلا تعدو آماله أحلام نائم ، ويلتمس الخير عند عمر ، فلا يظفر عنده إلا بقلب حائق ، وسخط هائج ، ثم ينتهي الأمر عنده إلى خَيْبَةِ الرجاء ، والتواء الطريق ؛ فيعود إلى مكة منذرا أهلها أمرا شَفَّت عنه الدلالات ، وأسفرت العلامات .

أما رسول الله فقد أمر المسلمين بالاستعداد والتهيؤ ، وأعلن في المسلمين : مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُشْهَدْ رَمَضَانَ بِالْمَدِينَةِ .

وَأُسْرِجَتْ الْخِيُول ، وَأَعِدَّ السِّلَاحَ وَالْكَرَاعَ ، وَوَفِدَتِ الْقَبَائِلُ مِنْ مُزَيْنَةَ وَغِفَار ، وَأُشْجِعَ وَسَلِّمَ ، وَالتَّامَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ ، فِي جَمْعٍ مِنْ قَبْلِ لَمْ يَعْرِفَ ، وَحِمَاسٍ لَمْ يُؤَافَ ، وَصَدَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ أَمْرٌ كَرِيمٌ : أَنْ يُحْفَظَ الْمُسْلِمُونَ أَسْرَارَهُمْ ، وَيُضْشَّنُوا بِمَخْبِآتِ ضَمَائِرِهِمْ ، فَلَعَلَّهُمْ يَصِيبُونَ قَرِيشًا عَلَى غَيْرِ اسْتِعْدَادٍ ، وَيَدْخُلُونَ مَكَّةَ مِنْ غَيْرِ كَيْدٍ أَوْ عُنَادٍ ؛ فَرَسُولُ اللَّهِ حَرِيصٌ عَلَى أَلَا يَسْفِكََ فِي الْبِلَادِ الْحَرَامِ دَمًا ، وَلَا يُزْهَقَ رُوحًا ، وَلَا يُشِيرَ حَرْبًا ، وَلَا يَذْكَى ضَرَامَ عَدَاءٍ .

وساروا جميعاً ترفرف فوقهم العُقاب (١) ، وتكاثروهم رعاية الله .

ويطلع عليهم في الطريق رجلٌ مهيب الطلعة ، أبلج الغرة ، طويل بادر ، في تفر من الناس تبيّنوه ، فإذا هو العباس بن عبد المطلب .

قال : يا رسول الله : لقد علمت أني أسلمت من عهد ، ولكنني ما استطعت أن أجهز بالإيمان ، وما استطعت أن أصبر بعد ذلك على السكتان ؛ وقد خرجت مهاجرا إلى الله وإليك بنفسى ، وها هم أولاء زوجى وولدى .

(١) العقاب : اسم راية الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال رسول الله : مرحبا بك يا عمّ ، لِيَهْنِئَكَ الإسلام ، وليبارك لك الله في الإيمان ، أرسل إلى المدينة أهلك وولدك ، وارجع معنا إلى مكة حتى تشهد ما يكون بيننا وبين قريش .

ورمى العباس ببصره في الجيش ، فإذا بقوم ملء السمع والبصر ، والسهل والجبل ، فقال : وارحمة لقريش ! إن دخل هذا الجيش مكة عنوة فإنه سوف لا يُبقى في قريش طفلا ولا كهلا ، ولا امرأة ولا رجلا . . . وخاف العباس ، وأشفق من مصير قريش ؛ فخرج إلى الصحراء لعله يلقي خطابا أو لبّانا أو ذا حاجة ، فيحمّله رسالته إلى قريش : أن يحضر كبارؤها ورؤساؤها إلى محمد يؤمنونه على نفوسهم ، ويعاهدونه على تسليم حرمهم ، فيكون هذا أحقنّ لدمائهم وأبقى لحياتهم .

وبينا هو يشيم وينظر ، ويتطالع ويتنوّر ^(١) ، سمع همس رجلين يتراجعان . . . قال أحدهما : تلفت إلى هذه النار ، وأدرّ طرفك فيها ، ثم ارجع البصر إلى هؤلاء العسكر ، فإنّ ما رأيت نيرانا قبل كهذه النار ، ولا جندا أحشد من هؤلاء الجنود .

قال الثاني : هذه والله مُخزاعة قد حمشتها ^(٢) الحرب ، وهاجها يوم الوّ تير . قال الأول : اسكت ؛ فوالله لمُخزاعة أذلّ نفوسا ، وأضعف جنودا من أن تكون هذه نيرانها وتلك جنودها .

وبينا الثاني يتهيأ للكلام وجد العباس بينهما . قال العباس : عجبا ! أنت أبو سفيان ! ما جاء بك في هذا الظلام يا أبا حنظلة ؟ قال : همّ العشيرة ، وأفداحُ

(١) يتنور : يطلب النور . (٢) حمشتها : أغضبته .

القبيلة ، ورزء الزمان ... لقد خرجت أتحمس خبر ابن أخيك ، وأتطلع طلع المسلمين ، وقد حَزَرَت قريش الحرب ، وتوقعت الشر من يوم أن انتقض العهد وكفّرنا في الدين .

قال العباس : ويحك يا أبا سفيان ! هذا محمد رسول الله قريب منك ، في جند كعديد الرمل ؛ ولئن ظفر بك لأخشتين أن تضرب عنقك ؛ وشديد على أن أرى رأس قريش مجذلا ، وشيخها مقتولا ؛ اركب معي هذه البغلة ، لعلّي آتى بك رسول الله أطلب لك الأمان ، وأستوهب منه الحياة .

❖ ❖ ❖

وشاهد الناس أبا سفيان رديفا للعباس ، ورآه عمر بن الخطاب ، فوثب على قدميه ، وقال : أبا سفيان عدو الله ! الحمد لله الذي أمكن منك من غير عقد ولا عهد ! وانطلق يعدو إلى رسول الله .

قال : يا رسول الله ؛ هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد ؛ فدعني أضرب عنقه ، ليخبو ضرام غيظي ، وتهداثا ثائرة ضلوعي .

قال العباس : يا رسول الله ؛ إني قد أجرت أبا سفيان ، وأعطيته الأمان ، وهيأت للرسول الأمين ، الكريم الحليم ؛ أن يردّ جوارى ، ويرجعني في أمانى .

قال عمر : ذاك يا رسول الله شيخ قريش يوم بدر ، ومحرضها يوم أحد ، وزعيمها يوم الأحزاب ، وقد أمكن الله منه بعد عهد نقضوه ، وحلف ضيعوه ؛ وإن في قتله لراحة للمسلمين ، وشفاء لما في الصدور .

قال العباس : على رسّلك يا عمر ، فوالله لو كان من قومك من بنى عدى ماقلت هذا ، ولكذك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف .

قال عمر : لقد جاوزت الحد يا عباس ؛ فوالله لساعة إسلامك يوم أسلمت أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بي إلا أن أعرف أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم ...

وهم العباس بالكلام ؛ ولكن رسول الله حجز بينهما حجازا كريما ، وفصل بينهما فصلا حكيمًا ، ثم قال : يا عباس ؛ اذهب به إلى رحلك ، ودعه يقضى عندك هذا المساء ، ثم اتنى به الغداة .

وأخذ العباس بيد أبي سفيان ، وانطلق به إلى قبسته ، وبات محدثا له حتى السحر ، وهو يرجو أن يطمعه في الإسلام ، ويأفكه ^(١) عن الأصنام ؛ ولما نهض من نومه ، رأى القوم يقفون خاشعين ، ويتمتمون بعبارات لا يفهمها ؛ ثم يركعون يظهرونهم ، ثم يعفرون بالتراب وجوههم ، فقال : ما يفعل هؤلاء يا أبا الفضل ؟ فقال : إنها الصلاة ، قم يا أبا سفيان وتطهر ، وانطلق معي إلى رسول الله ؛ فتطهر أبو سفيان متسلكا ، وقام متثاقلا ، وذهبا حتى جلسا بين يدي الرسول .

قال الرسول : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئا .

قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلك وأوصلك ! أما هذه والله فإن في النفس حتى الآن منها شيئا !

قال العباس : يا أبا سفيان ، لقد وضح الصبح لذي عينين ؛ فإن كان على

عينيك غمامة فارفعها ، وإن كان على قلبك غشاوة فزقها ، وأسلم إبقاء على حياتك ، وحرصا على دنياك وآخرتك . فاضطرب أبو سفيان ، ثم تلعث ، ثم تردد ، ثم قال : شهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . وابتهج الرسول والتع البشر في وجه العباس ؛ ثم أخذ بيده ، وعلمه الوضوء والصلاة ، وبصره بمبادئ الإيمان .

ثم عاد العباس إلى الرسول يقول : يا رسول الله ؛ إن أبا سفيان - كما أعلمه - رجل يحب الفخر ، وتميل به الخيلاء ، وإنه حتى هذه الساعة لا يزال الإسلام غريبا في قلبه ، والعقيدة غير مستقرة في نفسه ؛ فاجعل له شيئا يقضى به حاجة نفسه من الزهو والمخيلة ، ويجعله في الإسلام أثبتَ قدما ، وأكبر يقينا ...

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، مَنْ دخل دار أبي سفيان من مكة فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن .
ويسمع أبو سفيان قول رسول الله ، فيذهب صائحا في عرصات مكة :
يا معشر قريش ، قد جاءكم محمد بما لا قبيل لكم به ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ... فقامت إليه زوجته هند وقالت : اقتلوا الحميت^(١) الدِّسم الأحس ؛ قُبِّحت من طليعة قوم ! قال : يا قوم ؛ لا تغرنكم هذه عن أنفسكم ا وقد نصحتكم ، وما أردت إلا حقن دماءكم ، وحفظ أرواحكم ، ولقد جاءكم محمد بما لا قبيل لكم به . فارتاع القوم وقالوا : ويلك ! وما تغني عنا دارك ! قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ؛ فهرع الناس إلى المسجد والدور ...

(١) الحميت : السمين . والأحس : من لا خير فيه .

ودخل رسول الله مكة حانيا ظهره شكرا ، غاضا طرفه حمدا ، لابسا عمامته السوداء معتجرا ^(١) شقة برد حمراء ، لم يلق سيفاقاما ، ولا رجلا شاكيا ، وهويتلو : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا . هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا . وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُنُّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

ثم توجهه إلى البيت طائفاً ، وذهب إلى الركن مستلماً ، واحتشد الناس في المسجد ، وتدافعوا ينظرون ما يقول محمد وما يصنع .

هذا الذي أخرجوه وصحبه من ديارهم ، وافتشوا في إيدائهم ، ونالوا من عافيتهم وراحتهم ، هو ذا قد عاد اليوم ظافرا بهم ، قادرا عليهم ، ليت شعركم ماذا سيقول ؟ وليت عليهم ماذا يصنع ؟

ووقف الرسول على شرف في المسجد ، وتهياً للقول وقال : يا معشر قريش ؛ ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ؛ أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء !

(*)

يوم حنين المسلمون بين الهزيمة النصر

كان دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ ذا عِلْمٍ في الحرب ، وصاحب رأى في أساليب القتال ؛
خبٌّ فيها ووضع^(١) ، وشبٌّ واكتهل ؛ وهو وإن كان اليوم قد أصبح شيخاً متهتماً ،
وعجوزاً فانياً ، ليس لقومه من بني جُشَمٍ فيه من عون ، ولا عليه من معوّل ، فإنه
ما زال فيصّلاً في الأحكام ، ومرجعاً في المشكلات .

قال لقومه - وقد حملوه في شجّارِهِ^(٢) ، وقادّوه بزمام جملة : بأى وادٍ أنتم ؟
قالوا له : نحن بأوطّاس^(٣) ، قال : نَعَمْ بحال الخيل ، لا تحزن ضرس^(٤) ، ولا
سهل دَهِس^(٥) ؛ ولكن مالى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ،
ويُعَار^(٦) الشاء . . . قالوا : لقد ساق مالك بن عوف الناس للحرب ، وحشد
وراءهم أموالهم ونساءهم وأبنائهم . . . قال دُرَيْدُ : دلونى عليه ، فوالله ما أراه إلا
دَبرى^(٧) الرأى ؛ أفيلَ الفكرة^(٨) ؛ أهكذا تكون الحرب ؟ وأمسك غلامه
بخطام جملة حتى وقف به على مالك .

قال دريد : يا مالك ؛ لقد أصبحت بعدى رئيسَ القوم ، وزعيم الجماعة ؛
فخذنى عن هذا الحشد . قال مالك : هؤلاء قومى وقومك ، دفعت بهم إلى لقاء

(٥) القوبة ، آية ٢٥ .

(١) الحبيب والإيضاع : نوعان من السير ، والمراد أنه مرن على الحرب .

(٢) الشجار : الهودج . (٣) أوطاس : مكان . (٤) ضرس : صعب .

(٥) دهس : سهل . (٦) اليعار : الشديد من أصوات الشاء .

(٧) الرأى الدبرى : هو الذى يسبق بعدد فترات الفرصة (٨) أفيل الفكرة : ضعيفها .

محمد : لقد علمت أنه قد دخل مكة في جيش لم تر العرب مثله ، ولم يلق فيها صاذاً ولا راداً ، ولم يصادف عقبة ولا عثرة ، فذلت له قريش ، ولم تعد لهم بعد في مكة كلمة وإنه ليوشك إن لم نغزُه أن يغزونا . وما يبعد - إن لم نستعد له - أن تذلل له هوازن ، وتخضع نصر وجشم ، وتدين ثقيف ، ويصبح محمد ملك العرب جميعاً ولكنني - كما ترى - أعددت له قبل أن يُعِدَّ لنا ، وأزمنت المسير إليه قبل أن يسير إلينا .

قال دريد : هؤلاء الرجال ، وهؤلاء الفرسان ، ولكن ؛ ما هذا الذي أسمعه من رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ؟

قال مالك - وحسب أنه طَبَّقَ من الرأي المَفْصَل ، وأصاب شاكلة الصواب : لقد خشيت هزيمة القوم ، وهم قلة بجانب أصحاب محمد ، ولهذا سُقِّت وراءهم أموالهم وأبناءهم ونساءهم ليقاتلوا ، ولعلمهم بهذا يسكونون أصدق لقاء ، وأثبت أقداماً .

فهزَّ دريد رأسه ، وقال : راعى ضأن والله ^(١) ! وهل يرد المنزَم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ؛ وإن كانت عليك فضحت أهلك ومالك . يا مالك ؛ إنك لم تصنع بتقديم البَيْضَةِ : بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً . . . ارفعهم إلى متمنّع بلادهم ، وعلميا قومهم ، ثم النَقَّ الصُّبَاة ^(٢) على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك أفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

قال مالك : يادريد ؛ لقد كبرت في السن ، وكبر علمك ، فدعها لمن يعرفها .

(١) قصد بذلك تجهيله .

(٢) التاركون دينهم : وبهذا كان الكفار يسمون المسلمين .

واترك من سيخوض غمارها ويدبر خطتها . . ثم عاد إلى القوم ، وقال : يا معشر هوازن ؛ لتطيعنني أو لا تكين على سيفي هذا فيخرج من ظهري .

قال زعماء القوم وعرفاؤهم ^(١) : دونك يا مالك وما تريد .

وطار الخبر إلى رسول الله في مكة ، وهو يتبها للعودة إلى المدينة ؛ أن مالك بن عوف قد حشد هوازن ، واستنفر ثقيفا ، ودعا إليه نصرا وجشهم ، وأنه يوشك أن يشتبك مع المؤمنين في قتال . . .

فدعا رسول الله المسلمين ألا يلتقوا سلاحهم ، وألا يريحوا أبدانهم ، حتى يلتقوا مالكا ؛ ففعل يومهم آخر يوم لغزو العرب ، وشوكتهم آخر شوكة في المشركين ؛ فاستجابوا لله وللرسول في جيش لم يهيا لهم من قبل : عشرة آلاف من قدموا مع الرسول في المدينة ، وألفان من دان يوم الفتح ؛ إنه لسعد يدعو إلى الزَّهْو ويدعو إلى الإعجاب . أين الرسول الآن وهو في قوم من المسلمين كعديد الحصى ، منه يوم أن خرج من مكة تحت جُحجح الظلام مطلوباً ، لا عون له ولا ناصر ! وأين عديد المسلمين اليوم من عديدهم يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق ! إنه جيش غرّ قائلهم فقال : إنهم لا يغلبون اليوم من قلّة .

ولكن ما خَطر الكثرة إذا لم تؤيد بنصر الله ؟ وأين هذا الجيش الذي يضم صفوان بن أمية على شرّكه ، وأبا سفيان والأزلام في كنيانته ، وكعدة بن الحنبل وقتل رسول الله ضالته ! أين هذا اليوم من يوم بدر ، وما في المسلمين إلا مؤمن قوى الإيمان ، مجاهد صادق في الجهاد ! إنها الكثرة لم تبعث إلا غرورا ، ولم

(١) عرفاؤهم : جمع عريف ، وهو رئيس الجماعة .

تهي لهم إلا عجباً وخيلاً .

* * *

وخرج المسلمون في عَمَايَه الصبح ^(١) ، وانحدروا بجمعهم إلى وادي حنين ^(٢) كما ينحدر السيل إلى الحدور ، وما راعهم إلا المشركون قد سبقوهم إليه ، وكنوا في شعابه ، واختبثوا وراء أحنائه ومضايقه ، وظهروا عليهم فجأة !

فإذا كثرة المسلمين ما خرجوا إلا طامعين ، ولا ذهبوا إلا مترددين ، يخشون عودهم ، وتنتخب ^(٣) قلوبهم ، ويتشمرون منهزمين ، ويرجعون متقهقرين ، ثم يقع الذعر في سائر الجيش ، ويغزو الرعب قلوب المسلمين .

وينكشف القتام عن رسول الله منحاذا إلى ذات اليمين ، راكبا بغلته البيضاء وهو يصيح : أين أيها الناس ؟ هلموا إلى أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، ولكن لا شيء غير قوم مذعورين ، وفلول منهزمين ، ويتلفت الرسول فلا يلقى إلا أبا بكر وعمر ، وعليا والعباس ، وقليلاً من خاصته وأهل بيته ، وأبو سفيان يبرز مكنون حقه ، ويعلن ما بين ألفاف صدره ، ويقول : إن هزيمتهم لا تنتهي إلا إلى البحر ، ويصيح كلدة بن حنبل : الآن قد بطل السحر . ثم يعود الرسول فيدعو العباس ويأمره أن يهتف بالأنصار ، وكان العباس فارعا بادنا ، صيhta جهير الصوت : فنادى : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السَّمرة ^(٤) ؛ هذا رسول الله يدعوكم ؛

(١) عَمَايَه الصبح : ظلمته .

(٢) حنين : بين الطائف ومكة .

(٣) النخب : الجبن وضعف القلب .

(٤) السمرة : الشجرة ، والمقصود شجرة البهجة .

ويستنصر بكم على عدوكم ، وإذا بصوته يشق الصدور ، ويصل إلى قرارات النفوس ؛ ويجيب الأنصار هاتفين : لبيك يا رسول الله ، لبيك . . . وإذا كان الله قد بلغ بالمسلمين ما أراد من أن يُريهم عاقبة غرورهم ، ومقدار كثرتهم ، وخطأهم في تعبئة جيوشهم ، فإنه عاد فشبت أقدامهم ، وربط على قلوبهم ، وأنزل سكينته عليهم ، وأمدتهم بجنود لم يروها ؛ فانقلبت الهزيمة إلى نصر ، وولت هوازن وأحلافها ، تاركة للمسلمين أسلابها وغنائمها .

الثلاثة الذين خافوا (*)

المسلمون في عُسرة من المال ، وضيق من العيش ، ولفتح شديد من الحر ، ولكنهم كانوا يعقدون آمالهم بيوم قريب ، يحنون فيه التمر ، ويحصدون الزروع ، ويروّحون عن نفوسهم بفرح مقبل ، وخير آت .

وبينما هم يرجون ذلك الأمل ، ويترصدون هذا اليسر ، وهم أشد ما يكونون رغبة في البقاء ، وأزهد ما يُروون ميلا عن السفر ؛ إذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم للجهاد ، ويؤذن فيهم بالنفير العام : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ، وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾ ، ومن استطاع منكم الإنفاق عن سعة وفضل فلينفق ، ومن استطاع أن يحمل غيره فليحمل ، واعلموا أن وجهتنا غزو الروم ، فلا يتخلف أحد منكم ما استطاع إلى الجهاد سبيلا .

أقبل المسلمون بعضهم على بعض يتساءلون : ما بال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا للجهاد في وقت الحر ، ولفتح الهاجرة (١) ، وقبل أن نجني الثمار ، ونحصد الزرع ؟ ثم ما باله يجري اليوم في الجهاد على غير عادة مألوفة ، ويسلك طريقا غير معروفة ؛ فيعلن الجهة التي يقصدها ، والقوم الذين سيغزوهم ، والهدى به يُخفي ولا يصرّح ، ويكنى ولا يفصح !

ولكنهم ما علموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهيأ ليصد بني الأصغر (٢)

(٥) سورة التوبة . آية ١١٨ .

(١) الهاجرة : نصف نهار عند زوال الشمس مع الظهور .

(٢) بنو الأصغر : الروم .

الذين أعدوا جموعهم ، وحشدوا جيوشهم لغزو المسلمين ، وهم أقوى ما يكونون
عدّة وعدّدا ، وأنه قد أثر إعلامهم وإيذانهم ، لتهيئوا لسفربعيد وشقّة طويلة ،
حتى استطابت نفوسهم للجهاد واستعدّوا للبلاء .

* * *

ودعوة للجهاد ، في عُسرة من المال وعُسرة في الإنفاق ، وعُسرة في الظهور^(١) ،
تلقاها النفوس بحسب ما قدّر لها من الهداية والتوفيق ، وبمقدار ما خالطها من
الإيمان واليقين ؛ فالنفوسُ الفيّاضة بالتقوى ، الطامحة إلى الجنة ، المتطلعة إلى
رضوان الله ، لا تبالي الجهادَ صيفا أو شتاء ، حرّا أو قرّا ، وإنما هي كلمة يلقيها
الرسول ؛ فإذا أمواهم وأنفسهم بين يديه ، وطاعتهم منتهية إليه ؛ ذلك لأنهم علموا
أنه لا يصيبهم ظمأ ولا نصبٌ ولا نَحْمَصَةٌ^(٢) في سبيل الله ، ولا يَطْمُتُونَ مَوْطِئًا
يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدوّ نيلا إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح ، ولا ينفقون
نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا إلا كُتِبَ لهم ، ليَجْزِيَهُمُ اللهُ أحسن
ما كانوا يعملون .

وأما أصحابُ النفوسِ المترددة بين الإيمان والكفر ، المذبذبة بين الشك
واليقين ، فإنهم ما يسمعون بكلمة الجهاد ، ولا يرون قوما يتهيئون للغزو ، حتى
يُعْظَمُوا الشقّة ، ويكْبُرُوا النفقة ، ويُرْجَفُوا بسوء العاقبة والمصير . .

فها دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى التجهز إلى تبوك ، حتى تطوع
المسلمون بأموالهم وأنفسهم ، وظهر منافقون حاولوا أن يخذلوا المسلمين فلم ينجحوا ،
ويثنوهم عن عزمهم فلم يُفْلِحُوا .

(١) الظاهر : وسائل المعن .

(٢) النخمصة : الجوع .

وما جت الصحراء بالغزاة والمجاهدين ، مبتهجين مؤملين ، ولكن أربعة لم ينتظموا في الصفوف ، ولم يأخذوا مكانهم بين الجنود ؛ فكانوا موضع العجب والسؤال ؛ إذ كانوا ذوى غنى ويسار ، وإيمان وإيثار ؛ أبو خيثمة أخو بني سالم ابن عوف ، وكعب بن مالك أخو بني سلمة ، ومرارة بن الربيع أخو بني عمرو بن عوف ، وهلال بن مرة أخو بني واقف .

أما أبو خيثمة فإنه ذهب إلى أهله ، بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما في يوم حار ؛ فوجد امرأته في عريشين لهما في حائطه ^(١) قد رشت كل واحدة منهما عريشها ، وبردت له فيه ماء ، وهيات طعاما . . . فلبا دخل وجد شرابا باردا ، ولحما غريضا ^(٢) ، تحت ظل وارف ، ونسيم بليل عليل ، وامرأتين تهيآن لخدمته وإسعاده ؛ فتذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبته ، في غزوهم وجهادهم ، وشقتهم وبلائهم ، وهم الآن قد يبحثون عن الماء فلا يجدونه ، وعن الطعام فلا يظفرون به ؛ فما أبعد ما بينه وبينهم ! وما أظهر الفرق بين حاله وحالهم ! ثم أعلن الحرب على نفسه ، والكيد لهواه .

وقال : رسول الله في الضح والريح ، وأبو خيثمة في ظل بارد ، وطعام مهيا ، وامرأة حسناء ، وهو في ماله مقيم ! ما هذا بالنصف ^(٣) ؛ ثم قال لامرأته : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله . . . وهيتا راحلته

(١) الحائط : البستان .

(٢) الغريض : الطرى .

(٣) النصف : العدل .

وطعامه ، ولحق برسول الله .

أما الثلاثة : كعب ، ومرارة ، وهلال ، فقد قعدت بهم همتهم في أول أمرهم فلم يذهبوا ؛ ثم عادوا فاستشعروا الندم ، وأحسّوا ما تورّطوا فيه ؛ فهموا باللاحاق به ، ولكن ثنائهم الخجل ، وصرّفهم التردد ...

وتفارطت الأيام ، وأمعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغزو ؛ فلم يجدوا لللاحاق به سبيلا . . .

وأظلمت بهم المدينة ليال نابغيّات ^(١) ، وساعات نحسات ، يخترجون نهارهم بجوسون خلائها ، ويروحون ويغدون بين لا بدّ لها ^(٢) ، ويتلفّتون فلا يرون فيها إلا رجلا مغموصا ^(٣) عليه بالنفاق والرياء ، أو ممن عذرهم الله من الضعفاء ، فتتصاعد أشجانهم ، وتفيض أحزانهم ، وتتحذر شئونهم ؛ إذ لم يكونوا منافقين ولا مُرائين ، ولا مستضعفين ولا معذورين ، ولم يكونوا أقلّ حبّا في الجهاد ممّن سبقهم ، ولا أرغب في الموت في سبيل الله ممّن تخلفوا عنهم . . . ولكن هكذا لعبت بهم الأقدار ، وصنعت صُروف الحدّثان ؛ وكانوا كلما اقتربت أيامُ عودة الرسول ضاقت عليهم نفوسهم ، وكثر همّهم ، وأقضّت مضاجعهم ، فكيف يلقونه ؟ وماذا يعتذرون به ؛ وهم ما برحوا في صحة أبدانهم ، وبسطة أرزاقهم ، ورفاهية عيشهم ، وصدق إيمانهم ؟

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهاده ، وذهب إلى المسجد كعادته

(١) ليلة نابغية : طويلة ، من قول النابغة :

كلّني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء السكواكب

(٢) لا بتا المدينة : حرتان من حجارة غليظة تسكتنفانها .

(٣) مغموص عليه : مطعون عليه .

يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ يَسْتَقْبِلُ النَّاسَ . . . وَجَاءَهُ قَوْمٌ مُخْلَفُونَ أَخَذُوا يَدِيسْطُونَ لَهُ
الْمَعَاذِيرَ ، وَیَنْتَحِلُونَ الْأَسْبَابَ ، وَیُقْسِمُونَ بِاللَّهِ جَهْدَ الْإِيمَانِ : فَقَبِلَ عِلَالَتِهِمْ ،
وَبَايَعَهُمْ ، وَوَكَّلَ إِلَى اللَّهِ سِرَاطَهُمْ ، ثُمَّ أَقْبَلَ كَعْبٌ يَتَعَثَّرُ فِي مَشْيِهِ ، وَيَضْطَرِبُ مِنْ
فَعْلَتِهِ : فَتَبَسَّمَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ تَبَسُّمَ الْمَغْضَبِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : مَا خَلَّفَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ
أَبْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟

فَقَالَ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي
سَأُخْرَجُ مِنْ سَخَطِهِ بَعْدَ ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا ، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي لَنْ
حَدَّثْتُكَ حَدِيثًا فِيهِ كَذِبٌ تَرْضَى بِهِ عَنِّي ، لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَسْخِطَكَ عَلَيَّ ، وَلَنْ
حَدَّثْتُكَ حَدِيثًا صَدَقَ تَجِدَ عَلَيَّ فِيهِ ، إِنِّي لَأَرْجُو عَفْوَ اللَّهِ : وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ
عَذْرٍ ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ . . . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَمَا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ ، فَفَقِمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ .

وَجَاءَ مَرَارَةَ ، وَجَاءَ هَالَالَ ، فَتَحَدَّثَا بِمِثْلِ مَا تَحَدَّثَ بِهِ كَعْبٌ : وَتَرَكَهُمَا رَسُولُ
اللَّهِ لِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ ، كَمَا تَرَكَ كَعْبًا لِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ .

وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كَلَامِهِمْ ، أَوْ الْإِخْتِلَافِ بِهِمْ ، حَتَّى
يَفْضَلَ اللَّهُ فِي أَمْرِهِمْ : يَعْذِبُهُمْ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ .

وَمَرَّتْ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَيَّامٌ تَقْسَمُ فِيهَا الْهَمُومُ ، وَجَالُوا فِي أَوْدِيَةِ الْغُمُومِ ،
وَلَقُوا مِنْ جَفْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ جَهْدًا وَبَلَاءً ، وَمِنْ عَزَلَةِ أَصْحَابِهِ عَنَّا وَعَنَاءً .

أَمَّا مَرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ ، وَهَالَالَ بْنُ مَرَّةٍ ، فَإِنَّهُمَا قَدْ اسْتَبَاكَ إِلَى بَيْتِهِمَا يَبْكِيَانِ

وينتجبان ، انتظاراً لقضاء الله . وأما كعب فقد كان شاباً يخرج إلى الأسواق ويضطرب فيما يضطرب فيه الناس ، ويشهد الصلاة ، ويغشى الطرقات ! ولكن لا يكلمه أحد ، ولا ينظر إليه أحد ، ويقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن ينفلت من الصلاة فيلقى عليه السلام ولا يدرى من اضطرابه : أتوجه إليه أم أعرض ، رد عليه أم سكت ؟

وضاق به الأمر ، واشتدت به جفوة الناس : فتوجه إلى أبي قتادة ^(١) - وكان ابن عمه وأحب الناس إليه - وتسور عليه جدار حائطه ^(٢) ، وسلم عليه ؛ فلم يرد السلام ، فقال : يا أبا قتادة : أنشدك الله ، هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعاد مرة ثانية ، فقال أبو قتادة : الله ورسوله أعلم ! ففاضت عيناه وتولى . . .

ومضى يوماً في الطريق زائع البصر ، موزع الفكر ، وإذا بنى من أنباط أهل الشام ، ممن قدم بالطعام يبيعه في المدينة ، ويقول : أين كعب ؟ فطفق الناس يشيرون إليه ، فدفع إليه كتاباً من ملك غسان ، ملفوفاً في حرير ، ففتحه ؛ فإذا فيه : ﴿ أما بعد فقد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة فالحق بنا نواسك . . . ﴾ .

ولما قرأ هذه الرسالة بكى وأعول : أن كان كعب قد هان أمره ، وانحط قدره ، وأصبح ممن يُطعم في دينه ، ويرجى تنصّره ! ثم أخذ الرسالة ، ودفع بها إلى السّنور . . .

(١) أبو قتادة : هو الحارث بن ربيعة .

(٢) الحائط هنا البستان .

وانقضت أربعون يوماً لم يتلقَّ الرسول في هؤلاء شيئاً من الوحي ، ولم يستطع أن يفصل من أمرهم بشيء ؛ فأرسل إليهم أن اعتزلوا أهلهم ، حتى يقضى الله بالأمر فيكم . . .

أما هلال فقد دلفت امرأته إلى الرسول ؛ فقالت : يا رسول الله ؛ إن هلالاً شيخ ضائع ، ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربك . قالت : إنه والله ما به من حركة إلى شيء ، وإنه ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى اليوم .

وأما كعب فإنه لما جاءه رسول النبي يأمره أن يعتزل امرأته قال : أطلتها أم ماذا أفعل ؟ قال : بل اعتزلها ولا تقر بها ، فقال له بعض أهله : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك كما أذن لامرأة هلال أن تخدمه ؟ فقال : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يُدريني ماذا يقول رسول الله وأنا رجل شاب ! ثم سرحها .

* * *

وظل أمرهم معلقاً ، والحديث معهم محظوراً ، حتى انقضت عليهم خمسون ليلة ؛ وما صلى بعدها رسول الله صلاة الصبح ، حتى أطرق برأسه وغاب بروحه عن حوله ، ثم أقبل على صحبه متمللاً الوجه منشرح الصدر ، وأعلن فيهم أن الله قد قبل توبة كعب ومرارة وهلال ؛ فاذهبوا إليهم مهنئين مبشرين .

نخف الناس إليهم مسرعين ؛ بعضهم على فرس يركض ، وبعضهم فوق جمل يصيح : . . ووافي البشير كعباً ؛ فنزع له ثوبه خلعاً ، وما كان يملك غيرهما ؛ واستعار

ثوباً ، وجرى إلى الرسول ، فألفاه جالسا وحوله الناس في المسجد ، فقال : أبشر
 بخير يومٍ مرّ عليك منذ ولدته أمك . . ثم أقبل هلال ، وأقبل مرارة ؛ فهنأهما ،
 وتلا عليهم جميعا : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ
 اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَابَ
 عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ
 الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ
 اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝

مسجد الضرار (*)

لفاً الظلام المدينة بردائه ، واشتملها بسكونه وهدأته ، وأوحش الطريق ، وسكنت الدُور ، وأسلم الناس إلى نوم عميق ، ولكن داراً ما زال أهلها في يقظة وحذر ، وهم وقلق ، اجتمع أهلها يثبون شكواهم ، وينشرون مكنون همومهم ، وقد آمنوا على الظلام من يراهم ، أو يسمع سرهم ونجواهم .

قال مُعتب بن قشير - يشكو بثه لمن دلف إليه من المنافقين ، ممن ذهب مذهبه من الكيد والأذى ، ومن رجع مرجعه من الحسرة والإخفاق ، ومن لبس قناعه من المداينة والنفاق : أى همّ ذلك الذى يَسْرِى فى أحشائي ؟ وأى نار من الغيظ تلك التى تشتعل بين جوانحي وضلوعى ؟ إبنى والله كلما لمحتُ فى طريقى هذا المكان الذى تهياً لبني عمرو بن عوف ، ودعوه مسجد قباء ؛ وزعموا أن محمداً قد وضع لهم أسامه ، وأقام قواعده ، أغضى طرفي على القذى ، وأحني ضلوعي على الأسى اكلُ من فى المدينة يهتف الآن ببني عمرو بن عوف ، ويتحدث عن مسجد قباء ؛ ما نحن وبني عمرو ! وأى قدم يفرعوننا (١) فيها ! ونحن وإياهم أبناء عمومة وأغصان تبعة ! لست أكتمكم ذات نفسي ! ، وما تحتويه لفائف صدرى ؛ إن الحسد ليُملاً أعطافى ، والغیظ ليتسعر فى نفسى : ولست أدري دواء لما أحس ، وعلاجاً لما أشعر به ، إلا أن أرى مسجدهم مقوّضاً ، ومجدهم دائراً ، ورسمهم عافياً ؛ ولكن أنى ؟ وكيف ؟ وقد قلّ العدد ، وضعف

(*) للتوبة ، آية ١٠٧ . (١) يفرعوننا : يسبقوننا .

الجند ، وعزّ النصارى ، وانقطع الرجاء فى خذلان المسلمين ١

قال ثعلبة بن حاطب - وقد استوى فى جلّسته ، واعتدل فى قعدته : إن همّك من بنى عمّك لهمّ يسير ، وخطبّ هين ؛ إنما الهمّ الذى يبعث الأحران ، ويُشِير كامنَ الأشجان ، هذا الدين الذى لا تخمدُ جذوته ، ولا تسكن حركته ، ولا ينقطع دخولُ الناس فيه ؛ أو ما رأيتهُم وقد صاح فيهم بلال صبيحةً يشقّ بها صدورهم ، ويغزو مشاعرهم ، فإذا هم جميعاً يُهرعون إلى المسجد ، ويزدلفون إلى ذلك البناء ، فيتأكد جمعهم ، وتقوى آصرتهم ؛ وتزكو المودة بينهم ، فإذا كانوا فى يوم تال ، عادوا ومعهم جديدٌ من يدخل فى دينهم ، أو ينحدر إلى عقيدتهم ؛ إن اجتماع محمد وصحبه على النحو الذى أراه كل يوم لما يزيد النفس حسرةً ، ويُذيقها أسفاً وكداً .

فقام ودبعة بن عامر ، وقال : دعكما مما تفيضان من الحسرة ، وما تبعثان من همّ دفين ؛ لقد جاءنى اليوم كتاب من أبى عامر ^(١) الراهب ، وهو من علمتم كراهيته لمحمد ، وحنقه على دينه ، وهمّته من ظهور أمره ، قال : إنه من يوم أن ترك المدينة مازال يسير ويكمن ، ويُشجد ^(٢) ويُتيم ؛ حتى انتهى بعد طول ما طوّف

(١) أبو عامر الراهب : خزرجى ، كان قد تنصّر فى الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، ولما قدم رسول الله إلى المدينة شرق بركة وبارز بالعداوة ، ولما انتصر المسلمون يوم بدر ذهب إلى مكة فاراً وألب المشركين على رسول الله حتى كان يوم أحد . وفيه امتحن المسلمون ولما رأى صبرهم وإيمانهم ذهب إلى هرقل ملك الروم .

(٢) أنجد : من النجد ؛ وهو المكان المرتفع من الأرض . وأنهم : أتى تهامة ، وهو المنخفض من الأرض .

إلى هرقل ملك الروم ، فوجده ملكا متعصبا للنصرانية ، مغیظا مخنقا مما سمعه عن أمر محمد والمسلمين ، ثم حدثه بما يقع لمحمد كل يوم من فتح ، وما ينتقل فيه من نصر إلى نصر . . . ولقد ذكر لي - فيما كتب - أنه قد استنصره فوعده النصر ، واستنفره فمناه بالنفر ، وإنه لنوشك أن يعود إلى المدينة ؛ ولكنه يلتبس منا أن نهبي له معقلا خفيا ، ومكانا تحت جناح الظلام ؛ يدبر فيه الكيد ، ويخيط نسيج المكر . . . فماذا أتم صانعون ؟ وبماذا تشيرون ... ؟

إن عندي لرأيا قد زورته^(١) فأحكمت تزويره ، وخطة دبرتها وأظنني أحسنت تدبيرها ؛ فإن شئتم سمعتموها ، وإن شئتم رددموها . فاستشرف جمعهم إليه ، وقالوا : هات ما عندك ، وأت على غاية ما في نفسك . . . قال : لقد علمتم أن محمدا قد أصبح من القوة بما لا نستطيع صدّه ، أو القيام في وجهه ، وإننا ما استطعنا أن نساكنه في المدينة إلا بفضل ما نظهره من مَلَق ، وما نرتديه من ثوب التناق ، وقد رأيتم كيف كان يلحن^(٢) لأمرنا ، وتتنبّه لغمزات عيوننا ؛ فهو ممنا أبدا على ريبة ، وهو من أمرنا دائما في شك .

والرأى عندي أن نعمد إلى مكان فسيح بنى فيه مسجدا ؛ وتوهمه مصلى ؛ ثم نقيم له من بيننا إماما ، ونذهب إلى محمد ندعوه للصلاة فيه مداهنين ؛ ونحلف له كاذبين ؛ فإذا ما استجاب إلى دعائنا ، وصدقنا في أيماننا ، فقد استطعنا أن نفرق الجماعة ، ونصدع الوحدة ؛ ثم يكون المسجد بعد ذلك في الظلام ملاذا لأبي عامر

(١) زورته : أصدده .

(٢) يلحن : يفتن .

وملجأ لما يريد ؛ وهاهو ذا ^(١) مجمع بن جارية منا ، قارئ للقرآن ، عارف بالفرائض ، ندعوه لإمامتنا ، ونوهمه حسن قصدنا ؛ فما عندكم مما رأيتم أفلحهم آمن برأيه ، وأثنى على تدبيره وحزمه ، وغدوا يضعون الأساس ، ويعتدون البناء ؛ يحدوهم الرجاء ، ويزين لهم الشيطان خوادع الآمال ، حتى استوى مسجدا قائم الجدران ، متين العماد ، واضح المعالم والحدود .

وانصرفوا إلى رسول الله ، فوجدوه متهيئا لغزو الروم . قالوا : يا رسول الله ، لقد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة ، واللييلة المطيرة والشاتية ^(٢) ، ثم لتقام فيه الصلاة ، وتؤدى شعائر الله ، وقد اخترنا له مجمع بن جارية إماما ؛ وهو من علمته حفظا للقرآن ، وعلمنا بالفرائض ، وبصرا بما في كتاب الله ؛ وقد دعوناك للصلاة فيه . فإن فعلت فقد نالنا الخير ، وحفّت بنا البركة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا على جناح سفر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله . وعاد رسول الله من غزو الروم ، حتى إذا لم يبق بينه وبين المدينة إلا يومان ، هبط عليه الروح الأمين ، مبلغا عن رب العالمين : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرِّيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ لَهُمْ لَكَذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ . أَفَمَنْ أُسِّسَ بِنْيَانُهُ عَلَى

(١) كان مجمع بن جارية إذ ذاك غلاما حدثا قد جمع القرآن ، فقدموه لإماما لهم وهو لا يعلم بشيء من أمرهم ، وقد ذكر أن عمر بن الخطاب في أيامه أراد عزله عن الإمامة وقال : أليس بإمام مسجد الضرار فأقسم له بجمع أنه ما علم شيئا من أمرهم وما ظن إلا الخير ، فصدقه عمر وأقره .
(٢) الشاتية : الباردة .

تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمَّنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ
بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً
فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١) .

فَعَرَفَ الرَّسُولَ كَيْدَهُمْ ، وَعَلِمَ مَا كَانَ وَرَاءَ مَعْسُولِ كَلَامِهِمْ ، وَمَدَّ هَوْنَ
أَمَانِهِمْ ؛ وَمَا وَصَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى بَعَثَ رَجُلَيْنِ بِإِحْرَاقِ الْمَسْجِدِ وَتَقْوِيضِهِ وَهَدْمِهِ .
وَأَصْبَحَ مُعْتَبَرٌ بِنَ قَشِيرٍ وَتَلَفَّتْ ؛ فَإِذَا الْمَسْجِدُ قَدْ تَهْدَمَ ، وَالْبِنَاءُ قَدْ تَقَوَّضَ ؛
فَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ فَضَحَ أَمْرَهُمْ ، وَأَفْشَى سِرَّهُمْ ، وَعَادَ وَصْحَبَهُ إِلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ هَمٍّ وَقَلَقٍ ،
وَحُزْنٍ وَكَمَدٍ ؛ ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ .

(١) قِيلَ : لِأَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ مَشَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ الْمُهَاجِرُونَ
حَتَّى وَقَفَ عَلَى بَابِ مَسْجِدِ قِبَاءَ ، فَإِذَا الْأَنْصَارُ جُلُوسٌ ، فَقَالَ : أَمْؤُمْنُونَ أَنْتُمْ ؟ فَسَكَتَ الْقَوْمُ ،
ثُمَّ أَعَادَهَا ، فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَأَنْتُمْ لَمْؤُمْنُونَ وَأَنَا مَعَهُمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَتَرْضَوْنَ بِالْقَهْظِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : أَتَصْبِرُونَ عَلَى الْبَلَاءِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ :
أَتَشْكُرُونَ فِي الرِّخَاءِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَوْمِنُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ .

المباهلة (*)

قال أبو الحارث أسقف نجران لغلامه : ادع لي الساعة شر حبيلا ، فما لما يهمني الآن من أمرٍ سواه . وكان شرحبيل هذا خازن أسرارهِ ، وموضع مشورته ، وأمين ما بين جوانحه ... وذهب الغلام وعاد معه شرحبيل .

قال أبو الحارث : دعوتك الساعة ، شرحبيل لأمر راغبي وأفزغني ، ما استطعت أن أخترل (١) به ، أو أستقل بالرأى فيه : جاءني اليوم كتابٌ من محمد بن عبد الله يدعوني فيه لدين يسميه الإسلام ، ثم يخترني - إن أبيت - بين الجزية أو الحرب ! ولا أكتملك أني دُهِشت مما يدعو ، وذعرت مما يتوعد ، وقلقت من مصائر الأمور ؛ ولقد حاولت أن أفصل في ذلك برأى ، أو أصيب من الحق مَقْطِعا ، فما تبينت المعالم ، ولا اتضحت لي الحدود ؛ فاقتدح لي زناد رأيك ، وأشر عليّ بما عندك

قال شرحبيل : لست في هذا يامولاي بصاحب رأى ، ولو كان أمرا من أمور الدنيا ، أو حادثا مما يجري بين الناس ، لرجوت أن آخذ فيه بنصيب ، أو أدلى برأى .. علي أنني قد علمت ما وعد الله به من النبوة في ذرية إسماعيل ، فما تؤمن أن يكون هذا هو ذاك ! ولكنني - كما حدثتك - ليس لي في النبوة رأى .

قال له أبو الحارث : تنح عني قليلا ، وسألتبس الرأى عند سواك .

ودعا إليه آخر من أهل نجران ؛ واستعان به في الرأى ؛ فما زاد على أن

(*) آل عمران ، آية ٦٠ وما بعدها .

(١) اختزل به : انفراد .

صدر عما قال شرحبيل ؛ ثم دعا إليه ثالثا ؛ فرمى عن قوس الاثنين .

ولما رآهم قد استقاموا في رأيهم على عمود واحد ، أمر بالنواقيس أن تُتدق ، والنيران أن توقد ، والمُسوح أن تعلّق في الصوامع ، إيدانا بالدعوة وإعلانا للائتمار ؛ وكذلك كانوا يفعلون حينما يغمّ عليهم الرأي ، وتستعجم الأمور .

وتسلّوا من كل مكان ، وهرعوا من كل مُصقع ، حتى إذا ما اجتمع لفيضهم وتألّف جمعهم ، قام الأسقف ، وعالئهم بكتاب محمد ، وفاوضهم فيما يفعل ؛ فأداروا قداح الرأي ، وقلّبوا وجوه الأمور ، وانتهوا إلى أن يذهب وفدٌ منهم إلى لقاء محمد ، يحاجّونه ويجادلونه ، ثم يرجعون بما يرون .

وصدر الوفد عن نجران ، يتزعمهم شرحبيل ، ولما وصلوا إلى المدينة نضّوا (١) عن أنفسهم ملابس السفر ، وتألّفوا بالخبرات ، وأردية الحرير ، ووضعوا في أصابعهم الخواتم ، وانطلقوا حيث يلقون الرسول .

ولما اطمأنوا إليه قدموا هداياهم ؛ فلم يرَ بأسا من قبولها ، وصلّوا صلاتهم فلم بزجرهم عنها ، ثم قال شرحبيل زعيمهم وصاحب كلمتهم : يا محمد ؛ لقد علمت أنا نصارى ، وليدُسرنا إن كنت نبيا أن نسمع ما تقول في عيسى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما عندى فيه شيء يؤمى هذا ، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله في عيسى .

ولما أصبح الغد نزل عليه : ﴿ إن مثيل عيسى عند الله كمثّل آدم خلّقه ﴾

(١) نضوا ملابس السفر : خلّفوها .

مِن تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .
فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا
وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعِلْ لِعَنَةِ اللَّهِ
عَلَى السَّكَذِبِينَ .

فدعاهم وأعلنهم أن قد جاء الفصل في أمر عيسى من الله ، فإن لم يُدْعِنُوا
ولم يعتقدوا فليجتمع المسلمون والمخاضون من أهل الكتاب في صعيد واحد ، رجالا
ونساء وأطفالا ، ثم يذبحوا ويستنزلوا لعنة الله على مَنْ كان كاذبا .

فقالوا : دَعْنَا نَشْتَوِرَ فِيمَا بَيْنَنَا ، ثُمَّ نَفْضِي إِلَيْكَ بِمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ رَأْيُنَا . وَلَمَّا
اجْتَمَعُوا قَالَ لَهُمْ شُرْحُبِيلُ : لَقَدْ عَلِمْتُمُونِي بَيْنَكُمْ صَادِقَ الْمُنْزَعَةِ ، بَعِيدَ مَرَادِ
الْفِكْرِ ؛ وَإِنَّ الْوَادِي إِذَا اجْتَمَعَ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلُهُ ، لَا يَرِدُونَ إِلَّا عَنْ عَلَمِي ،
وَلَا يُصْطَرُونَ إِلَّا عَنْ رَأْيِي . إِنِّي وَاللَّهِ أَرَى أَمْرًا ثَقِيلًا ؛ إِنْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ
مَلِكًا فَإِنَّا أَذْنَى الْعَرَبِ مِنْهُ جَوَارًا ، وَأَقْرَبُ مَنَازِلَ ، وَلَا نَأْمَنُ أَنْ نُصَابَ مِنْهُ
بِحَاجَّةٍ ، وَإِنْ كَانَ نَبِيًّا مَرْسَلًا فَلَا عَنَاءَ (١) ، لَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَنَّا
شَعْرٌ وَلَا ظَفَرٌ إِلَّا هَلَكَ . . .

قالوا له : فما الرأي يا أبا مريم ؟

قال : رأيي أن نحكِّمَه ، فإنني أرى رجلا لا يحكم شططا أبدا ، قالوا له : أنت
وذاك ، ودونك وما تريد .

وذهب شُرْحُبِيلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَ : إِنِّي رَأَيْتُ خَيْرًا مِنْ مَلَاعِنِكَ .
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : حَكَمُكَ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ .
وَلَيْلَتِكَ إِلَى الصَّبَاحِ ، فَمَا حَكَمْتَ فِينَا فَهُوَ جَائِزٌ . فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

(١) الملاءمة : أن يلعب بعض بعضا .

عليه وسلم : لعل وراءك أحدا يثرب (١) عليك . فقال شرحبيل : سئل أصحابي ، فإن الوادي ما يرد وما يصدر إلا عن رأي .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهبوا على أن تعودوا في الغد ، وعادوا ؛ فعرض عليهم الإسلام فامتنعوا . وعرض عليهم الحرب فقالوا : ما لنا طاقة . وعرض عليهم الجزية فقالوا : ما تريد ؟ فشرط عليهم رسول الله ألفي حلة : ألف تؤدى في رجب ، وألف تؤدى في صفر ، على أن يَسْطَلَّ كل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لهم ، ولهم بعد ذلك جوار الله ورسوله ؛ لا يغير أسقف من سقيّناه ، ولا راهب من رهبانيته ؛ ولا كاهن من كهنته ، ولا يغيّر حق من حقوقهم ، ولا يُتَحَيَّفُ شيء من سلطانهم ؛ غير مبتلين بظلم ولا ظالم ، ما أصاحوا ونصحوا .

فأروه حكما عدلا ، وقولا فصلا ، ورجعوا إلى قومهم يحمدون محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم .

المجادلة (*)

كانت خولة بنت ثعلب الخزرجية قد تزوجت بأوس بن الصامت ، وهي في مقتبل عمرها . وريعان شبابها ، وكانت صبيحة الوجه ، تحمئة القوام . وعاشا معا عمرا طويلا ، نعيمهما فيه بحياة سعيدة ، وعيشة رافعة ^(١) ؛ ثم تقدمت بهما السنون ؛ ولكن خولة ما زالت تحتفظ بشيء من فتنتها وجهالها .

وفي يوم ما قامت تصلي ، ورآها زوجها تقف في اعتدال ، وتركع في خشوع ، وتسجد في أناة ورفق ، فتأقت نفسه إليها ، فلما سلمت داعبها في خفة وطيش ، فنضرت فاستحوذت عليه الدهشة ، وتمسكه الغضب ، وثارت ثأثرته ، وحرمتها على نفسه كما حرمت عليه أمه ، فقال لها : أنت على كظهر أمي .

ولما سألت زوجها عما يعنيه بقولته ، قال لها : ما أظنك إلا حرمت على ا وكان الظهار من أشد طلاق الجاهلية ، لأنه في التحريم أوكد ، وفي قطع الصلة أبين ؛ فسقط في يدها ، وحارت في أمرها ، وشق عليها أن تبين ^(٢) منه وهو أبو ولدها ، وحبيب نفسها ، ومؤنس وحشتها ، وزوجها الذي سكن إليها ، وسكنت إليه أعواما طويلا .

فذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تبثه شجوها ، وتفضي إليه بما أهمتها ؛ عليها تجد عنده مخرجا من مأزقها ، وتقدمت إليه تشكو حالها قائلة له : إن أوسا قد تزوجني وأنا شابة مرغوب في ، فبعد أن كبرت سني وكثر أولادي ،

(*) سورة المجادلة . (١) عيشة رافعة : واسعة . (٢) تبين : تفصل .

جعلاني كأمه ، وإن لي منه صديقةً صغاراً ، إن ضمنتهم إليّ ضاعوا ، وإن ضمنتهم إليّ جاعوا . ثم توّسّلت إليّ أن يُصلح ما فسد من أمرها ، ويقوم ما تأوّد من حالها .

وما كان للنبي أن يقضى بأمره ، أو ينطق عن الهوى ؛ فهو رسول الله ؛ موثله الوحي ، ومرجعه السماء ، وهو لم يتلقّ في الأمر وحياً ، ولم يعرف لهذا السؤال جواباً ، لذلك قال لها : ما عندي في أمرك شيء .

فازدادت حسرتُها ، واشتدّ حزنُها ، وقالت : يا رسول الله ؛ ما ذكر طلاقاً ، وإنما هو أبو ولدي ، وأحب الناس إليّ ، ترجو بذلك أن تلبين قناته لتضرّعاتها ، وتأخذ الرحمة بأولادها .

إن النبي قد علم حقيقة حالها ، ووقف على دخيلة أمرها ، ولكن ماذا يفعل ، وهو لم يتلقّ بعدُ وحياً في مثل شأنها ! وهو الفَيصَل^(٢) إذا اختلط الأمر ، وادلهم الخطب ، وأظلم الطريق ! لذلك أعاد عليها جوابه قائلاً لها : ما عندي في أمرك شيء .

فالتجأت إلى من تسعُ رحمته كل شيء ، واتجهت نحو مرسل الوحي ، ومبدع السماء والأرض ، ترجوه أن يزيل غمتها ، ويفرج كربتها ، وقالت : أشكو إلى الله فاقني ووَجدي^(٣) .

طال بها الوقوف ، وأكثرت من التضرع ، وكلما قال لها النبي : ما عندي في أمرك شيء ، جأرت إلى الله بالدعاء ، وهتفت شاكيةً إليه حالها ، ففتحت لدعائها أبواب السماء وسمع الله شكاتها .

(١) تأوّد : نعوج . (٢) الفيصل : الحاكم . (٣) وجدي : حزني .

فبينما هي في حيرتها واضطرابها - ترفع وجهها إلى السماء مرة ، وتنفض طرفها نحو الرسول أخرى - عشيّ النبي ما كان يغشاه حين نزول الوحي ، ثم نطق لسانه بالذكر الحكيم ، وهناك أخبرها بأن الله قد سمع محاورتها ، واستجاب لدعائها ، وأنه ليس على المظاهر بعد الآن إذا أراد التحلة من أيمانها إلا أن يعتق رقبة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا .

قزت عينها ، وعاودها سكونها ، وانفجرت أسارير وجهها ؛ فقد حقق الله رجاءها ، وأجاب سؤالها ، فصلح أمرها ، ورأى صدعها ، وها هي ذى سترجع إلى عشها ، فتطعم فراخها ، وتدبر شؤون بيتها ، وتسكن إلى زوجها ، وتصل سعادتها ، وتعود سيرتها الأولى .

أرسل النبي إلى أوُس ، فلما حضر إليه ، قال له : ما حالك على ما صنعت ؟ قال : إن الشيطان لعب بعقلي ، وأضاع صوابي ، فركبت متن الشيطان ، وأبعدت في الغي ، فهل من وسيلة أسترجع بها شريكة حياتي ومُنشئة نفسي ؟

قال النبي : نعم ، وقرأ عليه قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَلَئِنْهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ . وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ، ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإطعام ستين مسكينا ،

ذَٰلِكَ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢٢﴾ .

ثم قال له النبي : هل تستطيع عتق رقبة ؟ فقال : لا والله ، فقال : هل تستطيع الصوم ؟ فقال : لا والله ، لولا أني آكل في اليوم مرة أو مرتين لـسـكـلـ بصرى ، ولظننت أني أموت . فقال له : هل تستطيع أن تطعم ستين مسكينا ؟ فقال : لا ، إلا أن تعينني منك بصدقة .

فقد النبي إليه يد المساعدة حتى استطاع أن يطعم ستين مسكينا ، وبذلك صارت زوجه حلالا له ، وجعل الله للمسلمين وسيلة للتحلل من هذه العادة الجاهلية ؛ وهكذا سار ضوء الإسلام في تلك الأرجاء المظلمة ، ينير جوانبها ، ويدد سحب الضلال في أنحائها ، ويحسن ما استهجن من أخلاق أهلها ، فظهرت مبادئه أرجاسهم ، وقامت على أسسه المتينة صروح حياتهم ، وضرب لهم مثلا واضحا في يسر الإسلام وسماحته ، ورفع الحرج والمشقة ، وتيسير الأحكام ، فجعلهم بذلك مثلا عليا ، وأسوة تحتذى ، إن الله بالناس لرءوفٌ رحيم .

التحريم (*)

التقت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم محاط العظمة ، واشتبكت لديه وشائج^(١) القربى من الله ، وألحظوى فى الدنيا والآخرة ، وتطلعت إليه أنظار الخليفة أجمعين ، يتنسمون أريجاً من شذاه ، ويرمقون زهرة من جناه ؛ فهو ملء السمع والبصر ، ومحط العين والفؤاد .

وكان من أشد الناس التصاقاً بالرسول ، وتزاحماً على حوضه ، وتنافساً إلى حماه أمهات المؤمنين ، وليس بدعاً أن تسلك إلى قلوب هؤلاء النساء الطاهرات عقارب الغيرة حُباً فيه ، وأثرةً عليه ، فتدب ديباً خفيفاً ، وتسرى إلى الفؤاد ، فتورى فيه ناراً لا ينطفى لها إلا بالقرب من نبي الله الكريم : ألسن من النساء اللاتي غلبتهن قوة العاطفة ، وتمسكتنهن دوافع الغيرة والأثرة فى كل عصر وزمان ؟ أو ليست قلوبهن تصبو ، ونفوسهن تحنو ، وآمالهن تتدافع ، ورجاؤهن يفيض لخير الناس أجمعين ؟

كان النبي الكريم يفيض قلبه بعاطفة الأبوة ، وتحنو نفسه إلى بنته زينب ، فإذا رآها أنس بها ، واطمأن إليها ، وانشرح صدره ؛ لأنها ثمرة نفسه وحبة قلبه ، حتى إذا أفل نجمها ، فذهبت إلى جوار ربها ، استوحش إليها ، وامتدت آماله إلى الولد ؛ ليسع عن قلبه انقباض الوحدة وأثر الفاجعة .

وما زال الرسول الكريم فى وحشته وانقباضه ، يدفعه شوق أن يكتحل

(*) سورة التحريم .

(١) الوشائج : جمع وشيجة ، وهى الصلة والرابطة .

بِسَنَّا نور ابن كريم ، وهو في حنينه ووحشته تدب في قلبه حسرة وأسى ؛ لأنه
شارف الستين من عمره ، وأوشك مصباح حياته أن ينطفئ^(١) ، فما هو ببالغ أمل
يشيمه كل والد ، ولا يتنفس بروح يتنسمه كل أب يفيض قلبه بالعطف والحنان .

وحملت إلى النبي الكريم من المقوقس وإلى مصر هدايا ، ومن بينها مارية
القطبية ، فقبلها النبي ، وأنزلها منزلة السراى ، ولم يهبها ما وهب لأزواجه ؛ فلم
يخصّص لها منزلاً بجوار المسجد كغيرها من أمهات المؤمنين ، بل أنزلها بالسالية من
ضواحي المدينة ، في منزل يحيط به الكرم والزرع والتخيل .

وظل الرسول العظيم يختلف إليها ، ولها منه ما يحل للرجل فيمن ملكت يمينه .
حتى إذ حملت مارية ؛ وولدت إبراهيم ، تفجرت ينابيع البشر والسرور في
قلب أبيه ، وأنسدت نفس الوالد عطفاً ورحمة وحناناً بولده الأغتر الميمون ، وأرتفعت
مكانة مارية ؛ فصارت إلى مصاف الزوجات المقربات ، وازدادت بذلك حظوة
عنده ومكانة ملأت قلبها بالمسرة ، وانقلبت إلى ربها بالشكران والتسبيح .

وكان النبي حفيظاً بولده ، قرير العين به ، رضى النفس له ، مطمئن الفؤاد
لمولده ؛ فصار يختلف إلى منزل مارية ، يطالع كل يوم في أفقه مشرق هذا الغلام ،
وينعم بابتسامته البريئة الطاهرة ، ويفيض عليه فيضاً كثيراً من حنان الأبوة ،
وطهارة النبوة^(٢) ، ويغمره بهذا الفيض الإلهي العميم .

وقد حمله يوماً بين ذراعيه إلى عائشة ، فنفست^(١) عليه ، وحجبتها الغيرة أن
تهش وتبش للغلام الكريم .

(١) نفست : ضنت عليه .

كذلك كانت الأثرة والغيرة تدب في قلوب نساء النبي ، كلما رأين منه إقبالا على مارية ، وحبا وتعلقا بولدها .

وكان الرسول الكريم يخص نساءه بمكانة محترمة ، ويُبزلهن منزلا عزيزا ، وينفحنهن أبدا بعطف وإجلال وتكريم على غير عادة العرب في الجاهلية ، فلما رأينه يفيض عليهن من عظمته وكرمه ، جنحت ^(١) نفوسهن ، فتغاليين في الاستمتاع بحريتهن ، واتخذن من بعض الحوادث مساسكا إلى إغضاب الرسول .

كان النبي في بيت حفصة ، فاستأذنته أن تذهب إلى أبيها فأذن لها ؛ وفي غضون غيبتهما جاءت مارية ، فأقامت مع النبي زمنا ؛ فلما حضرت حفصة ، رأت مارية في بيتها ، فانتظرت خروجها ، وقلبها يشتعل وجدا وغيرة ، ولما خرجت مارية دخلت حفصة على النبي ، فقالت : لقد رأيت من كان عندك ، والله لقد سببتني ، وما كنت تصنعها لولا هواني عليك .

وأدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الغيرة قد تدفع حفصة إلى إذاعة ما رأت ، والتحدث بها إلى غيرها من الأزواج ، وفي ذلك مافيه من إثارة لغيرتهن وتحريك لحفيظتهن ، فأراد إرضائها ؛ فخلف لها أن مارية حرام عليه إذا هي لم تذكر مما رأت شيئا . فوعده أن تكف عن إذاعة ما كان .

لكن الطبيعة النسوية كانت أقوى جماحا ، إذ تحركت الغيرة تأكل صدرها ، فلم تطق كتمان ما وعدت بكتمانه ، فأسرته إلى عائشة ، وذاع الأمر بين نساء النبي كلهن .

فأكثرن من الحديث في شأنه والجدال في أمره ، والنبي الكريم ليس خليما

(١) جنحت : مالت .

لهذا النوع من اللجاج والغشيرة ، فأراد أن يلقي عليهن درساً ليكون عبرة
لهن وتذكرة .

عزم النبي أن ينقطع عن نسائه شهراً كاملاً ، تأديباً وردعاً لهن عما تماردين فيه
من ائتمار به ، وليخفف فيهن عوامل تلك الغيرة الحمقاء .

فأدى به عزمه أن ذهب إلى خزانة له ، يرقى إليها على جذع من نخل ، وليس
بها من فراش إلا حصير جاف خشن ، وحسبُه هناك لقيات من شعير يُقَمَّر
صلبه ، ثم هو يُجلس غلامه رباحاً على سُدتها ، دفعاً للجاجة الزائرين .

والرسول صلى الله عليه وسلم في خلوته يتجه بتفكيره إلى ربه ، ويدبر أمر
المسلمين في الجزيرة ، وفيما وراء الجزيرة ، والمسلمون في همٍّ مقيم مقعد ، وشغلهم
الشغل انقطاعُ نبيهم في خلوته ، حتى لقد شاع بينهم أنه طلق حفصة بنت عمر ،
بعد أن كان من إفشائها ما وعدت بكتمانها ، أو أنه مطلق نساءه جميعاً .

كانوا يهمسون بهذا والحسرة تملأ قلوبهم ، واللهم يقض مضاجعهم ، وقد
أقام الناس بالمسجد يعبثون بالحصي ، ويحيلون العيون زائغة ، لا تستقر على حال
من القلق ؛ وبينما هم كذلك إذ ينتفض عمر قائماً من بينهم ، فيقصد إلى مقام النبي ،
ويستأذن غلامه رباحاً ، فإذا دخل الغلام إلى سيده رجع إلى عمر ، ووقف فلم
يجب ، فيرفع ابن الخطاب صوته بالاستئذان والإلحاح ، فيؤذن له ، فإذا هو بين
يدي الرسول ؛ ثم يجيل بصره في الحجرة ويبكي ، والنبي يقول له : ما يبكيك يا ابن
الخطاب ؟ فيذكر للنبي سبب بكائه ؛ فيرده النبي إلى الصواب بقول رفيق كريم .

ثم قال عمر : يا رسول الله ؛ ما يشقُّ عليك من أمر النساء ؟ إن كنت طلقتهن
فإن الله معك وملائكته وجبريل وإسماعيل ، وعمر وأبا بكر والمؤمنين أجمعين ؛

ثم يُقبل عمر على النبي فيحدثه بحديث يسرى عن نفسه ويضحكه .

فلما آنس عمر منه ذلك ذكر له خبر المسلمين بالمسجد ، وكلامهم وآلامهم ، ورجا النبي أن يُفضى إليه بالقول الفصل في أمر نسائه ، فذكر له الرسول أنه لم يطلقهن ، فنزل عمر إلى المسجد ، ونادى بأعلى صوته : إن النبي لم يطلق نسائه ؛ فاستبشر الناس ، وسرت إلى قلوبهم الطمأنينة ، واهتزوا هزّة الفرح والسرور ، وإذا النبي مقبل على نسائه تائبات بين يديه عابدات ، حتى نزل الروح الأمين يحمل رسالة الله الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ، فَلَمَّا نَبَأَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ . إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ . عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَائِمَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ .

(*)

زينب بنت جحش

هذا زيد بن حارثة ، وقد وهبته يا محمد عبدا لك مطيعا ، ووفيا أمينا ؛ فشكر
النبي الكريم زوجته خديجة ، وقبيل منها هديتها مسرورا ، وعاش زيد رضيًا بصحبة
رسول الله ، موفقا في خدمته .

وبعد حين حضر إلى مكة وفد من بني حارثة ، يطلبون شراء ابنهم زيد
وفديته لتحريره من رقه ، ففاض سخاء النبي العربي ، وقال لهم : إن اختاركم فخذوه
من غير ثمن . ولما جرى بزيد أنعم الله عليه ، فاختار الرق مع النبي على الحرية بين
قومه ، وصار بعد ذلك يدعى زيد بن محمد تعظيما له وتكريما .

بلغ الفتى أشده واستوى ، فرغب سيده أن يزوجه كريمة من كرائم العرب ،
لتكون له في الحياة سندًا وظهيرا .

وبالغ النبي في تكريم زيد ، فیتقدم إلى زينب بنت جحش ابنة عمته أميمة بنت
عبدالمطلب ، فيخطبها لمولاه ، مكافأة له ، ودليلا على رضاه .

ولكن عبدالله بن جحش يابى ويأنف أن يزوج زيدا ، لأنه من غير الشُّرَحَاء ؛
وتشاركه أخته زينب إباءه وأنفته ، ضنًا بنسبها العربي الكريم .

ولكن : ﴿ وما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مَوَدَّةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ
لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ ؛ فلا يصح لرجل ولا امرأة اختيار أمر من الأمور
يخالف ما قضاه الله ، ثم بلغه الرسول .

إذن فليرض عبد الله ، ولتخضع زينب لقضاء الله ورسوله ، وليسعدا بزواج

يخلد الله شأنه في كتابه الكريم .

عاش زيد وزينب معيشة زوجين هائنين بما وفقهما الله الكريم ، وأرخصى لهما من جبال السعادة ، ورفقه لهما في العيش ، ومد من أسباب الرخاء : وبعد حين . . . أراد الله أن تقع الواقعة ، سنًا للشرائع ، وإيضاحاً لأموال الدين ، وتبياناً للعالمين ، وتصحيحاً لأوهام الناس .

وهل يقدم على مخالفة مألوف العرب ، وتحطيم أغلالهم ، وتبذ خرافاتهم إلا رجل ملك الإيمان نفسه ، وملاً الحق قلبه ، وخالطت الجرأة منه العصب والدم ، والمسامح والأطراف ، وتغلغلت الشجاعة الخلقية فوصلت منه إلى اللب والشغاف ؟ وهل يسمو بشر إلى تلك المنزلة الكريمة سمو النبي الكريم ؟

وبعد حين من الدهر ، وهت الرابطة بين زيد وزوجه ، وفترت تلك العلاقة التي تجمع بينهما زوجين مؤلفين ، فيتقدم زيد إلى رسول الله شاكياً ، يستشير في طلاق زينب ، فيتجلى عطف الرسول ونبله قائلاً : يا زيد ؛ هذه زينب يسر الله لك زواجها بعد عسر ، وسهله بعد امتناع ، وعسى أن يصلح حالها لك بعد ؛ فأمسكها عليك ، واتفق الله لئلا تصمها بأنها لا تحسن عشرة الأزواج ، وثب إلى رشك ، فلا تنقض أمراً برمته ، ولم يتم إلا بعد أن نزل فيه قرآن من المدبر الحكيم .

يقول الرسول العظيم قوله هذا ، ونفسه تفيض حناناً وعطفاً وإشفاقاً ، لما كان قد سبق في علم الله : من أن زيداً يطلق زينب ثم تزوج النبي من بعده .

واستمر الرسول متضرعاً بينه وبين نفسه إلى الله ، مبهلاً إلى رحمته ، عسى أن يمحوا الله ما أثبت ، فيصلح الحال بين المرء وزوجه ، وينقض أمراً سبق أن أبرمه

استكمالاً لأسباب التشريع .

فاضت نفسُ الرسول بالنصح لزيد ، وبالضراعة إلى الله ؛ أملاً أن ينقض الله ما أبرم ، وأن يمهو ما أثبت ، ولكن أبي الله إلا أن يتم قضاؤه ، فأوحى الله إلى رسوله : ﴿ وَتَخْشَى فِي نَفْسِكَ مَا لِلَّهِ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ .

وكان النبي يخفي قضاء الله ، عسى أن تنفع فيه شفاعتُهُ ، ويخشى الناس أن يضلوا بسبب اعتراضهم على أمر لم يألوه ، وتشريع ما تعودوه ، ولكن من يهد الله فلا مضيل له ومن يضل الله فماله من هاد ، والله أحق بالخشية والرعاية من سواه ، لأن مألوف الناس وعاداتهم ليست أصلاً لتشريع ، ولا أساساً لقانون ، والنبي أول من يهدم العقائد الفاسدة ، ويقوض الخرافات السائدة ، فيقيم بعدها صرحاً من الحق ، ومناراً للشرعية السمحة .

انقضت عدة زينب بعد طلاقها من زيد ، ثم هيا الله زواجهما من النبي الكريم ، وكانت زينب نخبوراً ، تقيه دلالة ، وتمتلي عجباً ، فتقول لسائر نساء النبي : إن الله تولى تزويجي ، أما أنتن فتولى تزويجكن أولياؤكن .

ولقد كانت هذه الحادثة أمراً خرق مألوف العرب ، وغير وجهة أحوالهم ومعتقداتهم ، فقد ادعوا للدعى " ما للابن من الحقوق ؛ من إرث ونسب ، وقد تسلط ذلك الاعتقاد على نفوسهم ، ورسخ في أذهانهم ، وعسر عليهم أن يخلعوا عنهم ربقته ، أو أن يزيلوا عن أفكارهم وطأته ، فتقدم النبي الكريم بآية واضحة ، وحيجة قاطعة ، فقام بما قام مع قيام هذه العادة ، وتمكنها من الناس ، ومن أولى بذلك غير رسول الشريعة الحنيفية ، وهو الذي نادى بجرمة ربا الجاهلية ، وأول ربا وضعه ربا عمه العباس ، حتى يرى الناس صنيعه بأقرب الناس إليه ،

فتنقطع وساوس الشيطان من صدورهم .

ولقد كانت قصة زيد وزينب مثارا لأقوال وشبهات ، جرفت كثيرا من الناس ، عن زاغ بهم الباطل ، وران على قلوبهم سلك الضلال ؛ فنسبوا إلى النبي أنه اشتبه زينب بعد زواجها من زيد ، وما كان محمد ليكن لميوله ، ويمهد لهواه بما يخالف أمر ربه ، تسامى قيذر الرسول وتعالى علوا كبيرا ، أما كانت زينب أمامه بـكراً تحت سمعه وبصره وهو في سن الأربعين : زمن اكتمال الفتوة والشباب ! أفبعد ثلاث عشرة سنة ، وبعد أن زالت عنها نضرة البكارة . وهدأت فيه ثورة الشباب ، ينظر إليها نظر التشهي ! ألم يكن له من شواغل الدين والفتح شاغل عن أمور النساء ، وهو هو ابن السادة الكرام الموصوفين !

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

وهو النبي الكريم الذي نهاه ربه أن يمد عينيه إلى ما متع الله به الناس من زهرة الحياة الدنيا .

بل نرجع إلى الفطرة الأولى للرجل العربي ، الذي لم تعصمه النبوة ؛ ولم تزينه رجاحة العقل ، وسمو المعرفة ، وصدق العزيمة ، فراه يفض الطرف عن جارته ، فهذا عنتره الجاهلي يقول :

وأغض طرفي إن بدت لي جارتى حتى يُوارى جارتى مأواها .

بل هو هو الذي يقول الله فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَبِغِلٌ مُّخَلِّقٌ عَظِيمٌ ﴾ .